

بسم الله الرحمن الرحيم
 حَسْبُكَ وَنُصْرَتُكَ
 اِنْ شَاءَ اللهُ
 حَسْبُكَ وَنُصْرَتُكَ
 اِنْ شَاءَ اللهُ
 حَسْبُكَ وَنُصْرَتُكَ
 اِنْ شَاءَ اللهُ

ترجمه
الفكر والسياسة
الدكتور كمال السامح
الدكتور نقولا زبيدة
عبد توفيق جبريل
عبد الحليم

بامصار
الكتور نقولا زيادة

دارالاندلس - بیروت

دراسات اسلامية

نشر بالاشتراك مع
مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر
بيروت - نيويورك

١٩٦٠

گراسیات اسلمیہ

مقدمہ المیشترین
جسوس ریسنر
ارشیدالہ ر لویس
چرارد زانفند
جون ل. لامونت
امیریکو کامنتر
ولنر فٹنل
جون س. ببادو
ف. س. ک. نورشریٹ
ولنر کانتول سمیٹ

ترجمہ
الیکٹورانیش فریجس
الیکٹور کال الیسانجٹ
الیکٹور نفولانسیادہ
ہند توفیق جیسٹ
عمود الحق

باشراف
الیکٹور نفولانسیادہ



هذه الترجمة مخصصة بها وقد قامت
مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر
بشراء حق الترجمة من اصحاب هذا الحق

This anthology is composed of authorized translations of selected writings by Americans on Islam, as follows:

« The Rise of Islam and the Arab Empire », from **THE ARABIA OF IBN SAUD** by Roy Lebkicher, George Rentz and Max Steineke. Copyright 1952 by the Arabian American Oil Company. Published by the Russel F. Moore Company, Inc., New York.

« The Islamic Imperium », from **NAVAL POWER AND TRADE IN THE MEDITERRANEAN**, A.D. 500-1100, by Archibald R. Lewis. Copyright 1951 by Princeton University Press.

« Was the Futuwa an Oriental Form of Chivalry? » by Gerard Salinger, from **PROCEEDINGS OF THE AMERICAN PHILOSOPHICAL SOCIETY**, October 19, 1950. Published by the American Philosophical Society, Philadelphia, Pa.

« Crusade and Jihad » by John L. Lamonte, from **THE ARAB HERITAGE** edited by Nabih Faris. Copyright 1944 by Princeton University Press.

« Islam and the Spanish Form of Life », from **THE STRUCTURE OF SPANISH HISTORY** by Americo Castro (translated by Edmund L. King). Copyright 1954 by Princeton University Press.

« Ibn Khaldun's Activities in Mamluk Egypt (1382-1406) » by Walter J. Fischel, from **SEMITIC AND ORIENTAL STUDIES**. Published by the University of California Press, Berkeley, Calif.

« Evolution in Religion » by John S. Badeau, from **EVOLUTION IN THE MIDDLE EAST: REFORM, REVOLT AND CHANGE**, edited by Sydney Nettleton Fisher. Copyright 1953 by the Middle East Institute.

« The Resurgence of Islam » from **THE TAMING OF THE NATIONS** by F.S.C. Northrop. Copyright, 1952, by F.S.C. Northrop. Published by The Macmillan Company, New York.

« Islam in Recent History », Chapter 2 of **ISLAM IN MODERN HISTORY** by Wilfred Cantwell Smith. Copyright 1957, by Wilfred Cantwell Smith. Published by Princeton University Press, Princeton, N.J.

المسرحون في هذا الكتاب

الكتاب : كاتبو هذه الدراسات من كبار المستشرقين الاميركيين .
وقد اشتهروا باهتمامهم بالدراسات الاسلامية . فجورج رينتز يحمل
شهادة الدكتوراه من جامعة كلفورنيا وقد كان لمدة طويلة مدير قسم
البحوث والترجمة في شركة الزيت العربية الاميركية . وارشيبالدر . لويس
متخصص بتاريخ العصور الوسطى وهو يدرس دائرة التاريخ بجامعة تكساس
منذ عام ١٩٥٦ . وجيرارد زالنغر من كبار المستشرقين الاميركيين وقد اهتم
بمقارنة النظم الاجتماعية الاوروبية بما يقابلها عند المسلمين ، ومقاله عن
الفتوة بعد من خير ما كتبه . وجون ل. لامونت درّس في عدد من الجامعات
كان آخرها جامعة بنسلفانيا حيث ظل يعمل لحين وفاته عام ١٩٤٩ .
واميريكو كاسترو حصل على الدكتوراه من مدريد ودرّس الادب الاسباني
في برلين وبواتيه والسوربون ومدريد وجامعات اميركية كثيرة منها برنستون .
وولتر فشل تلقى علومه في المانيا وهو الآن استاذ اللغات والآداب السامية في
جامعة كلفورنيا (بركلي) . وجون س. بادو تلقى علومه في جامعة ريجرز
وعمل في الشرق الاوسط مدة طويلة وخاصة في العراق ، وكان عميداً
لكلية الآداب والعلوم في الجامعة الاميركية في القاهرة ثم رئيساً للجامعة
المذكورة ثم تولى رئاسة مؤسسة الشرق الادنى ورئاسة جمعية كليات الشرق
الادنى في الولايات المتحدة . وف. س. ك. نورثروب تلقى علومه في جامعتي
هارفارد ويال ، وهو الآن يشغل كرسي سترلنغ للفلسفة والقانون في جامعة
يال حيث يعمل بالتدريس منذ عام ١٩٢٣ . وولفرد كانتول سميث حصل

على الدكتوراه من جامعة برنستون وعمل في لاهور بين ١٩٤٠-١٩٤٩ ،
وهو منذ عام ١٩٥١ يتولى ادارة معهد الدراسات الاسلامية في جامعة
مالك غيل في كندا .

المترجمون : وقد قام بترجمة هذه الدراسات نخبة من المترجمين العرب .
الدكتور انيس فريجة : استاذ اللغات السامية في الجامعة الاميركية في بيروت .
له مؤلفات عديدة منها : نحو عربية ميسرة . اسماء القرى والمدن اللبنانية
وتفسير معانيها . الامثال اللبنانية العامة (في مجلدين) .

الدكتور كمال اليازجي : الاستاذ المشارك للادب العربي في الجامعة الاميركية
في بيروت . من مؤلفاته : معالم الفكر العربي . النصوص السائغة (تحرير وشرح) .
الاستاذ محمد توفيق حسين : عمل استاذاً مساعداً للتاريخ العربي في الجامعة
الاميركية في بيروت ، وهو الآن يشغل المنصب ذاته في جامعة بغداد . من
مؤلفاته : هذا العالم العربي (بالاشتراك) . نهاية الاقطاع في العراق .

الاستاذ محمود الحوت : شاعر فلسطيني معروف . عمل مدرساً للغة العربية
بكليات بغداد وبجامعة تكساس وترجم عدداً من الكتب . من مؤلفاته : ملاحم
عربية (شعر) .

الدكتور نقولا زيادة : استاذ التاريخ العربي الحديث في الجامعة الاميركية
في بيروت . من مؤلفاته : رواد الشرق العربي في العصور الوسطى . الرحالة
العرب . ليبيا من الاحتلال الايطالي الى الاستقلال . السنوسية (بالانجليزية)
سورية في زمن المحاليلك (بالانجليزية) .

تصدير

اوحى بالقرآن اول ما اوحى به في مكة المكرمة ، واكمل الاسلام ديناً في المدينة المنورة ، وقام العرب المسلمون بعد وفاة الرسول الكريم بحركة فتح قوية امتدت « قرناً وبعض القرن بعد وفاة النبي ، وكانت متعددة النواحي متنوعة النتائج .. فقد كانت فتحاً عسكرياً امتد الى الهند والصين شرقاً ، وبحر الظلمات غرباً . وكانت فتحاً عنصرياً بمعنى ان الجنس العربي تغلب على الاجناس الاخرى وتمثلها في بعض الاقطار دون الاخرى . وكلما قرب القطر من بلاد العرب نفسها ، كان استيطان العرب فيه اكثر وتأثره بالعنصر العربي اكبر . وكانت فتحاً لغوياً : فقد انتشرت اللغة العربية في الاقطار المفتوحة انتشاراً سريعاً . واذا كان ثمة من يجب ان يذكر بالخير في هذه المناسبة ، فالفضل يعود الى عبد الملك بن مروان والمأمون .. فالاول عرب الادارة ، فجعل اللغة للعربية لغة الدولة الرسمية . والثاني نقل العلوم الى العربية فعرب الحركة الفكرية والعقلية .. على انه يجب ان نذكر فتحاً رابعاً تم في هذه الفترة ، هو الفتح الديني . فقد انتشر الاسلام في الاقطار المفتوحة لاسباب كثيرة لا يتسع المجال لبحثها الآن » .

وقد رافق هذه الفتوح انتشار الاسلام - فازداد عدد الذين قبلوه وارتضوا به . الا ان انتشار الاسلام لم يتوقف مع الفتح . فقد اتسعت رقعته كثيراً خلال القرون التي تلت توقف الاعمال الحربية العربية الاسلامية . ولا يزال ذلك مستمراً الى الوقت الحاضر .

على ان الامر المهم الذي يجب الا يغرب عن البال هو ان الاسلام لم ينتشر في فراغ . فالبلاد التي قبله اهلها ديناً لهم ، كانت قد عرفت حضارات

متنوعة ، واجتازت اختبارات روحية ومادية متعددة . ولذلك فقد اتصل الاسلام بهذه كلها ، واتصلت به . فعرف حضارة الهند وايران وفلسفة اليونان وشرعية الرومان وحكمة النصرانية ومذاهب التصوف . واحتك بإدارة البيزنطيين ونظم الساسانيين . وامترح اصحابه الاولون ومعتقوه التابعون باقوام تنوعت عقائدهم وتباينت مذاهبهم وتعددت اجناسهم وتشعبت اديانهم . ونتج من ذلك كله اختلاط اجتماعي سياسي في اقتصادي تكونت منه هذه الحضارة الاسلامية التي كانت هي ببلورها وجوه ونواح اقل ما يقال فيها انها نمت ضمن اطار واحد ، لكنها تمثلت كل هذا الذي لقيته واتصلت به . فقبلت منه ما قبلت ، ولفظت منه ما لفظت ، وخلطت منه ما خلطت بنفسها . فكان فيها تشعبات ومفارقات تتفق والرقعة الواسعة والزمن الطويل ، وتختلف فيما بينها في السياسة والعقيدة والنظم والفلسفة والفن والتطور . واختصت اجزاء العالم الاسلامي ، كما اختصت عصوره ، بتغلب رأيي او مذهب او نظام او فلسفة . وكانت هذه كلها نتيجة تأثير الاسلام بآثار الحضارات التي سبقت ، وتأثيره في اتباعها وتراثها .

وقد كتب الباحثون -- من مسلمين وغير مسلمين -- الاف المجلدات عن الاسلام والحضارة الاسلامية ، فكان منهم الواصف والمحلل والداعية والمهدم . وسيظل الباحثون على ذلك ما دام الاسلام اسلاماً ، والتاريخ تاريخاً ، والناس ناساً . ويمكن القول اجمالاً ان التاريخ السياسي نال النصيب الاوفر من هذه البحوث . ولكن مع تطور الزمن وتبدل وجهات النظر في البحث التاريخي ودراسته اخذت نواح اخرى من تطور الحضارة الاسلامية تستأثر بعناية الباحثين . فظهرت دراسات اقتصادية وعقائدية واجتماعية وفلسفية وادبية جليلة القدر عظيمة النفع . ومع ان الكثير مما كتب قد لازمه غايات خاصة في نفوس الذين وضعوا المؤلفات ، فانه من الحق ان يقال ان مثل هذه البواعث والدوافع آخذة في التناقص ، وان الابحاث المبنية على المعرفة او محاولة الوصول الى المعرفة ، والرامية الى

الحقيقة هي في ترايد مستمر .

ليس في نيتنا ان نتناول هنا ما كتب حول التاريخ الاسلامي بالنقد والتحليل . فمثل هذا العمل حري بكتاب ان لم يكن يكتب . ولكننا اردنا من هذه المقدمة مقتضبة ان ننقل الى امر هام وهو ان الكتابة في نواحي الحياة الاجتماعية في العالم الاسلامي لا تزال في اولها ، ولا تزال نزرة بالنسبة الى ما كتب حول النواحي الاخرى . ومن هنا كان الاهتمام بهذه المباحث التي جمعت بين دفتي الكتاب الذي تقدمه اليوم الى القارئ العربي . فالمقال الاول يتناول ظهور الاسلام وقيام الامبراطورية العربية في عرض عام ، القصد منه وضع صورة واضحة مقتضبة لهذا التطور الذي تلا قيام الدعوة ووافق الفتوح . والمقال الثاني يبحث عن السيادة في هذه الرقعة الواسعة التي شملها الاسلام ، والعوامل التي كانت تؤثر في هذه الحياة ، والقواعد التي سيطرت على التعامل بين الناس .

عرفت العصور الوسطى انواعاً كثيرة من العلاقات بين العلم الاسلامي . والعالم المسيحي . كانت العلاقات تجارية علمية سلمية كما كانت حربية . عسكرية عدائية . ولعل الحروب الصليبية التي دامت نحو قرنين وانتهت . اخيراً باخراج الصليبيين مد الديار الشامية من اهم هذه الفترات . والمقال المعنون الصليبية والجهاد يحاول بحث الناحية الاجتماعية النفسية من هذه الحقبة . وليس مما فيه ريب ان المجتمع الاسلامي في الاندلس كانت له جوانب خاصة نشأت عن احتكاك واختلاط مستمر بين اهل البلاد والمسلمين من جهة ، كما نشأت بسبب الاتصال الوثيق باوروبا والمغرب من جهة ثانية . ومن هنا كان من الضروري اختيار بحث يعالج هذه الناحية . يتمتع ابن خلدون بمركز خاص في تاريخ الفكر العربي الاسلامي . فهو واضح الاسس الاولى لقواعد علم الاجتماع وفلسفة التاريخ . ودراسة عنه تكشف عن نواح كثيرة من المجتمع الاسلامي . لكن لا يمكن تقديم

دراسة واقية في مجموعة من المباحث على النحو الذي نقله الى القارئ الكريم . لذلك اقتصرنا على بحث تناول نشاطه في الفترة التي قضاها في مصر ، والتي ترسم صورة لغير ناحية واحدة من القضاء والتدريس والتأليف والدبلوماسية ، وهي امور اشترك فيها ابن خلدون بما عرف عنه من علم ومقدرة وخبرة واسعة ادخرها من اختياراته المغربية والاندرلسية .

وليس من شك في ان المجتمع الاسلامي عرف عدداً من المنظمات الاجتماعية السياسية الاقتصادية التي نشأت في ظل رايته متأثرة بالاحوال التي كانت تفرض نفسها على هذه المجتمعات . فهناك الحسبة والمحاسب وثمة النظم القضائية المختلفة وهناك تنظيمات السوق والصناعة . ولعل من اهم هذه المنظمات الفتوة ، التي كانت ذات اثر كبير في بعض العصور الاسلامية . والبحث عنها هنا يتناولها من ناحيتها الاسلامية ومن حيث مقارنتها بنظام القروسية الغربية الذي شاع في اوروبة في العصور الوسطى . وثمة ثلاثة اجداث (هي الفصول الاربعة الاخيرة) تتناول بعض نواح من الاسلام في عصوره الحديثة . فهناك عرض للتطور كما رافقه رجل عاش في الشرق العربي وخبره ، فدون انطباعاته (التطور في الدين) وثمة بحث عن انبعاث الاسلام وضعه فيلسوف من كبار الفلاسفة المعاصرين اراد فيه ان ينفذ الى اعماق هذه الانبعاث على انه ظاهرة من تطور عام واحتكاك وتباين واتصال في الفلسفات والمجتمعات الشرقية والغربية . ومن هنا كان لهذه الدراسة قيمة خاصة .

وأخر فصلين في المجموعة يقدمان محاولة جديدة لتوضيح الاختيار الذي مر به الاسلام في عصوره المختلفة ، لا من حيث السرد التاريخي ولكن من حيث التجربة الروحية ، على اساس ما قدمه للمجتمع الذي قبله من تفكير واسس خلقية ، وما كان له من الاثر في تكييف التفكير التاريخي . ونود ان نتمم هذه المقدمة المتضمنة بالملاحظات التالية .

١- بعض هذه الابحاث كتب قبل سنوات ، وقد تكون بعض النظريات

أو الآراء تغيرت ، ولكن وجدنا ، عموماً ، ان الاطار الذي تدور فيه ظل صحيحاً . ولم نغير شيئاً مما قاله المؤلف اصلاً ، ولكننا ، عند الحاجة القصوى ، اضعفنا ملاحظات تشير الى بعض التطور او الى دراسات جديدة .

٢ - هذه الابحاث تمثل جزءاً من عمل المستشرقين الاميركيين لا كله . ولذلك فان الحكم لها او عليها يجب ان يكون حكماً خاصاً بها ، بحيث لا يتناول ذلك جميع الباحثين .

٣ - ان الغاية من جمع هذه المباحث بين دفتي كتاب هو اطلاع القارئ العربي على مدى الاهتمام الذي تلقاه الدراسات الاسلامية بين المستشرقين الاميركيين ، والعناية التي يولونها للدرس التراث الضخم الذي خلفته تلك الحضارة .

والذي نأمل ان تلقى هذه الدراسات صدى في نفوس القراء الكرام ، بحيث تكون حافزاً للقيام باعمال مماثلة في المستقبل .

نقول زيادو

الجامعة الاميركية

بيروت ١٩٥٩

ظهور الاسلام وقيام الدولة العربية^(١)

نعود الان لتكلم عن حدث من اعجب الأحداث التي عرفها الجنس البشري في تاريخه اطلاقاً . هذا الحدث هو ولادة دين جديد ما كاد يظهر ، ظهوره المتواضع ، حتى اعتنقه ابناء الجزيرة العربية بحماسة ، ومن ثم انتشر ، كالنار الاجنة ، في معظم انحاء العالم المتمدن . وقد انتج هذا الدين فترات رائعة ، حافلة بالعظمة ، والفن ، والثقافة ، تعتبر من اهم العصور التي عرفها العالم . وما زال هذا الدين ، اليوم ، ديناً حياً ، يعتنقه اكثر من ثلاثمئة مليون شخص في العالم .

كان العالم الغربي ، عند وفاة النبي محمد عام ٦٣٢م ، في حالة انحلال واضطراب . لقد استسلمت الامبراطورية الرومانية ، التي سيطرت على العالم خلال بضعة القرون الاولى من ظهور المسيحية ، لغزوات القبائل البربرية الاوروبية . اما خليفتها دولة الروم (٢) المسيحية ، وعاصمتها القسطنطينية ، فقد خاضت حروباً طاحنة ضد الامبراطورية الساسانية الفارسية ، انتهت بهما جميعاً . كان العالم ، الذي ولد فيه النبي محمد ، عالمًا مضطرباً ، قلقاً ،

(١) فصل من كتاب (The Arabia of Ibn Saud) تأليف روى ليكنر وجورج ريفنز وماكس شتاينيك . نشرته شركة رسلوف ، مور ، نيويورك ، ١٩٥٢ (الترجم)
(٢) يسمى العرب الامبراطورية الرومانية الشرقية ، او الامبراطورية البيزنطية ، دولة الروم (الترجم)

متعباً . ولم تنتشر مبادئ محمد لان اتباعه نشروها بحماسة بالغة ، وقوة
حربية ، فحسب ، ولكن لان تلك المبادئ انعمت امال شعوب يائسة ،
خائرة العزائم ، كانت تعاني جور الحكومات الظلمة ، وبشرتها بمستقبل كريم .
كانت جزيرة العرب في حالة فوضى . وكانت الحروب بين القبائل
العربية ، وغزوات الثار ، مستمرة . كما كانت تنشب فيها المنازعات
والاضطهادات بين اليهود والنصارى . وقد قوى شأن اليهود ، بصورة
خاصة ، في القسم الغربي من الجزيرة . على ان اكثريه العرب كانوا وثنيين ،
يعبدون آلهة متعددة . وكانت مكة ، حتى في تلك الايام ، مدينة مقدسة ،
اذ كانت تقوم فيها الكعبة التي ينتصب الحجر الاسود في احد اركانها .
كان العرب يعبدون الحجر الاسود (١) ويؤمنون بان له قوى سحرية .
وكانوا يجمعون الى هذا الحجر الأسود افواجا . وكان الحجاج ، وما زالوا
حتى وقتنا الحاضر ، المصلر الاول لدخل سكان مكة .

ولد محمد ، كما تقول الروايات ، في عام الفيل ، اي حوالي عام ٥٧١م .
في تلك السنة جاء ابرهة ، عامل ملك الحبشة على اليمن ، على رأس حملة
لاحتلال مكة . وكان يصحب الحملة فيل او بضعة افيال . وينتمي محمد الى
بني هاشم ، وهم بطن من بطون قريش التي كانت لها سداة الكعبة .
وحتى قبل ميلاد محمد كان بن بني هشام وبين الامويين ، وهم بطن آخر
من بطون قريش ، شقاق هو طليعة الشقاق الذي حدث في صفوف الملة
الاسلامية بعد وفاته .

لا نعرف غير الشيء القليل عن حياة محمد خلال الاربعين السنة الاولى
من عمره . من ذلك انه يتيم وهو ما يزال طفلاً صغيراً . واحتضنه احد
اعمامه ، وعاش في رعايته . ولما بلغ الخامسة والعشرين من عمره تزوج من
ارملة غنية ، كانت تكبره خمسة عشرة سنة ، هي السيدة خديجة . كانت
السيدة خديجة تشتغل بالتجارة . وكان محمد يدير فوافلها التجارية بنجاح .

(١) يحتمل ان يكون الحجر الاسود شهاباً ارضياً .

وقضى محمد شطراً من طفولته بين البدو حيث تعلم منهم بساطة الحياة ، ولعله تعلم منهم ايضاً نقاء لغة اهل الصحراء . وما لا شك فيه ان محمداً قد اتصل باشخاص من اليهود والنصارى ، ويحتمل انه تلقى منهم افكاره الاولى عن الاله الواحد للعالم .

ولما بلغ محمد الاربعين من عمره بدأ يتلقى الوحي ، وهو مؤمن بان الله قد اختاره ليتم الدين الذي اوحاه الى ابراهيم ، والى انبياء بني اسرائيل ، والى المسيح (عيسى بن مريم) . واول من آمن به زوجته خديجة ، وابن عمه وربيه وخته علي ، وابو بكر ، الذي اصبحت فيما بعد حماءه ، وكان احد زعماء قبيلة قريش . وكان زعماء فريش الآخرون يحسدون محمداً ، ويشكون في دينه الجديد ، ويخشون ان يخرب هذا الدين تجارة الحج ، وهي قوام معيشتهم .

واستمر دخول الناس في الاسلام ، الا ان معظمهم كانوا من الفقراء والعبيد . وبلغت عداوة قريش له حداً جعله ينصح اصحابه بالهجرة الى الحبشة . وعيل صبر اعدائه ، آخر الامر ، فقرر ان يغتالوه . ولكن محمداً اعلم بالمؤامرة ، فغادر مكة سراً ، يرافقه صاحبه الصديق المخلص ابو بكر ، وهاجر الى المدينة . وعند ما جاء المتآمرون لاغتيال محمد وجلوا في منامه ابن عمه وربيه علياً ، يتظاهر بالنوم . وقد مهد محمد لهجرته بان عقد ، في العام السابق ، اتفاقاً مع جماعة من زعماء المدينة التي كانت تعرف يومئذ بيثرب .

واعترفت السنة التي حدثت فيها الهجرة ، وهي سنة ٦٢٢ م ، بداية التاريخ الاسلامي . وكان محمد ، في تلك السنة ، في الواحدة والخمسين من عمره . اما زوجته خديجة فقد توفيت قبل ذلك .

تقبل معظم سكان المدينة الذين الجديد الذي جاء به محمد ، وامنوا به ، ما عدا اليهود الذين كانوا يؤلفون قسماً كبيراً من السكان . ولكن محمد تمكن ، بمضي الوقت ، من اخراج اليهود من المدينة ، والقضاء على قسم منهم .

واخذ الدين الجليلي ينتشر في اجزاء اخرى من الجزيرة العربية . ولكن سكان مكة ظلوا بناوون عمداً ، ولم يخضعوا له ، ولم يؤمنوا بدينه ، الا بعد معارك عديدة . ثم قبل سكان مكة الدخول في هذا الدين الجليلي بعد ان وصلوا الى مصالحة مع محمد ، تظهر حكمة محمد السياسية ، ومقدرته الدبلوماسية . لقد وعدهم محمد ان تبقى مكة المدينة المقدسة وان يستمر الحج الى الكعبة ، في ظل هذا الدين الجليلي .

في عام ٦٢٩م عاد محمد الى مكة سيداً . وعندما توفي النبي ، عام ٦٣٢م ، كان عدد كبير من الناس ، في جميع انحاء الجزيرة العربية ، قد اعتنقوا الاسلام .

تحدثنا الروايات العربية ان محمد ارسل ، في عام ٦٢٨م ، رسائل الى عظماء حكام العالم ، هرقل امبراطور الروم ، وكسرى امبراطور فارس ، وفي - تسونغ امبراطور الصين ، يدعوهم فيها الى الايمان بالله الواحد الحق والى عبادته . وسواء صحت هذه الروايات ام لم تصح فالذي لا شك فيه ان النبي محمداً كان يعد الخطط لتوسيع عمله ، ومد سلطانه ، خارج حدود الجزيرة العربية . وقد مضى اصحابه قديماً في تحقيق هذه الخطط . وبعد ان قضى اصحابه على المرتدين من الاعراب في انحاء الجزيرة ، وعلى الاخص في الاحساء ، انطلقوا يفتحون العالم بعيش يراوح عدد افراده بين ٣٠٠٠ و ٤٠٠٠ جندي . على ان عدد هؤلاء الجنود ازداد ، بطبيعة الحال ، عندما اشتدت الفتوحات ، وتعاظم زخمها .

اصبح ابو بكر ، صاحب النبي الامين اول خليفة على المسلمين . وكان خالد بن الوليد اعظم قواد المسلمين اطلاقاً . اتجهت جيوش المسلمين نحو سورية ، وكانت يومئذ تحت حكم الروم ، ونحو حدود مملكة فارس . وكانت جيوش المسلمين تحير ابناء البلاد التي يتوجهون نحوها احدى ثلاث : اما ان يسلموا ويحتنقوا دين الله الحق ، واما ان يستسلموا ويدفعوا الجزية ، واما ان ينازلوا جيوش المسلمين في الحرب ليهلكوا . وقد رحب بهم السكان ،

في حالات عديدة واعتنق كثير منهم الاسلام ولكن جيش الروم ظل يقاوم حتى انزل به المسلمون ضربة قاضية ، عام ٦٣٦ ، في معركة اليرموك ، التي وقعت قرب نهر اليرموك الى الجهة الشرقية من بحيرة طبرية . اما ملك الفرس فقد استقبل رسل المسلمين ، الذين جاءوه يرتلون ثياباً رثة ، باحتقار . ولكن المسلمين هزموا جيوشه ، التي كان يقودها القائد المشهور رستم ، هزيمة ساحقة ، في معركة القادسية التي دامت ثلاثة أيام .

وتوفي ابو بكر عام ٦٣٤ ، فخلفه عمر بن الخطاب ، وهو والد احدى زوجات الرسول . وتابع عمر الفتوحات ، فسقطت البلاد واحدة بعد الاخرى بيد المسلمين عنوة او استسلمت صلحاً . ودخلت القدس في حوزة المسلمين عام ٦٣٨ . وما يجدر ذكره هنا ان المسلمين سمحوا لليهود والنصارى من سكان القدس بالاحتفاظ بدينهم ، وابعادوا لهم ممارسة شعائرهم بحرية . واستولى المسلمون على مصر بين ٦٣٩ و ٦٤١ ، دون ان يلقوا مقاومة شديدة . واصبحت البصرة في العراق ، والقاهرة (١) في مصر ، اللتين انشئتا لتكونا معسكرين ، مدينتين عظيمتين فيما بعد . واستمر الفتح طوال اكثر من مئة عام . ولم يات عام ٧٥٠م حتى كان المسلمون قد اكتسحوا شمال افريقيه والاندلس في الغرب ، ووصلوا الى حدود الصين في الشرق . الا انهم لم يتوقفوا الى احتلال القسطنطينية او فرنسا .

هذه الحركة الجديدة ، المتعجزة ، التي اكتسحت العالم ، ابتدأت في جزيرة العرب ، وكانت المدينة العاصمة الاولى للامبراطورية العربية الناشئة . وكان الخلفاء الاولون ، كما كان محمد من قبل ، زعماء متواضعين ، ديموقراطيين ، مشبعين بروح هذا الدين العظيم . ولن نحاول ان نحكي القصة الكاملة للخصومات التي نشبت حول الخلافة ، تلك الخصومات المعقدة ، الحملة ، التافهة احياناً . لقد اخزت تلك الخصومات هذا الدين البسيط ، الوديع ، الذي بشر به محمد ، كما اخزت كثير من الاعمال التي اقترفت

(١) الاصح القسطنطية . فالقاهرة انشأها جوهر الصقلي في مصر متأخر عن هذه الفترة (المترجم)

باسم المسيحية ، انجيل يسوع المسيح . ويحلو بنا ان نشير الى نتيجة واحدة من نتائج الصراع على الخلافة حتى نفهم سبب انقسام المسلمين الى طائفتين رئيسيتين هما : السنة والشيعة .

كان الخليفة الثالث ، عثمان بن عفان ، شيخاً كبيراً . وكان ينتمي الى بني امية الذين كانوا يناهسون بني هاشم ، عشيرة النبي محمد ، على الزعامة منذ العصر الجاهلي . وقد اثار عثمان استياء كثير من المسلمين بتحيزه لبعض اقربائه وابناء عشيرته من الامويين . وقتل الخليفة في داره وعمره ثمانون سنة . واصبح علي ، وهو ابن عم النبي وربيّه وختنه ، خليفة . غير ان معاوية الاموي ، وكان والياً قديراً على سورية ، رفض الاعتراف بزعامة علي ، محتجاً بأنه نال الخلافة عن طريق اغتيال عثمان . واخذ معاوية يسعى للثأر من قتلة قريبه الخليفة المغدور . ونشبت بين علي ومعاوية معركة صفين . وكادت جيوش علي ان تنتصر ، لولا ان غير انصار معاوية وجهة المعركة بان رفعوا المصاحف على الرماح ، ملعين بذلك ان الخلاف يجب ان يحل بحسب ما تمليه احكام القرآن . وتأثر علي فوافق على التحكيم . وجاءت نتيجة التحكيم ضده . ولكنه لم يقبل بالقرار لانه كان قراراً غير عادل . وعلى هذا فقد استمر علي يحكم بصفته خليفة المسلمين . ولكنه فقد اتباع معاوية وعدداً كبيراً من اتباعه هو الذين خالفوه لانه قبل بالتحكيم . واستطاع علي ان يحمّد فتنة هؤلاء المخالفين ، الخوارج ، ولكنه ما عم ان خر صريع الاغتيال . وانقسم المسلمون ، منذ ذلك اليوم ، الى طائفتين : طائفة تؤمن بان الخلافة من حق ابناء فاطمة بنت النبي محمد ، وزوجها علي ، وهؤلاء هم الشيعة . وطائفة تؤمن بان الخلافة وظيفة ينالها المستحق عن طريق الانتخاب : وهؤلاء هم السنة . وقام الشيعة ، بعد مضي بضعة سنوات على وفاة الامام علي ، بثورة لتنصيب ابنه الحسين خليفة على المسلمين . ولكن جنود الامويين تصدوا له فقتلوه هو وآل بيته واتباعه في كربلاء ، في العراق ، في العاشر من شهر محرم عام ٦١هـ تشرين الاول ٦٨٠م . وما زال الشيعة يحيون ذكرى

هذه الفاجعة في شهر محرم من كل عام . واصبحت كربلاء ، حيث يرقد الامام الحسين ، والتجف ، حيث يرقد الامام علي ، من الاماكن المقدسة عند الشيعة .

وبوفاة الامام علي انتقلت السيطرة على الدولة الجديلة من الجزيرة العربية . واصبحت الجزيرة العربية عبارة عن ولاية فحسب ، ثم فقدت حتى هذا المركز ايضاً ، واقتصرت على ان تكون المكان الذي يقوم فيه الحرمان الشريفان ، مكة والمدينة ، حيث يحج الناس . ونقل معاوية مركز الخلافة الى دمشق . وعاشت الخلافة الاموية ، التي اسسها هو ، نحواً من مئة عام . وقضى العباسيون ، احفاد العباس عم النبي محمد ، على الدولة الاموية بالعنف ، عام ٧٥٠م ، وانشأوا الدولة العباسية التي حافظت على الخلافة حتى قضى عليها المغول عام ١٢٥٨م .

هذه هي اهم حوادث تاريخ الخلافة الاسلامية المعقد منذ ابتداء امرها الى ان سقطت الامبراطورية العربية العظيمة . ومنذ ذلك الحين لم تمتد الخلافة اكثر من وظيفة اسمية ملحقة بحكم الممالك في مصر ، ثم بالدولة العثمانية .

العصر الذهبي

بعد ان استولى العباسيون على الخلافة ، في عام ٧٥٠م ، نقلوا عاصمتهم الى بغداد وكان ذلك بداية عصر العرب الذهبي . ويشبه هذا العصر ، عندما تنظر اليه نظرة تاريخية ، النخامة العظمى لمسرحية خيالية مرفوعة الالوان . لقد جمع هذا العصر الفنون ، والصنائع ، والفلسفات ، والمعارف ، والعلوم ، والثقافات ، التي اخرجتها الحضارات العالمية بما في ذلك الحضارة الصينية . واصبحت بغداد ، من الناحية المادية ، مدينة خيالية ، تعج بالبيوت والقصور والجوامع . وتدفع الى بغداد بالذهب ، والفضة ، واللؤلؤ ، والعاج ،

والجواهر ، والحريز ، والافاويه ، والعمود ، والتحف من منتجات الصنائع . لقد تدفق على بغداد كل اصناف الاطعمة ، والترف ، والمصنوعات ، المعروفة في العالم يومذاك . ولم تكن بغداد ، وحدها ، المدينة المزدهرة . فقد اصبحت القاهرة والاسكندرية ، ودمشق ، والبصرة ، مدن ثراء ورخاء وترف .

اما من الناحية الثقافية فقد اثارت مصادر المعرفة الغنية المتراكمة ، المكتشفة حديثاً ، عقل العرب النشط ، ودفعته الى الدراسة والبحث في كل فرع من فروع المعرفة . لقد رحب العرب بالعلماء والادباء والفنانين واصحاب الصنائع والموسيقين والشعراء ، القادمين من مختلف ارجاء العالم ، وشجعوهم . وانشأوا مدارس يدرس فيها ما انتجه كبار العلماء والحكماء من معرفة وحكمة . وترجمت الى اللغة العربية مؤلفات اعظم العلماء والفلاسفة من يونان ورومان وفرس وهنود . وبهذا حفظ العرب للحضارات القادمة اثراً هامة مما قدمه الاولائل في المعرفة والادب . و اضاف العرب اشياء مبتكرة الى الطب والادب والعلوم واخترعوا علمي الجبر والكيمياء ، اللذين اشتق اسمهما في اللغات الاوروبية من اسميهما العربيين .

واغلب الظن ان الاعداد ، التي تدعى بالاعداد العربية ، قد جلبت من الهند الى بغداد . اما الصفر فقد اخترع في عصر بغداد العظيم . فقد طور هذا الاختراع ، الذي يبدو وكأنه شيء صغير ، الحساب العددي ، وبسط استعماله . وذلك لانه ادى الى استعمال النظام العشري ونظام المراتب العددية ، اي استعمال عشرة اعداد فقط في مراتب عددية لا تحصى كالاحاد ، والعشرات ، والمئات ، والالوف الخ . وللعرب فضل كبير على تحسين صناعة الورق التي اخترعها في الاصل الصينيون . وقد انتقل الورق الذي حل محل وسائل الكتابة السابقة - الواح الطين ، والبردى ، وجلود الحيوان ، وقطع النسيج - الى اوروبا في وقت مناسب ، فساعد على تطوير الطباعة بواسطة الحروف المتحركة .

على المرء الذي يريد ان يلم بحياة وثقافة عصر هارون الرشيد الزاهر ان يرجع الى كتاب الف ليلة وليلة . هذه القصص معروفة معرفة جيدة في العالم الغربي على الرغم من ان اهمية تلك الأيام قد نسيت الى حد بعيد . نعي ان العرب لم يعملوا على ازدهار الثقافات القديمة ازدهاراً رائعاً فحسب وانما ابقوا مشعل المعرفة متوقداً رائعاً في حين كانت اوربا تعيش في عممة « العصور المظلمة » .

مات هارون الرشيد عام ٨٠٩م . وبينما ظلت اجماد عصره ، زمناً طويلاً بعد وفاته ، تتضاءل ببطيئاً ، فقد اصبحت دولة العرب بالضعف والانهلال منذ ذلك الحين . فقد غزتها ، في عام ١٠٧١ ، قبائل بربرية قادمة من الشمال يعرفون بالأتراك السلاجقة . واعتنق السلاجقة الاسلام ، وادخلوا الى الامبراطورية النخرة حيوية جديدة . وفي عصر سيطرة السلاجقة حدثت الحروب الصليبية .

لا تكون الحروب الصليبية جزءاً مهماً من هذا التاريخ الذي نتحدث عنه ، فهذه الحروب ، التي بالغ الاوربيون في وصفها ، لم تؤثر تأثيراً عميقاً في مجرى الحوادث التي وقعت في الشرق الاوسط عامة . ولم تثر هذه الحروب تعصباً دينياً في نفوس المسلمين الذين اتصفوا بالتسامح مع ابناء الديانات الاخرى . ومن نتائج الحروب الصليبية المؤسفة انها جعلت النصارى الغربيين يعادون المسلمين والدين الاسلامي . على ان الزمن ، لحسن الحظ ، قد عا هذه العداوة . ومن نتائج الحروب الصليبية المهمة انها جعلت الاوربيين يتصلون بمحضارة العالم العربي وثقافته . وقد ساعد هذه الاتصال ، مساعدة عظيمة ، على قيام « عصر النهضة » في اوربا . في عام ١٢٥٨ حدثت غزوات المغول الفاجعة بقيادة هولاكوخان ، حفيد جنكيز خان المرعب ، الذي خرب اسيا ، وارعب اوربا . واغلب الظن ان المغول كانوا اكثر الغزاة خبثاً وقسوة في تاريخ العالم اطلاقاً . وقد عبر جنكيز خان بالكلمات التالية عن العقيدة التي كان المغول يسبونها

موجبها : « ان اعظم سعادة ينالها المرء هي ان يقهر اعداءه ويطاردهم ، ويستولي على املاكهم ، وان يرى اهلهم يبكون ويعولون ، وان يمتطي صهوات خيولهم ، ويمتلك بناتهم وزوجاتهم » .

عندما زحفت جحافل هولاكوخان على بغداد استسلم الخليفة العباسي الجلبان ، المستعصم بالله ، دون قتال . وقد اظهر هولاكو احتقاره للمستعصم بان امر فوضع في كيس ، وديس حتى مات . ونهبت بغداد نهباً عاماً شاملاً . وحطمت مكاتب واثار فنية لا تقدر بثمن . وقتل معظم السكان بوحشية قاسية . واخذ المغول ، بعد ان هدموا بغداد ، يقتلون سكان العراق ويهدمون مدنه الاخرى . وقد خربوا حتى قنوات الري والسدود التي جعلت العراق بلداً خصباً غنياً خلال الالف السنين . ولم ينهض العراق بعد نهوياً كاملاً من اثر تلك الضربة المدمرة .

وجاءت الامبراطورية العثمانية واخذت ، على مر العصور ، تتوسع . لقد استولت الدولة العثمانية على بلاد الشرق الاوسط الهرمة المتعبة ، ولكنها لم تفعل سوى القليل في سبيل تنشيط هذه البلاد واستعادة حيوتها . واستغرقت هذه البلاد ، التي لعبت دوراً فعالاً في تاريخ العالم ، في نوم عميق ، لم تستفق منه الا في وقتنا الحاضر . على ان مشعل الحضارة المتقدمة الى الامام كان قد انتقل الى الغرب .

حين اكتشف كولبوس العالم الجديد كان البحارة البرتغاليون يؤسسون مواقع لهم على سواحل الهند ، والبحر الاحمر ، والخليج العربي . ثم جاء البريطانيون فاخرجوا البرتغاليين من مواقعهم ، واخذوا يهددون سيطرة الانراك على كثير من المواقع الاستراتيجية . ولم يكن لهذه التطورات سوى تأثير ضئيل على بلاد الشرق الاوسط المستغرقة في النوم .

السيادة الإسلامية .

ارشيبالد ر. لويس

كانت الحملة على صقلية وفتح جزيرة كريت عام ٨٢٧ بداية عهد جديد في التاريخ البحري الخاص بالبحر الأبيض المتوسط . وكان من شأن هذين الحدثين أنهما قضيا على سلطان البيزنطيين الذي ما كان ليتحداه احد ، كما ان النفوذ البحري قد أخذ يتسرب الى أيدي الشعوب الإسلامية التي عبرت شواطئ البحر المتوسط الجنوبية من طرطوس الى جبال البرنيس . على ان هذا التطور في الأوضاع لم يحدث طفرة واحدة ، فان حكام القسطنطينية ، خلال تلك الحقبة ، ظلوا محتفظين ببعض القوات البحرية الهامة ، واستمروا يحاربون اعداءهم المسلمين بجرأ في الشرق والغرب ببسالة وجرأة . وقد استطاعوا ان يؤثروا بني الأغلب في انجازهم فتح صقلية حتى عام ٩٠٢ ، وان يوفروا قوة بحرية كافية للمحافظة على امتلاكهم اجزاء هامة في جنوبي إيطاليا وبحر الأدرياتيك ، ويقولوا أسياد البحر الأسود ، وان لم يكن ذلك من السهولة بمكان . ولقد حاولوا استرجاع جزيرة كريت بارسلهم حملة بعد اخرى لرحضة القراصنة المسلمين عنها ؛ غير أنهم كانوا خلال معظم تلك السنين في موقف دفاعي ، باستثناء فترات محدودة ، كما كانت خسائهم

• فصل من كتاب Naval Power and Trade in The Mediterranean A. D.

500-1100 تأليف ارشيبالد ر. لويس (نشرته مطبعة جامعة برنستون ١٩٥١)

تريد كثيراً جداً على مكاسبهم في هذا الميدان . ولم يهل القرن العاشر حتى كان النفوذ الفعال في البحر الأبيض المتوسط في أيدي أعدائهم المسلمين . أما أشد الهجمات على سيادة بيزنطية البحرية فقد قامت بها العمارات البحرية التابعة لشمال أفريقية في المياه الإيطالية والصقلية ، وكذلك اساطيل كريت الإسلامية في بحري أيجة وإيونية . على ان الهجوم الغربي كان ، من وجوه عدة ، أهم وأشد أثراً . لقد بدأ بانزال حملة كبيرة من شمال أفريقيا عند مازرة على شاطئ صقلية الجنوبي ، وذلك عام ٨٢٧ . وما كادت هذه الحملة تطلأ أرض الجزيرة حتى أخذت في التقدم لمحاورة عاصمتها سرقوسة . ولقد أبحر اسطول اسلامي بغية اكمال الحصار من الناحية البحرية . وتراعى النذير فوراً الى القسطنطينية فلمت شعث قواتها البحرية لنجدة المدينة المحاصرة (١) ، واستجابت البندقية لاستغاثة اخرى فبعثت بمفارزها البحرية الى الميدان (٢) ، وقامت قوة كارولنجية بحرية من توسكانيا بقيادة بونيفاس ، وربما بمساندة من بيزنطية ، بهجوم معاكس على فرضة يونة (عناية) البحرية الواقعة على شاطئ الشمال الأفريقي (٣). وكان الأهم من ذلك ارسال القسطنطينية جزءاً ضخماً من اسطولها الشرقي الى ساحة المعركة ، فتمكن من دحر العمارات البحرية الأفريقية ، وطارد بقاياها فأبجلأها الى ميناء سرقوسة . ولما شعر المسلمون بالعجز عن انقاذ ما تبقى من سفنهم ، أحرقوها وانسحبوا من المدينة (٤) ولم يبق في ايديهم عند حلول عام ٨٢٩ الا مازرة ، وهي المكان الذي أنزلوا فيها قواتهم اول الأمر ، ومينيو (Minea) القريبة منها .

ولم تفت في عضدهم هذه النكسة الأولية ، فعادوا الى الهجوم في العام التالي . وقد حمل اسطول افريقي كبير امدادات اخرى الى جيش المسلمين الذي ما زال مقيماً في الجزيرة (٥) . اضيف الى ذلك ان قوة اسبانية وصلت أيضاً الى هناك من طرطوشة لدعم الجيش الاسلامي ، الا أنها لم تكن ذات وقع كبير ، فقد هزمها الجنود البيزنطيون ، ولم يسعها الا الانسحاب (٦) .

أما الأفريقيون فلم يفعلوا ذلك ، وإنما بدلاً من ان ينسحبوا ، واصلوا محاصرتهم لمدينة بلرم (بالرمو) الهامة الواقعة في الناحية الغربية من الجزيرة . ولما لم يصل اي اسطول بيزنطي الى هذه المدينة لتجديتها في الوقت المناسب ، فقد سقطت في يد بني الأغلب عام ٨٣٩ (٧) . ومن ذلك الوقت فصاعداً أصبحت بلرم قاعدة عظيمة الشأن ، ومركزاً للقوة الاسلامية في جزيرة صقلية . وهي وان خضعت ، نظرياً ، الى حكم الشمال الافريقي ، إلا انها كانت ذات كيان مستقل ، واعتبرت الميناء الممتازة التي كانت تخرج منها سفن المسلمين لترويع شواطئ ايطاليا وتجارتها ، والأجزاء البيزنطية في الجزيرة .

وما لبثت قاعدة بلرم البحرية الأمامية ان دعمتها تطورات جديدة ، فقد استولى اسطول بني الأغلب ، أولاً ، على جزيرة بانتيليريا عام ٨٣٥ (٨) . وبذلك زال خطر قطع المواصلات بين صقلية وافريقية ، ذلك الخطر الذي كان يهددها لكونها جزيرة في يد البيزنطيين فاصبح ارسال المدد من افريقية امراً يسيراً وثانياً دخلت بلرم في حلف مع مدن شاطئ كامبانيا الايطالي ، وخاصة مع نابولي ، وذلك عام ٨٣٦ (٩) . ولربما كان هذا الحلف نتيجة للمساعدة التي قدمتها عمارات بلرم البحرية الى اهالي نابولي في محاربتهم لعدوهم الداخلي أمير بانيفانتوم اللومباردي (١٠) . ومن الممكن ان يكون قد قام ايضاً على أساس من العلاقات التجارية بين تلك المدن وشمال أفريقيا الاسلامي خلال العديد من السنين الطوال ، وذلك بالرغم من اعتراضات البيزنطيين . ومهما كان السبب فان مصادقة نابولي كانت لا تقدر بثمن بالنسبة الى العرب الصقليين ، فقد أضعفت من قوة القسطنطينية البحرية في مياه ترهانيا في الوقت العصيب . هذا ، ولربما كان تخلي أهالي نابولي عن بيزنطية يفسر عجز القوات البحرية البيزنطية عن ان تتعرض بنجاح سبيل العمارات البحرية الأفريقية التي حملت الى بلرم حاكمها جديداً عام ٨٣٥ (١١) . كما يمكن ان يوضح هذا أسباب نجاح تلك الغزوة

التي قامت بها قوة اسلامية اخرى على الجزر الأيولية في السنة نفسها (١٢) .
أما فيما يتعلق بالحملة الأولى ، فمن الطريف ان نشير الى أن الأسطول
الأفريقي كان يتضمن عدداً من الحراقات ، وهي من السفن التي كانت
تلهب النفط وتقذف به الأعداء ، والتي مكنت الأفريقيين من الرد على
النار اليونانية التي كان يستخدمها اعداؤهم البيزنطيون . وكانت هذه أول
مرة يذكر فيها استخدام المسلمين أمثال هذه السفن التي ربما كانت سلاحهم
السري الجديد (١٣) .

ولم يهل عام ٨٣٨ حتى شعر أمير بلرم بأنه ذو قوة كافية لمهاجمة حصن
جفلوز (سيفالو) البحري الواقع على شاطئ صقلية الشمالي ، غير ان
المهجومين البري والبحري اللذين قام بهما لم يكللا بالنجاح ، والفضل يعود
الى اسطول النجدة الذي بعث به القسطنطينية فحمل المسلمين على الانسحاب (١٤)
على ان هذا الكبح لم يحل دون التقدم . ففي عام ٨٤٣ تمكنت القوات
الاسلامية ، تؤيدها سفن اهالي نابولي ، من الاستيلاء على مدينة مسينا
التي تحكم بالمضائق الواقعة بين قلورية (كالابريا) وصقلية (١٥) .
والظاهر أنه لم يكن للبيزنطيين هناك قوة بحرية عمليّة كافية في المياه الصقلية
لحماية ذلك المركز الهام .

ومن أسباب هذه الانتصارات في مياه ترهانيا ، انشغال القسطنطينية
في مكان آخر فقد كانت هجمات المسلمين تتقدم بسرعة في بحر
ايونية وبحر أيجة ، وقد بدأت عام ٨٣٨ بالاستيلاء على برنديزي ، حيث
أسقطها اسطول لغزاة مسلمين من كريت أو أفريسية أو ربما من كلاهما معاً .
وكانت عمارة بحرية للبندقية ، تتألف من ستين سفينة حربية قد تجمعت
للدفاع عن تلك المنطقة التي تعاني الكارثة بالقرب من كروتون في خليج
تارنتو ، إلا ان المسلمين دمروا معظمها (١٦) . ثم ان الوضع المحلي في
جنوب إيطاليا قد جعل من التدخل أمراً ميسوراً ، ذن التزاع على سلطان
حوقية بينفانوم اللومباردية كان قائماً بين متنافسين يطالبان بها وهما راديلخس

وسيكانولف . وقد استدعى الأول جنوداً مرتزقة من المسلمين الصقليين والأفريقيين عام ٨٤١ ، فما كان من منافسه إلا ان قام بعمل مضاد فاستأجر مغامرين من مسلمي اسبانيا . وامثال اولئك وهؤلاء لم يكونوا يهتموا كثيراً إلا بالغنيمة ، وقد تمكن بعض المرتزقة الذين استدعاهم راديلخس من الاستيلاء على باري والمنطقة المحيطة بها عام ٨٤١ ، متعاونين كلياً مع أساطيل لقراصنة ما فتئت تعمل هناك عبر الشاطئ (١٧) . وما لبثت دولة قراصنة اخرى من دول المسلمين الأمامية القوية كبلرم ، ان ظهرت الى عالم الوجود ، وقد عاشت أكثر من ثلاثين عاماً . أما حاكمها ، ويلقب بلقب سودان (اي سلطان) ، فيظهر أنه استقل عن اية سلطة اسلامية في كريت او أفريقيا ، وانه اتصل ببغداد مباشرة للاعتراف به وبملوكه (١٨) .

وهكذا كان اندحار البندقية ، وانشاء هذه الدولة الاسلامية الجديدة في باري ، واستيلاء قراصنة كريت على تارنتو في وقت واحد تقريباً - كل ذلك قد فتح بحر الأدرياتيك في وجه اساطيل الغزو العربية . ولقد بدأت سفن هذه الأساطيل أعمال النهب عام ٨٤١ بالاستيلاء على أنكونا ، وأزيرو الواقعتين في جزيرة شيرسو وحرقهما . وفي طريق عودتها ، قبضت على بعض تجار البندقية وهم قافلون اليها من صقلية (١٩) . وفي العام التالي ، عادت تلك السفن الى شمال بحر الادرياتيك وأنزلت الهزيمة باسطول البندقية في خليج كوارينرو (٢٠) .

على ان هذه الانتصارات التي وقعت في الناحية الشرقية من شبه الجزيرة الايطالية قد فاقت تلك التي حدثت في الجانب الترهاني ، فانه بعد ان عاضدت نابولي العرب الصقليين في استيلائهم على مسينا ، تخلت ، على ما يظهر ، عن تحالفها معهم ، ولربما كان ذلك راجعاً الى تمكن أساطيل القرصنة من شواطئها وتدخلها بتجارها . وهكذا نرى أن سرجيوس ، دوق نابولي ، قد اقام تحالفاً مع الملدن البحرية المجاورة : أمالفي (أملف) ، وجايتا ، وسورنتو . وقد هزمت أساطيلها المتحدة النهائية المسلمين في

البحر وحملتهم على التخلي عن شباك قرصتهم في جزيرة بونزا القريبة من نابولي ، وفي ليقوسيا وهي نتوء جبلي في خليج سالرنو (٢١) . وهكذا ياء المسلمون بالخيبة في هذا الاتجاه فحولوا اهتمامهم الى الممتلكات البابوية . وفي عام ٨٤٨ أنزلوا جيوشاً تغلبت على الحاميات الموجودة في سيفيتا غاكشيا ونوفا اوستيا ، وقامت بغزو أرباض مدينة روما نفسها (٢٢) . ومارع البابا يطلب مساعدة بحرية من مدن كامبانيا المتحالفة . والظاهر ان هذه المدن قد استجابت لطلب البابا ، وأرسلت اسطولاً لحماية الشاطئ البابوي ، غير أن عاصفة هبت فحطمت عمارة المسلمين البحرية عبر شاطئ اوستيا مما جعل تلك المساعدة غير ضرورية (٢٣) . وقد تكون هذه المقاومة التي أبداها شاطئ نابولي هي التي شجعت سلطات البيزنطيين في صقلية ، وحملتهم عام ٨٤٨ على ارسال اسطول صغير مؤلف من عشر يوارج حربية في غزوة بلغت بهم خليج مونديللو الذي يبعد مسافة ثمانية أميال عن بلرم نفسها (٢٤) . غير أنه ما كاد خطر اختراق المسلمين المباشر لساحل ايطاليا يصد ويكبح ، حتى بادرت نابولي والمدن المجاورة الى الدخول ، مرة اخرى ، في علاقات وثيقة مع المسلمين الذين كانوا أعداءها في وقت سالف . وقد استمرت العلاقات بينها وبين بلرم ، للعشرين سنة التالية او يزيد ، علاقات ود و سلام .

وقد مضى عقد كامل لم يحدث فيه سوى بعض الأعمال البحرية التي كان يقوم بها المسلمون ضد جيرانهم المسيحيين ، إما في بحر ترهانيا او بحر الادرياتيك . ولربما كان بعض أسباب هذه الأعمال تعود الى المنازعات بين مسلمي كريت وبنى الأغلب في البحر (٢٥) . ومهما كان الأمر ، فان فترة السلام هذه قد انتهت عام ٨٥٨ عندما هاجمت قوات بلرم البرية والبحرية مدينة جفلوز (سيفالو) واستولت عليها (٢٦) وكذلك عندما اندخر اسطول بيزنطي مؤلف من أربعين سفينة عبر ساحل أبوليا (٢٧) . وقد أثارت هذه الحوادث القسطنطينية ، ودفعتها الى القيام بمجهود بحري

جديد . وعليه فقد بعثت باسطول بيزنطي مؤلف من ٣٠٠ سفينة من الشرق الى سرقوسة . وقد أبحرت هذه الأرمادا عبر مضائق مسينا لاسترجاع سيفالو فالتقت عبر الشاطئ الشمالي باسطول عربي انتصر عليها انتصاراً باهراً وأُنزل بها خسائر فادحة أفقدت بيزنطية مائة سفينة ، وتلك أعظم هزيمة بحرية ألحقت بها منذ عام ٨٤٠ (٢٨) . وقد تلت هذه الضربة الخطيرة كارثة أخرى نزلت بالقوة البيزنطية في صقلية ، وهي فقدانها حصن قصر يانة (كاستروجيوفاني) الداخلي عام ٨٥٩ (٢٩) . وبذلك لم يبق في يد القسطنطينية من الجزيرة إلا الساحل الشرقي بالقرب من سرقوسة ، والا بعض الأماكن الداخلية ، حيث ان ثلثي صقلية أصبح الآن في أيدي العرب .

وبعد ثماني سنوات صمم المسلمون على اكمال فتحهم ، فبعث حاكم بالرمو بجيش بري وبحرأقائه الى سرقوسة ، غير ان اسطول نجدة شرقي للبيزنطيين طرد المهاجمين في عام ٨٦٨ (٣٠) ، فانتقم بنو الأغلب عام ٨٧٠ باستيلائهم على مالطة . وهكذا أثبتوا للبيزنطيين سلطانهم التام على المضائق الافريقية - الصقلية (٣١) . وفي عام ٨٧٨ وُجّه هجوم ضخم نهائي على سرقوسة برأ وبحراً (٣٢) . ولم تصل في هذه المرة أية مساعدة بحرية ، فسقطت المدينة في ايدي القوات الاسلامية ، وبذلك لم يبق في ايدي البيزنطيين من جزيرة صقلية كلها إلا طبرمين (تورمينا) ومنطقة صغيرة عبر المضائق الممتدة من ريو (ريجيو) :

ومن الأسباب التي مكنت المسلمين من فتح جزيرة صقلية تهديدهم لأيطاليا ، ذلك التهديد الذي استحوذ على اهتمام أعدائهم . ولما كانوا حلفاء لنابولي في الساحل الغربي ، وكانت لهم قواعد ثابتة على ساحل الأدرياتيك عند باري وغيرها من الأماكن فقد كانت غزواتهم في العقد السادس من القرن التاسع ، داخل جنوبي ايطاليا ووسطها ، جد مدمرة . والواقع أنهم تراعوا كأنهم سيستولون على المنطقة كلها . ودب الذعر بقلب حاكم ايطاليا الكارولنجي ، لويس الثاني ، فقرر بتأييد بابوي ان يقوم بعمل

ضدهم ، الا أنه لم يصب من النجاح الا قليلاً . فهو لم يستطع ، وهو لا يملك اي اسطول ، ان يزحزح المسلمين عن حصونهم الساحلية التي استطاعوا ان يشنوا منها غزوات الى داخل البلاد . أما حصاره الطويل لباري مثلاً ، فقد تمكن ان يقوم به ولكن دون جدوى اذ كانت المنعطفات الساحلية في ايدي المسلمين (٣٣) .

وأخيراً أخذ المد بالتراجع عام ٨٦٧ ، فقد تلخّط كل من البندقية فالقسطنطينية في المياه الايطالية . أما البندقية ، ولربما بمحالفه لويس الثاني ، فقد نالت انتصاراً بحرياً بالغرب من كارتو ، وبذلك انتصت لانحارها في ذلك البحر قبل سبع وعشرين سنة (٣٤) . وأما الامبراطور البيزنطي باسيل الأول ، فقد بعث بأسطول مؤلف من مائة سفينة بقيادة النبيل نيكيتاس لانقاذ راغوصة (راجوزا) التي كانت تحاصرها قوة من كريت وتارنتو (٣٥) . ولما انتصر البيزنطيون في راغوصة (راجوزا) تحولوا الى ايطاليا . وفي عام ٨٧٠ ، ظهر اسطول أضخم من ذاك في مياه باري ، وكان يضم قطعاً بحرية راغوصية وبناسية ، تقابله من البر جيوش لويس الثاني . وقد برهن تدخلهم هذا على أنه كان حاسماً . وأخيراً سقطت المدينة بيد الملك الكارولنجي . غير أنه في الوقت نفسه نشب الحصار بين لويس والبيزنطيين اذ اتضح له ان يزنطية تناهض طموحه واهدافه في جنوبي ايطاليا . وبفضل هذه العداوة انقلب لويس راجعاً الى الشمال ليموت وهو خائب الأمل . أما باسيل الأول فقد جنى ثمار جهوده (٣٦) . ففي عام ٨٧٣ استعادت قواته اوترانتو ، وفي عام ٨٧٦ سقطت باري في يد البيزنطيين (٣٧) . والظاهر ان تارنتو وحدها هي التي بقيت عربية ، فمن هذه المدينة ، او ربما من كريت ، أبحر الأسطول الإسلامي الذي غزا البندقية عام ٨٧٥ ، واحرق ميناء كوماشيو الواقع عند مصب نهر بو ، وقد كانت هذه الحملة آخر الحملات الاسلامية على الادرياتيک الأعلى (٣٨) .

وبينما كانت قوة يزنطية البحرية هكذا تؤكد ثانية وجودها بمساعدة

البندقين في ساحل إيطاليا الشرقي ، نرى أنها كانت أقل نصيباً من النجاح في الساحل الغربي . نعم ان قوة بحرية صغيرة مؤلفة من عشر بوارج حربية بقيادة جورج ، حاكم كالابريا ، ظهرت في مياه بحر ترهانيا ، غير انها لم تفعل الكثير ، فقد تزايد ضغط المسلمين على طول هذا الساحل الايطالي . وفي عامي ٨٦٨ و ٨٧٢ قام المسلمون بحملتين غير موفقتين على جاييتا وسالرنو واحدة بعد الاخرى (٣٩) . وقد عانت المنطقة البابوية كثيراً من اعمال النهب هذه ، فبعث البابا حنا الثامن يلتمس الحماية من شارل الأصغر ، ومن بيزنطية ، وكل من المدن : أملف (أمالفي) ، وجاييتا ، و نابولي (٤٠) . الا أنه لم ينجح كثيراً . ولم تستطع القسطنطينية ان تسدي الا قليلاً لانتشالها في صقلية والشرق ، وتخوفاً من تودد البابا للكارولنجين . أما شارل الأصغر فلم تكن لديه قوة بحرية لارسالها ، وأما مدن كامبانيا فلم تشأ ان تسيء الى اصدقائها المسلمين . وفي النتيجة لم تتمتع ممتلكات الكنيسة في أواسط إيطاليا بشيء من الأمن الا بدفع ٢٥ ألف منكوسي فضي للغزاة (٤١) .

ولم يخف الضغط الا في عام ٨٨٠ لما ظهرت عمارة بحرية كبيرة للبيزنطيين في مياه صقلية وأصابها بعض النجاح . وقد قطع هذا الاسطول طرق التجارة بين المسلمين ومدن جنوب إيطاليا ، واستولى على كميات كبيرة من زيت الزيتون الى حد ان سعره قد تدنى كثيراً في أسواق القسطنطينية (٤٢) والظاهر ان البيزنطيين قد ركزوا هذا الاسطول بصورة دائمة ، في ثرمة (ترميني) الواقعة في المياه القريبة . وقد يكون لتأثير هذا الاسطول الفضل في إعادة نابولي الى ولائها لبيزنطية عام ٨٨٤ (٤٣) ، وكان قد طال عدم ولائها . الا ان الاسطول البيزنطي هذا لم يستطع ان يحول دون اقامة المسلمين عشاً للغزو في مونت جارجياليانو عام ٨٨٢ أو عام ٨٨٣ (٤٤) .

والظاهر ان قوة البيزنطيين البحرية كانت على قدر كاف لاشعار بلرم

بالخطر ، وفي عام ٨٨٥ قامت معاهدة بين المتنازعين (٤٥) . وفي العام نفسه بذلت بيزنطية جهداً في الغرب على نطاق واسع فأثرت في جنوب ايطاليا جيشاً ضخماً بقيادة فقفور (نيسيفوراس فوكاس) الذي أخذ يعمل طوال سنتين مستخدماً القوة والدبلوماسية . ولم تهل سنة ٨٨٦ حتى كان قد مكّن من جديد لقوة بيزنطية في جنوب ايطاليا ، واتحدت قلورية (كالابريا) وأبوليا ، واعترفت بانيفاتوم بسلطة البيزنطيين ، وكذلك فعلت مدن كامبانيا (٤٦) . وقد تراعى ، بهدوء مسلمي صقلية وقيام قوة بيزنطية البحرية باعمالها من جديد في بحر ترهانيا ، ان فجر سلام قد أشرق ، غير ان الأمر لم يكن كذلك ، فبعد وفاة باسيل الأول عام ٨٨٦ ، عاود المسلمون تعدياتهم قهاجموا فلورية (كالابريا) عام ٨٨٨ (٤٧) . ولهذا أبحرت سفن الاسطول الامبراطوري غرباً الى ريو (رييجيو) ، وعبرت مضائق مستينا . وقد اصطدمت بالقرب من ميلاط (ميلازو) ، عند شاطئ صقلية الشمالي بأسطول ضخم للمسلمين ، وبذلك أعاد تاريخ سنة ٨٥٩ نفسه ، فانهمز البيزنطيون شر هزيمة ودمرت سفنهم تدميراً تاماً (٤٨) . ولم يسد السلام في سنة ٨٩٥ حتى كانت القسطنطينية قد فقدت سلطانها التصدير المدى على مياه صقلية وغرب ايطاليا (٤٩) .

وبعد سبع سنوات ضرب بنو الأغلب ضربتهم النهائية ضد البيزنطيين . وقد قاد ابراهيم ، الملك الافريقي الذي تخلّى عن الحكم ، حملة بحرية وبرية كبيرة من بلرم عام ٩٠٢ وهاجم ما تبقى للبيزنطيين في صقلية ، وطبرمين (تورمينا) ، والنواحي المحيطة بها . وقد سقطت كلها ما عدا حصناً واحداً وهو طبرمين (تورمينا) الجديدة فقد بقي من غير فتح . وقد تابع ابراهيم زحفه المظفر من صقلية عبر المضائق الى قلورية (كالابريا) . ولم ينقذ ايطاليا المذعورة من شبح المصاب الذي أصاب طبرمين (تورمينا) الا وفاة ابراهيم فجأة في كوستزا ، وانسحاب جيش المسلمين الى صقلية (٥٠) . ثم ان القلاقل التي اصطحبت سقوط ملك بني الأغلب ، وقيام الفاطميين

في تونس قد ساعد الايطاليين على التقاط انقاسهم رغم ضعف البيزنطيين البحري والعسكري .

وبكلمة موجزة نقول ان صقلية قد سقطت عام ٩٠٢ بيد المسلمين الأفريقيين على الرغم من قتال بيزنطية المرير الطويل للاحتفاظ بها . غير ان بيزنطية حشدت في غضون ذلك قوة بحرية ، ايام باسيل الأول ، من اسطولها واساطيل حليفاتها الغربيات كالبندقية ، كانت كافية لاسترجاع باربي وتارنتو من المسلمين والسيطرة على مقدرات قلورية (كالابريا) وأبوليا ، واستعادة نوع من السيطرة على مدن كامبانيا غير الموالية ، وهي نابولي وجايتا وأملف (أمالفي) . ولم يبق الا عش قرصنة في مونت جاريجليانو قائماً كشوكة في جانب القطاع الجنوبي من الأراضي الايطالية . وما لبثت القوضى في افريقيا وصقلية ان أتاحت الفرصة لأزالة هذه القاعدة من قواعد التوغل الاسلامي وفي عام ٩٠٩ استولى الفاطميون على تونس وأصبحوا حكام القيروان . أما محاولاتهم للسيطرة على صقلية فكانت على كل حال أقل نجاحاً بادئ ذي بدء (٥١) . ولقد ثارت بلرم عام ٩١٣ ووجهت اسطولها الى أفريقيا الفاطمية في السنة التالية . ولما كان جزء كبير من القوة الأفريقية البحرية مشغولاً ، في ذلك الوقت ، بمحاولات ضم مصر الى ملك الفاطميين ، فان الصقليين ، بادئ الأمر ، لم يقابلوا بمقاومة شديدة ، فدمروا اسطولاً افريقياً عبر لانتي بالقرب من المهديّة ، وأنزلوا قوات برية استباحت صفاقس وهاجمت طرابلس (٥٢) . ولم يستطع الفاطميون استعادة سلطانهم على الجزيرة الا عام ٩١٧ ، وقد استخدموا نفس الاسطول الذي حنلوا به على مصر (٥٣) .

وفي غضون هذه الفترة اشترى حاكم قلورية (كالابريا) البيزنطي الأمن لولاياته من صقلية بدفعه ٢٢ الف قطعة ذهبية في السنة (٥٤) . وثمة شيء أهم من ذلك ، وهو أنه بالرغم من فشل الهجوم الذي قامت به نابولي وكابوا وأملف (مالفى) على مونت جاريجليانو عام ٩٠٨ ،

فقد رافق النجاح أعداد النهاية المسلمين عام ٩١٥ ، ذلك ان قوة بحرية برية مشتركة من البيزنطيين والإيطاليين ، بعد شعورهم انهم في نجاة من خطر تدخل الصقليين ، قامت بهجوم على الحصن الاسلامي . وكانت هذه القوة بقيادة نيقولاس بنسنجلي، وكانت تضم كذلك جنود بابوية وإيطالية، كما تضم جنوداً من نابولي وجاينا . وقد طرد المقيمون في الحصن ، كما حررت إيطاليا جنوب توسكانيا ، من مزعجهم المسلمين وذلك لأول مرة منذ عام ٨٤٢ (٥٥) .

هذا ويمكن ضعف بيزنطية البحري حول شواطئ إيطاليا وصقلية خلال هذه المدة في الصعوبات التي كانت تعانيها في الشرق وعلى الأخص في بحر إيجه شمال جزيرة كريت . فلقد وجدت القسطنطينية من الصعوبة بمكان ان تناهض الأعداء في كل من الميدانين الأيحي والغربي في وقت واحد . وكانت محاولات البيزنطيين للقضاء على الخطر الذي يتهددهم من كريت قد بدأت فور فتح مسلمي اسبانيا لجزيرة كريت من الاسكندرية في عام ٨٢٧ . وقد منيت إحدى حملات البيزنطيين الأولى ، وكانت بقيادة فوتينوس، بالفشل السريع (٥٦) . وكذلك كانت نتيجة حملة أخرى قام بها لاسترجاع الجزيرة كرائراس ستراتيغوس الكبير هايوتسي الذي قاد سبعين بارجة حربية لهذا الغرض من بلاده والبلاد الاغريقية والايحية (٥٧) . ولقد قام مسلمو كريت بعمل معاكس لهذه الحملات ، فأغاروا على ساحل تراقيا وجزر ساكيليد (٥٨) . وفي عام ٨٣٩ أصابوا نصراً عظيماً آخر على بيزنطية بتدميرهم اسطولاً اغريقياً بالقرب من جزيرة ثاسوس (٥٩) . وأخيراً أعدت القسطنطينية في العاصمة نفسها اسطولاً ضخماً عام ٨٤٣ بقيادة ثيوكستوس لاختضاع أولئك القراصنة المزعجين . على ان المكائد التي قام بها الكريتيون ، كانت على ما يظهر ناجحة الى الحد الذي حال حتى دون ابخاره (٦٠) .

ولم تستطع بيزنطية حتى عام ٨٥٣ ان تتخذ أي اجزاء بحري جديد في

هذه المياه ، وأخيراً قامت بهجوم ولكن ليس على كريت ، وإنما على الدلتا المصرية التي كانت على ما يظهر في تحالف وثيق مع قراصنة كانديا . وقد استباحت هذه الحملة دمياط ونهبتهما وعثرت على أسلحة معدة لارسالها إلى مسلمي كريت (٦١) . وفي عام ٨٥٩ أغير مرة ثانية على الدلتا المصرية (٦٢) . ولربما كان لهذه الغارات تأثير على كريت ، كما كان لهجمات بني الأغلب ، إذ لم يقم أهالي الجزيرة باقلاق راحة المنطقة البيزنطية مرة ثانية حتى عام ٨٦٢ ، ففي هذه السنة هاجموا ميلتين وجبل أثوس (٦٣) . وبعد أربع سنوات ، أي في عام ٨٦٦ ، أقاموا لهم قاعدة شبه دائمة في جزيرة نيون بالقرب من شبه جزيرة تشالسيدك (٦٤) .

وفي عهد باسيل الأول بعثت قوة بيزنطية البحرية في مياه بحر إيجه وكذلك في المياه الغرية . ففي عام ٨٧٩ استطاع اسطول ضخيم بقيادة الأميرال نيكيتاس أوريفا أن يلحق اسطولاً كريتياً في خليج كورنثوس (كورنت) ضامناً السلام في بحر إيجه لعقدين اثنين من الزمن (٦٥) . وعليه لم يقم الكريتيون بغارات جديدة حتى عام ٩٠١ . وكانت هذه الغارات على جزر سايبليد ، وقد استطاعت بعض السفن أن تنرغل حتى بحر مرمرة (٦٦) . أما الضربة العظمى فقد أنزلت عام ٩٠٤ ، ذلك أن ليو حاكم طرابلس ، تولى بعض السفن الكريتية ، هاجم سالونيك على نطاق واسع ، وهي ثاني مدينة في الامبراطورية . وكانت في طليعة هذا الهجوم سفن تستخدم القذائف اللاهية، وقد تكلل الهجوم بالنجاح التام، وأسر ٢٢ ألفاً من سكان المدينة حملوا أرقاء إلى البلاد الإسلامية (٦٧) . ومن الواضح أن هذه الغزوات قد حفزت القسطنطينية إلى أن تزيد من أجهزتها البحرية الهجومية ، ففي عام ٩١٠ وجهت حملة ضخمة على جزيرة كريت ، إلا أنها كسبقتها انتهت بالفشل ، وبقيت كانديا شوكة في جانب القوة البيزنطية في بحر إيجه (٦٨) . والواقع أن خطر كريت المهدد لأمن بيزنطية البحري لم يكبح إلا عام ٩٢٣ لما انتصر اسطول رومانوس ليكابينوس

المجدّد بالقرب من ليمنوس على اسطول القرصنة التابع لليو أمير طرابلس (٦٩) .
ومهما كان الأمر فإن مسلحي كانديا لم يكونوا أعداء القسطنطينية الوحيدين
في الشرق خلال هذه الفترة ، وإن كانوا أشدّهم خطراً وأكثرهم عناداً .
لقد كان لسورية وطرسوس بعض البحرية أيضاً في هذا الوقت . وعلى
كل حال فقد بدت هذه القوة مهملة الى ان قامت حملة بيزنطية في وقت
ما يقع بين عامي ٨٢٨ ، و ٨٤١ بنهب ميناء أنطاكية (٧٠) . والظاهر ان
هذا الحادث قد أقتنع العباسيين بأن شيئاً من الحماية البحرية لهذه الشواطئ
أمر ضروري ، بالإضافة الى تلك الحماية غير المباشرة التي تقوم بها العمارات
البحرية الكرثية والافريقية الى الغرب من الشواطئ المذكورة . ولهذا أمر
الخليفة المعتصم ببناء السفن في سوريا ، ولربما في طرسوس أيضاً . ولما تم
بناء هذا الاسطول ، وقد بلغ عدد سفنه ٤٠٠ سفينة ، أبحر عام ٨٤٢ متجهاً
نحو بحر ايجة . وقد أصيب بكارثة حيث دمرته العواصف عبر شاطئ آسيا
الصغرى ، فلم ينج منه الا سبع سفن (٧١) . وبعد بضع سنوات أغار
البيزنطيون على مصر عام ٨٥٣ ، مما أقتنع السلطات الحكومية فيها بضرورة
تنظيم قوة مصرية بحرية ، وإن كان مقدار ما أنشئ منها ما يزال موضع
جدل (٧٢) .

وقد زادت القوة البحرية الدائمة خلال النصف الثاني من القرن التاسع ،
في هذه المناطق ، وبصورة رئيسية في تخوم طرسوس حيث يبدو أنها كانت
تعمل تحت قيادة الأمير الذي كان مسؤولاً أيضاً عن قوات الحدود البرية
التي يستخدمها العباسيون ضد البيزنطيين . أما تلك القوة البحرية ، وربما
دعمتها قطع من أساطيل سوريا ومصر ، فقد كانت قوية الى حد مكنها
من شن هجوم على قاعدة أطالية (اثلية) البحرية في الأناضول البيزنطي عام
٨٦٠ ، مع الغزوات البرية التي شنتها القوات العباسية على آسيا الصغرى
(٧٣) . وفي عام ٨٧٣ قام اسطول طرسوسي - سوري ، ربما بدعم
من قطع كريت البحرية ، بغزو يوبويا في بحر ايجة (٧٤) .

والمعروف ان قوة البيزنطيين البحرية قد انتعشت في السنوات الأخيرة من حكم باسيل الأول . وقد تميزت بانتصاراتها على الكريتين في بحر ايجة عام ٨٧٩ ، وعلى بني الأغلب والصفليين في الغرب ما بين عامي ٨٨٠ و ٨٨٦ . أما هذا الانتعاش في تلك القوة فقد ساعد في كبح تلك الجهود البحرية التي قامت بها طرسوس وسوريا ومصر معاً . وهنالك حقيقة أخرى ربما كانت أهم من ذلك ، وهي ان المشاكل المحلية قد أدت بالمسلمين الى اهمال مقاومتهم البحرين التابعين للقسطنطينية . أما سبب تلك المشاكل والصعوبات فهو امتداد سلطة ابن طولون من مصر الى شواطئ سوريا وطرسوس . وأما طرسوس التي كان لديها أقوى اسطول ، فقد قاومت حتى عام ٨٨٨ قبل ان تخضع للدولة الطولونية . وفي هذه الحقبة كان باسيل قد استعاد جزيرة قبرص ليحكمها الكيسوس الأرمني ويجعل قطراً منظماً طوال سبع سنوات (٧٥) وبانهلال الدولة الطولونية الذي بلغ مداه باستعادة فتح العباسيين لمصر عام ٩١٤ عادت القوة البحرية لكل من طرسوس والساحل السوري الى سابق بأسها ومناعتها . فمن طرابلس ، وغيرها من المدن السورية الساحلية ، أبحر ليو أمير طرابلس بأساطيل قرصنة لم تكف باستباحة سالونيك ونهبها عام ٩٠٤ فحسب ، وانما ظلت ترعب الايبجين لحيل كامل . ومن طرسوس خرجت العمارة البحرية التي هزمت في نفس العام الاسطول الطولوني الضعيف في نهر النيل ، وأكدت سهولة فتح العباسيين للبلاد من جديد (٧٦) . ومرة ثانية اصبح لطررسوس اسطول مؤلف من خمس وعشرين سفينة هو الذي تمكن عام ٩٢٠ من هزم قوة بحرية فاطمية مؤلفة من ٨٠ بارجة حربية قرب الاسكندرية ، وكبح غزو افريقي لمصر ، ملقياً القبض على أميرال الاسطول الغازي ثم عائلته الى قيليقيا متنصراً (٧٧) . وكانت بيزنطية تحت حكم ليو الحكيم ضعيفة في البحر ، فلم تستطع ان تفعل الكثير ضد هذه القوة البحرية . والظاهر ان قبرص في عام ٩٠٢ كانت بقبضة البيزنطيين مرة ثانية ، وانه كان على حاكمها وعلى أمير

المردة (او الجرامقة) في اطلالة (اتلية) عبء خاص وهو منع المواصلات بين مسلمي كريت ومسلمي سوريا (٧٨) . أما القدر الضئيل من التجار الذي أصابوه فيتضح من الحملة الكبرى التي قام بها ليو أمير طرابلس على سالونيك عام ٩٠٤ . ومع هذا فقد كان لهم شيء من القيمة كمعصر ازعاج ، ولهذا فان دميانا ، أمير صور وقائد الاسطول السوري قد أغار في عام ٩١٢ على جزيرة قبرص لأنها لم تراع حيادها التقليدي في الحرب الناشبة بين العرب والبيزنطيين (٧٩) .

ومن هنا نرى من الناحية العامة أنه رغم النزاع في صفوف مسلمي طرسوس ، وسورية ، وحتى مصر فانهم تمكنوا من اقامة قوة بحرية كافية : وخاصة في اوائل القرن العاشر ، لاكمال تهديد كريت لطرق بيزنطية البحرية . ولم توقف بوارجهم البحرية عن كونها عنصر اهتمام شديد لحكام القسطنطينية الا بعد ان دمر اسطول ليو أمير طرابلس عام ٩٢٣ . وحتى في تلك الآونة فان السفن من ذلك الشاطئ القليلي - السوري نفسه قد كانت من القوة بحيث تمكنت عام ٩٣٥ من صد حملة فاطمية ثالثة على مصر ، واستطاعت ان تساعد الأنشيد ، حاكم سوريا ، على ان يصبح حاكماً لوادي النيل الخصيب (٨٠) .

ولو كان هؤلاء المقاومون البحريون المسلمون من أفريقيا وصقلية وكريت ، وكذلك طرسوس و...ية هم وحدهم الذين كان على بيزنطية ان تحاربهم في القرن الثاني لمام ٨٢٧ ، لكان ذلك كافياً في تفسير ضعفها البحري في البحر المتوسط . ولكن بالإضافة اليهم ظهر عدو بحري آخر في هذه الحقبة هدد مكائنها في البحر الأسود ، وهو منطقة كانت القسطنطينية تسيطر عليها سابقاً دون صعوبة . أما هذا الخطر الجديد فقد تمثل بالروس الفارانجيين من كييف وجنوب روسيا . وكان هؤلاء الروس اسكندنافيين ولربما سويديين في معظمهم . وقد ساقطهم المقادير الى هذه المنطقة للتجارة واعمال النهب على طول طريق فارانجيا التجاري الممتد الى ما وراء الأنهار

الروسية التي تصب في البحر الأسود وبحر قزوين . وفي المدن التجارية الواقعة على تلك الأنهار أصبح هؤلاء الطبقة الحاكمة السائدة التي تسيطر على الثروة التي تجلبها الصادرات والواردات الداخلة الى كييف ، وتفجروا وغيرهما من أمثال هذه المراكز (٨١) .

وكان ذلك النشاط التجاري هو الذي أدى الى معرفتهم بثروة القسطنطينية ، او تزارجراد ، التي أثارت طمعهم . ولهذا فقد شنوا في عام ٨٦٠ هجوماً واسعاً على المدينة من الشمال مستخدمين مائتي سفينة . ولقد اختاروا الوقت المناسب لحملتهم ، اذ كان اسطول بيزنطية الرئيسي قد انزل به بنو الأغلب أشد الدمار عام ٨٥٩ بالقرب من صقلية ، كما ان اسطول سورية الاسلامي كان يهاجم اتلية ، والكريتين كانوا يعملون في بحر ايجة . وهكذا نرى ان القسطنطينية لم يكن لديها قوة بحرية كبيرة لتستخدمها ضد مهاجميها الشماليين الذين حاصروها عشرة أشهر الى ان طردتهم عواصف الشتاء (٨٢) . وفي عام ٩٠٧ هاجموا المدينة مرة ثانية عندما كانت قوة بيزنطية البحرية في تدهور كما كانت عليه الحال عام ٨٦٠ وذلك بعد فقدان طبرمين (تورمينا) في الغرب عام ٩٠٢ ، واستباحة ليو أمير طرابلس سالونيك ونهبها عام ٩٠٤ . ولولا هذه الأسباب لتغلبت بيزنطية عليهم بسهولة (٨٣) . غير ان قوتهم البحرية وخطرها في البحر الأسود كان من شأنه ان عقّد مشاكل دفاع القسطنطينية البحري تعقيداً كبيراً .

لقد كانت قوة المسلمين البحرية في اواسط البحر الأبيض المتوسط وشرقية هكذا في صعود ، والروس يهددون سلطة البيزنطيين على البحر الأسود ، فكيف كان الوضع في الغرب ، والحال مع المسلمين في اسبانيا ؟ ان الدولة الأموية في الاندلس لم تظهر من الاهتمام بالقوة البحرية بالبحر الاوسط . مثل ما كانت تظهره الاقطار الاسلامية الاخرى . أما أسباب ذلك فمنها ما يرجع الى ان حكام قرطبة تابعوا سياسة الود السابغة نحو القسطنطينية ، ومعاداة العباسيين . ولهذا فانهم لم يلعبوا اي دور

وخاصة في حملات بني الأغلب الأفريقية على صقلية وإيطاليا : ولم يحدث ان قامت قوة من اسبانيا بمساعدة اعداء بيزنطية الا مرة واحدة ، وذلك عام ٨٢٩ . لقد اشتركت حملة من طرطوشة ، لمدة قصيرة ، في الهجوم على صقلية ، الا أنها ما لبثت ان انسحبت . ولما كان الكارولنجيون في عام ٨٢٨ يساعدون بيزنطية في الهجوم على بونه (عنابة) فقد بتجلى في هذا العمل تفسخ موقت بين الحلفاء القدامى . وعلى الرغم من أن النهايين من اسبانيا ربما قد انضموا فرادى الى اساطيل الغزاة وجموعهم التي عانت في السواحل الإيطالية ، وفتكت بالتجارة ، منقضة من الحصون الاسلامية أمثال جاريغيليانو وتارنتو وباري وكريت ، فان العلاقات بين اسبانيا وبيزنطية قد بقيت علاقات ود وصداقة . وهذا هو الامبراطور ثيوفيلوس يرسل في عام ٨٣٩ الى كل من بلاط عبد الرحمن الثاني ، وبلاط لويس الثاني ، سفراء يلتمسون له العون على اعدائه المسلمين في صقلية وافريقيا . وقد قوبل سفراؤه بالترحاب وقامت قرطبة بارسال بعثة مماثلة الى القسطنطينية ، الا أنه لم يكن منها سوى الكلمات المعسولة (٨٤) .

على ان هذا التصرف الودي لم يكن قائماً في العلاقات بين الامويين في اسبانيا والكارولنجيين ، فقد كانت العداوة بين هاتين الدولتين طويلة ومستمرة . أما القوة البحرية التي كانت تمتلكها اسبانيا في اوائل القرن التاسع فكانت تحتشد على طول الساحل الشمالي الشرقي من طرطوشة الى بلنسية . وكان الجميع يوجهونها ضد الكارولنجيين ما عدا أمير سرقسطة المستقل . وقد انحلت قوة الكارولنجيين البحرية في السنوات الأخيرة من حياة لويس الثاني ، وضاعت كل من طرطوشة وبرشلونة ، ووهبت السيطرة على شمال إيطاليا . ولهذا فقد رأى مسلمو اسبانيا انهم يستطيعون غزو الخطوط الساحلية بقوة ، فشرعوا عام ٨٣٨ بارسال اسطول من تراقونه يضم بعضاً من سفن جزر الباليار الى مرسيلى (٨٥) . وفي عام ٨٤٢ جاء دور آرلس وضواحيها (٨٦) . . وفي عام ٨٤٦ نزلت بمرسيلى

المصائب مرة أخرى (٨٧) . وفي عام ٨٤٨ قبلت جزر البليار (الباليا) ،
بالسيادة الاموية ووعدت بعدم التدخل بسفنهم (٨٨) . وفي هذه السنة
نفسها ، وكذلك في عام ٨٥٠ تعرضت آرلس للهجوم مرة أخرى (٨٩) ،
واخيراً أصبحت المقاومة على ساحل فرنسا الجنوبي ضئيلة الى حد ان القراصنة
المسلمين تمكنوا من تركيز انفسهم في جزيرة كامارغ عند مصب نهر
الرون ، وذلك في قاعدة شبه دائمة (٩٠) . ومن هنا امتدوا الى الداخل ،
وفي عام ٨٦٠ أسروا اسقف آرلس (٩١) . ولربما مكنو أنفسهم تمكيناً
شبه دائمي أيضاً في مكان آخر على الشاطئ عند أنقاض ماجلون أو قربها .
وتشهد منشآتهم المترجّة التي أقاموها هناك فيما تلا من أزمان على وجودهم
في تلك المنطقة (٩٢) . ولم يخفف من غاراتهم ونهبهم لهذا الجزء من فرنسا
الا معاهدة سلم مهينة وقعتها شارل الأصغر عام ٨٦٤ .

ويبدو ان اعمال النهب البحري قد سارعت في اواخر القرن التاسع
الى بلوغ ذروتها . فبالإضافة الى قاعدتي الغزو شبه الدائمتين ، وهما
كامارغ وماجلون ، نرى ان مسلمي اسبانيا ، قد أقاموا في عام ٨٨٨ ،
ولربما بتأييد من آخرين ، قاعدة أكثر دائمية عند فركسينثوم على ساحل
بروفانس . ومن هذا الموقع تابعوا غزوهم الى الداخل ، كما جرى قبل
ذلك من باري وجاريجليانو . وقد عانى معظم اقليم بروفانس ، ومنطقة
وادي نهر الرن الأسفل من غاراتهم المستمرة طوال ٨٤ سنة . لا بل
انهم توغلوا في جبال الألب وسيطروا على الممرات الواقعة بين فرنسا
وايطاليا من مونت سيني الى البحر الأبيض المتوسط ، جاعلين المرور
بهذه الطرقات الى وادي البوعسيرا ان لم يكن مستحيلاً (٩٣) . أضف
الى ذلك ان مسلمي اسبانيا احتلوا في عام ٩٠٢ جزر البليار احتلالاً
نهائياً ، وعينوا والياً عليها (٩٤) . وعلى الرغم من ان هذه الجزر كانت
منذ عام ٨٣٨ تحت النفوذ الاسلامي الا ان ضمها النهائي لم يتم الا في العام
٩٠٢ المذكورة ، وربما عاد هذا التأخر الى ضعف الأمويين في البحار :

على ان هذا النمو المتدرج في قوة الأمويين البحرية في هذا الاتجاه ،
 لم يدعّمه في القرن التاسع تنامي قوة بحرية في باقي أنحاء شبه الجزيرة . فالواقع
 انه لم يكن للأمويين اسطول منظم تنظيمًا حقيقياً في هذا القرن بالمرّة ،
 وان كانت اقامة قاعدة فرسينتوم ، واحتلال جزر البليار قد أشارا الى
 يزوغ عصر بحري . أما ضعف قوتهم البحرية فيتجلّى بعدم استعداد
 اسبانيا لغزوات الاسكندنافيين القدامى في منتصف هذا القرن . أما اولى
 غزوات القراصنة الاسكندنافيين فقد وقعت عام ٨٤٤ عندما هاجم اسطول
 لحولاء القراصنة ، مؤلف من ٥٤ سفينة ، مدينة لشبونة ومن ثم انضمت
 له ٢٦ سفينة اخرى ، واتجه لنهب اشيلية ونيقور على الشاطئ الافريقي (٩٥).
 ولما كان الحكام الأمويون توزعهم البوارج البحرية في هذه المنطقة فقد
 عجزوا عن صد اولئك المغيرين . وبدلاً من ذلك نراهم يرسلون بعثة
 للتفاوض مع ملك اولئك القراصنة الاسكندنافيين ، والظاهر ان هذه البعثة
 قد قامت بزيارة جوتلند ، وانها قبلت هناك بالترحاب (٩٦) .

على ان هذه الجهود الدبلوماسية لم تضمن للأمويين اية مناعة حيال
 غزوات اخرى ، ففي عام ٨٥٨ قام القراصنة الاسكندنافيون بهجوم اكبر
 على اسبانيا . وقد ظهرت سفنهم مرة اخرى في نفس العام بالقرب من
 الجزيرة الخضراء ونيقور ، ومن ثم أقلت الى البحر الأبيض المتوسط ،
 حيث استباحن اريبولا ونهبتها ، وهي واقعة على الساحل الشرقي ، وكذلك
 فعلت بجزيرتي مايوركا ومينورقة ، وقد أقاموا في جزيرة كارمايا على نهر
 الرون طوال فصلي شتاء (٩٧) . ومن هناك توغلوا في الداخل مجتاحين
 مدينتي لوني وبيزا على الشاطئ الايطالي فكانتا ضحيتين اخريين من ضحاياهما .
 ولقد أبحر البعض منهم الى شرقي البحر الأبيض المتوسط ، وقاموا بغزو
 اللردنيل وربما الاسكندرية ايضاً قبل قفولهم راجعين الى مواطنهم الشمالية (٩٨).
 ان حملة الفايكنج الجرثمة هذه لا تدل على ضعف اسبانيا البحري
 . وبحسب في تلك الحقبة من الزمن ، وانما ترجع اهميتها كذلك الى كشفها

عن الموقف البحري في عالم البحر الأبيض المتوسط كله . ولقد عرف أولئك القراصنة الاسكندنافيون كيف يتجنبون جميع المناطق التي تمخز فيها الاساطيل الحربية التي تستطيع ان تتدخل في اعمال النهب التي يقومون بها . وهذه المناطق كانت الشاطئ الاسباني بين دينيا وطرطوشه ، وشمال افريقيا وصقلية التابعتين لبي الأغلـب وجنوب ايطاليا ، والشاطئ السوري . اما ضحاياهم فكانت جنوب اسبانيا وجنوب فرنسا وشمال غرب ايطاليا والدرديـل ومصر . وهي المناطق التي لم يكن ليوجد فيها الا الضئيل من القوة البحرية ، او التي انعلمت فيها هذه القوة خلال تلك الحقبة من الزمن .

هذا ، وكان من شأن هذه الغزوة الكبيرة ان حملت حكام قرطبة على شيء من التفكير في الموضوع ، على أنه لحدير بالذكر أنها لم تؤد بهم الى بناء قوة بحرية منظمة خاصة بهم . وذلك يتضح خلال عام ٨٧٩ حيث جرت محاولة لبناء اسطول في قرطبة لاستخدامه في حملة على غاليـسية المسيحية . ولم يكـد هذا الاسطول السيء البناء ، الفقير بالبحارة الماهرين يصل الى المحيط حتى غرق فيه (٩٩) . ولم تظهر لاسبانيا ، على العموم ، قوة بحرية منظمة حق التنظيم الا دلى عهد عبد الرحمن الثالث في القرن العاشر .

غير ان الوضع الذي ساد عالم البحر الأبيض المتوسط في اوائل القرن العاشر لم يدم طويلاً . وكان يضم ذلك العالم الشعوب الاسلامية في جزر البليار غرباً ، وجزيرة صقلية في الوسط ، وجزيرة كريت شرقاً ، بالإضافة الى جزيرتي سردينيا وقبرص المحايدتين . أما كيف لم يدم طويلاً فان بيزنطية في الشرق ، واسبانيا الأموية في الغرب قد شرعتا في توسيع قوتيهما البحريتين فزعزعتا من التوازن البحري الذي كان موجوداً آنذاك ، ذلك أن كلا من رومانوس ليكابينوس في القسطنطينية ، وعبد الرحمن الثالث قد وجه اهتمامه الكامل الى الشؤون البحرية فحققا في ذلك نتائج على جانب عظيم من الأهمية .

أما رومانوس ليكابينوس الذي اغتصب عرش بيزنطية وأصبح امبراطوراً ، فقد كان قبل ذلك اميراً للأسطول البيزنطي . والظاهر أنه كان اول حاكم

يزنطي ، منذ باسيل الأول ، يقدر أهمية الاسطول لامبراطوريته حق التقدير . ففي عهده تقدمت قوة القسطنطينية البحرية من الدرك التي وصلت اليه في عهد ليو الحكيم . وقد تمكن بانتصاره عام ٩٢٣ على اسطول ليو أمير طرابلس من تحرير الايجيين من نهب القراصنة لأول مرة طوال اكثر من عقدين من الزمن . وفي عام ٩٢٨ بعث وحدات من اسطوله لغزو مصر لأول مرة منذ عام ٨٥٩ (١٠٠) ولسوء حظه هبت عاصفة شتت شمل عمارته البحرية قبل ان تتزل بمصر الكثير من اللمار .

ولم تهل سنة ٩٤١ حتى كانت يزنطية على درجة من القوة في البحار كافية لأن تشت وتلمر قوة بحرية ضخمة للروس مؤلفة من ألف سفينة بقيادة ايجور اميركييف ، كانت قد هاجمت القسطنطينية (١٠١) وفي عام ٩٤٩ وجهت حملة كبيرة على كريت ، على أنه بالرغم من ضخامتها لم تتمكن من أخذ كانديا ، ذلك الحصن الاسلامي المنيع وبقيت جزيرة كريت بأيدي المسلمين (١٠٢) . وفي عام ٩٥٤ شعر القراصنة البيزنطيون ، على كل حال ، أنهم يتمتعون بالحرأة الكافية لغزو القرما داخل الدلتا المصرية (١٠٣) . أما الاسطول البيزنطي الجديد الذي اتبع لنقفور (نيسيفورس فوكاس) ان يستخلمه بقوة فيما بعد فقد كان موجوداً في تلك الأيام .

وكانت يزنطية ذات نشاط أيضاً في المياه الغربية ، لأن الحاجة كانت تدعو الى الحركة هناك كما هي الحال في الشرق . اذ ما كادت الدولة الأموية تستعيد سلطتها على صقلية عام ٩١٧ حتى راح سكانها وسكان الشمال الأفريقي كذلك يقومون بغاراتهم البحرية على الأقاليم البيزنطية . ففي عام ٩١٨ (١٠٤) وعام ٩٢٤ أغير على قلورية (كالابريا) في المنطقة القريبة من ريجيو (١٠٥) . وفي عام ٩٢٥ استبيحت اوريو (١٠٦) . ولهذا رأى حاكم قلورية من الحكمة ان يمدد دفع جزية تبلغ ١١ ألف قطعة ذهبية سنوياً ليمنع هذه الغزوات عن بلاده (١٠٧) ، وعندئذ حول الفاطميون

اهتمامهم الى مناطق اخرى . ففي عام ٩٢٨ هاجمت ٤٤ سفينة مدينة تارنتو (١٠٨) وارثأت سالرنو ونابولي في نفس الوقت تقريباً ان تفوزا من البسالة بدفع الجزية .

وقد يكون هذا الضنط البحري الذي قام به المسلمون من صقلية وافريقيا هو الذي ادى بقوات بحرية بيزنطية كبيرة الى الظهور ثانية في بحر ترهانا لأول مرة منذ عام ٨٨٨ . وقد هاجم هذا الاسطول ، بشئ من النجاح ، عش القرصنة في فركسيتوم الواقعة على ساحل اقليم بروفانس ، ذلك العش الذي ربما كان يعترض تجارة مدن ايطاليا الساحلية : املف وجايتا ونابولي وسالرنو . على انه لم يستطع ان يحقق هدفه ، ذلك انه كانت تعوزه القوات البرية (١٠٩) . وفي عام ٩٤١ استطاعت دبلوماسية بيزنطية ان تكسب الى جانبها هيو ملك ايطاليا ، وقد وعد ان يهاجم الحصن الاسلامي من الناحية البرية ، بينما يقوم اسطولها بالهجوم بحراً . أما الهجوم البحري فقد كان ناجحاً ، وأما هيو فقد تخلّى عن وعده ، وبقي المسلمون يسيطرون على قاعدتهم في اقليم بروفانس (١١٠) .

والظاهر ان تجدد قوة بيزنطية البحرية في حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي قد اقلق الفاطميين . وعلى كل حال فقد بعثوا في عام ٩٢٥ باسطول مجهز تمام التجهيز بغية توكيد قوتهم في بحر ترهانيا ، فهاجم سردينيا وكورسيكا ، وربما مدينة جنوا ، وأحرق عدداً كبيراً من السفن (١١١). وهذه الحملة على سردينيا لأول مرة منذ سنوات عديدة ، قد تعكس لنا سلطة بيزنطية مجدية على هذه الجزيرة التي كانت لمدة قرن من الزمن على الأقل مستقلة ، وكانت شأنها شأن جزيرة قبرص ، ذات وضع حيادي بين بيزنطية ومسلمي صقلية وشمالى افريقيا (١١٢) . أما الفاطميون فما لبثوا أن كفّ نشاطهم سلسلة من الأحداث المحلية الخطيرة . فبعد حملتهم الثالثة غير الموفقة على مصر عام ٩٣٦ ، ثارت صقلية ولم يستطيعوا ان يخضعوا عصاة الجزيرة الذين كانت تساعد بيزنطية الا بعد ثلاث سنوات من عصيانهم ، اي من ٩٣٧ الى

٩٤٠ (١١٣) . وبعد بضعة سنوات حدث ما هو أشد خطورة وهو ثورة « صاحب الحمار » (أي محمد بن كيداد ، أبي يزيد الخارجي) في شمال أفريقيا ، وقد هددت بالقضاء على ملكهم الأفريقي كله (١١٤) .

ولم يستطيعوا أن يحولوا لاهتمامهم إلى إيطاليا التي يسيطر عليها البيزنطيون إلا عام ٩٥٠ ، ففي هذا العام هاجموا كالابريا بجيش ضخم واسطول بحري كبير ، وقد عجز البيزنطيون عن المقاومة بصورة فعالة ، وخسروا نبيلاً من نبلائهم وقائد ذلك القطر في أرض المعركة (١١٥) . وهكذا لم يستتب السلام إلا بدفع الجزية القديمة من جديد . والظاهر أن ضعف بيزنطية ، الذي اتضح في الميدان ، قد أضعف أهاالي نابولي بعدم جدوى ولائهم للقسطنطينية ، فاستمروا على إهمالهم له ، غير أن ولاية القسطنطينية في الغرب ، ما لبثوا على كل حال ، أن استعادوا سيطرتهم على المدينة عام ٩٥٦ باحتلالهم إياها أثر هجوم بري وبحري شنه عليها (١١٦) . وفي الوقت نفسه تقريباً إقيمت دبلوماسية ودية جديدة مع الأمويين في إسبانيا وهم أعداء الفاطميين الألداء (١١٧) . ويبدو أن هذا العمل قد قضى على تلك المعاهدة غير الثابتة مع بلرم وبذلك بدأت الحملات المعاكسة على قلورية وصقلية مما أثار الاضطرابات في السنوات الأخيرة من هذه الحقبة . ولم يخيم السلام على تلك الربوع من جديد إلا عام ٩٦١ على الأساس القديم ، وهو أن تقوم قلورية بدفع الجزية (١١٨) . وعليه فإننا نرى أن بيزنطية في هذه السنوات ، قد قامت بنشاط أوسع وأشد في الشرق والغرب من الذي قامت به في أوائل القرن التاسع ، كما تمكنت بقواتها البحرية الكافية من حصر الفاطميين ، ومن التمسك بنابولي ، واستعادة علاقاتها الدبلوماسية مع إسبانيا ، والتدخل البحري عبر ساحل فرنسا الجنوبي . ولقد شاركت إسبانيا الأموية بيزنطية في هذه القوة البحرية الغربية الجديدة . وقد يكون السبب في تطور إسبانيا البحري عائداً إلى تخوف عبد الرحمن الأكيد من مطامع جيرانه الفاطميين في أفريقيا ، ذلك أن الفاطميين ، بمذهبهم الشيعي ومطامعهم الواسعة في بلاد الأدارسة وبني رستم في الجزائر ومراكش

وهما تحت النفوذ الإسباني بوجه عام ، إنما كانوا خطراً على ملك الأمويين في إسبانيا (١٩٩). ولهذا يتبين أن عبد الرحمن الثالث قد أنشأ ضدهم ذلك الأسطول المنظم تنظيماً رائعاً على طول الساحل الإسباني . وقد استولى في عام ٩٤٤ على سبتة الواقعة على الشاطئ الأفريقي قرب جبل طارق (١٢٠) . وفي عام ٩٤٤ برهن نفس هذا الأسطول على جدواه أمام عدو آخر . ففي هذا العام ظهرت قوة الفايكنج في مياه الأنلس ونهبت قادش والمدينة وشدونة (صيدونيا) واشيلية . غير أن اسطول المسلمين الإسباني هاجم اولئك الدخلاء بالقوة ، ودمر معظم سفنهم المغيرة مشعلًا فيها النيران . أما أولئك القراصنة الشماليون فلم ينج منهم الا القليل (١٢١) .

وبعد هذا التاريخ بقليل أخذت أيدي الفاطميين باللعب ، ذلك أنهم كما كادوا ينتصرون على العصاة في صقلية وإفريقيا حتى حولوا أنظارهم إلى الخلافة في قرطبة . ففي عام ٩٥٤ أصدر الحاكم الفاطمي أمره إلى أمير بالرمو بنهب إسبانيا ، فبعث الأخير بأسطوله الصقلي إلى الشاطئ الإسباني حيث قام بنهب ألمرية ، وهي القاعدة البحرية الرئيسية للامويين ، وحمل في عودته إلى صقلية الكثير من الأسرى والغنائم (١٢٢) . وعملاً بأخذ الثأر وجه الخليفة في قرطبة عمارة بحرية إسبانية مؤلفة من سبعين سفينة لغزو الشواطئ الأفريقية ونهبها (١٢٣) . وتوالى الغزوات والغزوات العاكسة طوال السنوات القليلة التي تلت دون توقف الا في فترات قصيرة ، بينما راح قائد الفاطميين القدير ، جوهري ، يقود الجيوش غرباً حتى تغلب على الأدارسة وبني رستم . وأقام حكم سيده على سجلماصة وفاس وداخل الجزائر ومراكش كله . ولم يبق في أيدي عبد الرحمن الا سبتة عام ٩٥٩ اذ لم يفتحها الفاطميون (١٢٤) . أما الأسطول الذي بناه حاكم قرطبة فقد بقي على قوته خطراً على منافسيه الفاطميين في المهديّة .

وجدير بنا عند هذا الحد أن نلخص نتائج النشاط البحري طوال مدة القرن وربع القرن هذه في البحر الأبيض المتوسط . لقد توغل المسلمون

من مراكزهم الساحلية الممتدة من سورية الى فرنسا قبلوا منتصف البحر المتوسط في اوائل عام ٨٢٧ . وقد أقاموا لهم حصوناً قوية ثابتة في جزيرة كريت ، وأجزاء من صقلية . ومن هذه المراكز أنشأوا لهم قواعد أمامية في باري وجاريجليانو . وقد تبعوا نفس الأسلوب في الغرب ، وإن كان ذلك جاء متأخراً ، فلعبت جزر البليار دور جزيرتي كريت وصقلية ، كما لعبت فركسيتوم دور باري وجاريجليانو . أما سردينيا وقبرص فلم تشغلهما هذه الأحداث إذ كانتا في حياد عنها ، وهما لم تلعبا غير دور صغير ، وفي فترات قصيرة ، في هذا التقدم .

وأما الدولة الكارولنجية التي تأثرت وحدها بهذا التوغل الإسباني الإسلامي ، فلم تستطع أن تقاوم بصورة من الصور . فإن اسطولها كان ضئيلاً باستمرار ، حتى أن هذه القوة البحرية الصغيرة تلاشت عند اختلال امبراطورية شارلمان في أواخر حكم لويس الثاني . وهكذا نرى أن بيزنطية قد تمكنت من المقاومة بقلد اكبر من النجاح ، وذلك لموقعها الجغرافي الأفضل ، وغناها الأعم ، وتنظيمها الأدق . ولربما كان أكثر ما تدنت اليه قد وقع عام ٨٦٠ ، وذلك أثر الكارثة البحرية التي نزلت بها قرب صقلية ، عندما هاجم الروس القسطنطينية ، والقراصنة الشماليون الدردنيل ، والسوريون ساحل آسيا الوسطى ، وعندما قام أهالي كريت بأعمال النهب الواسعة في بحر أيجه .

وفي عهد باسيل الأول تمتعت القسطنطينية بفترة نهضة بحرية ربما كان الفضل فيها راجعاً إلى إعادة تنظيم الأسطول في أيام ميخائيل الثالث . فقد هُزم الكريتيون في بحر أيجه واستعيد اختلال قبرص بقوة . وبمساعدة البندقية أخليت أبوليا من غاراتها المسلمين ، وتمكن نفقور (نيسيفورس فوكاس) بقوة أسطول بيزنطي غربي مجدد من إعادة تنصيب حاكم ثابت على أجزاء من جنوبي إيطاليا .

غير أن هذا الهجوم المفاكس قد أوقف ، على كل حال ، أثر الضرورة الكبيرة التي نزلت بالبيزنطيين بالقرب من ميلاط (ميلازو) عام ٨٨٨ :

وتلت ذلك فترة انحطاط بحري كان ادنى ما وصل اليه في السنوات الأخيرة من عهد ليو الحكيم ، وذلك عندما ضاعت طبرمين (تورمينا) ونهب سالونيك وسقطت جزر بحر ليجه في أيدي ليو أمير طرابلس ، ولعل الروس الفارنجيون قاموا أيضاً بهجوم آخر على القسطنطينية نفسها. ولم ينقذ البيزنطيون من هذه الحالة التمسع الا تدمير قاعدة جاريحليانو عام ٩١٦ ، والفضل في ذلك راجع ، بصورة رئيسية ، الى اضطرابات الفاطميين الداخلية .

وأخيراً بدأ عهد انتعاش بحري بيزنطي شامل منذ حكم رومانوس ليكاينوس ، وذلك لاثبات قوة بيزنطية في البحر . وما لبثت بوارج حرية بيزنطية أن ظهرت بقوة بالغة في المياه الغربية مرة أخرى ، وأخلي بحر ليجه من اسطول القرصنة التابع لليو أمير طرابلس ، وهوجمت كريت بشده عام ٩٤٩ . وقد اندحر الروس اندحاراً قاسياً في هجوم شنوه على العاصمة عام ٩٤١ . وفي عامي ٩٢٨ ، و ٩٥٤ هوجمت مصر ، وفي هذه الغزوات برهن البيزنطيون ، من جديد ، على قوتهم البحرية في تلك المنطقة لأول مرة منذ سنوات عديدة . وهكذا أصبح أسطول القسطنطينية مرة أخرى ، قوة هجومية كبرى يحسب حسابها .

وفي الوقت الذي انتعشت فيه بيزنطية من هذه الناحية ، كانت إسبانيا الأموية قد أصبحت قوة بحرية عظيمة لأول مرة في تاريخها تحت حكم عبدالرحمن الثالث . فالأمويون لم يسيطروا على جزر البليار ، والقواعد الأمامية على طول سواحل فرنسا الجنوبية فحسب ، وإنما أخذ الفاطميون كذلك في أفريقيا وصقلية ينظرون الى قوة الأمويين البحرية بعين الاهتمام .

أما كيفية تنظيم هذه القوة البحرية الإسلامية في مناطق صولتها الثلاث للكبرى : إسبانيا ، وشمال أفريقيا ، وصقلية ، أو في كريت وسوريا ومصر ، فمسألة ما زالت صعبة الإيضاح . فالمعلومات عن ذلك ضئيلة ومبعثرة وكثيرة الاضطراب . على أن الخطوط العريضة واضحة على الأقل . فمن

ناحية نرى أن أساطيل الثغور الإسلامية ، مثل تلك التي كانت تحت قيادة أمراء سرقسطة وطرسوس وكريت او تحت أمراء بلرم في سابق الأيام ، إنما كانت نوعاً ما أساطيل غير رسمية ، وكانت أشبه بأساطيل قرصنة معظم بحارتها من المغامرين المسلمين أو المرتدين من المسيحيين الذين لا يثير جل اهتمامهم الا النهب والغنائم . ولقد ترك لنا ابن حوقل في أواخر القرن العاشر صورة واضحة عن أولئك النهائيين في وصفه لتلك الناحية التي كانوا يسكنونها من بلرم (١٢٥) . أضف إلى ذلك وصف القريري المائل لإعادة تنظيم الأسطول المصري بعد غارة البيزنطيين عام ٨٥٣ حيث ترك لنا صورة لأولئك البحارة الذين لم تدفع لهم اجور طيبة ، والذين كانوا يتجنّدون بغير نظام ، وينظر اليهم أفراد المجتمع الإسلامي الأكثر احتراماً نظرة وضعية (١٢٦) . وقد لا يكون تنظيم قوات الحدود البحرية هذه أكثر رسمية من تنظيم القوات البرية التي قامت طوال قرون بغزوات داخل المناطق المسيحية على طول حدود ابيرو الإسبانية او حدود طوروس البيزنطية . ولم تشمل أساطيل القرصنة في شواطئ البربر عن هذا النظام كثيراً خلال القرن التاسع عشر المتأخر .

لقد كان هذا الأسلوب القرصني أشد وضوحاً في الدور الذي لعبته مراكز أخرى من أمثال باري ومونت جارجيلانو وفركيستوم ، وكان كل من أعشاش القرصنة هذه مستقلاً بمحذاته ، وان كانت باري تبدو معتمدة على كريت وربما على أفريقيا أيضاً الى حد ما ، ومونت جارجيلانو على صقلية ، وفركيستوم على إسبانيا في دعمها وشد أزرها . أما نشاطها فيشبه قراصنة البحر الكاريبي في القرن السابع عشر أكثر من نشاط القوات البحرية المنظمة تمام التنظيم . فحاكم باري ، أو حتى أمير كريت ، أو ليو حاكم طرابلس قد عملوا في البحار بطريقة لا تختلف عن الطريقة التي جرى عليها هنري موزجان في بورت رويال بعد ثمانية قرون . أما علاقة أولئك القراصنة بالتجار المسلمين الطيبين التابعين لبلرم والاسكندرية وطرابلس

وسرقسطة ، أو حتى بتجار نابولي المسيحيين فتشبه علاقة دريك وهوكتر بتجار بلايموث وبيرسول ، أو علاقة بلاكيرد بتجار موانئ كارولينا في أميركا الشمالية . لا بل أنه كان في أيام الفاطميين في شمال أفريقيا ضريبة حكومية تبلغ العشر على اعمال الحملات التي يقوم بها القراصنة (١٢٧) . مما يذكرنا بنظام الزباث ملكة إنجلترا في القرن السادس عشر . فالغزو في البحار كان عملاً معيئاً ومثمراً لأولئك المحظوظين أو المهرة من القراصنة . على أن وراء أساطيل القرصنة وقواعدها الأمامية هذه مكان لعالم البحر الأبيض المتوسط الاسلامي نظام بحري أفضل يتسم بطابع أثبت وأنظم . وينطبق ذلك بصورة خاصة على بني الأغلب والفاطميين في شمال أفريقيا من القرن التاسع وصاعداً ، وعلى صقلية في القرن الذي يتلوه على الأقل (١٢٨) : فهناك كانت تبني الأساطيل بأحواض سفن نظامية ، وتجهز بالسلاح والبحارة عن طريق الحكومة ، ويسيرها بحارة محترفون من امراء البحر حتى الربانة ، كما كانت قادرة على مواجهة الأسطول البيزنطي الامبراطوري في المعارك البحرية الحامية الوطيس . فان الانتصارات التي سجلتها العمارات البحرية التابعة لصقلية وشمال أفريقيا بالقرب من صقلية خلال العامين ٨٥٩ و ٨٨٨ ، والتي قضت على آمال البيزنطيين في التمسك بهذه الجزيرة ، انما قامت بها قوات بحرية منظمة .

أما فيما يتعلق بنظام اسبانيا البحري في القرن العاشر فهناك معلومات كثيرة ، يمكن أن تشمل كذلك مناطق اسلامية أخرى . فالمعلوم أن امير البحر المسؤول عن الأسطول الأموي الإسباني إنما كان واحداً من الأربعة الكبار في الخلافة ، ويقال « أنه قاسم الخليفة السلطة الملكية في طريقة من الطرق ، فكان يحكم في البحر كما كان الخليفة يحكم في البر » وكانت ألرية هي القاعدة البحرية الرئيسية ، وفيها كانت تقام أهم أحواض السفن التي تجهز المائتي سفينة التي يتألف منها الأسطول النظامي : وكان هناك على ما يبدو أحواض أخرى لبناء السفن في بكينا والجزيرة وقصر دوسول واليكانت وغيرها .

وقشتالة دى امبورياس (طرطوشة) . وكان من المتبع ان ترسو بعض السفن في كل من هذه القواعد ، وأما في وقت الحرب فتحشد في مكان معين ، وكان هذا المكان في اكثر الأحيان ⁴ ألمرية وبكينا وكان لكل سفينة قائد مسؤول عن المحاربين والذخيرة ، كما كان لها رئيس يدير الأشرعة والمجاديف .. وكان هنالك مسؤول كبير أو أمير على كل حملة بحرية كبيرة إلا اذا كان أمير البحر الأعلى نفسه مسؤولاً عن الحملة (١٢٩) . أما أنه كان للفاطميين نظام مماثل فيتبين ذلك من حملتهم على مصر عام ٩٢٠ حيث كان أمير البحر هو المسؤول ، وكانت قطع بحرية من تونس وطرابلس وصقلية ممثلة في تلك الحملة (١٣٠) . وأما فيما يتعلق بالأساطيل الشرقية التابعة لسوريا ومصر ، وقد كانت في هذه الحقبة أضعف من الأساطيل المذكورة ، فالمعلومات عنها أقل وهي معلومات تقول أن أمير صور كان ، على ما يظهر ، القائد البحري لعبارات سوريا البحرية (١٣١) ، وان قبرص كانت نقطة التقاء الحملات البحرية السورية — المصرية المشتركة على الأراضي البيزنطية ، وأن الحملة الواحدة كانت تكلف مائة ألف دينار (١٣٢) . وتقول أيضاً أنه كانت هنالك عناية منظمة بالأساطيل الشرقية الإسلامية كعناية مسلمي إسبانيا وأفريقيا بعماراتهم البحرية .

ومن النقاط الهامة الأخرى المتعلقة بقوات المسلمين البحرية في هذه الحقبة من الزمن أنها كانت مزودة بالنار الأغريقية أو بمركب نفطي مماثل ، فالخرافات التي استخدمها بنو الأغلب بالقرب من صقلية عام ٨٣٥ كانت عبارة عن سفن محرقة تقذف سفن الأعداء بمادة لاهية (١٣٣) . وقد استخدم ليو أمير طرابلس أسلحة من قاذفات اللهب في هجومه الذي شنّه على سالونيك عام ٩٠٤ (١٣٤) . أما الأسطول الفاطمي الذي قام بغارة في بحر ترهانيا عام ٩٣٥ فقد أحرق السفن التي هاجمها (١٣٥) . ولم تعد النار الأغريقية التي كانت بيزنطية تحتكرها سلاحاً مريباً رهيباً كما كانت في الحقبة السابقة . وربما كان ذلك سبباً من أسباب فشل قوات القسطنطينية البحرية أكثر تلك

الحقبة . ولقد وجد البيزنطيون أن الاحتفاظ بسلطتهم على البحار قد أصبح مستحيلاً إذ زال احتكارهم لاستخدام النار الأخرقية . أما فيما يتعلق بالسلاح والتنظيم فلم يجاروا أعداءهم المسلمين إلا قليلاً .

هذا ، وهنالك معلومات عن تنظيم بيزنطية البحري أكثر قليلاً من المعلومات المتعلقة بالتنظيم البحري الخاص بالشعوب الإسلامية ، فنظام الأسطول الأمبراطوري القديم ، وغيره من أساطيل الأقاليم والولايات الأخرى ، قد بقي على وجه العموم سائداً مدة طويلة ، وهو نظام لا يختلف كثيراً عن النظام المتبع عند المسلمين . إلا أن الكوارث التي لاحقت القسطنطينية في البحر بعد عام ٨٧٧ قد أدت إلى تجديد أساطيلها الشرقية حوالي منتصف القرن التاسع . ولربما بدأ ذلك في أيام ميخائيل الثالث وإن كان تأثير هذا الإصلاح لم يتضح إلا في عهد باسيل الأول (١٣٦) .

وقد عهد بالأسطول الأمبراطوري إلى أمير أعلى للبحر عرف باسم « Drungaries of the Pleimen » والظاهر أن جميع القادة البحرين كانوا يأتمرون بأمره . وقد تركت قطع من هذا الأسطول في جزيرة مثلين حارسه المدخل المؤدي إلى الدردنيل . ولعل هذه القاعدة قد أصبحت أهم قاعدة بحرية لصيد نشاط قراصنة كريت في بحر إيجه (١٣٧) . وكان هذا الأسطول بقيادة نيكيتاس اوريفوس وهو الذي شل قوة جزيرة كريت في خلع كورنث عام ٨٧٩ .

وقد يكون ذلك الخطر المتمثل بأساطيل القرصنة في كانديا هو الذي أدى إلى تغيير آخر في نظام بيزنطية البحري ، وهو ظهور ولاية بحرية جديدة لبيزنطية في بحر إيجه . فبالإضافة إلى ولاية كبرهاتوس والولاية الإيجية البحرينية القديمتين ظهرت ولاية أخرى وهي ولاية ساموس (١٣٨) . أما أساطيل كبرهاتوس الإقليمية فكانت مسؤولة عن حماية شاطئ الأناضول الجنوبي من السفن البرية القادمة من طرسوس وسوريا منذ القديم ، والولاية الإيجية كانت تحمي شواطئ بحر إيجه الأوروبية ، وأما ولاية ساموس الجديدة فلجباية

سواحل آسيا الصغرى الغربية من هجمات الكريتيين . وقد احتفظت ولايات "هيلاس" واليلوبونيز وسيفالونيا وبمولونية بقوات بحرية أخرى أقل أهمية من الأساطيل البحرية المذكورة .

وتقل عن هذه المعلومات تلك التي تتعلق بقوة بيزنطية البحرية في الغرب خلال هذه الحقبة من الزمن . والظاهر أن قوة بيزنطية البحرية في الغرب كانت بالتأكيد أضعف نسبياً في هذه الحقبة منها في السابق . ويتبين أن قوات صقلية البحرية لم تستعد قوتها قط منذ الكارثة التي نزلت بها عام ٨٢٧ ، وإن الحكام الصقليين لم يستطيعوا أن يقاوموا القوات الإسلامية بجزر الأ- عندما أرسلت وحدات من الأساطيل الأمبراطورية والشرقية إلى المياه الغربية . وقد يوضح ذلك أكثر من أي شيء آخر سياستهم الدفاعية العامة . وربما ساعد ذلك عدم ولاء مدن كامبانيا التي ما كان لها أن تهرب جانب ولاية بيزنطية الغربيين وليس لديهم قوات بحرية كافية لفرض نفوذهم على تلك المدن . أما قلورية التي كانت تعتبر جزءاً من صقلية حتى عام ٩٠٢ ، فالظاهر أنه لم يكن لديها الأ- أسطول أقليمي صغير مؤلف من عشر سفن (١٣٩) ، ولم يكن لأبوليا قوة بحرية تذكر . والواقع أن القوات البحرية الوحيدة التي كانت ذات شأن في الغرب والتي كانت بيزنطية تعتمد عليها ، إنما هي قوات البندقية التي كانت تؤيدها في بعض الأحيان قوات بحرية من شاطئ دلماسيه إ. وكانت كل من البندقية ودلماسية مستقلتين بعد عام ٨٢٧ . والظاهر أن البندقية قد ابتنت بوارج حربية بعد كارثة عام ٨٤٠ البحرية ، والفضل يعود إلى هذه البوارج في إخلاء أبوليا من المسلمين في عهد باسيل الأول (١٤٠) . ولا ريب أن قوة البندقية البحرية إنما كانت تعتبر أسطولاً مستقلاً من أساطيل بيزنطية الأقليمية الغربية ، وخاصة بعد سقوط سرقوسة وصقلية في أيدي المسلمين .

وفي أيام رومانوس ليكاينوس اندغم الأسطول الأمبراطوري والأساطيل التابعة للأقاليم شرقاً وغرباً ، وبناء العديد من البوارج الضخمة القوية .

ويُبين ذلك بوضوح من الغارات التي شنتها تلك العمارات البحرية في البحار الغربية والمياه المصرية . على أن أهم ما يسترعي النظر في قوة بيزنطية البحرية خلال الفترة الأولى من هذه الحقبة ، إنما هو طابعها الدفاعي العام . ولم يُظهر شيئاً من التعدي الذي هو طابع اعداء بيزنطية المسلمين ، الا أولئك الجرامقة ، او مردة ساحل الأناضول الذين كانوا بمعظمهم قراصنة يحاكون بأسطولهم اسطول طرموسس الذي يعادونه ويقاومونه . ولو درسنا القسم المتعلق بالبحر من خطط ليو الحربية لاتضح لنا ذلك . فهي دراسة تظهر لنا أن الأساطيل البيزنطية كانت تدرب على تجنب خوض المعارك البحرية الا اذا كان ذلك ضرورياً ، كما أن تلك الأساطيل إنما كانت تعتبر ملحقة بالقوات البرية أكثر منها سلاحاً منفصلاً قائماً بذاته (١٤١) . فهذا التصرف الدفاعي ، وذاك الحلز الذي تشيعه سياسته في نفوس قادة القسطنطينية البحرين يكشفان ، أكثر من أي شيء آخر ، عن ضعف بيزنطية في البحار خلال معظم هذه الحقبة من الزمن . ومن النقاط الهامة الأخرى ضالكة ما للحرب البرية من تأثير على القوة البحرية في هذه المدة . فميادين الحرب البرية بين الاسلام والمسيحية قد بقيت في الشرق ، كما هي في الغرب ثابتة نسبياً . ففي الغرب كانت الحدود بين اسبانيا الاسلامية واسبانيا المسيحية في عام ٩٦٠ هي نفسها تقريباً عام ٨٢٧ . لقد شق ملكا قشتالة ليون ونافار طريقهما الى الجنوب شبراً شبراً في القرن التاسع ، فما كان من جيوش الأمويين القوية في القرن العاشر الا أن صدّت هؤلاء على أعقابهم ، وتمكنت حتى من اقامة نوع من السيادة على الممالك الاسبانية الصغيرة في الشمال (١٤٢) .

والصورة نفسها تراءى لنا في المشرق على طول الحدود الأناضولية بين العرب والبيزنطيين ، إذ أن خطوط الحدود العامة في زمن الأمويين ووائل العصور العباسية قد بقيت على حالها . ففي السنوات الأولى من القرن التاسع . كانت بيزنطية تلتزم جانب الدفاع ، وذلك ، مع الكارثة التي حلت بعمورية عام ٨٣٩ ، قد يُمثل أشد جزر في مصير القسطنطينية (١٤٣) .. على أن

حملات ميخائيل الثالث قد برهنت على درجة من النجاح أعادت التوازن العسكري (١٤٤) ، الى أن ارتد التيار بصورة أكيدة في عهد رومانوس ليكابينوس . وقد أخذت بيزنطية الآن تعتدي على ارمينيا وقيليقيا في الوقت الذي راح المُلْك العباسي يتجزأ بين السلاطات الاسلامية المحاربة في شتى الأقاليم (١٤٥) . وقد تمهد المسرح لكل من تقفور (نيسيفورس فوكاس) وجون زغيرنيس ، على أن آيا من هذه التطورات في اسبانيا وآسيا الصغرى . لم يؤثر ، على كل حال ، في القوة البحرية .

والحالة نفسها تنطبق على شتى الأماكن الأخرى في عالم البحر الأبيض المتوسط . فالخطر المتمثل بالجيوش الارمنية والمقدونية لم يهدد كثيراً إيطاليا التي كانت تشكل مشكلة حربية وبحرية لكل من قسطنطين الخامس وايرين ، كما أن أحلام لويس الثاني قد برهنت على أنها أحلام وهمية . أما الحملة التي قام بها تقفور (نيسيفورس فوكاس) بين عامي ٨٨٥ و ٨٨٦ فقد كانت كافية لاقامة حدود ثابتة نسبياً في جنوبي إيطاليا . وأما ملوك المانيا الذين كان عليهم أن يقدموا قوات لبيزنطية في ايطاليا ، مع وجود نفس المشكلة التي واجهوها مع شارلمان ، فكانوا لا يزالون عبر جبال الألب في الريخ الأول . على أن أشد الأخطار وأعنفها مما كان يُهدد القسطنطينية ، فالظاهر أنها جاءت من البلغار ومن الشعوب الاسيوية البداءة ، القومان والباشاقة ، الذين ترسموا خطاهم عبر سهوب جنوبي روسيا إلى منطقة الدانوب الأسفل . أضف إلى هؤلاء الروس الفارانجيين . فالبيزنطيون لم يُصيبوا الكثير من النجاح في محاربتهم حكام البلغار في أواخر القرن التاسع واول القرن العاشر ، لا بل أن الجيوش البيزنطية ، بالرغم من تأييد الأساطيل ، قد دفعت ثمن اشتباكها في معركة مع القيصر سيمون . على أن القوة البحرية والديبلوماسية التي حضمت الشعوب البربرية في مؤخرة بلغاريا على مهاجمتها قد كبحتها هذا الخطر . ثم أن الجيوش البلغارية التي كانت تعوزها القوة البحرية لم تستطع أن تهدد المدينة الواقعة على القرن الذهبي تهديداً خطيراً . ولم يهل عام ٩٦٠ حتى سيطرت

التقسطينية على الموقف ، كما أن الوضع البلغاري لم يؤثر على حالتها البحرية- الرئيسية بصورة حيوية (١٤٦) .

وقد سادت الصورة العامة نفسها في العالم الاسلامي ، فتحت الحكم الطولوني، والأخشيدي نرى أن الانتصارات البرية الموقته قد وحدت قوات طرسوس، وسورية ومصر البحرية تحت راية حاكم واحد (١٤٧) . وبفضل نضال الدوله الطولونية لاكتساب سورية وطرسوس نجد أن قوة بيزنطية البحرية قد تخلصت، مدة من الخطر الذي كان يتهدها من نشاط مسلمي المشرق ، وهذا يفسر لنا، الكثير من النجاح البحري الذي أصابه باسيل الأول . ولكن على الرغم من هذا كله ، ومن هجمات الفاطميين على مصر وانقراض الدولتين المنافستين لهم ، وهما دولتا الادارسة وبني رستم في شمال افريقيا الغربي ، فانه لم يكن للحروب البرية في العالم الاسلامي ، وكذلك في العالم المسيحي نتائج بحرية ، ذات شأن . وفيما يتعلق بالمسلمين فقد يكون أشد التطورات خطورة ظهور دولة القرامطة في بلاد العرب ، اولئك البداة الذين كانت غزواتهم الهلال الخصيب وسورية، تُضعف بصورة مستمرة من تأثير سلطة بغداد على الأقاليم القريبة من عاصمة الخلفاء العباسيين . على أن ذلك لم يكن الا تطوراً ذا نتائج لم تؤثر في الموقف. خلال القسم الأول من القرن العاشر وانما خلال القسم الثاني .

وإذا كانت الحملات البرية ذات أثر ضئيل في مصير الشعوب التي أقامت حول البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود، فماذا كان تأثير التطور في الوضع البحري خلال هذه الحقبة يا ترى ؟ لقد كان التغير الحيوي في هذا الشأن هو خلاص جزر البحر الأبيض المتوسط الهامة إلى أيدي المسلمين ، حيث استولوا على جزيرة كريت ، شرقاً ، وصقلية ومالطة وبانتليريا ، في الوسط ، وجزر البليار ، غرباً ، مع بقاء قبرص وسردينيا على الحياد ، وذلك خلال معظم هذه الحقبة من الزمن . وكان لهذه الحقائق انقلاب هام في وضع السلطة البحرية في مياه البحر الأبيض المتوسط . والواقع أن جميع طرق التجارة الدولية الرئيسية في هذا البحر قد أصبحت عملياً بأيدي المسلمين ، ولم يبق سوى طريق واحدة

لا تهددها القواعد الاسلامية المنتشرة في الجزر والاقطار . وهذه الطريق هي التي كانت تؤدي من البحر الأبيض المتوسط ، عبر بحري ايونيي والادرياتيكي الى مدينة البندقية . لا بل وحتى هذه الطريق قد أغلقتها القاعدتان الاسلاميتان في باربي وتارنتو طوال ثلاثين عاماً . ولما سقط هذان المركزان البحريان بعد عام ٨٧٥ سلكت طريق الأدرياتيكي البحرية . وأما في نواحي البحر الأبيض المتوسط الأخرى ، فان بحاره الضيقة قد أغلقت بفعل القواعد الاسلامية . الأمامية والمراكز البحرية في الجزر - فقد أغلقت كريت بحر ايجه ، وصقلية ومونت جارجيليانو بحر ترهانيا ، وجزر البليار وفركيسيتوم خليج ليونز . والحقيقة أن بيزنطية قد تمكنت حتى عام ٩٠٢ ، أو إلى ما بعد ذلك بقليل ، من الاحتفاظ بمركزها في مضائق مسينا ، وبذلك سيطرت على ممر من حوض البحر المتوسط الشرقي الى حوضه الغربي . على أن قبضتها لم تكن ثابتة أكيدة . ذلك أن التعاون بين مدن نابولي وجايتا وأمالفي من جهة ، والنول الاسلامية من جهة أخرى ، قد أثبت موجوديته مرة بعد أخرى. ويصح لنا ان نقول بصورة عامة أن المسلمين قد تمكنوا في عام ٨٧٨ من قلب الموقف الذي وقفوه في وجه بيزنطية خلال المدة الواقعة بين عام ٧٤٧ وعام ٨٢٧ . فالآن أصبحت الشعوب الاسلامية سيدة الشرق الأوسط وطرقه التجارية الدولية .

إن ذلك كله يعكس لنا تلك الحالة من ناحية تأثيرها على شواطئ البحر المتوسط الشمالية إذ تمكن المسلمون من حصر شعوب بيزنطية ، والشعوب المسيحية الغربية في البحار الضيقة التي لم يسيطروا عليها . غير أن هنالك وجهة أخرى يجب ان ننظر اليها بعين الاعتبار ، وهي أن سيطرة المسلمين على مراكز في الجزر هامة ، إنما كان لها هدف ، أو على الأقل نتيجة دفاعية . فطرشوس وقبرص الحياضية ، كانتا خط دفاع للساحل السوري ، وجزيرة كريت حمت مصر ، وصقلية حمت شمال افريقيا ، وجزر البليار اسبانيا . ولهذا نرى أن سواحل البلاد الاسلامية في أواخر القرن التاسع ، قد سلمت لأول مرة منذ عام ٦٤٥ من الهجمات العلوانية .

وكان للمسلمين أن يشعروا بأنهم نسبياً ذوو اكتفاء ذاتي بالمواد الهامة اللازمة لبناء السفن ، فقد كانت صقلية تحتوي على مستودعات واسعة لأخشاب السفن ، كما كان فيها بعض الحديد (١٤٨) . وكان في شمال افريقيا ، من تونس غرباً كميات كبرى من الخشب ، والحديد الممتاز ، وكانت مستودعات هاتين المادتين مستغلة في هذه الحقبة (١٤٩) . وكان في اسبانيا بالقرب من طرطوشة الكثير من أشجار الشربين ، كما كانت تكثر في أماكن أخرى أشجار البلوط ومستودعات الحديد (١٥٠) . أما جبال قيبلييا فكانت تقدم نوعاً ممتازاً من الأخشاب اللازمة لبناء السفن ، بينما كانت الاسكتلرون في هذه الفترة من الزمن ميناء هامة لشحن الأخشاب الى مصر (١٥١) . وقد لا تكون كربت آنذاك تستغل قطع الأشجار بكثرة ، كما أخذت تفعل فيما بعد ، حتى ولو كان الأمر كذلك ، فإن ذخيرة ضخمة من الشربين والسرو كانت متوفرة على ساحل الأناضول القريب منها . وأما الساحل من دمياط الى سوسة فصحيح أنه كان خالياً من الأشجار ، غير أن هذا النقص كان يمكن ان ينطى ليس بالشحن بجرأ من سوريا والمغرب الاسلامي فحسب ، وإنما كذلك بالتجارة بهذه المواد من مدينة اليندقية الواقعة على بحر الأدرياتيك ، وهي التي كانت تمتلك كميات كبيرة من خشب السفن ، وحديد المناطق المجاورة في شمال ايطاليا وبلاد التيرول (١٥٢) . والمعروف أن عمليات الشحن التابعة للمسلمين في البحر الأبيض المتوسط باختلاف عمليات الشحن في المحيط الهندي ، لم تكن لتعاني . في هذه الحقبة من الزمن ، نقصاً في المواد .

وجدير بنا عند هذا الحد أن ننظر في التأثيرات الاقتصادية لسيادة المسلمين بالحديدة على البحر الأبيض المتوسط ومقارنتها بتأثير سيادة نبطية خلال القرن السابق . وعلينا أولاً أن ننظر الى تعبير السيادة الاسلامية تعميماً غامضاً ، إذ ليس هناك نظام سيادة شاملة إلا من ناحية عامة ، ذلك أنه لم يكن في تلك الحقبة وحدة بحرية وسياسية عامة في الأقطار الاسلامية التي تتأخم البحر الاوسط . فدار الاسلام كانت ولا يرب تمثل خلافة قوية ، ولكنها لم تكن تربط أطراف

الامبراطورية واحده كامبراطورية اغسطس ويوستيانوس أو حتى ليون الأيزوري والواقع أنه كان للمسلمين خلال هذه الحقبة ثلاثة مراكز بحرية ممتازة في البحر الأبيض المتوسط ، واحد في الغرب وثنان في الوسط ، وثالث في الشرق . وقد يكون أهمها المركز المتوسط ذو العلاقة المباشرة بصقلية وشمال افريقيا تحت سيطرة بني الأغلب حتى عام ٩٠٩ ، وقد انتقل الأشراف عليه الى خلفائهم الفاطميين فيما بعد. ولربما اعتبر عشا القرصنة في باري وجاريجليانو ، المستقلتين لمدة قصيرة من الزمن ، جزءاً من تلك القوة البحرية الاسلامية الوسطى . ثم هناك الى غرب هذا المركز نظام الاموين البحري في اسبانيا ، وهو يتألف في القرن التاسع من أسطول للحلود بقيادة أمير مرسطة وفرسينتوم . وقد اتسع هذا النظام في القرن العاشر حتى ضم أسطولا اسبانياً بديع التنظيم وسيطر على جزر البليار . أما النظام البحري في الشرق فكان أبعد الثلاثة عن التبلور والتحديد ، وهو يتألف من أسطول كريت المستقلة والأساطيل الطرسوسية والسورية والمصرية . وقد اتحدت هذه الأساطيل مرتين تحت الحكم الطولوني والأخشيدي . والظاهر أنه كان دائماً بلخيرة كريت علاقات وثيقة مع مصر . على أنه كان يحدث أحياناً ، كما وقع في عامي ٩٠٤ و ٩٣٥ ، أن تنفصم العرى بين هذه الأساطيل ويصبح كل منها معادياً للآخر .

ومهما كان الأمر ، فقد كان الاحتكاك البحري يوجه عام ضئيلاً حتى زمن الفاطميين في اوائل القرن العاشر ، حيث أدت المطامع الاقليمية بالفاطميين الى استخدام قوتها البحرية ضد منافسيهم المسلمين في الشرق والغرب . فقد هاجموا مصر سنة ٩١٤ وسنة ٩٢٠ وسنة ٩٣٥ ، كما هاجموا الممالك الصغيرة في شمالي افريقيا واسبانيا الأموية في العقد السادس من القرن العاشر . وكذلك ثارت عليهم ولايتهم الصقلية مرتين بين ٩١٣-٩١٧ وبين ٩٣٧-٩٤٠ . وليس أدل على تمزق القوات الاسلامية العاملة في هذه الفترة من وجود ثلاث خلافات في (قرطبة والمهدية وبغداد) . وعليه نقول أن الحكم الاسلامي في عالم البحر الأبيض المتوسط خلال هذه الحقبة لم يكن ليصل الى الملك البيزنطي

في البحر الأوسط ، وعلى الرغم من ان المسلمين قد تمكنوا من كسر شوكة سيادة بيزنطية البحرية ، الا أنهم لم يستطيعوا ، فعلاً ، أن ينشئوا نظاماً بحرياً يمكن أن يقارن بنظامها .

ومهما يكن من أمر فإنه يجب علينا الاعتراف بأنه كان لسيادة المسلمين البحرية مضاعفات شديدة الوطأة على الحياة الاقتصادية والتجارة في منطقة البحرين : الأسود والمتوسط كلها . أما أول ، وربما أهم من استفاد من هذا التغير اقتصادياً فهما شمال افريقية وصقلية ، وخاصة شمال افريقية في القرن التاسع ، والفضل في ذلك يعود الى سيطرة المسلمين على البحر الأبيض المتوسط : وبالأخص سيطرتهم على الطريق الشمالية الدائرية الى سوريا ومصر عن طريق صقلية وكريت وقبرص . وقد زاد أهالي شمال افريقية من أهمية الدور الذي يلعبونه كوسطاء في تجارة البحر الأوسط ، وأصبحوا يتحكمون في نقل التجارة بين الشرق والغرب ، كما أن سفنهم ، في المقام الأول ، هي التي كانت تمخر البحر الأبيض المتوسط الى مصر وسوريا لتأتي بتوابل الشرقين الأدنى والأقصى وسلعهما المترفة الى شمال افريقيا والمغرب الاسلامي . وكانت النتيجة ازدهاراً جديداً مثيراً في المغرب . فليس أروع من اجراء مقارنة بين حالة هذه المنطقة في اواخر القرن الثامن واول القرن التاسع وبين حالتها في هذه الحقبة التي نحن بصدددها . لقد أصبحت تونس في أواخر عهد بني الأغلب بلداً زراعية غنية تغطي منطقتها الجنوبية أشجار الزيتون والكروم كما أصبح سهلها الأوسط غنياً بمحصولات الحبوب (١٥٣) . ولم يقل غناها الصناعي كثيراً عن غناها الزراعي . أما مدينتها « مجانة الغنية بالمناجم » والتي كانت تقع قرب الحدود التونسية الجزائرية الحالية ، فكانت مركزاً لإنتاج الفضة ، والانتيمون (حجر الكحل او الأثمد) ، والحديد ، والرخاص (١٥٤) . وكانت المعادن الخام التي تستخرج من هذه المنطقة تصنع في المغرب ، وبصورة رئيسية في قاعنة سوسة البحرية (١٥٥) . وأما القيروان فكانت تزدهر فيها صناعة الزجاج كما كانت تنتج الفخاريات الثمينة المطلية بالمينا (١٥٦) . وقد

أصبحت صناعة المنسوجات صناعة هامة ، واشتهرت البلاد بسجادها الرائع وطرارها الممتاز (١٥٧) . وقد تدخلت دولة بني الأغلب في الحياة الصناعية والتجارية مباشرة فأشرفت على الأسعار والمصنوعات عن طريق قوانين الحسبة التي كان ينفذها موظف رسمي يعرف بالمحتسب (١٥٨) .

ولقد كانت القيروان أهم مركز تجاري ، حيث كانت الغلال تصدر إلى الاسكندرية ، والرفيق المطلوب من السودان يبعث به إلى بلدان البحر الأبيض المتوسط الشرقية ، وربما إلى اسبانيا ، وزيت الزيتون المستورد من الساحل ومن طرابلس يعاد تصديره إلى صقلية وإيطاليا (١٥٩) . وكانت تونس مركزاً تجارياً هاماً آخر ، وكذلك كانت كل من مذكورة وقفصة وبجاية ولاريوس (١٦٠) . وكانت قابس ، الواقعة عند نهاية طريق صحراوية هامة ، أيضاً ذات أهمية تجارية (١٦١) . أضف إلى ذلك كله سفاقس وسوسة أما اولاهما فكانت مركزاً لزيت الزيتون ولصيد الأسماك ، بينما كانت الثانية سوقاً لزيت الزيتون ، والرسالة البحرية الرئيسية ذات الروابط الوثيقة بجزيرة صقلية (١٦٢) . ثم أن أعمال القرصنة قد زادت كذلك من رأس المال في المنطقة . شأنها شأن التجارة والصناعة . ولم يخل انسان قط ، من افراد الأسرة الملكية الى أصغر انسان ، من المضاربة بالسلع والتجارة .

ومن الأعمال المثيرة حقاً التي اقيمت في هذه الحقبة تلك المنشآت العامة من أمثال أكتية وقناطر رقادة والقيروان وأسوار سفاقس وسوسة . ويعود تخطيط هذه المدن البلدي إلى أيام بني الأغلب ، وليس إلى عهود الرومان والبيزنطيين . وان بقي الطراز متشابهاً (١٦٣) . وأما شهرة القيروان الفكرية ومكانتها كمدينة مقلدة للعلماء والأدباء فنتيجة أخرى لذلك الازدهار .

هذا ، وقد ازداد غنى هذه البلاد في زمن الفاطميين بالرغم من فرض الضرائب القادحة التي كان اولئك الحكام يجبرونها للملء خزاناتهم الحربية . ولا ريب في أن الأموال الضخمة التي صرفها المعزّ في فتح مصر إنما جاء معظمها من تجارة المغرب وصناعاتها المزدهرتين داخلياً وخارجياً (١٦٤) ،

وقد أصبحت تجارة شمال أفريقية مع مصر مهمة في القرن العاشر إلى حد أن قسماً كبيراً من البربر، مثلاً، قد جاء ليستقر في الاسكندرية وما حولها (١٦٥). وكان للغليان والاضطرابات التي قام بها هؤلاء اثر كبير في الانتصارات الأولية التي احرزها الفاطميون في احتلالهم الاسكندرية ابان حملاتهم عام ٩١٤ وعام ٩٢٠ وعام ٩٣٥. وقد بلغ من ثقة هؤلاء الحكام بسيطرتهم على البحار ان أقاموا عاصمتهم المنيرة العصماء، المهديّة، على شواطئ البحر الأبيض المتوسط سنة ٩١٥، وكانوا أول حكام مسلمين يفعلون ذلك (١٦٦). ويعكس لنا ادخال النباتات الشرقية كالقطن وقصب السكر والزعفران إلى المغرب، وربما إلى صقلية أيضاً، أهمية علاقات شمال أفريقيا مع بلدان الشرق الأدنى (١٦٧). وكذلك يقال باقامة نظام دقيق من أبراج المراقبة على طول الساحل يستطيع ان ينقل التحذيرات عن طريق اشعال نيران المناثر خلال يوم واحد من الاسكندرية الى سبتة (١٦٨).

لقد أصبح شمال أفريقية أكثر ازدهاراً في هذه الحقبة، تجارياً وصناعياً وزراعياً، منه في أية حقبة أخرى حتى فاق ازدهاره في العصور البيزنطية او الأموية او حتى الرومانية. وهو فوق ذلك كله قد استغل الأراضي الأفريقية الداخلية استغلالاً لم يعرفه مالكو هذه المنطقة من قبل. ففي عصور الأغالبة والفاطميين افتتحت طرق القوافل عبر الصحراء الى مناجم الذهب وأماكن الرقيق في السنغال ونيجيريا والسودان. وكانت سجلماسة، التي أنشأها حكام تغليت الرستميون عام ٧٥٨، أعظم مركز لدخول قوافل هذه التجارة. وقد بلغت الضرائب المفروضة على درب السودان وحده في القرن العاشر ٤٠٠ الف دينار سنوياً (١٦٩). وكان هنالك في الواقع ثلاث طرق للقوافل تؤدي إلى ذهب السودان الأولى، وهي التي ذكرنا، من سجلماسة الى السنغال، والثانية طريق وسطى عبر واحة اورجلا الى عتق نهر النيجر، والثالثة شرقية من الجريد إلى طرابلس عبر غدامس الى صميم السودان. أما الطريقان الغربيّان فكان رستميو تغليت يسيطرون عليها حتى منتصف القرن

العاشر . وكان بنو رستم هؤلاء أصدقاء للامويين في اسبانيا (١٧٠) . وقد قضى قائد القاطميين ، جوهر ، على هذه المملكة ، وبعد عام ٩٥٨ سيطر حكام تونس على هذه الطرق الثلاث من الناحية الجنوبية ، مع التأكد من تنظيم البلو حتى لا يستطيعوا أن يتعرضوا إلى هذه التجارة المربحة (١٧١) . وهكذا أدّى فيض ذهب السودان الآتي براً إلى غنى المغرب ، كما أدّت القرصنة والتجارة ومكانة اهالي المغرب كوسطاء في تجارة البحر المتوسط ، إلى غنى البلاد ببحراً . ولهذا نفهم لماذا كان لشمال أفريقيا ان تكون غنية وصناعية وقوية إلى هذا الحد في هذه الحقبة من الزمن . وكذلك يجب أن لا نغيب عن أن الدنانير المغربية التي كانت تصلك في مستودعات حكامها الغنية بالذهب ، كانت من أهم العملات في عالم البحر الأبيض المتوسط حتى القرن الحادي عشر .

وما قيل عن شمال أفريقيا يقال كذلك عن مصر . ففي عام ٨٣٢ ، أي بعد خمس سنوات من فتح جزيرة كريت ، أخمدت آخر ثورة قبطية ، ووضع حد لفوضى وقلق دامت أكثر من قرن (١٧٢) . وما لبثت البلاد أن أخذت بالازدهار الذي عرفته في العصور البيزنطية والأموية الاولى . ويتعكس هذا الاستقرار في تجديد النفوذ المصري في الجنوب . ففي عام ٨٥٤ توقف جيران مصر البسجه (باغاس النوبة) ، عن دفع الجزية ، وفتكوا برجال المناجم والموظفين المصريين في الجبال النوبية ، وسهبوا اسنا (اسني) وادفو ، فأرسلت حملة إلى اعالي النيل تؤيدها حملة اخرى إلى ميناء قصير على البحر الأحمر ، وأعدت تلك المنطقة إلى الطاعة (١٧٣) . وبعودة الأمن إلى الأعمال في مناجم الذهب النوبية ، استمر الاستغلال على عجل ، وراح فيض الذهب يتدفق شمالاً إلى مصر ، كما يتدفق إلى شمال أفريقيا . وكما كان يتدفق الذهب كذلك تدفقت التجارة من الجنوب . والظاهر أن القتال ما بين النيل والبحر الأحمر قد افتتحت ثانية في هذه الفترة ، حيث ذكر المسعودي في اوائل القرن العاشر أنه شاهد في السفن بجزيرة كريت

أخشاب شجر الساج الذي لا يمكن أن يكون قد أتى إلا عبر هذه الطريق (١٧٤).
والطولونيون الذين حكموا مصر في أواخر القرن التاسع يعكسون لنا
اهتمام حكام مصر ونظرتهم إلى التجارة باقاسمهم حياً تجارياً منعزلاً في مدينتهم
حرب القسطنطينية (١٧٥) . وتتجلى ثروة البلاد أيضاً بقصر خمارويه الكبير
بأشجاره الصناعية الموهبة بالذهب والفضة ويبركته الزئبقية . ويرينا
توسع الطولونيين إلى سوريا وطرسوس قوة مصر . كما أن أرقاماً مالية قليلة
تعود بصلته إلى هذه الحقبة تعكس لنا الثروة نفسها . ففي عام ٨٧٠ أرسل ابن
طولون ، المستوفي حديثاً على السلطة ، ٧٥٠ ألف دينار جزية إلى خليفة
بغداد (١٧٦) . وقد ارتفع مقدار هذه الجزية قبله بعد أربع سنوات مليونين
و ٢٠٠ ألف دينار (١٧٧) . وارتفعت ضريبة الأراضي في زمنه من
٨٠٠ ألف إلى أربعة ملايين و ٣٠٠ ألف دينار ، وذلك ثمرة الزيادة في
الازدهار الزراعي (١٧٨) .

ولم يشرف القرن العاشر على النهاية حتى كانت مصر ، على ما يظهر ، أشد
ازدهاراً رغم الاضطرابات التي سادت سنواته الأولى . فالتجارة الشرقية إلى
المحيط الهندي والشرق الأقصى بدأت ، كما هو الظاهر ، تتخلى عن طريق
الخليج العربي - العراق إلى هرمز (أرموز) والبصرة وتعود ثانية إلى البحر
الأحمر ومصر . ويقول المقدسي أن عدن أصبحت في هذا القرن الميناء الرئيسية
لدخول هذه التجارة المترفة (١٧٩) . أما بغداد فبدأت الانحلال
وتناقص السكان (١٨٠) . وقد يعود ذلك إلى تنامي الدولة الأخشيدية التي
لم تكنف ما بين سنة ٩٣٥ وسنة ٩٦٨ بمصر وحدها ، وإنما ضمت سوريا
وطرسوس والحجاز بمدينتيه المقدستين مكة والمدينة .

هذا ، ولم تعتمد مصر فقط في ازدهارها على الزراعة وعلى ذهب النوبة ،
والانتعاش الحاصل من أهمية طرق التجارة الدولية عبر أراضيها من البحر المتوسط
والبحر الأحمر ، فقد كانت هي نفسها بلداً صناعية هامة ، كما أن الكميات
الكثيرة من قنبها وكتانها كانت تحاك حياة رائعة في تنيس ودمياط وشالة

وديكو (١٨١) . وكانت الألبسة المطرزة بالفضة والذهب من مصر .
الخاصة التي تأتي بمبالغ تتراوح بين العشرين والثلاثين ألف دينار سنوياً كلما
صدرت إلى العراق (١٨٢) . وكانت السجاجيد القرمزية اللون صناعة هامة .
فيها أيضاً . وقد ظهرت في هذه الحقبة صناعة الورق في مصر كذلك ، فحل
محل ورق البردي (١٨٣) . وتعود أول وثيقة حكومية كتبت على
الورق في مصر إلى عام ٩١٢ ، أما آخر العهد باستخدام أوراق البردي
فكان عام ٩٣٥ (١٨٤) . أضف إلى ذلك أن مصر في هذا الوقت كانت
مشهورة في صناعات الذهب والفضة والمجوهرات والسلاح .

على أن بلاد النيل انما كانت تختلف عن بلاد المغرب في ناحية هامة واحدة .
لقد كانت بصورة رئيسية منفعة لا فاعلة في التجارة ، أي أنها تتعامل مع
الأجانب دون ان تتاجر مع العالم الخارجي على حسابها الخاص . فالاسكندرية
كانت نهاية الطريق التجارية الغربية للبحر الأبيض المتوسط ، يأتيها العديد من
تجار المغرب ، وكذلك البعض من تجار البندقية ، وربما القسطنطينية (١٨٥) .
وكانت فرماء الميناء التي يدخلها التجار القادمون من سوريا ومناطق البحر
الأبيض المتوسط الشرقية (١٨٦) . وقد يكون أحد اسباب هذه الانفعالية أو
السلبية احتياج مصر للخشب ، فعلى الرغم من أنها كانت تستورد بعض الأخشاب
من الاسكندرون ومن البندقية ، وتحاول استخدام بعض الأنواع المحلية ،
إلا أنه يشك في أن وضع اخشابها كان يوماً ما مرضياً خلال هذه الحقبة من
الزمن (١٨٧) .

وقد شارك مصر في ازدهارها كل من سوريا وفلسطين المجاورتين وان
كانت أقسام منهما على ما يبدو قد تأثرت تأثيراً معاكساً من جراء ما وقع
من قتال بين العباسيين والطولونيين والاشقيديين ، وبين السلالات الصغيرة
في دمشق وحلب وطرسوس . أما طرابلس وبيروت وصور وغيرها من
من الموانئ على طول الساحل ، فقد دب فيها النشاط لفتح البحر ثانية في وجه
التجارة الاسلامية غير المقيدة .

ودخل التجار السوريون ميدان البحر مرة أخرى ، وإن ظل مناهم التجاري اضيق من تجار المغرب ، إذ انهم اقتصروا بصورة رئيسية على المتاجرة مع مصر والقسطنطينية (١٨٨) . والظاهر أن الازدهار في كل من الصناعة والتجارة كان عظيماً في تلك المدن من امثال حلب ودمشق وبيت المقدس (١٨٩) ومن الأرقام المالية التي تؤكد لنا ثروة البلاد ما يفيد أن الايرادات في سوريا عام ٩٠٨ قد بلغت ٣٨ مليون درهم (أي نحو مليوني دينار) وذلك بعد دفع رواتب الموظفين (١٩٠) . وهو رقم يعادل تقريباً دخل مصر في أيام الطولونيين .

وكان يوجد شبه هذه الظروف التي سادت في بلدان شرقي البحر الأبيض المتوسط ، وذلك في الغرب الاسلامي . فقد أخذت اسبانيا تتمتع أيضاً بازدهار زراعي وتجاري وصناعي في أواخر القرن التاسع ومنتصفه وخلال القرن العاشر ، ومن هنا يبدو الفرق كبيراً بين ازدهارها هذا وبين ركودها في أواخر عهد القوطيين الغربيين ووائل العصور الاسلامية . وكانت الزراعة لا تزال هي مجال النشاط الاقتصادي الرئيسي ، وكان القمح أعظم محصول ، وإن كان زيت الزيتون ، ومعظمه للاستهلاك المحلي ، يستخرج بكميات ضخمة . وكانت المواشي في اسبانيا من بقر وخراف وماعز بأعداد كبيرة (١٩١) . وكانت تكثر الأشجار المثمرة ، كما أن النبيذ كان يستخرج في كل مكان ويستهلك عيانياً (١٩٢) . وكان الأرز وقصب السكر يزرعان في الأراضي المروية جيداً في الوادي الكبير الأسفل بالقرب من اشبيلية وفي ضواحي مالقة (١٩٣) . وأما الكتان ، الذي يزرع في اقليم البيرة (١٩٤) فكان يصدر شأنه شأن القطن (وكان يزرع بالقرب من اشبيلية) حيث بأثمان بأسعار طيبة في شمال أفريقيا (١٩٥) . وقد أخذت تربية دود الحرير تأخذ طريقها إلى المنطقة الواقعة بالقرب من جيان (١٩٦) .

وإذا ما قارنا الصناعة بمجالتها في عصر القوطيين ، وجدنا أنها لم تهمل ، فمناجم الحديد بين اشبيلية وقرطبة كانت تستغل عند قسطنطين وفريس

(كاستللو دل هيرو) (١٩٧) . وكان الرقيق يستخرج عند المعدن (١٩٨) ،
والقصدير عند الجرف (١٩٩) والرصاص بالقرب من كابرا (٢٠٠) ،
والذهب بالقرب من مرسية (٢٠١) وكانت الحياكة صناعة هامة ، فالمنسوجات ،
الصوفية كانت تصنع في بوكارانت (٢٠٢) ، والسجاجيد في شنشلة وسيرونا (٢٠٣) ،
والأقمشة الكتانية في سرقسطة (٢٠٤) والحريز في باجه وقرطبة (٢٠٥) ،
وكانت قرطبة مشهورة ايضاً بصناعة الفخار والمصوغ من الذهب والفضة ،
والأعمال الجلدية (٢٠٦) . وأما طليطلة فقد اشتهرت بصناعة السيوف . والظاهر
أن صناعة الورق قد جاءت من الشرق في هذا الوقت تقريباً (٢٠٧) .

وكانت اسبانيا في هذه الحقبة من الزمن عظيمة الرقي تفوق حتى المغرب
بحضارتها (٢٠٨) . فقد كانت قرطبة تحت حكم عبد الرحمن الثالث من أعظم
مدن العالم الاسلامي ، وقد اشتهرت بمكانتها العلمية والثقافية وبثروتها الضخمة .
والجدير بالذكر أن أعظم مناطق البلاد تقدماً إنما كانت في الجنوب والجنوب
الشرقي مواجهة للبحر الأبيض المتوسط مما يؤكد الدور الذي لعبته تجارة هذا
البحر في اسبانيا (٢٠٩) . وقد تكون اسبانيا ، شأنها شأن شمال أفريقيا قد
اصابت ثروة كبيرة من ذهب السودان ، وخاصة ذلك الذي كانت
طريق القوافل الغربية تحمله إلى سجلماسة ومنها عبر البلاد المراكشية (٢١٠) .
وعلى كل حال كانت اسبانيا ، كما يقول ابن حوقل ، غنية إلى حد أنها
زودت عبدالرحمن الثالث بين عام ٩١٢ وعام ٩٥١ بدخل بلغ ٢٠ مليون
دينار ذهب او ما يزيد على ٥٠٠ الف دينار كل عام (٢١١) . ولأنها لثروة
عامة لم تناهض ثروة الفاطميين في شمال افريقيا ، ولا الطولونيين في مصر ،
ولا حكام سوريا العباسيين ، ولكنها كانت ثروة كبيرة يعتد بها .

لهذا نرى ان سلطة المسلمين البحرية على البحر الأوسط كان لها اثر
عظيم هام . انها لم تؤد الى انعاش التجارة الدولية على طول طرق التجارة
الدولية القديمة من حوض البحر الابيض المتوسط الغربي الى حوضه الشرقي
فحسب ، وانما ادت كذلك الى انعاش سوريا ومصر ، وازدهار اسبانيا ،

وصقلية وشمال افريقيا من جديد، تلك البلدان الغربية التي استفادت من التجارة البحرية ومن ذهب السودان وبلاد النوبة. وكان في العالم الاسلامي الغربي ظاهرة أهم من ذلك بكثير، وهي تصنيع المناطق التي كانت بصورة رئيسية، بلاداً زراعية في أواخر عهد الرومان والبيزنطيين وأوائل العصور الإسلامية . وكان الغرب في « نهضة الاسلام » هذه كما يدعي متر بحق ، هو الراجح الرئيسي . فمسلمو المغرب وصقلية ، وإلى حد أقل مسلمو إسبانيا ، وقد انتعشت الصناعة عندهم حديثاً ، وأصبحوا ذوي قوة بحرية ، واحتكروا أعمال الشحن في تجارة البحر الأبيض المتوسط الدولية الى الشرق الإسلامي ، قد أصبحوا ورثة السورين ، واليونان واليهود الذين نشطوا في أواخر عهود الرومان وأوائل عصور البيزنطيين .

وثمة تطور هام آخر حدث في العالم الإسلامي ، وقد جرى في حقل الشؤون المالية ، وهذا التطور هو انتشار الدينار الذهب في الشرق والغرب ، كما أن العالم الإسلامي من تاجوس الى الهند قد التحم بالتجارة فأصبح وحدة اقتصادية واحدة . لقد كان الدينار الذهب حوالي عام ٨٠٠ محصوراً في شمال افريقيا وسوريا ومصر واجزاء من ايطاليا ، ولكنه في عام ٩٥٠ كان قد أصبح أعظم عملة دولية متداولة في العالم الإسلامي (٢١٢) . ولقد صك عبدالرحمن الثالث دنانير ذهبية في أوائل القرن العاشر ، وبذلك رفع اسبانيا مالياً الى مستوى الذهب بدلاً من مستوى الفضة التي جرت عليه في أواخر عهد القوطيين. وأوائل العصور الإسلامية (٢١٣) . وهناك أمر آخر أشد اثاره من ذلك وهو انتشار الدينار الذهب في الشرق . ففي أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر اختفى درهم الفضة من العراق وفارس وبلاد المحيط الهندي من ساحل مكسيك إلى مدغشقر (٢١٤) . صحيح أن استخدام الفضة قد استمر ، ولكن على نطاق موضعي ، وعلى أنه وسيلة اضافية للتبادل وفي المتاجرة مع روسيا واوروبا الغربية (٢١٥) .

هذا ، وهناك غير اتخاذ الذهب وسيلة للتداول ، ناحية اخرى تعكس

لنا وحدة العالم الإسلامي الاقتصادية ، ألا وهي الاستخدام الواسع لاجترأت اقتصادية خصوصية وحكومية من اسبانيا الى تركستان . ففي مصر كان استخدام الجوازات ، وهي ميراث من أيام الأمويين ، قد استمر العمل به في أيام الدولتين الطولونية والأخشيدية ، وامتد إلى بغداد في المشرق (٢١٦) . وكان هنالك أشرف الدولة الدقيق على الصادرات والواردات . أما التجار الأجانب ، فكانوا على العموم يدفعون عشرة بالمئة على البضائع التي يستوردونها إلى بلاد النيل ، ويستلمون جواز (سمة) إقامة لمدة سنة في البلاد (٢١٧) . وقد حافظت الحكومة المصرية على احتكارها لمصانع المنسوجات الممتازة والمنتجات المماثلة .

وكان هنالك نظام مماثل في شمال إفريقيا الفاطمي ، حيث كان حتى الحجاج الذاهبون إلى مكة والمدينة يمرّون بالقيروان ويطلب إليهم دفع رسم خاص للدولة (٢١٨) . وقد كان حكام المغرب وإسبانيا المسلمون ينظمون صناعات مراكزهم الحضرية بعناية ويشرفون عليها (٢١٩) . لا بل أنهم أنشأوا احتكارات حكومية معينة أيضاً تجاري كثيراً النمط المصري . ومن أمثال هذه الاحتكارات أعمال صيد المرجان في لاقال بشمال إفريقيا (٢٢٠) ومناجم الحديد بالقرب من بلرم (٢٢١) . ومع هذا ، فإن إسبانيا الأموية على وجه العموم ، كانت أقل إشرافاً حكومياً على مثل هذه الأمور من إفريقيا ومصر ويبدو أن هذه القوانين لم يكن الغرض منها منع التجارة أو استخدامها كأسلحة اقتصادية تشهرها على الناس كما فعلت بيزنطية قبل ذلك في البحر الأبيض المتوسط . لقد كان الغرض منها زيادة الدخل وليس هنالك دلائل كبيرة على أنها كانت تعيق التجارة ، فالتجارة قد ازدادت ، كما يبدو ، ازدياداً مستمراً خلال هذه المدة من الزمن .

ومن الأدلة الأخرى على الوحدة الاقتصادية تطور أساليب الصرافة الدولية ، فالأعمال المصرفية في هذه الحقبة تقدمت تقدماً كبيراً . والظاهر أن معظم الصرافة كانوا من الفرس أو من أهالي البصرة في العراق . وإن كان المليون اليهود ذوي قوة كذلك . أما التحاويل المالية فكانت تستخدم بكثرة ، كما أنها كانت تحمل أسماء فارسية (٢٢٢) ، وكذلك كانت خطابات الاعتماد

والكمبيالات . وقد وجد ابن حوقل أن هذه الحوالات المالية على صياقة شرقيين والقبالة الدفع في الغرب ، قد استخدمت بدل النقود في السودان خلال القرن العاشر (٢٢٣) وكانت القوائد على الديون أقل منها في زمن يوستينيانوس ، أيام كانت الفائدة المالية تبلغ ١٢ بالمائة . ففي العالم الإسلامي كان معدل الخصم على الصكوك والكمبيالات ١٠ بالمائة عموماً (٢٢٤). ويمكننا أن نأخذ فكرة عن مدى هذا التعامل المالي اللئولي من انتشار الفرس والبصريين الذين كانوا يوجدون في كل مركز تجاري مثل جدة (وهي نهاية طريق الحجيج) وسجلماسة في مراكش وطرابلس وبيروت ومصر (٢٢٥) .

وثمة مثال آخر على الوحدة الإسلامية يتجلى في الانتشار الواسع الذي عمّ النباتات الاستوائية وشبه الاستوائية من ذات القيمة الاقتصادية من دار السلام حتى حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي بصفة خاصة . فالكباد والبرتقال جاءا من الهند إلى البصرة وسورية بعد عام ٩١٢ ، وما مضت بضعة سنوات حتى كثرت أشجارهما في طرسوس وانطاكية وفلسطين ومصر (٢٢٦) . وفي هذه الحقبة انتقل دود القز غرباً ، من سورية إلى صقلية وإسبانيا وقد يكون البرتقال والليمون قد انتقلا أيضاً في هذا الوقت (٢٢٧) . وقد وجد قصب السكر والقطن خلال تلك الأيام في المغرب وإسبانيا ، وربما في صقلية كذلك (٢٢٨) . وراح الأرز والزعفران يزرعان في ممتلكات الخليفة في قرطبة (٢٢٩) وأما انتقال صناعة الورق على الطريق نفسها فحدث ذو أهمية ماثلة . وهكذا نرى أن للعرب فضلاً أعظم حتى من فضل الرومان في إدخال مثل هذه النباتات القيمة إلى عالم البحر الأبيض المتوسط ، وأقلمتها في تربة تلك المناطق (٢٣٠) .

ويبدو أنه لم يكن لسلطة المسلمين على البحر الأوسط أثر اقتصادي ضار على العالم البيزنطي إلى الشمال . إذ ليس هنالك إلا القليل من الدلائل على سد الطريق أمام التجارة من الامبراطورية البيزنطية واليهما . فإذا ما نظرنا إلى التفرقة السياسية في العالم الإسلامي ، لرأينا أنه لم يكن هنالك برنامج اقتصادي عام يمكن أن يتخذ ضد القسطنطينية على كل حال ، وليس هنالك من برهان

على مثل هذه المحاولة . نعم كانت هناك غارات على شواطئ بيزنطية الشرقية والغربية ، كما اغتصبت كريت وصقلية من حكام القسطنطينية ، لكنه كانت تتخلل تلك الغارات فترات سلام طويلة تسمح بالنشاط التجاري . وخلال هذه الحقبة لا توجد أدلة على أن الامبراطورية البيزنطية عانت من أي انحطاط اقتصادي . والواقع أن الحقائق تدل على عكس ذلك (٢٣١) . فالقسطنطينية ما زالت في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر مدينة قوية غنية ، كما أنها كانت أعظم بكثير من أي مركز صناعي وتجاري في عالم البحر الأبيض المتوسط وأما نقدها الذهبي فقد بقي على كثرته وجودته وسيلة التبادل الدولي لامبراطوريتها ولشعوب البلقان والروس الذين يضمهم فلك نفوذها (٢٣٢) . وقد كان صيارفها يربحون أموالاً طائلة من الأعمال المالية التي كان يتيحها ازدهار العاصمة (٢٣٣) .

كذلك لم تغير طراز أعمالها التجارية الأساسي في هذه الفترة . فقد بقيت طريزون البوابة التجارية التي تدخل منها بضائع الحرير والتوابل والطور والسلع الشرقية من بلاد العراق وفارس الإسلامية إلى بيزنطية (٢٣٤) . واستمرت تشيرسون في القرم على كونها الميناء التجارية التي تدخل منها المستوجات الروسية ، ونهاية طريق الحرير البري المؤدي إلى الصين ، والذي سيطر عليه الخزر مدة طويلة ، وهناك كانت تجبى ضريبة ١٠ بالمائة على جميع المستوردات (٢٣٥) . وما زال البلغاريون يتاجرون مع القسطنطينية ، وربما مع سالونيك أيضاً ، مع وجود قيود تتعلق بالحوازات ، ومدة الإقامة ، والمستوجات التي يمكنهم أن يصلروها أو يستوردوها . وكانت إقامتهم تقتصر على أماكن معينة خلال زياراتهم التجارية (٢٣٦) .

ومن التطورات الجديدة بالذكر فيما يتعلق بالتجارة شمالاً ظهور التجار الروس الفارنجيين في القسطنطينية . فبعد هبوطهم غير الموفق على العاصمة ، شرعوا بالتجارة بنشاط مع تسارجراد الذهبية إلى الجنوب . وقد كان من شأن المعاهدات التجارية الخاصة التي جرت عام ٩١١ وعام ٩٤٤ أن نظمت بدقة

شروط تلك التجارة (٢٣٧) . وكان يُشرف على هؤلاء التجار الروس بدقة . شأنهم شأن البلغاريين ، وتعين لهم أماكن خاصة للإقامة فيها خلال بقائهم في القرن الذهبي ، كما كان يطلب إليهم مغادرة البلاد فور انقضاء الأشهر المعينة التي كان يسمح لهم بالإقامة خلالها . أما البضائع التي كانوا يحملونها معهم أو يستوردونها فكان يشرف عليها بعناية ودقة (٢٣٨) . ولا ريب أن الأهمية المتنامية لمراكز أولئك الروس التجارية من أمثال كييف ونوفوجورد على طول الطريق الاسكندنافي إنما تشهد بأهمية هذه التجارة . أما البضائع الرئيسية التي كان يجلبها أولئك الروس إلى القسطنطينية فكانت القرو الرقيق ، وأما صادراتهم إلى روسيا فكانت التوابل ومنتجات الثوف التي توفرها مثل هذه الحاضرة الكبرى .

وقد حافظت بيزنطية على اتصالاتها بالغرب اللاتيني عن طريق مدن إيطاليا التجارية كالبنديقية ، وأمالفي ، وغيرهما . ولم يكن يسمح إلا لتلك المراكز التي ما زالت تعترف بسيادة بيزنطية ، بأن تصدر من القسطنطينية التوابل ، والعطور ، والحرير المتوفر فيها ، بينما كان هنالك أصناف جد ممتازة من الحرير يحرم تصديرها على تجار تلك المراكز ، وكذلك على التجار البلغاريين (٢٣٩) . وقد يكون ميزان القسطنطينية التجاري حسناً مع الغرب ، حيث كانت سفن البندقية في القرن العاشر تدفع رسوم استيراد تبلغ قطعتين ذهبيتين عن كل سفينة في أبيدوس ، و ١٥ قطعة ذهبية على صادراتها في المكان نفسه (٢٤٠) . على أنه لا يكون من الحكمة أن نعزو هذه الحالة إلى ترتيب مطلق من جانب الحكومة الامبراطورية . فلم يكن غير الذهب إلا القليل مما يكن للغرب أن يتاجر به والقسطنطينية في حاجة إليه ، إذ أن الخشب ، والحديد والرقيق التي كانت عبارة عن صادرات الغرب الرئيسية ، إنما كانت موجودة بكثرة في بيزنطية . فالخشب والحديد من أراضيها ، والرقيق يمكن إحضاره بسهولة من بروسيا .

غير أن تجارة بيزنطية كانت على أشدها مع العالم الإسلامي . فقد كان يقدم

إليها ما تحتاجه من التوابل والعمود والحرير . وعلى الرغم من أن طريزون قد بقيت ، نظرياً على الأقل ، الميناء الوحيدة لدخول المتوجات الإسلامية إلى الامبراطورية ، إلا أن أباطرة القسطنطينية ، عملياً ، قد خففوا من وطأة قيودهم التجارية الموجهة ضد التجار المسلمين في البحر الأبيض المتوسط . والظاهر أن جهوداً طيبة قد بذلت لجذب تجارة المسلمين في البحر الأبيض المتوسط إلى القسطنطينية (٢٤١) . وكان في هذه العاصمة نقابتان تدينان بوجودهما إلى هذه التجارة وهما مستورد و الحريير الممتاز ، ومستوردو التوابل أو العمود (٢٤٢) . وقد تكون المعاملة التي عومل بها التجار المسلمون أحسن من أية معاملة لافاها الأجانب في القرن الذهبي . والتجار المسلمون هم الذين كانوا يأتون بكميات كبرى من الحرير وخيوط الكتان . والظاهر أن التجار السوريين كانوا أصحاب حظوة خاصة ، وكانوا هم الذين يأتون بالعمود والأقمشة البغدادية إلى القسطنطينية (٢٤٣) .

ومن المسائل التي يصعب البت فيها ما إذا كان التجار اليونانيون يترددون بكثرة على موانئ البحر الأبيض المتوسط الإسلامية . على أنه من الجدير بالذكر أن حياً للتجار اليونانيين – ولا ندرى أكان من المواطنين أم الأجانب – كان موجوداً في القسم القديم من القاهرة ذاك الذي بناه الطولونيون (٢٤٤) . وفي عام ٩٥٤ تلا الغارة البيزنطية ، التي شنت على دلتا النيل ، مذبحة عامة قضت على جميع الروم المقيمين في مصر (٢٤٥) . وهذا يوحي بأنه كانت ثمة مع بلاد النيل تجارة نشطة . وفي أوائل القرن العاشر ، عندما نشطت قوة بيزنطية البحرية مرة أخرى في حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي كان هنالك ذكر لتجارة التجار اليونان مع آرلس عام ٩٧١ (٢٤٦) . أما ما إذا كان أولئك التجار شرقيين أو يونان لإيطاليين ، فذلك ليس بالأمر الواضح . وعلى العموم ، يبدو أن هذه المدة قد شاهدت تجارة سمحت بها القسطنطينية مع بلدان البحر الأوسط الإسلامية بحرية أكثر من تلك التي كانت جارية في القرن السابق .

وعلى كل حال لم يكن هنالك سوى تخفيف قليل من وطأة إشراف الحكومة

الاقتصادي . وقد كان النظام البيزنطي الامبراطوري يتطلب تنظيماً دقيقاً للصناعة أشد بكثير مما كان في البلدان الإسلامية مثل مصر وشمال افريقيا . ويرينا « كتاب الوالي » مراراً وتكراراً مدى هذا الإشراف الدقيق . فالمنتجات ومقالع الحجارة ومصانع الملح بقيت من حقوق الدولة (٢٤٧) . كما أن تصدير أصناف معينة من الحرير الجيد والمطرزات وحتى صناعاتها كانت تحت الإشراف الحكومي (٢٤٨) . وكان بيع الفلال في العاصمة ، وربما في غيرها من المراكز يخضع للتنظيم الدقيق (٢٤٩) .

والظاهر أن ليس هناك من داع كبير للظن بأن ميزان بيزنطية التجاري مع العالم الإسلامي كان في غير صالحها . فحريرها ومطرزاتها ومنتجاتها الصناعية الفنية كانت ذات قيمة في الشرق كما هي في الغرب ، على أن تجارتها مع أوروبا وروسيا قد تكون أكثر ربحاً منها مع جيرانها المسلمين . أما غنى القسطنطينية في هذه الحقبة وكذلك اكتظاظ خزيرتها فبدل دلالة واضحة على ازدهارها المنظم تنظيمياً جيداً والذي يضارع ذلك الازدهار الذي تمتعت به إسبانيا وافريقيا ومصر وسورية .

ومن أعظم الأمور المتعلقة بحياة بيزنطية الاقتصادية في هذا الوقت قصورها الذاتي من وجهة التجارة الدولية ، وقد كان هذا القصور الذاتي ، أو الانفعالية لا الفاعلية ، شديد الوضوح في القرن الثامن . فأصبح في القسطنطينية والامبراطورية أشد وضوحاً في القرن التاسع وأوائل القرون العاشر . ولقد كانت بيزنطية ، شأنها شأن مصر التي تشابهها اقتصادياً إلى حد كبير ، امبراطورية يتاجر معها أكثر من كونها امبراطورية تتاجر على حسابها . فالروس والبغاريون والإيطاليون والعرب جعلوا من مدينة القرن الذهبي سوق العالم التجارية ، غير أنهم سيطروا ، عملياً ، على جميع تجارتها الأجنبية . وعلى الرغم من أن الانتعاش قد أصاب سفن الشحن التجارية البيزنطية في السنوات الأولى من القرن العاشر ، إلا أن تجارتها ، على وجه العموم ، قد توقفت عن كونهم ذوي أهمية في التجارة الأجنبية . لا بل أن تجارة البحر الأسود ، وقد كانت حتى هذه

المدة وفقاً على الشاحنين اليونانيين ، قد غزاها الروم الاسكندنافيون الذين حملوا سلعهم إلى القسطنطينية (٢٥٠) .

إن هذا التقليد البحري السلمي المحافظ الذي دعمته شدة الحكومة الامبراطورية في إشرافها على التجارة ، هو الذي يساعدنا على فهم التطورات الهامة في تملك الأراضي في الامبراطورية خلال القرن العاشر . فالثروة التي جاءت بها التجارة والصناعة إلى الامبراطورية لم تجد إلا القليل من فرص الاستثمار في الحقل التجاري . ولهذا كان هنالك اتجاه عند الأغنياء ، وخاصة النبلاء ، إلى استثمار رؤوس أموالهم في الأرض ، بينما نرى المسلمين وراء البحر الأبيض الأوسط ، في هذا الوقت ، يتبعون عملية مخالفة بالمرة . أما النتيجة فكانت تعديلات مستمرة على ممتلكات الفلاحين الذين يشكلون عمود الجيش الفقري . وقد حاول الأباطرة ، من أمثال قسطنطين بورفيروجينيتوس ، ورومان ليكاينوس ، أن يوقفوا هذا التطور الخطير بقوانين ، ويحموا أراضي الفلاحين الأحرار من جيرانهم الأغنياء منهم ، بل وبنحوا الفلاحين نوعاً من حقوق الشفعة بأراضي الأرستقراطيين (٢٥٢) . وكان ذلك من العبث . فقد أخذ الفلاحون في القرن العاشر يفقدون أراضيهم فيستولي عليها الأرستقراطيون عن طريق الشراء أو القوة . وقد بدأت الممتلكات الواسعة الخاصة بأسر من أمثال أسرة كومنيني وغيرها تملأ آسيا الصغرى (٢٥٣) . فلو كانت هنالك إمكانيات استثمار في أي حقل ، غير الأرض ، لما حدث هذا التطور الذي أصبح على درجة من الخطورة تهدد سلامة بيزنطية البحرية .

وهناك ، على كل حال ، مناطق هامة في الغرب اللاتيني تعكس لنا في هذه المدة صورة اقتصادية تختلف عن صورة بقية بلدان البحر الأبيض المتوسط . ولا شك أن المقارنة مثيرة بين المدن الراجحة الحركة والتجارة النشطة في بلدان إسبانيا وشمال أفريقيا الإسلامية وبين الشاطئ المسيحي الممتد من برشلونة حتى نهر التير . فكل تجارة أو قوة بحرية وجدت في هذه المناطق في زمن شارلمان ولويس الثاني : قد اختفت في هذه المدة . وقد بقيت برشلونة وناربون

ومرسيليا وجنوة وحتى بيزا مراكز قليلة السكان لا تكاد تجمي نفسها من الغارات المتقطعة التي كان يشنها المسلمون من إسبانيا أو من فركسيستوم قاعدتهم الأمامية (٢٥٤) . وتضارع هذه المراكز في عدم الأهمية ، زراعياً وتجارياً ، جزر سردينيا وكورسيكا التي لم تتمتع إلا بالقليل مما تمتعت به صقلية المجاورة وجزر البليار وإسبانيا من ازدهار (٢٥٥) .

ولا ريب أن هجمات المسلمين مسؤولة جزئياً عن هذا الانحطاط ، إذ من الصعب أن نجد في تلك الهجمات الإيضاح النهائي لهذا الانحطاط الذي يعود إلى أسباب أخرى . وقد يكون التطور في طرق التجارة الذي حدث في أيام حكم البيزنطيين قد استمر بعد أن حلت قوة المسلمين البحرية محل قوة القسطنطينية . فالمدن التي كانت مهمة في القرن الثامن من أمثال أمالفي وجاينا وسالرنو ونابولي على شاطئ إيطاليا الغربي قد بقيت على أهميتها في القرن التاسع . فهي لم تحافظ على استفادتها مع علاقتها البيزنطية القديمة التي أعوزت المدن الغربية الأخرى فحسب ، وإنما كانت كذلك على قوة كافية تحوّل التعامل الاقتصادي مع المسلمين بشروط متساوية نسبياً . وهذا ينطبق أيضاً على البندقية في بحر الأدرياتيك ، فعلى الرغم من أن هذه المدينة أبدت القسطنطينية في تطهيرها مدخل الأدرياتيك من القراصنة المسلمين في زمن باسيل الأول ، وثابتت على اعترافها بسيادة بيزنطية وارتباطاتها معها ، نجد أن تجارها قد استفادوا من سيادة المسلمين على البحار (٢٥٦) ؛ فالفضل يرجع إلى هذه السيادة في كونهم قد استطاعوا أن يتاجروا على نطاق واسع مع البلدان الإسلامية دون أن تزعجهم اعتراضات البيزنطيين . وكانت المتوجات الثلاثة المتوفرة عندهم بكثرة للتصدير ، وهي الحديد والأسلحة والخشب ، يحتاج إليها المسلمون بصفة خاصة على طول السواحل من فلسطين إلى أمرية . أضف إلى ذلك أن تجارة الرقيق المحرمة قد جلبت لتجارهم الأرباح الضخمة من أسواق الرقيق الإسلامية الممتدة من قرطبة إلى بغداد ، حيث كانت هذه القطعان البشرية ذات قيمة خاصة في نظام الحريم ، والحرس الخاص بالحكام المسلمين (٢٥٧) ٥

وكانت مدن كامبانيا ، مثل نابولي ، أوثق اتصالاً من البندقية ببحر إهرنا المسلمين ، كما أن اتحاد تلك المدن فعلياً معهم كان أكثر من انفصالها عنهم . ولقد حمت مدن كامبانيا وساعدت القراصنة المسلمين الذين كانوا يسلبون أخواتها المدن الإيطالية (٢٥٨) . وكانت لا تمتنع عن القيام بعمل النحاسين ، وقد تبادلت مع المسلمين الرقيق والمنسوجات (المصنوعة محلياً أو المستحضرة من القسطنطينية) لقاء زيت الزيتون ، والبضائع الشرقية ، والمتوجات الصناعية المتوفرة في بلرم وشمال أفريقيا وإسبانيا (٢٥٩) .

وأما فيما تبقى من جنوب إيطاليا وأواسطها فقد قام القراصنة والمغامرون المسلمون بأعمال تخريبية كثيرة على الساحل وفي الداخل خلال المدة الواقعة بين عام ٨٤٠ وعام ٨٨٦ ، غير أن الغلو في تقدير النتائج الاقتصادية لأعمال التخريب تلك غير مستحيل . وفي سنة ٨٧٦ ، عندما طهرت أبوليا من القراصنة المسلمين ، خلت سواحل الأدریاتيك وسواحل إيطاليا الشرقية من عناصر الإزعاج ، كما أن حملات نفقور (نيسيفورس فوكاس) عام ٨٨٥ وعام ٨٨٦ قد وضعت حداً للخطر الإسلامي في كل المناطق ما عدا منطقة جاريغليانو . ولما صُقي أمر هذا المركز طهرت هذه المنطقة نهائياً من أعمال النهب الإسلامية وذلك عام ٨١٦ .

وقد أدت النتيجة إلى استعادة جنوبي إيطاليا ازدهاره الكامل في القرن العاشر . ونشطت التجارة نشاطاً عظيماً وتداول النقد الذهبي الإسلامي والبيزنطي بحرية وخاصة الأول منهما (٢٦٠) . وكان أهم من ذلك التقدم الاقتصادي الذي حدث في القسطنطينية ووادي بو . فقد أصبحت البندقية عام ٨٤٠ (والفضل يعود إلى معاهدة خاصة مع لوثير) بمونة هذه المنطقة المفضلة بالسلع الشرقية . ولقد منحت البندقية حقوقاً تجارية خاصة في بافيا وغيرها من مناطق الأدریاتيك الأعلى (٢٦١) . وجدد كل حاكم من حكام شمال إيطاليا هذه الوثيقة للمدينة العائمة (٢٦٢) . وبعد إزالة كوماسشيو في أواخر القرن التاسع ، تخلصت البندقية من كل منافس تجاري في التجارة الدولية

هذه المنطقة .

وقد عبرت المتوجات الشرقية التي تتوفر في البندقية وغيرها جبال الألب من بافيا وغيرها من مدن سهل لمبارديا إلى ألمانيا وشمال فرنسا . أما الطريق المتبعة فكانت ممرات الألب ، وبصورة رئيسية سبتيمر ومونت ساسني وسانت برنار الكبير (٢٦٣) .

وفي عام ٩١١ عند زيارة قام بها كونراد الأول لسانت جول ، كان هنالك ذكر للحريير المستورد من إيطاليا (٢٦٤) . وفي عام ٩٤٩ أرسل أوتو الأول لويغفرد ، وهو تاجر من ماينز ، سفيراً له إلى القسطنطينية عبر هذا الطريق مختاراً البندقية (٢٦٥) . ويتضح مدى هذه التجارة من المكوس التي كان يجنيها ، إلى الجنوب من ممر سانت برنار الكبير ، جيزو أسقف أوستا عام ٩٦٠ . وكانت هذه المكوس تتضمن ضرائب على أصناف تجارية عدة كالأسلحة والسيوف والرماح والبروس والدروع والملح والرصاص والقصدير والنحاس والصقور والقووس (٢٦٦) . وفي عام ٩١٧ أشار إكهارد من دير سانت جول إلى جماعة من التجار راجعين من إيطاليا إلى بلادهم (٢٦٧) . وفي عام ٩٤٧ أصبحت هذه الطريق هامة إلى درجة حدث برئيس هذا الدير إلى أن يقيم سوقاً في موقع مناسب لهذه التجارة (٢٦٨) . وقد تكون التوابل الكثيرة المتوفرة في كمبراي خلال هذه الحقبة قد مرت عبر طرق الألب تلك . والظاهر أن برونو ، وهو أسهل تلك الممرات المؤدية من سهل لمبارديا إلى ألمانيا ، كان قليل الاستخدام في هذه الحقبة ، ذلك لأن تدخل المجريين قد جعل المرور منه غير عملي . ولم يظهر هذا الممر إلا بعد انتصار أوتو على المجريين عام ٩٥٥ (٢٦٩) . ويشبه ذلك التدخل تدخل المسلمين بالطريق التي تخترق الممرات المؤدية من إيطاليا إلى فرنسا ، وقد حد هذا التدخل بشدة من نشاط التجارة التي تعبر ممرات تلك المنطقة (٢٧٠) . وهكذا يتضح لنا أن بعضاً من التجارة الهامة قد واصلت التدفق إلى أوروبا من البلدان الإسلامية والشرق البيزنطي حتى عام ٩٦٠ ، وذلك عبر البندقية وممرات جبال الألب .

وقد يوضح ذلك شيئاً من تساؤلنا لماذا حافظت ألمانيا في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر على طراز من النظام والحكم ، ولم تكابد ما كابدته فرنسا من الفوضى الإقطاعية . إن الألمان حافظوا على ارتباطات هامة مع الشرق عن طريق إيطاليا ، وناهيك بعلاقاتهم مع بلدان البلطيق . أما فرنسا فقد كانت أقل حظاً من ذلك كله . ومع هذا يجب أن نعرف بأن مدى هذه التجارة إنما كان جدياً محدود . فقد كانت ممرات الألب كافية لسلم الترف الشرقية كالحرير والمطرزات والتوابل أضف إلى ذلك الأسلحة والرقيق التي كان يسهل شحنها من البندقية ، على أن ذلك لم يكن للتصدير بكميات ضخمة . وقد تكون مثل هذه التجارة التي تتوفر عبر هذه الطريق في وضع يسمح للبندقية ولباردا بأن تكونا على مستوى نقدها الذهبي ، وأن تتمتعاً بالكثير من الازدهار ، إلا أنها لم تستطع أن تغير من الطابع الاقتصادي للأحداث في بقية أنحاء أوروبا الغربية . إن أوروبا الغربية لم تستطع أن تخلي وراءها وضعيتها الزراعية ، ومستوى نقدها الفضي الكارولنجي ، وأن تشكل اقتصادياً للتعامل مع العالمين الإسلامي والبيزنطي المتقدمين في البحر الأبيض المتوسط ، إلا بعد أن توفرت طرق تجارية أسهل وأقرب مثلاً ، مثل طريق وادي الرون ، وأصبحت عملية اجتيازها ثانية ممكنة من الوجهة التجارية .

ومهما كان الأمر ، فإنه يجب أن لا يظن بأن طريق الأديريتيك — الألب التجارية إنما كانت الوسيلة الوحيدة التي وصلت بين الغرب والشرق ، وإن كانت أهم من غيرها بكثير . وقد اتبعت التجارة طريق فرنسا الجنوبية مصعدة في وادي الرون ، وإن كانت هذه ضئيلة ضعيفة . هذا ، واستمرت فردون في هذه الحقبة مركزاً للتجارة بالخصيان من الرقيق مع إسبانيا الإسلامية ، كما بقي اليهود يتبعون طريقاً تجارية بوية في أوائل القرن التاسع كانت تجاري وادي الرون ، مارة بـ لانجيدوك إلى الحدود الإسبانية (٢٧١) . وفي القرن العاشر كان هنالك شيء من النشاط التجاري على طول شواطئ إيطاليا الشمالية الغربية وفرنسا الجنوبية . ويظهر أن أرسل كان

لها بعض التجارة الخارجية عام ٩٢١ (٢٧٢). وقد حدث أن شن الفاطميون في عام ٩٣٥ غارة حطمت السفن التي كانت آنذاك بالقرب من سردينيا وكورسيكا في بحر ترهانيا . ولربما كان حتى لإسبانيا علاقات بحرية مع أوروبا الشمالية كما يوحي لنا بذلك صك التاج البريطاني ٢٠٠٠ منكوسي عام ٩٥٥ (٢٧٣) ، وعلى العموم يبدو أن مسلمي شمال إفريقيا وإسبانيا قد تاجروا قليلاً مع الغرب اللاتيني ، مفضلين ترك مثل هذه التجارة بأيدي المدن الإيطالية القائمة ، وأيدي اليهود الذين جابوا الطرق من فرنسا الشمالية وبراغ إلى أسواق الرقيق الإسبانية . والرحالة المسلم الوحيد الذي زار ماينز في أوائل القرن العاشر ووصف ، بدشة ، السلع المعروضة للبيع ، فيظهر أنه من شواذ المقاعدة (٢٧٤) . ولربما يكون استغلال التجارة الصحراوية والشقيقة قد استنفد طاقات التجار المسلمين جميعها ، كما يمكن أن تكون غاراتهم على السواحل المسيحية ، وغارات أعشاش القرصنة من أمثال فركسيتوم قد تدخلت في الإمكانات التجارية :

ومع ذلك فإن المسلمين لم يغلقوا طرق أوروبا اللاتينية التجارية أكثر مما فعلوا مع بيزنطية . ففكرة الحصار يجب أن ترفض كما ترفض الأسطورة : ولو كان هنالك ثمة شك في هذه الحقيقة لوجب أن يتلأشى أمام تفحص طريق الحج إلى الأرض المقدسة في هذه الحقبة . فالحكام المسلمون لم يتعرضوا إلى الحجاج ، لا بل أن عددهم قد تزايد في زمنهم (٢٧٥) . وأكثر من ذلك نجد أن حاكماً من حكام القراصنة ، مثل أمير باري ، قد كان أميل إلى مساعدة الحاج الغربي في طريقه إلى فلسطين بتوفيره له لا وسائل النقل فحسب ، وإنما كذلك بتزويده بمجواز خاص يساعده في مصر (٢٧٦) .

وأخيراً نرى ، بصورة عامة ، أنه حدثت في المدة الواقعة بين عام ٨٢٧ وعام ٩٦٠ ، وهي المدة التي سيطر المسلمون فيها على البحر الأوسط ، تطورات اقتصادية عديدة في تجارة البحر الأبيض المتوسط . لقد عادت الحياة من جديد إلى طرق تجارية قديمة عديدة ، كانت قد ماتت في زمن سيطرة

بيزنطية البحرية . وشاهدت تلك الأعوام بزوغ عصر شمال إفريقيا وإسبانيا وصقلية كمناطق صناعية هامة ، تفتح مناجمها ، وتطور صناعتها وزراعتها ، وتتحكم في تجارة البحر الأبيض المتوسط المتجهة شرقاً ، وفي طرق القوافل إلى ذهب السودان . وقد شاهدت الحقبة المذكورة أيضاً ازدهار مصر وسوريا مرة أخرى ، وعودة التجارة إلى البحر الأحمر . ومن التطورات العظيمة أن أصبح العالم الإسلامي كله وحدة اقتصادية واحدة بنقد ذهبي مشترك مقبول في البلاد الإسلامية من فارس حتى إسبانيا . وقد شاركت بيزنطية في هذا الازدهار مشاركة كاملة ، حيث وسعت تجارتها مع روسيا الفارنجية ووصلت إلى أوروبا عن طريق البندقية والمدن الإيطالية القديمة وطريق البحر الأسود — البلطيق التجارية .

وأما في الغرب اللاتيني فقد شاركت إيطاليا في هذا الازدهار أيضاً ، ولربما كان يبعها إلى العرب أكثر ، وشراؤها من القسطنطينية كذلك . ولم تكن ألمانيا ، وإلى حد ما فرنسا الشمالية ، وإنجلترا بلاداً غير مزدهرة . فالبلاد التي بقيت على أنهارها الاقتصادي كانت فرنسا الجنوبية ، والجانب الساحلي من شمال غربي إيطاليا ، وجزر سردينيا وكورسيكا الغربية . إن هذه المناطق التي كانت تعوزها القوة البحرية ، والمنتجات المحتاج إليها في البلاد البيزنطية والإسلامية ، قد كسب عليها أن تبقى طوال قرن آخر في اضطراب اقتصادي .

ومع ذلك فإن هذه الحقبة كانت من أعظم الحقب حيوية في تاريخ عالم البحر الأبيض المتوسط . ثم إن انقلاب نظام الأوضاع القديم ، وتحول الغرب الإسلامي إلى منطقة صناعية ، تتحكم بالاشتراك مع المدن الإيطالية بنقل تجارة البحر الأوسط ، كان الخطوة الأولى لتحكم الدول الغربية بهذه المنطقة . لقد كانت بداية رائدة لمستقبل كان عليه أن يرى أوروبا الغربية الحكم النهائي في مصير البحر الأبيض المتوسط .

الهوامش

- ١ - Vasiliev, A. Bysance et les Arabes I, 73-74.
- ٢ - Dandolo Chron. in Mur. Rer. Ital. Script. XII, 170. John Chron. Ven. in MGH Script. VII, 16.
- ٣ - Manforni Storia della Marino Italiana (Livourni 1899) I, 36-40.
- ٤ - فاسيليف جزء ١ ص ٣٨٢ من (التوري) .
- ٥ - المصدر نفسه ، ص : ٣٨٢ .
- ٦ - ابن حذاري ، طبعة دوزي ، ص : ٩٢ ، ابن الأثير ، طبعة ثورنبرج ، ج ٦ ص ٢٢٨ .
- ٧ - Cronica di Cambridge ed. Cozza-Luzzi, p. 24. John Deac. Gesta Episcop. Neapol. in MGH Script. Rer. Long., p. 430.
- ٨ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٢٩ .
- ٩ - Vasiliev op. cit., p. 431.
- ١٠ - John Deac. in op. cit., p. 431.
- ١١ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٢٩ .
- ١٢ - Vasiliev op. cit., p. 132.
- ١٣ - ان الحركات التي يشير اليها ابن الأثير ، كانت سفننا قاذفة لهب . ولا شك ان امتلاك مثل هذه السفن المجهزة بمثل هذا السلاح ، قد يوضح لنا سبب انتصارات اساطيل شمال أفريقيا والهزائم بيزنطية . ترى هل وقف الاغالية حل سر النار الاغريقية قبل ثمانى سنوات عن طريق غيانسة يوفوموس ؟ اقرأ عن الحركات في قاموس لين العربي - الانجليزى ، ج ١ ص ٥٥٢ .
- ١٤ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٤٠ .
- ١٥ - نفس المصدر ج ٧ ص ٣ .
- ١٦ - من حصار برنلزي وتليدها بعد ذلك راجع : Chron. Salern. in MGH Script. III, 503. وقد اغتصبت تارنتو في السنة التالية . راجع : Chron. Salern. Dandolo Chron., in op. cit., III, 508.

p. 175. and John Chron., Ven., p. 114.

- Vasiliev op. cit., I, 209 — 12. Erchemperti Hist. Lang. in MGH — ١٧
Script. III, 247. Chron. Salern. in op. cit. III, 508 - 10
- ١٨ - البلاذري ج ١ ص ٣٧١-٣٧٢. ان بعض المؤرخين يعتقد بان كلمة سودان هي اسم
لشخص وليست لقباً. وهو اعتقاد لا يقره البعض الآخر.
- Dandolo Chron., p. 175. John Chron. Ven., p. 17. — ١٩
- John Chron. Ven., p. 18 — ٢٠
- John Deac. Gesta Episcop. Neapol. in op. cit., p. 432 — ٢١
- « Vita Sergius II » in Liber Pont. ed. Duchesne II, 99 - 101. — ٢٢
- Chron. Casinensis in MGH Script. III, 225 - 26
- « Vita Leonis IV » in Liber Pont. II, 127 — ٢٣
- ٢٤ - ابن الاثير ، ج ٧ ص ٤ .
- ٢٥ - ابن حطاري ج ١ ص ١٦٤ - ان الحصام الذي دار بين اخي الأمير العباس حاكم تونس
ومسلمي كريت قد يمسك لنا حقيقة راجحة ، وهي ان اساطيل القراصنة التابعة لمسلمي
كريت وباري كانت تخرس تجارة الاغالية مع الشرق على طول الطريق الدائرية التي تمر
بكريت واطاليا الجنوبية اعتراضها التجارة البحرية المسيحية .
- ٢٦ - ابن الاثير ج ٧ ص ١٤٠ وابن حطاري ج ١ ص ١٠٤-١٠٥ .
- ٢٧ - ابن الاثير ج ٧ ص ٤١-٤٢ ، وفاسيليف (عن النويري) ، ص ٣٨٤ . يقول ابن
حطاري انها كانت حمة عربية كريتية وليست بيزنطية . وقد يكون
ممكناً ، عل ان العرب الكريتيين في تلك الحقبة قد يكونون خلفاء بيزنطية . ابن
حطاري ج ١١ ص ٥٦ .
- ٢٨ - ابن الاثير ج ٧ ص ٤٢ . راجع . Amari Storia II, 182 .
- ٢٩ - ابن الاثير ج ٧ ص ٩٧ وراجع . Bury, East. Roman Empire, p. 397 - 98 .
- ٣٠ - ابن خلدون Hist. de L'Afrique et de Sicile etc. ص ١٢٥ وابن الاثير .
- ترجمة Fagnan ج ١ ص ١٤٨
- ٣١ - ابن الاثير ج ١ ص ٢٤٠ ؛ النويري ، ترجمة Gaspar ج ١ ص ٨٦ .
- ٣٢ - راجع . Theophanes Continuator, p. 309-15. وابن الاثير ج ١ ص ٢٥٣ .
- ٢٥٤ وابن حطاري ج ١ ص ٥٢ .
- Bury, East. Roman Empire, p. 315 — ٣٣
- Dandolo Chron., p. 184. — ٣٤
- Theoph. Cont., p. 280 - 91. Const. Porphy. De Thematisbus — ٣٥
(ed. Bonn) II, XI. Amari Storia I, 419 - 29
- Amari Storia I, 520 - 23. — ٣٦
- Gasquet Byz. Emp. p. 459 - 60. Vasiliev Byz. Emp. I, 396 - 97. — ٣٧

- John Chron. Ven., p. 20 - ٣٨
- John Deac. Chron. Episcop, Neupol. ابن الاثير ج ١ ص ٢٣٩ وراجع - ٣٩
- in op. cit., II, 317 .
- Labbe Sacrosancta Concilia II. راجع وسائل حنا الثامن في - ٤٠
- Labbe op. cit., p. 74. وللإطلاع على الدور الذي لعبه حنا الثامن في هذه الحروب - ٤١
- Engreen « Pope John VII and the Arabs ». in Speculum راجع
- (1945) XX
- Theoph. Cont., p. 302 - 05 - ٤٢
- Gasquet op. cit., p. 422 - 23 - ٤٣
- Leo of Ostia in Mur. Rer. Ital. Script. IV, 316 - 17 - ٤٤
- ٢٦١ ص ١ ابن الاثير ج ١ - ٤٥
- ٥٧ ص ١ وابن الاثير ج ١ ص ٢٦٢ . - ٤٦
- Amari Storia I, 568. - ٤٧
- ٥٨ ص ١ ابن عذاري ج ١ - ٤٨
- Cronica di Cambridge, p. 66 - ٤٩
- John Deac. in Gaetani Vita راجع ، ٢٤٨-٢٥٠ ، - ٥٠
- Sanct. Sic. II, 61
- ٣٠٩ ص ١ وابن عذاري ج ١ ص ٢٣٥ - ٥١
- ٢٣٦-٢٤٠ ص ١ وابن عذاري ج ١ وابن عذاري ج ١ ص ٢٤٤ - ٥٢
- ٢٤٥-٢٤٦ ص ١ وابن عذاري ج ١ ص ٢٤٦ - ٥٣
- ١٨٠-١٨١ Amari Storia II, لقد كانت بيزنطية ، وهي مشغولة بحروبها - ٥٤
- مع البلقانيين ، متهمة بخرابها السلام من مسلمي صقلية .
- Luidprand Antapodesis in MGH Script. III, 297 - 98. Amari - ٥٥
- Storia II, 190 - 97. Gay op. cit., p. 161.
- Theoph. Cont., p. 76 - 77. See Brooks « The Arab Conquest of - ٥٦
- Crete » in Eng. Hist. Rev. (1913) XXVIII.
- Theoph. Cont., p. 79 - 81 - ٥٧
- ٣٧ ص ١ نفس المصدر ، - ٥٨
- Vasiliev Byz. et les Arabes I, 90 - ٥٩
- Theoph. Cont., pp. 200, 203 - ٦٠
- ٣٥-١٣٧ والكنتي ص ٢٠٣. قد يكون تفاؤلياً - ٦١
- مبالغاً في أهمية حملة الفزح هذه . انها لم تقود الى تجديد بناء الاسطول المصري ، ذلك انه
- عندما كانت الحطاط توضع لحملة بحرية اسلامية جديدة ضد بيزنطية في عام ٨٧٧ ، كان

- لا يد من بناء سفن جديدة في كل من سوريا ومصر. راجع. Theoph. Cont. V, 68.
- ٦٢ - الكندي ، ص ٢٥٣ .
- ٦٣ - Petit, L. « Vie et Office de Sainte Euthyme le Jeune » in راجع Revue de l'Orient Chrétien (1903) VIII, 189-70
- ٦٤ - نفس المصدر. وربما يكونون قد أنشأوا لهم قاعدة أمامية للقرينة في أثينا خلال هذه الحقبة.
- ٦٥ - Theoph. Cont., p. 298 - 300
- ٦٦ - نفس المصدر ، ص ٢٩٨
- ٦٧ - نفس المصدر ، ص ٢٦٦ - ٢٦٨ John Cameniati « De Excidio Thessa- loniciensi » in Corp. Script. Hist. (ed. Bonn), p. 491, 598
- ٦٨ - راجع Const. Prophy. De Cereoniis, p. 651-58. وقد شن هجوم غير ناجح في عام ٩٠٢. وربما تكون هذه الحملة ، وحسلة عام ٩١٠ بها في الواقع حملة واحدة .
- ٦٩ - Theoph. Cont., p. 405. Runciman, The Emperor Romanus Lecapenus and his Reign (London 1919), p. 89 - 90
- ٧٠ - Michael the Syrian Chron. III, 101.
- ٧١ - Vasiliev Byz. et les Arabes I, 192 - 73.
- ٧٢ - راجع Bury East. Rom. Empire, p. 291-93. ويقول المقريري ان هذه الحملة قد أدت الى الإصلاحات البحرية في مصر. وقد يشير هذا بعض التناؤل . قصير لم تكن ذات قوة بحرية تذكر حتى ايام الفاطميين في القرن التالي .
- ٧٣ - الطبري ج ٢ ص ١٤٤٩ .
- ٧٤ - Theoph. Cont., 59.
- ٧٥ - Wiet op. cit., p. 94 - 95. Const. Porphy. De Themat., p. 40.
- ٧٦ - Wiet, op. cit., p. 95.
- ٧٧ - الكندي ص ٢٧٦. راجع Eutrychtus Annals (ed. Pocock) II, 509-10
- ٧٨ - المسعودي ٨ ص ٢٨٢. Const. Porphy De Cereoniis, pp. 656,660.
- ٧٩ - Masudi Prairies d'Or VIII, 282.
- ٨٠ - Wiet op. cit., p. 127 - 29. Lane - Poole Egypt, p. 82 - 91
- ٨١ - راجع Vernadsky Ancient Russia, p. 303-07. ان المساعدة البيزنطية المقدمة لاقامة حصن ساوكل الخزر قد تكون نتيجة لفسطاط الروس الفارانجيين عام ٨٣٣ .
- ٨٢ - انظر في تفاصيل هذا الهجوم راجع : Vasiliev The Russian Attack on Constantinople (Cambridge, Mass. 1745).
- ٨٣ - ان الكثيرين من المؤرخين ينكرون ان هجوماً روسياً قد وقع عام ٩٠٧ ، وان أشهر الى ذلك في The Primary Chronicle . راجع هذه النظرية : G. de Costa

Louillet « Y eut - il des invasions Russes dans l'Empire Byzantin avant 860 » in Byzantion XV, 231 - 20.

والذي يترأى لنا ان شيئاً من ذلك وقع فعلاً ، وذلك بعد توقيع المعاهدة التجارية عام ٩٦١

Vasiliev Byz. et les Arabes I, 185 - 87 — ٨٤

Condé Historia de la Dominacion de los Arabes en Espana (Barcelona 1884) I, 227 — ٨٥ نفس المصدر ، ص ١٧٦ ، و

Poupardid Le Royaume de Provence sous les Carolingiens (Paris 1901), p. 240 — ٨٦

Masson, P. De Massiliensibus Mercatoribus, p. 129 — ٨٧

Campaner y Fuertes op. cit., p. 17 - 21 — ٨٨

Masson op. cit. — ٨٩

Duprat « La Provence dans le haut moyen âge » in Bouches du Rhone, Encyclopédie Departementale (Marseilles 1923) II, 33-39. — ٩٠

Ganshof « Note Sur les Ports de Provence, » p. 32. راجع — ٩١

هناك شيء من الالتباس بين هؤلاء الفزاة المسلمين وبين قراصنة الشمال اللذين كانوا

يميلون من قاعدتهم في هذه الجزيرة خلال السنين ٨٥٩ و ٨٦٠ راجع : Annales

Vasiliev, Bertiniani in MGH Script. I, 452. وكذلك راجع

Russian Attack, P. 47-49.

Arnaud de Verdale Cat. Epis. Mag. in op. cit., p. 500 — ٩٢

Poupardin Le Royaume de Bourgogne (888-1038) (Paris انظر — ٩٣

Patrucco « I Saraceni in Piemonte et nelle Alpi Orientale » in Biblioteca della Società

Storica Subalpini (Pinerola 1908) XXXII. وهناك تفصيلات في (1907) ، p. 83-112 .

Campaner y Fuertes op. cit., p. 40 - 56 — ٩٤

Dozy Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne II, 252 - 56. — ٩٥

٩٦ — نفس المصدر ، ص ٢٦٧ - ٦٨

٩٧ — البكري (الجزء الثاني ١٩٣١) ص ٨٤ . وابن حزمي ج ٢ ص ١٩٩ .

٩٨ — Vasiliev Russian Attack p. 49-65 ان الفكرة القائلة بان اولئك القراصنة

الشماليين ظنوا بان لوفي هي روما ، قد تكون فكرة خاطئة . فبينما لوفي كانت الميناء

المهمة الوحيدة على ساحل ليغوريا الايطالي منذ القرن السابع ، ولهذا فهي تستحق المهاجة

بغية حلها .

٩٩ — ابن حزمي ج ٢ ص ١٧٠ .

- Theoph. Cont., p. 405 -١٠٠
- Liudprand Antapodesis, p. 137 -40. Theoph. Cont, p. 423 -١٠١
- Nestor, p. 33
- Bury East. Rom. Empire, p. 291. -١٠٢
- Wiet op. cit., p. 147 -١٠٣
- ١٠٤- ابن عماري ج ١ ص ٢٧٠
- Cronica di Cambridge in Amari Biblio Arabo - Sicula I, 283. -١٠٥
- Chron. Barenensis in Mur. Rer. Ital. Script, I, 31 and Lupus -١٠٦
- Prospataris in op. cit., V, 38.
- Cedrenus II, 356 - 58 -١٠٧
- ١٠٨- ابن الاثير ج ١ ص ٣١٧ والنوري ج ٢ ص ٢٦٢
- Liudprand op. cit., pp 137 - 139. -١٠٩
- ١١٠- نفس المصدر
- ١١١- ابن الاثير ج ١ ص ٣٠١ وابن عماري ج ١ ص ٣٠١ والنوري ج ٢ ص ٢٦٢ .
- ١١٢- كانت سردينيا اما ذات حكم مستقل او تحت النفوذ او السيادة البيزنطية في هذا الوقت .
- انظر Besta La Sardegna Medioevale (Palerm 1908) , I, 48-60.
- اما كارتا واسبي فيعتقد انها كانت مستقلة . وقد تكون ، شأنها شأن البندقية وناپولي ،
- بديلاً تتمتع باستقلال ذاتي . وهي حتماً لم تكن تحت الحكم الاسلامي . ويشك باستا في
- ان الفوزة الاسلامية عام ٩٣٤ كانت موجّهة ضد سردينيا . انظر Besta op.cit.,p. 47.
- اما فيما يتعلق بكورسيكا فليس لدينا اية معلومات . غير انه من المحتمل أنها كانت
- هي أيضاً ذات حكم مستقل لا يدين بالسيادة البيزنطية او الاسلامية .
- Amari Storia II, 217 - 44 -١١٣
- Marçais Berbérie, p. 147 - 53 -١١٤
- ١١٥- ابن الاثير ج ١ ص ٣٥٣-٣٥٥ وراجع Lupus Propoturius in M G H
- Script V, 54
- Theoph. Cont., p. 453. Cedrenus II, 359 -١١٦
- ١١٧- القيرواني ، ترجمة Pellesier et Pemusat ص ١٠٤ و ابن عماري ج ١ ص ٣٨٢
- Theoph. Cont., p. 454 - 55. Cedrenus II, 359 - 60 -١١٨
- ١١٩- Amari Storia II, 322 - 24. وابن خلكان ، ترجمة de Slane ج ١ ص ٢٤٠
- ١٢٠- ابن عماري ج ٢ ص ١٧٠ .
- Dezy Recherches II, 252 - 67 -١٢١
- ١٢٢- ابن خلدون ج ١ ص ٥٤٢ و ابن عماري ج ٢ ص ٣٦٦

- ١٢٢- ابن عساري ج ٢ ص ٣٦٢ و ٣٦٩-٣٦٨
- ١٢٤- Lane - Poole op. cit., p. 99 - 100
- ١٢٥- ابن حوقل ، وصف بلرم ، ترجمة (Amari (Paris 1845 ص ٢٨٤٢٦
- ١٢٦- Bury East. Rom. Empire, p. 293 - 94
- ١٢٧- Marçais Berbérie, p. 142 - 43
- ١٢٨- كانت مناجم الحديد واضربها ملكاً للدولة في بلرم . ومن هذه المناجم كان الاحمراد يزودون بالمواد اساطيل صقلية التي كانت الدولة تجهزها بالرجال . ابن حوقل ص ٢٨-٢٩
- ١٢٩- Lévi - Provençal L'Espagne Musulmane au Xe Siècle : راجع : (Paris 1932), p. 85-86. و الادريسي ص ٢١٢ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٣٧
- وابن عساري ج ٣ ص ١٠٣ و ابن خلدون ، ترجمة دي سلين ، ج ٢ ص ٤١-٤٠
- ١٣٠- الكندي ص ٢٧٦-٢٧٧
- ١٣١- Masudi, Prairies VIII, 282 وقد يكون أمير طرسوس هو قائد الاسطول . راجع : Hill, Cyprus I, 281 - 2.
- ١٣٢- نقل دي غورني عن أبي الفرج في المكتبة الجغرافية ج ٦ ص ١٩٥-١٩٨
- ١٣٣- Vasiliev Byzance et les Arabes I, 132
- ١٣٤- Schlumberger Un Empereur Byzantin au Dixième Siècle, Nicephore Phocas (Paris 1933), p. 27 - 30
- ١٣٥- Carta - Raspi op. cit., p. 130 - 33
- ١٣٦- Bury « The Naval Policy of the Roman Empire in relation to the Western provinces from the 7th to the 9th Century » in Centenario della nascita di Michele Amari (Palermo 1910) II. وعل كل حال فان يوري يخطئه في ادعائه ان الازوردين قد اهلوا اسطولهم حتى اواخر القرن الثامن او اوائل القرن التاسع . راجع هذا الموضوع في Bury East. Roman Empire, p. 299 ,330
- ١٣٧- Bury The Imperial Administrative System in the Ninth Century (London 1911), p. 108 - 10.
- ١٣٨- نفس المصدر
- ١٣٩- فيما يتعلق بهذا الموضوع ، راجع : Bury « Naval Policy » كان لاسطول كالايريا الحكومي المؤلف من عشرين ذكر في عام ٨٧٧ ، وذلك في موضوع التاسع البابا سنا الثامن المساعدة البحرية من جريغوري حاكم كالايريا . راجع Gasquet Byz. Emp., p. 475-82. وقد اشير الى هذا الاسطول عام ٨٤٨ عندما قام بنزو مونديللو في صقلية . انظر ابن الاثير ج ٧ ص ٤
- ١٤٠- Wiel, Althea The Navy of Venice (London 1910), p. 15 - 23.

- ١٤٦ — Leo Tactica, p. 989 ff.
- ١٤٧ — Lévi - Provençal Hist. de l'Espagne Mussulmane, p. 304 - 22
- ١٤٨ — Bury East. Rom. Empire, p. 253 - 71
- ١٤٩ — نفس المصدر ، ص ٢٨٢ - ٨٤
- ١٥٠ — في كتاب رونسيان « رومانوس ليكابينوس » مادة متنازة عن أحداث هذه السنين .
- ١٥١ — ان محاولة سيمون فينر بلغاريا المأداة الى كسب محالفة حاكم افريقيا الفاطمي و امير طرطوس كي يكسب القوة البحرية التي تعوزه و هو في حاجة اليها ، قد قضى عليها تدخل مبعوثي رومانوس ليكابينوس الى افريقيا . وهذا يكشف لنا عن الدور الذي لعبته القوة البحرية في اغيولة دون طغيان بلغاريا على بيزنطية . أما أهمية القوة البحرية في هذه الحقبة فظالما بخصت في تقديرها حق قدرها . راجع Cedrenus II, 356 ، و Vasiliev Vizantiya i Arabya II, 222
- ١٥٢ — Wiet op. cit., p. 88 - 95
- ١٥٣ — ابن حوقل وصف بلرم ص ٢٩
- ١٥٤ — اليعقوبي ص ٧٤ و البلاذري ص ٦٦
- ١٥٥ — معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٣٣٣ ، و الادريسي ص ٢٣١ ، ٢٣٧ - ٢٣٨
- ١٥٦ — الاصطخري ، ص ٦٣
- ١٥٧ — Schaube Handelgeschichte der Romanischer Volker, de Mittelmeergebeite bis zum der Kreuzzuge (Munich and Berlin 1910), p. 3 - 26.
- ١٥٨ — اليعقوبي ، ص ٣١٢ - ٣١٣
- ١٥٩ — Revue des etudes Islamiques (1935), p. 303
- ١٦٠ — رياض النفوس للكوفي في 303
- ١٦١ — نفس المصدر ص ٣٠٥
- ١٦٢ — Abu l'Arob Classes des Savantes de Ifriqiya: Trans. Ben Cheneb I, 146
- ١٦٣ — ابن خلدون ج ١ ص ٣٦٦
- ١٦٤ — Marçais Berbérie, p. 80 - 82
- ١٦٥ — الثوري في ابن خلدون ج ١ ص ٤٥٣
- ١٦٦ — Marçais Berbérie, p. 83 - 84
- ١٦٧ — نفس المصدر
- ١٦٨ — البكري ، ترجمة دي ملين ، الطبعة الثانية ، ص ٩ ،
- ١٦٩ — Marçais Berbérie, p. 85 - 87
- ١٧٠ — ان ميزانية الحرب الفاطمية التي جمعت لفتح مصر عام ٩٦٩ قد بلغت ٢٤ مليون دينار ذهباً - ولمعري انه ليبلغ ضعفه راجع Lane - Poole, Egypt ص ١٠١ - ١٠٢
- ١٧١ — Wiet Egypte Arabe, p. 127 - 29

- ١٦٦- البكري ص ٦٥-٦٨ وابن الاثير ج ١ ص ٣١٤-٣١٥
 ١٦٧- Mez Renaissance of Islam, p. 430 - 40
 ١٦٨- البكري ص ٥٥
 ١٦٩- Lombard, M. « L'or Musulman du VIIe au XIe Siècle » in Annales (1947) II, p. 149.
 ١٧٠- نفس المصدر ، ص ١٥٠ و Gautier, E. F. « L'or du Sudan dans l'histoire » in Ann. d'hist. Econ. et Soc. (1935) VII, 113 - 23.
 و المصادر اقرأ مقالات Monteuil المنشورة في Bulletin de A.O.F (1928 - 9), XI, XII.
 ١٧١- راجع : Lombard op. cit p. 151 وابن خلدون ج ٢ ص ١٠ ، وابن حوقل
 ص ٢٤٩ وابن مغازي ج ١ ص ٢٤٤ و Abu 'Arab, p. 235.
 ١٧٢- Mez Renaissance of Islam, p. 254
 ١٧٣- الاصطخري ص ٢٨٨ . يدعي لومبارد ان اقباط مصر قد دفعوا الجزية بالذهب ،
 وان الذهب قد تزايد الحصول عليه من قبور الفراعنة في هذه الحقبة .
 انظر : Lombard op. cit., p. 148-49
 و Lane-Poole op. cit., p. 41-42
 ١٧٤- راجع Masudi Prairies d'or III 12
 Wiet op. cit., p. 128.
 ١٧٥- Wiet op. cit., p. 109 - 10
 ١٧٦- Lane - Poole op. cit., p. 59 - 60
 ١٧٧- نفس المصدر
 ١٧٨- راجع Lane - Poole op. cit., p. 60-64 وقد حوّل في هذا الزدحام تحت
 الحكم الاخشيدى . انظر Mez P. 29-30
 ١٧٩- تتمكن هذه الآراء في المصنوع ج ٣ ص ٤٣-٤٤ . انظر Wiet op. cit., P.169
 ١٨٠- Le Strange, G. Bagdad under the Caliphs p. 77.
 ١٨١- نفس المصدر ، ص ١٧٣ - ٧٤
 ١٨٢- القرطبي المخطوط ج ١ ص ١٧٧
 ١٨٣- Mez Renaissance of Islam, p. 467 - 69
 ١٨٤- Marabecek Mitteilungen aus den Papyrus Rainer III, 98
 ١٨٥- Mez op. cit., p. 118
 ١٨٦- نفس المصدر ، وانظر ايضاً Schaub Handelsegeschichte, p. 149.
 ١٨٧- كان حكام مصر قد أوجدوا نوعاً من الخشب يستخرجونه من شجر السنط المحلي ، ولم
 يكن على مستوى رفيع من الجودة ، مع انه كان باهظ التكاليف . انظر القرطبي

ج ١ ص ٢٠٤ و Wiet op. cit., p. 174—75
 ١٨٨- راجع موضوع سورية البحرية في المخطوطي ص ٢٢٧ ومن نجسارة سورية الى
 القسطنطينية انظر The Book of the Perfect V, 1—5
 ١٨٩- راجع : Heyd op. cit., p. 43 و Mes op. cit., p. 508-09 والاسطخري ،
 ص ٢١ وراجع فيما بعد القديسي ، وصف سوريا ، ترجمة G. Le Strange pp.
 91-92, 167

١٩٠- Mez op. cit., p. 126
 ١٩١- ياقوت ج ١ ص ٧٢٣، وراجع Lévi-Provençal L'Espagne Musulmane
 au Xe Siècle, p. 162-64.

١٩٢- نفس المصدر ص ١٦٤-١٦٧
 ١٩٣- ياقوت ج ١ ص ٣١٦-٣١٨
 ١٩٤- نفس المصدر ج ١ ص ٢٢٧ و ج ٤ ص ٢٠٤
 ١٩٥- نفس المصدر ج ٤ ص ٢٧٥
 ١٩٦- الادريسي ص ٢٠٩ . انه لن الصعب البت فيها إذا كانت هذه الحرفة قد امتثلت في
 القرن الماشر . قد يكون ذلك .

١٩٧- الادريسي ، ص ٢٥٦ و ياقوت ج ٣ ص ٨٨٩ - ٨٩٠
 ١٩٨- Makkari Annalectes I, 191—
 ١٩٩- Lévi - Provençal op. cit., p. 179

٢٠٠- نفس المصدر
 ٢٠١- نفس المصدر
 ٢٠٢- الادريسي ص ٢٣٤ ، والمقري ص ١٢٢-١٢٣
 ٢٠٣- الادريسي ص ٢٣٧
 ٢٠٤- ياقوت ج ٣ ص ٧٩
 ٢٠٥- المقري ص ١٣٣

٢٠٦- Lévi - Provençal op. cit., p. 185
 ٢٠٧- الادريسي ص ٢٣٥

٢٠٨- Lévi - Provençal op. cit., p. 179 - 83
 ٢٠٩- المقري ج ٢ ص ١٩٨ في بحثه عن المدن الصناعية الرئيسية في اسبانيا
 ٢١٠- كان الفرض من ارسال عبد الرحمن الثالث اسطول له لاحتلال سبتة عام ٩٣١ هـ وحمايتها
 هذه الطريق . راجع ابن حناري ج ٢ ص ١٧٠

٢١١- ابن حناني ص ٧٢
 ٢١٢- Lombard op. cit., p. 152 - 53
 ٢١٣- ابن خلدون ج ١ ص ٤٦٤

٢١٤- راجع — Kremer Ueber das Einnahmebudget des Abbasider Reiches (Vienna 1887), p. 6 . وفي الوقت نفسه نرى ان الوصولات الخاصة بالعملة المتعلقة ببابل وخوارزمستان وفارس وايران كانت تذكر بالعملة فقط بدلا من ذكر العملة والنوع الذي دفعت عنه . وهذا يمكن لنا الاثراء المتزايد . انظر : Kremer نفسه ص ٣٠٩-٣٢٢

٢١٥- ومن أسباب تعامل الطريق الفارانجية بالنقد الفضي ما يعود الى ان بلدان اوروبا الغربية كانت تتعامل مع المناطق ذات التعامل بذلك النقد ، أمثال فارس الاسلامية ، والعراق حتى القرن العاشر ، وبذلك تجاوزت مناطق الدينار والبيزانت .

٢١٦- De Goeje Internationale Handelsverkeer in de Middeleeuwen, Verslagen in Mededeelingen der K. Akad Van (Wetenschappen, 1909), p. 265. Mez Renaissance of Islam, p. 41.

De Goeje op. cit., p. 265 - 66 -٢١٧-

٢١٨- ابن حنبل ج ١ ص ٢٦٥

٢١٩- Marçais Berbérie, p. 80. Levi - Provençal L'Espane Mussul- man, p. 187 - 94.

٢٢٠- ابن حنبل ص ١٨٢

٢٢١- ابن حنبل ، وصف بارم ، ص ٢٨-٢٩

Mez Renaissance of Islam, p. 476 - 78 -٢٢٢-

٢٢٣- ابن حنبل ص ٤٢ و ص ٧٠

٢٢٤- ياقوت ج ١ ص ٣٨٥، ٣٩٩

Mez op. cit., p. 478 -٢٢٥-

٢٢٦- المسعودي ج ٢ ص ٤٣٨ ، والمقريزي (المجلد) ج ١ ص ٢٨

Calendar of Cordova ed. Dozy, pp. 41, 91. -٢٢٧-

Chron. of Mora Rases in Mem. Acad. Madrid XIII, 37 - 38, 56

Mez op. cit., 435 - 36 -٢٢٨-

٢٢٩- ياقوت ج ١ ص ٧٧٢ و ج ٣ ص ٣١٦ ، ٣١٨

٢٣٠- راجع أفضل تلخيص لهذا الموضوع في كتاب تاريخ العرب للدكتور ج ٢ ص ٥٢٨-٥٢٩

٢٣١- Lombard op. cit., p. 153.

٢٣٢- نفس المصدر ، ص ١٥٤

Book of the Perfect IX, 5; X, 4. Michwitz, G. « Byzance et l'économie de l'occident » in Ann. d'Hist. Econ. et Soc. (1936) IX. -٢٣٣-

٢٣٤- المسعودي ج ٢ ص ٣ ، الاصطخري ص ٤٦٢

Cross, S.H. The Russian Primary Chronicle (Cambridge -٢٣٥-

1930), p. 159 - 63. Const. Porphy. De Admin. Imper., p. 71.

Runciman The First Bulgarian Empire (London 1930), p. 144- ٢٣٦

48. Book of the Perfect IX, 6. Const. Porphy. De Admin.

Imp. pp. 79, 177

Heyd op. cit., p. 68 - 73.

—٢٣٧

Cross Primary : من معاملة التجار الروس في القسطنطينية ، راجع :
Chronicle, p. 150-170.

Lopez « Silk Industry, » p. 35 - 40. Book of the Perfect IX, —٢٣٩

6. Runciman op. cit., p. 148.

Lombard op. cit., p. 153 - 4

—٢٤٠

٢٤١- يعتقد لوبزان ذلك ينطبق تمام الانطباق على تجار الغرب المسلمين في هذه الحقبة ، انظر
Lopez op. cit., p. 27—31. وقد كانت طريزون ما تزال المركز التجاري لتجار

الشرق المسلمين . راجع الاصطخري ص ٤٦٢ والسعودي ج٢ ص ٣

Book of the Perfect V, 1 - 2, 4 - 5; IX, 6; X, 2.

—٢٤٢

ibid V, 1—3

—٢٤٣

Wiet Egypte Arabe, p. 109

٢٤٥- نفس المصدر ، ص ١٤٧ - ١٤٨

٢٤٦- انظر 36 - 35 Ganshof « Les ports de Provence, » p. كان ذلك في نفس
الوقت الذي كانت فيه قوات بزنطية البحرية ناشطة عبر شواطئه . فر كسيتنوم . وهكذا

يظهر ان التجار البيزنطيين قد يكونون وصلوا ايضاً الى هذه المنطقة . راجع :

Dupont, A. Les relations Commerciales entre les cités maritimes
de Languedoc et les cités d'Espagne et d'Italie(Nimes 1942), p. 22

Andréadès « Byzance, Paradis de Monopole » in Byzantion —٢٤٧
IX, 171 - 81

٢٤٨- راجع Andréadès « Byzance, Paradis de Monopole » in Byzantion

IX, 171 - 181 عن موضوع مواصلة بزنطية إشرافها على التجارة والأشخاص

المبارين الاراضي الاسلامية ، تراجع قصة مانت ايليا الكاسترو وجيوفاني الذي تحول بحرية

في الاراضي الاسلامية ، والذي التي القبض عليه كجاسوس في ايطاليا البيزنطية .

في . Acta Sanctorum 17 Aug. و Amari Storia I, 554-56

Book of the Perfect XVIII, 24

—٢٤٩

٢٥٠- لقد لاحظ هايد (ص ٥٢-٥٦) « ان البيزنطيين ، على العموم ، لم يهتموا بانتشار
تجارهم في البلدان المجاورة » . وقد لاحظ ديل نفس الملاحظة . انظر Diehl Byzance

Grandeur et Decadence, p. 96 - 99

٢٥١- تجد تلخيصاً رائعاً لهذا الموضوع في Charanis « The Social Structure of

- Byzantium » in op. cit., p. 52 - 55. Also Neumann, C. Die Weistellung des Byzantinischen Reiches aus den Kreuzzüge (Leipsig 1895) واما عن المضاربات التجارية الخاصة بالطبقة الارستقراطية في شال افريقيا فارجم ال النويري في ابن خلدون ، ترجمة ديسلين ج ١ ص ٣٥ - ٤٣٦
- Jus Graeco - Romanum ed. von Lingenthal III, 246 - 47, 292-96 - ٢٥٢
٣٥٣ - لقد ألقى كل من نيسيفورس فوكاس ، وباسيل الثاني هذه القوانين التي سار عليها الحكام الاوائل . انظر Graeco - Romanum III, 299, 303
- ٢٥٤ - عن نشاط قرعنة فر كمينتوم المسلمين ، انظر Tyler, J.F. Alpine Passes (Oxford 1930) p. 55 - 56 وعن تقاعة لانجيدوك التجارية في هذه الخطة ، انظر 24 p. cit., p. 100 and Dupont op. cit., وقرأ من شاطيء ليجورديا الايطالي في 41 - 434 p. « Orig. du Capit. Gén. » Lopez
- ٢٥٥ - اقرأ عن عدم اهدية - سردينيا في هذا الوقت Carta-Raspi op. cit., p. 149- 91
و عن كورسيكا Cesari—Rocca and Villat Histoire de la Corse (Paris 1916) P. 39—41.
- ٢٥٦ - Diehl Venise, p. 18 - 21. Heyp op. cit., p. 110 - 12
٢٥٧ - اقرأ Codex Carol. ed. Gelzer epis. LXXV و Liber Pont. I, 443
- عن تجارة البندقية بالرتيق في القرن الثامن . واما في القرن التاسع فراجع Muratori Annali d'Italia p. 960 وفي القرن العاشر راجع 8 p. Schaube op. cit.,
- Mez Ren. of Islam, p. 159 و Amari Storia II, 199 - 200
- Chron. Salern. in MGH Script. III, 526. Heyd od. cit., p. 89- ٢٥٨
90. Gasquet Byz. Emp., p. 420 - 23. Amari Storia II, 521 - 23.
٢٥٩ - Gay Itali Mer., p. 247 - 53
- Regii Neapolitani Monumenta (Naples 1845), pp. 129, 143, ٢٦٠
178. Monneret de Villard « La Moneta in Italia durant l'alto medio eva » in Rev. Ital. di Num. (1919 - 20) XXXIII — XXXIII.
Bloch, M. « Le Problème d'or au moyen âge » in Ann. d'Hist. Econ. et Soc. (1933) v, 2 - 3
- Cessi « Pacta Veneta » in Arch. Ven. n.s. (1928 -) V - VI. ٢٦١
Diehl Venise, p. 18. Cessi Venezia, I, 41 - 43.
- Solmi L'amministrazione finanziaria del Regno Italico, p. 80-110 - ٢٦٢
٢٦٣ - راجع Tyler Alpine Passes, p. 147 - 48 وعن اغلاق مسلمي فر كمينتوم الطرق التجارية الى فرنسا عبر جبال الالب ، انظر 7 - 55 p. Tyler, op. cit., and Sabbe « Importation des Tissus » in Revue Belge (1935) XII, 813 - 23.

- Heyd op. cit., p. 86. Schaube op. cit., p. 89. -٢٦٤
- Heyd op. cit., p. 80. Luidprand Antapodesis trans. -٢٦٥
- Wright, p. 207
- Besson Mémoires du Diocèse de Genève, p. 473. Ochlman -٢٦٦
- « Die Alpenpasse im Mittelalter » in Jahrbuch für Schweiz
geschichte III, 248 - 9.
- Schaube op. cit., p. 92. -٢٦٧
- ٢٦٨ - نفس المصدر
- Tyler op. cit., p. 144 - 5 -٢٦٩
- ٢٧٠ - نفس المصدر ، ص ١٥٤ - ١٥٧
- ٢٧١ - من الطريف أن نلاحظ أن الطريق البحرية المؤدية إلى إسبانيا لم تستخدم في هذه الحقبة
لتجارة الرقيق انظر Agob. Lugdun. Archiep. Epistolae in MGH
Epis. v, 185 Mir St. Bert. in Acta Sanct. Bol., Sept. 1, p. 597.
- Vita Joh. Abb. Gor. in : راجع :
MGH Script. IV, 369 - 75.
- Ganshof op. cit., p. 36 - 6. -٢٧٢
- Lib. Monarch de Hyde ed. Edwards in Roll Series, 154 -٢٧٣
- Sabbe « Quelques Types de Marchands des IXe et Xe siècles » -٢٧٤
- im Revue Belge (1934) XIII, p. 178 - 80
- ٢٧٥ - راجع De Goeje op. cit., p. 265 يجب علينا أن نعرف بأن الأعمال العدوانية
بين الأمويين في إسبانيا والكارولنجيين ، تلك الأعمال التي لم تنته حتى عام ٨٦٤ ،
وكذلك نشاط قراصنة فرسكتوم المسلمين من عام ٨٨٨ وطوال هذه المدة ، قد أزعجت
التجارة من شال غربي إيطاليا وجنوبي فرنسا كما أن شمول المنطقة المتعاملة بالنقد
الذهبي لعالم البحر الأبيض المتوسط الغربي ، ومن ضمنه إسبانيا ، بهذا كانت أوروبا
الغربية (خارج جنوبي إيطاليا وحوض نهر البو) ضمن المنطقة المتعاملة بالنقد الذهبي
أدى إلى ازدهار التجارة نفسها . انظر Bloch « Problem d'Or », p. 7 - 9
- ٢٧٦ - Wiet Egypte Arabe, p. 86.

الحروب الصليبية وأجهااد

بقلم : جون ل. لامونت

الدوافع الدينية في الحروب الصليبية وحروب المسلمين ضد اللاتين في سورية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر .

•

إن أهداف الحروب ، وأسباب الخصومات والمنازعات ، هي دائماً موضع جدل . ففي فترة التحضير للحرب ، وفي حمى التهيؤ لها ، تضخم بعض أهداف الحرب ودوافعها . ولكن العقل الناحص ، الناظر إلى الأمور بهلوه ، لا يعطي هذه الأهداف إلا أهمية أقل مما أسبغ عليها في تلك الأحوال . حتى وعندما تبلو هذه الدوافع محددة تمام التحديد ، واضحة كل الوضوح ، فلا يد أن هنالك أهدافاً ثانوية تساعد على نشوب الحرب بصورة فعلية . وقد يصح في هذه القضية القاعدة العامة التالية : تضخم الأهداف المثالية والعقائدية للحرب بغية كسب تأييد الشعب ، على الرغم من أن الدوافع الاقتصادية والسياسية قد تكون ، في الحقيقة ، أقوى من العوامل العقائدية التي تحظى بدعاية واسعة .

فصل كتب جون ل. لامونت ، وظهر في كتاب « تراث العرب » ، تحرير الدكتور توبيه امين غارس ، نشر مطبعة جامعة برنستون ، هام ١٩٤٤ .

ليس هنالك فضيحة تثير الناس البسطاء مثل الدين . ففي الحمية الدينية شي' مَقْدَر يجعل الناس مشتاقين وراغبين بالمخاطرة بحياتهم مقابل التمتع بتلك اللغة الغامضة ، لذة افناء الأشخاص الآخرين الذين يختلفون وأياهم في تحديد صفات الباري ، أو في الطريقة المثلى لأقامة شعائر عبادته . ففي العصور القديمة ، عندما كان لكل قبيلة إله خاص بها ، كانت كل قبيلة تدعو لإلهها ليؤيدها في الوصول إلى أهدافها ، ولينصرها على أعدائها . وكانت هزيمة القبيلة تفقد لإلهها جلاله وهيبته ونفوذه . لأن هزيمة القبيلة كانت تعني أن إلهها ليس من العظمة والقوة بحيث يضمن لشعبه النصر في محاولتهم الاستيلاء على أراضي جيرانهم ونهب متاعهم . لقد سقطت آلهة قرطاجنة عندما أندحر أسطولها في الحروب القرطاجية ضد رومة . ولو أن قرطاجنة انتصرت في تلك الحروب لكان من المحتمل جداً أن يحتل البعل مركز الصدارة بين جمهور آلهة الرومان . « إن صوت الشعب هو صوت الله » . وليس بين دعوة الآلهة لينصر القبيلة : أو الشعب ، ويحقق لها أهدافها ومطامعها ، وبين الزعم بأن رغبات الشعب هي إرادة الله ، غير خطوة صغيرة . واستطيع أن أقول أن القرطاجيين الطيبين كانوا مقتنعين كل القناعة بأن البعل أرادهم أن يحاربوا الرومان . وكانت امبراطورية أثينا تعني ، حتماً ، مجد الإلهة أثينا وعزتها . وكان الآلهة في العصور القديمة تشترك شخصياً في الحروب التي تنشب بين أتباعها . وإذا كان ظهور الآلهة بأشخاصهم قد قل منذ زمن شاعر اليونان هوميروس ، فإن اهتمامهم بأحوال الناس لم يتضاءل . وكان القديسون والملائكة يحاربون جنباً إلى جنب مع الجيوش النصرانية في العصور الأولى . واستخدم الإمبراطور قسطنطين . « هذه العلامة تغلب » (أي علامة الصليب) في صراع دنيوي محض . وأعلن الألمان باعتزاز ، في الحرب العالمية الأولى ، « إن الله معنا » .

أما في الحرب الدائرة اليوم (١) ، فإن الألمان ، وقد التوا الله ، لا يستطيعون أن يدعوه لنصرهم . ولكنهم اتخذوا القومية الجرمانية بديلاً عن فكرة الله :

(المقيم)

(١) يقصد الكتاب الحرب العالمية الثانية .

وأصبحت حماسهم لاعلاء اسمها ، والاعتزاز باجماعها ، لا تقل عن حماسة المخلصين من ابناء اية طائفة دينية أخرى . لقد اتخذ الصراع ضد النازية اليوم ، عند كثير من الانقياء المخلصين ، طابعاً دينياً . وذلك أن هؤلاء الانقياء يعتقدون أنهم ، بدفاعهم عن الديمقراطية والمحافظة عليها ، إنما يدافعون عن دينهم ، ويحمون مبادئ العقيدة المسيحية . ولعل أحد اسباب تعاون النازيين واليابانيين في الحرب أن ابناء الشعبين يقلدون ملوكهم وأباطرتهم فهم لذلك لا يرون في تعاونهم هذا هدماً لدينهم . أما الإيطاليون فلطول ما عاشوا قرب ممثلي المسيح الزمانيين لم يأخذوا مأخذ الجدل الهجمات الموجهة ضد سلطانه على الأرض .

إن الحروب الصليبية ، دون ريب ، اشهر الحروب الدينية في التاريخ . فقد خاض ، في ساحات سورية ، ديناك عظيمين حروباً مريرة . لقد صارع المسيح محمد حيث صارع الشيطان من قبل (١) . وكانت جملة « هذه هي إرادة الله » هي صيحة الحرب في الحملة الصليبية الاولى . وقد اثرت المستيريا الغوغائية بالرجال الذين احتشدوا لسماع الخطاب الحماسي الذي القاه البابا اوربانوس في كلابرمونت بلرجة لا تقل عن تأثيرها في وجهاء السادة الفرنسيين الذين تنازلوا عن حقوقهم الأقطاعية تحت تأثير هستيريا الحب الأخرى في ليلة ٤ آب ١٧٨٩ المشهورة . وكان خطاب البابا اوربانوس فذاً في شدة لاثارته وقوة إقناعه . فقد ذكر النصرى بالعار الذي يلحقهم من جراء تركهم الكفار يحتلون على حرمان القبر المقدس والأماكن المقدسة الأخرى في فلسطين . ودعاهم إلى إرجاع هذه المناطق إلى المسيح . ان حجاج بيت المقدس يُضطهدون ويُعذَّبون ، فيجب أن تفتح الطرق ، وتبقى حرة يسلكها الحجاج آمنين . (وهذا مبدأ استهوى سامعي خطبة اوربانوس كما يستهويننا اليوم مبدأ حرية

(١) كان المسيحيون يمتدحون المسلمين كثيراً آثمين . وقد نقل الكاتب تمايرهم ، وآراءهم ، كما كانت متداولة في تلك الايام ليضني عل مقاله جواً قريباً من الجوف الذي وقعت فيه الحوادث . ولم يرد بالبراهن هذه التماير ان يطمئن بالدين الاسلامي الخفيف ، او يرسله السطيم .

البحار). إن الأتراك القساة يضطهدون النصارى الشرقيين اضطهاداً وحشياً .
 (إن اضطهاد الناس وانتهاك حرمتهم يدفع الناس أبداً إلى ارتكاب أعمال
 العنف والقتل). ولم ينس أوربانوس أن يذكر مستمعيه بالاباح المادية والروحية
 التي سيجنيها الصليبيون . ان من يموتون في سبيل القضية سينالون المغفرة
 والخللاص . أما مدن « أرض الميعاد » الغنية فستكون جزءاً من يمتلها من
 الاحياء . ولم يشر البابا إلى الفائدة العظيمة التي ستجنيها السدة البابوية من قيادة
 جيش ضخم يسير تحت راية البابا ، كما لم يشر إلى الأثر العظيم الذي سيركه
 مثل هذا الجيش البابوي اللجب في نفوس الأباطرة والملوك . ولم يشر البابا إلى
 النكسات التي نزلت بالكنيسة على أيدي السلطات الزمنية ، وإلى أن الحملة
 الصليبية ستذكر عاهل الأبراطورية الرومانية المقدسة بأن خدام خدام الرب (١)
 ما زال قادراً على القيادة وإصدار الأوامر . لقد أكد أوربانوس ، شأن
 المختصين بفن الدعاية ، الأهداف العقائدية للحملة الصليبية . وكانت هذه هي
 رسالته للصليبيين : السلام للنصارى ، والموت لأعداء الدين . وكانت خطبة
 البابا وافية بالمرام . لقد تأثر المستمعون بالخطبة تأثراً شديداً . فأخذوا يهتفون
 ويهتفون . وأخذ الناس يصنعون ، على عجل ، صلباناً ويضعونها على صدورهم .
 وسارع الرجال ، من مختلف الطبقات والاصناف ، يتعهدون بالاشتراك في
 الحرب المقدسة . وعين البابا واعظين ومبشرين متنقلين « ليحملوا الرسالة إلى
 جميع الشعوب » وليحثوا الناس على التطوع في هذه الحرب الملقمة . وكانت
 مواعظ أولئك المبشرين عظيمة التأثير على الناس ، يشهد على ذلك الفصل
 المشهور الذي كتبه ولهم أوف مالميسبري ، كما وتشهد عليه شهرة بطرس
 التناسك . كانت الحملة الصليبية التي قام بها الفلاحون تتميز بعنف العاطفة وبشدة
 الغباوة وبناتجها السلبية ، غير أنها كانت الحملة الأولى التي كانت غايتها دينية
 بحجة . وبينما تطوع عدد كبير من القادة في « صليبية الأمراء » مدفوعين بدوافع
 دينية في جوهرها ، فقد شارك آخرون في الحملة لكسب مغنم الدنيا أكثر مما

(١) اي البابا .

(المترجم)

فعلوا في سبيل اعلاء مجد الرب . لاشك في صدق الدوافع التي حملت غودفري على الاشتراك في الحملة للتكفير عن ذنوبه السابقة ، ولنبيل الخلاص لنفسه . ويحتمل أن يكون روبرت أوف نورماندي وروبرت أوف فلاندرس مدفوعين ، إلى حد كبير ، بدوافع دينية ، وإن كنت أرى أنهما كانا مدفوعين بدافع آخر ، إلى جانب الدوافع الدينية ، ألا وهو أن الحملة الصليبية أتاحت لهما الفرصة ليصبحا بطلين . ولكن لا يستطيع أحد أن يزعم بأن بوهموند أوف تورنوا قد ذهب لسبب غير رغبته في تأميس أمارة في الشرق . كما كان ريموند أوف سنت جيلز (١) ، بطل الحروب الأسبانية ، يطمع في الاستيلاء على قطعة من أرض سورية الجميلة . وأغلب الظن أن أتباع هؤلاء القادة قد اشتركوا في الحملة لأسباب عديدة . فقد ذهب بعضهم مدفوعين ، بحماستهم الدينية المحضة ، وذهب بعضهم فراراً من رتابة حياتهم المملة ، أو تخلصاً من السنة زوجاتهم السليطة . وحمل بعضهم الصليب حباً بالمغامرة والمخاطرة . وذهب بعضهم لمجرد أن الآخرين قد فعلوا ذلك . ولكن لنا أن نفترض بأن عامة المحاربين يومذاك ، كما هم في زمننا هذا ، كانت تحفزهم الأهداف الماثلية التي ينادي بها قادتهم أيضاً ، وأن الحملة الصليبية الاولى كانت ، بنظر جمهور المشتركين فيها ، حملة دينية في جوهرها . ولكن ما شأن المسلمين الذين سار الصليبيون لحربهم ؟ لقد كان للمسلمين ، أيضاً ، حربهم المقدمة المسماة بالجهاد . لقد قام المسلمون بفتوحاتهم الاولى ، التي كانت توسعاً محتوماً للشعب العربي النشط ، تحت ستار نشر الدين . وقد حمل المسلمون أيضاً « الكتاب إلى جميع الأمم » ، وفتحوا البلاد ، وحملوا الناس على اعتناق دينهم الجديد في الوقت نفسه . كان المسلمون في عهد الخلفاء الاولين ، يهاجمون بلاد الكفار ، وقد حمل الجهاد راية الرسول من مضيق جبل طارق إلى حدود الهند . ولم تكن الحروب الصليبية سوى هجوم مضاد شنه النصارى . ومن المعقول جداً أن يتوقع المرء أن ينهض المسلمون ويتحلوا ليصلوا المهجوم الموجه إلى ديار المسلمين . ولو كان الدين

(١) يسمى في المصادر العربية صنجيل

(الترجم)

هو الدافع المسيطر على عقول المسلمين ، كما يزعم كثير من الكتاب : لا فعل المسلمون غير هذا . ولكن ما حدث في الحقيقة كان على الضد من هذا تماماً . لم تكن الحروب الصليبية ، بنظر المسلمين ، سوى حوادث مزعجة في تاريخ الصراع الطويل من أجل الاستيلاء على سورية . كانت الحروب الصليبية حروباً كبرى ، وعلى هذا فقد احتلت مكاناً بارزاً في تواريخ المسلمين عن تلك الفترة . ولكن هذه الحروب لم تكن تتمتع بالأهمية العظيمة التي يحاول المؤلفون الغربيون أن يضيفوها عليها . لقد تجاهل الخلفاء الحملات الصليبية في بادئ الأمر ، ولم تستطع تلك الحملات أن تقلل مراكز القوة في الإسلام كما فعلت الغزوات التركية والمغولية . ولم تكن تلك الحملات من الأهمية بحيث تؤدي إلى وحدة حقيقية في العالم الإسلامي . ولماذا يجب أن تكون تلك الحملات عامل توحيد ؟ لقد كانت الحروب الصليبية أعظم أهمية للنصارى منها للمسلمين . ومع ذلك فإنها لم تنجح في توحيدهم .

يتفق جميع مؤرخي الحروب الصليبية اليوم على أن أحد العوامل الرئيسية في نجاح الحملة الصليبية الأولى كان تفرق كلمة حكام سورية وعدم مقدرتهم على التعاون عندما جاءت القوات النصرانية إلى الشرق . كانت سورية ، في أواخر القرن الحادي عشر ، مقسمة إلى عدد كبير من الدويلات شبه المستقلة . وكانت البلاد في مطلع ذلك القرن مجزأة بين دولة الروم والخلافة الفاطمية في القاهرة . ولكن غزوات السلاجقة الأتراك حطمت هذا التوازن في القوى ، وغلقت الفوضى الشاملة في جميع أنحاء سورية .

ينظر المؤرخ إلى حملة البارسلان في عامي ١٠٧٠-١٠٧١ ، عادة كأنها مجرد معركة مازكرت التي حطم فيها القوات الرومية . على أن البارسلان قد حطم قوة الفاطميين أيضاً . فقد استولى السلاجقة ، نتيجة لتلك الحملة ، ليس فقط على القسم الجنوبي من الأناضول والقسم الشمالي من سورية ، وإنما اندفعوا جنوباً فانتزعوا دمشق والقدس من أيدي المصريين . وأصبحت سورية ، في الفترة التي عقت موقعة مازكرت ، مقسمة إلى عدد كبير من الدويلات

بعضها خاضع للسلطان، ومعظمها مستقل استقلالاً تاماً . وكان تُتَشُّ، وهو أخو السلطان مَلِكْشَاه ، أقوى حاكم في سورية وفلسطين . فقد استولى على دمشق والقدس وعكا ومعظم فلسطين وجنوبي سورية . وكان يقف حاجزاً بين السلاجقة في قونية وبين الفاطميين في مصر . وفي عام ١٠٨٦ هزم تُتَشُّ سليمان بن قُتْلُمُش صاحب قونية في معركة للاستيلاء على حلب . وكان تُتَشُّ على وشك أن يصبح الحاكم المطلق في سورية لولا أن انتزع منه مَلِكْشَاه ثمرة انتصاره ، إذا أنه استولى على مدن الشمال وعين امراء موالين له على كل من حلب والرَّها وانطاكية .

ولما توفي ملكشاه ، في عام ١٠٩٢ ، أراد تُتَشُّ أن يفيد من الحرب الأهلية التي اندلعت بين ابناء السلطان المتوفي . فقد سارع واجبر امراء المدن السلجوقية على قبول حكمه . ثم اندفع شرقاً ، في عام ١٠٩٤ ، محاولاً الاستيلاء على السلطنة نفسها . ولكن بَرْمِكْيَارُق ، اكبر ابناء ملكشاه ، استولى على السلطنة ، بعد أن تخلص من اخوته ، وارغم عمه تُتَشُّ على الرجوع الى سورية . على أن تُتَشُّ ظل محتفظاً بدمشق وحلب ، كما أن عامِلِيَه طوروس الأرمني وسُقْمَان بن أُرْتُق ظلّا محتفظين بالرَّها والقدس . وعند وفاة تُتَشُّ ، في عام ١٠٩٥ ، ورث ابنه رِضْوَان ودُفْكَاق حلب ودمشق . ولكن الفاطميين غزوا جنوبي سورية ، وطرّدوا الارثقيين من القدس في عام ١٠٩٦ . ويظهر أن بَرْمِكْيَارُق كان لا يبالي بما حدث في سورية ، وكان راضياً بما كان له من سلطان مبهم على ابني تُتَشُّ ، وان كان قد ساعد قائده كَرَبُوقَا الذي استولى على الموصل من امرائها العقيليين ، وأصبح العامل الأول للسلطان في الغرب .

إن هذا الاستعراض السريع للحوادث في سورية لا يعطينا إلا صورة ناقصة جداً عن الفوضى التي كانت تعم البلاد حين قدمها الصليبيون . فان عدداً قليلاً من الأمراء الأتراك كان يعترف بسلطة السلطان ، وقليل منهم من كان يعترف بسلطة الآخر . أما الباقون فكانوا يتنافسون ويتنازعون ، وكان كل واحد منهم يسعى لتوسيع أمارته على حساب جيرانه . فقد كان قِلِيج ارسلان صاحب

قونية ، وكربوقا صاحب الموصل ، ورضوان صاحب حلب ، ودقاق صاحب دمشق ، وعمال الفاطميين في القدس وعسقلان ، والأرمن في قيليقيا ، والدانشمندیون في قبدوقية ، والارتقيون الذين انتقلوا إلى ديار بكر ، ينازع بعضهم بعضاً ، ويرتاب احدهم بالآخر . وكان التعاون بينهم أمراً مستحيلاً ، فاستطاع الصليبيون أن يحاربوهم واحداً بعد واحد .

كانت الحملات الصليبية الاولى موجهة ضد سلاجقة قونية . فقد استولى الصليبيون ، بالتعاون مع الروم ، على نيقية . ثم دحروا الأتراك في معركة مكشوفة في دوريلي . وعلى الرغم من أن امراء سورية قد احسوا بخطر الغزو الصليبي احساساً ضعيفاً غامضاً فانهم ابتهجوا لانكسار أحصامهم من الأمراء في الشمال ، ولم يقدموا لهم أية مساعدة . وكان ياغي سيان ، عامل بركيارق على انطاكية ، على خلاف مع رضوان ودقاق . ولم يتوقع أن يأتيه أي عون من غير الموصل . وقد جاءه هذا العون . صحيح أن عدداً من جنود دمشق وحلب شاركوا في الحملة التي قادها كربوقا لنجدة انطاكية . ولكنهم ، فيما قيل ، هربوا في ساعة المعركة وتركوا كربوقا يواجه الهزيمة . وبينما كان الصليبيون يحاصرون انطاكية جاءهم سفراء من قبل الخليفة الفاطمي يعرضون عليهم التحالف ضد الأتراك . وفي هذه الاثناء استقبل طوروس صاحب الرها الصليبيين في أمارته راضياً مسروراً ، وخلع طاعة السلطان المسلم . وفعل أمراء قيليقيا الأرمن مثل هذا . وقدمت مختلف الطوائف النصرانية ، كالموارنة واليعاقبة والنساطرة والأرمن ، مساعدات ثمينة للصليبيين في حروبهم . أما الأمراء العرب فقد ارتضوا أن يدفعوا الجزية لهؤلاء الفاتحين ، وأن يسمحوا لهم بالمرور في بلادهم . ولعلمهم كانوا يأملون أن يهزم هؤلاء الغزاة على أيدي الأمراء الأقوياء في الجنوب . وفي معمعان القوضى والاضطرابات التي سادت القرن السابق اعتاد الناس على سرعة تبدل الحكام والامسياد ، الروم والأتراك والعرب والأفرنج ، ولم يعودوا يهتمون بجنسية من يحكمهم . وقد أمل النصارى من أبناء الشعب ان يلقوا معاملة افضل على أيدي أبناء دينهم ، ولهذا السبب ساعدوا

الغزاة . أما اكثريه المسلمين فكانوا غافلين ، غير مهتمين بما يجري . وأما أمراء المسلمين فقد اثرت فيهم قوة الأفرنج ومنعتهم تأثيراً عظيماً ، ولم يريدوا أن يساعدوا بعضهم بعضاً على القيام بمقاومة فعالة لئلا يجلبوا على أنفسهم إنتقام الغزاة . كانت فترة احتلال الأفرنج لسورية فترة مليئة بالحروب المتواصلة بين الدول الإسلامية والنصرانية ، وبالرغم من أنه كانت تقع فترات من السلم بين الحملة والحملة ، فإن الحرب كانت الشيء المعتاد آنذاك . وتكاد لا تخلو سنة من سني تاريخ مملكة القدس من ذكر حرب أو نزاع أو مناوشة . ولكن هذه الحروب المتواصلة لم تكن حروباً دينية بتاتاً . ولا يقل تاريخ أية امارة اقطاعية في اوربا الغربية عن تاريخ الإمارات الصليبية في ذكر مثل هذه المناوشات والحروب الصغيرة . كانت القضية الرئيسية هي السيطرة على سورية . ولكن لم يكن بمستطاع أية دولة أن تسيطر على سورية سيطرة ناجحة دون أن تتحكم في المناطق الساحلية . كما انه لم يكن بمستطاع سكان السواحل أن يسيطروا على البلاد دون أن يحكموا الأقسام الداخلية . وبناء على هذه الحالة فقد اصبح الصدام بين سكان البلاد المتعادية أمراً محتماً . وبما يثبت هذه استعراض تاريخ البلاد الشامية في هذه الفترة . وما لا شك فيه أن عدد الحروب والمناوشات بين الدول الإسلامية المتنازعة كان يعادل عدد الحروب بين الدول الإسلامية والدول النصرانية ، وربما كان عدد الحروب الأهلية بين الأمراء النصارى لا يقل عن عدد الحروب بينهم وبين المسلمين . وبالإضافة إلى ما تقدم فإن المسلمين والنصارى لم يترددوا في التخالف مع أعداء دينهم ضد أبناء ملتهم . ان المحالفات غير المقدسة كانت الصفة المميزة لتاريخ الإمارات اللاتينية في سورية .

وسرعان ما تعلم النصارى الغربيون الذين استقروا في سورية كيف يسايرون جيرانهم المسلمين ، او على الأقل ان يتعاملوا معهم كما كانوا يتعاملون مع أبناء ملتهم من النصارى . وتعلم أبناء الديانتين أن يحرموا بعضهم بعضاً لما عندهم من صفات وفضائل . لقد كَيْفَ اللاتينيون أنفسهم لأساليب الحياة الشرقية : وتبنوا العادات الشرقية ، واختاروا الملابس الشرقية . وتلطفت عادات الأفرنج

الحشنة باختلاطهم بشعوب الشرق الارقي اختباراً ومعرفة . وأخذ المسلمون ايضاً يكرهون شجاعة اعدائهم ووفاءهم بالعهود وفروسيتهم عندما يتاح لهم ملاحظة هذه الخصال الحميدة . وكانت الالتقاءات الودية شائعة بين امرء الملتين . أما اتفاقيات الصيد والمباريات الرياضية فيعرفها جيداً قراء كتاب « الاعتبار » لأسامة بن مُنْقِذ . وقد بحث العلاقات التجارية والمعاملات اليومية بين الطبقات الشعبية من الفريقين كل عدااء ديني بينهما . ومحا الزواج المختلط الفوارق العنصرية والدينية بين الفريقين . ونشأ في المدن التي حكمها الأفرنج مجتمع عالمي التزعة ما زالت الشواهد الصامته عليه قائمة في آثار الكنائس القوطية المحاطة بالابنية الشرقية . وقد انتج هذا المزج بين الشرق والغرب حضارة فاقت ، في كثير من النواحي ، كل الحضارات القائمة آنذاك . وقد يُلمَح في تلك الحضارة بنور أجمل جوانب حضارة عصر الاحياء الاوربي .

يجب أن يُميز تمييزاً واضحاً بين تسامح الأفرنج الذين استوطنوا سورية زمناً طويلاً وبين تعصب الصليبيين القادمين حديثاً من الغرب . لقد حاولت أن ابين في محل آخر هذا الفرق بين وجهتي النظر هاتين ، ووضحت أن الأفرنج الذين استوطنوا البلاد الشرقية استطاعوا أن يعيشوا جيرانهم المسلمين وأن يكسبوا صداقتهم خيراً مما استطاعوا ذلك مع حلفائهم الغربيين في كثير من النواحي . وهذا وليام مطران صور يشكو من تصدع العلاقات الودية مع مصر الذي أدى إلى خراب التجارة . أما في مجالس مملكة القدس فقد كان القواد القادمون حديثاً من الغرب هم الذين كانوا دوماً يطلبون شن الحرب على المسلمين . يجب أن يستثنى من هذا ، بطبيعة الحال ، المنظماتان العسكريتان : فرسان الداوية (١) وفرسان الاسبتالية (٢) . على أن هاتين المنظمتين كانتا أشبه بطائفتين من طوائف الرهبنة . وكان أفرادهما يقسمون على القيام بالحرب

(١) Templers أي فرسان المعبد ، او فرسان الهيكل ، او الهيكليون . والداوية هو الاسم

(الترجم)

الشرقي القديم لهذه المنظمة .

(٢) Hospitallars

المقدسة في كل الاحوال ، ومهما بلغت التضحيات . نعم كان رجال الدين المحترفون من الطرفين يحضون دائماً على متابعة الجهاد . ولكن هذا البحث لا يعني الا بموقف الحكام الزمنيين . ان كتب التاريخ التي ألفها اللاتينيون الغربيون والشرقيون تعكس موقفهم من المسلمين . كان الكتاب الغربيون كامبريز مؤرخ الحملة الصليبية الاولى ، وجاك دي فيتري ، يكترون من ثلب المسلمين عندما يتحدثون عنهم . بينما كان الكتاب الأفرنج الشرقيون كصاحب التاريخ الذي يعد تكملة لوليام الصوري ، وفيليب دي نوفارا ، متحررين من العصبية الدينية .

والظاهر أن غروسيه كان يعتبر هذا التسامح الديني لوناً من ألوان الخنوة والاضطهاد الخلفي . وكان الجيل الناشئ من الأفرنج المستوطنين في سورية ، كما يقول دي فيتري ، « جيلاً شريراً ضالاً » أتماً خبيثاً منحطاً ؛ أما أنا فأرى أن انعدام التعصب الديني دليل على رقي الشعب . وعلى الرغم من الآراء الواضحة التي أعلنها الكتاب الأعلام من امثال دي فيتري وغروسيه فأنتي لا أجد أي دليل على الاضطهاد الخلفي بين الأفرنج الذين استوطنوا سورية في أواخر القرن الثاني عشر والثالث عشر ؛

كما أنني لست واثقاً من أن الحماسة الدينية التي رافقت الحملة الصليبية الاولى قد استمرت طوال حياة الرجال الذين قادوها . لقد أدرك أبناء الجيل الاول أن « بينهم وبين جيرانهم كثيراً من الأمور المشتركة » على الرغم من أنهم « كانوا يعتبرون كل سورية الإسلامية ارضاً للميعاد لا أصحاب لها » هذا من حيث المحاولات التي كانت تجري للاستيلاء عليها . ولست أعتقد أن الصليبيين حاولوا الاستيلاء على البلاد الإسلامية لكونها بلاداً إسلامية . فالحقيقة أن الجيل الأول من الصليبيين حملوا الصليب وخرجوا ليستولوا على البلاد ويؤسسوا فيها أمارات لهم . وكانت البلاد ، بصورة عامة ، بأيدي المسلمين ، وعلى هذا فقد تعين عليهم أن يحاربوا المسلمين للاستيلاء على ما ملكت أيديهم . أن سيرة تنكريد (وهو أحد عظماء الصليبية الاولى ، الذي اثلج قلب اغوير

يذبحه المسلمين بشكل وحشي عند ما احتل القدس وانتهبها) تعطينا شواهد عديدة على أن امراء الحملة الصليبية ، عندما اندفعوا بسياساتهم التوسعية ، كانوا يستهدفون غايات دنيوية محضة ، وأنهم كانوا على استعداد ، حين تدعو الضرورة للتفاهم مع اعدائهم المسلمين ، فكان تنكريد مصمماً على انشاء أكبر دولة ممكنة . وفي سبيل تحقيق هذه الغاية لم يجد أي بأس في أخذ البلاد من أيدي المسلمين أو اليونان أو الأرمن او من أيدي ابناء جنسه الأفرنج .. إن الزمن والنشاط اللذين انفقهما تنكريد في محاولة الاستيلاء على اللاذقية وغيرها من المدن النصرانية من أيدي حكامها اليونان والأرمن يعدلان الزمن والنشاط اللذين انفقهما في محاربة الأتراك . أما سيرة بلدوين دى بورغ ، وخاصة في أيامه بالرها ، فلا تنقص هذه القاعدة العامة .

من الطبيعي أن يتوقع المرء أن يجد في الفترة الاولى من غزوات الأفرنج التي تلت مباشرة الحملة الصليبية الاولى ، حروباً دينية حقيقية . ولكننا ، حتى في هذه الفترة ، نجد بعض الأمثلة الممتازة على قيام محالفات بين المسلمين والنصارى . لقد حفزت الفوضى التي جلبها الصليبيون إلى سورية امراء المسلمين على مهاجمة بعضهم بعضاً ، وعلى الاستفادة من مصاعب جيرانهم الذين هاجمهم الصليبيون . وبينما كان رضوان صاحب حلب يدافع عن نفسه أمام هجمات تنكريد ، عام ١١٠١ ، هاجمه جمال الدولة صاحب حمص . وعقد بكتاش ، في عام ١١٠٥ ، حلفاً مع اللاتينيين ضد أخيه دقاق صاحب دمشق . وكان رضوان صاحب حلب يهتم بصراعه ضد أخيه في دمشق أكثر من اهتمامه بحرب اللاتينيين . وفي عام ١١٠٥ وافق رضوان على دفع جزية لتتكريد حتى يتفرغ للحرب التي يخوضها في الجزيرة . ولم يكن النصارى أقل من المسلمين انغماساً في محاربة اخوانهم وابناء ملتهم . لقد حارب تنكريد اليونان والأرمن . كما أنه انهمك في صراع طويل ضد ريموند دى سنت جيلز ، وضد بلدوين صاحب الرها ، وضد جوسلين دى كورتيناى . وقد عقد هؤلاء الأمراء النصارى ، أثناء هذه الحروب ، محالفات مع المسلمين . وساعد تنكريد الأمير مودود في

الاستيلاء على الموصل .

وكان مودود هذا قد أرسله أخوه السلطان محمود بن ملكشاه الى سورية لطرده الافرنج من آسيا . وكانت هذه هي اولى محاولات السلطان الموحدة لتوحيد المسلمين في حرب مقدسة ضد النصارى . وعلى الرغم من أن مودود قد نجح ما بين عامي ١١١٠ و ١١١٣ في عقد تحالف بين الارثقيين في ماردين وطُغتكين صاحب دمشق ، ذلك التحالف الذي نازل اتحاداً نصرانياً مؤقتاً ، فقد كانت المهمة شاقة . وكانت تلك الأحلاف ، سواء اكانت النصرانية منها أم الإسلامية ، غير مكينة . لقد ساعد بلديون صاحب القدس وتكريد بلديون دى برغ على تحرير الرها من احتلال المسلمين . ولكنهم سرعان ما تنازعوا ، واحتربوا فيما بينهم . ونجد ، في عام ١١١٥ ، امراء دمشق والارثقيين يتحالفون مع الافرنج ، ويحاربون جيوش السلطان التي كان يقودها امراء حلب وحمص وهمذان (١) وشيزر . وقامت بسبب وفاة لؤلؤ صاحب حلب ، في عام ١١١٧ ، حرب أهلية بين امراء حمص والرجبة وماردين خابتها الاستيلاء على هذه المدينة . وعندما اكتشف الأمراء المسلمون أن الشخص الوحيد الذي أفاد من صراعهم هذا هو روجر صاحب انطاكية الذي اغتَم فرصة انشغالهم بالحرى فاغار على منطقة حلب ، اتحدوا تحت زعامة ايل غازي صاحب ماردين ، ودام اتحادهم مدة من الزمن كانت كافية لكسر روجر كسرة منكرة . على أن هذا التحالف الذي هزم الافرنج هزيمة منكرة ، عام ١١١٨-١١١٩ ، انحل بعد وفاة ايل غازي وابن اخيه بلكك . وما حكت سنة ١١٢٥ حتى نشبت الحرب بين الأمراء المسلمين . وكادت حلب تسقط بيد الافرنج الذين تحالفوا مع المتمرد المشهور دُبَيْس بن صدقة صاحب الحلة . وكان دبيس ، قبل ذلك بقليل ، قد هدد بغداد نفسها ، ولم يفلحها منه غير العمل السريع الناجز الذي قام به آقْسُنُقُ الرِّسْمَقِي صاحب الموصل . يتضح من هذا العرض الموجز أن الامارات الافرنجية دخلت ، حتى منذ

(المترجم)

(١) هكذا في الاصل ، ولعل الكاتب يريد حماة

بداية الحروب الصليبية - في دوامة السياسة السورية المعقدة . ولم يختلف أمر هذه الإمارات الأفريقية من هذه الناحية عن حال امراء المسلمين المتعديين . كانت الإمارات الأفريقية تتحالف فيما بينها ، احياناً ، ضد تحالف اسلامي ولكن لم يقيم بين الدول الإسلامية تعاون تام لطرد الكفار الغربيين . ولم تستطع خلافتنا بغداد والقاهرة المتنافستان ان تتفاهما بتاتاً . وكانت المحالفات والحروب كثيراً ما تتعارض مع المصالح الدينية .

يقال ان قيام المسلمين للأخذ بالثأر من الأفرنج يبدأ بعماد الدين زنكي بن آقْسُنْقَر . ولكن زنكي يجب ألا يعتبر ، بأي حال من الأحوال ، بطل الجهاد : فان عماد الدين ، وان كان يطمح إلى استرجاع الرها منذ وقت طويل ، كما يقول كمال الدين ، لم يقيم بهذا العمل ، كما يبين كمال الدين . بوضوح ، الا متأخراً ، والا بعد أن حثه على ذلك امير حرّان الذي بين له سهولة احتلال المدينة . يقول وب . ستيفنسون في معرض كلامه عن زنكي : « كانت معظم البلاد التي قرر احتلالها تحت حكم منافسيه من الأمراء المسلمين . ويجب أن يستنتج بأنه قد ترك ، عن عمد ، مهاجمة الدول اللاتينية . وفي الوقت الذي كان فيه يقوي جيشه ويوسع سلطانه ، كان يرغب بتجنب مخاطرة حرب كبيرة معهم . ولم يكن هجومه على الرها ، عام ١١٤٤ ، الصفة المميزة لعهد اطلاقاً . والظاهر أنه هو نفسه كان يعتبر احتلال الرها خروجاً على سياسته ، وعملاً قام به بناء على تحريض الآخرين .

ان سجل حروب زنكي ، وهي حروب عديدة ، يثبت صحة هذه القضية . كان زنكي أبعد ما يكون عن البطل الديني الكامل . فقد تحالف ، عام ١١٣٢ ، مع المتمرّد الخطير المعتنق على الخلافة ، ديبس بن صدقة ، الذي كان متحالفاً مع الأفرنج كما مرّ معنا في هجوم على شخص الخليفة المُستُرشد . وتورط زنكي في صراع متواصل مع دمشق . وكان استيلائه على حماة وحمص وحلب وحروبه ضد الارتقين ، أعظم أهمية عنده من حرب النصارى . وما كان ليكره التحالف مع اللاتينين إذا لآم ذلك حاجاته .

ولم يتابع زنكي ، بعد استيلائه على الرهاء عام ١١٤٤ ، انتصاراته باحتلاله منطقة الرهاء التي كانت ما تزال تقاوم ، وإنما ترك هذه المنطقة ، ووجه اهتمامه إلى الشرق حيث قام بحملة في منطقة خيلاط وأعالي الفرات . أما أن احتلال زنكي الرهاء كان نقطة تحول في تاريخ الإمارات اللاتينية في سورية فأمر لاشك فيه . لقد عجل احتلال زنكي الرهاء بقيام الحملة الصليبية الثانية . وقد عملت هذه الحملة ، بما منيت به من فشل ذريع ، على تهدئة مخاوف المسلمين من الغزاة الغربيين . وكان احتلال الرهاء ، زيادة على ما تقدم ، بداية الحروب الإسلامية لاسترجاع البلاد الداخلة في حوزة الصليبيين . ولكن هذه الحادثة لم تأت بشيء جديد في السياسة الإسلامية . لقد احتل زنكي الرهاء لأنها تكمل دولته ، ولأن احتلالها كان يبدو أمراً سهلاً . وعقد اللاتينيون حلفاً مع أتر صاحب دمشق ، لأن الفريقين كانا يعتبران زنكي خطراً يهدد جيرانه ، وقد أفاد الفريقان من هذا الحلف ، ولم يعتبر احتلال الرهاء متوجاً لأعجاد زنكي الحربية إلا في عهود متأخرة . أما في عهد زنكي ، وبرأي زنكي نفسه ، فقد كان احتلال الرهاء أقل أهمية من احتلال حلب وحمص . على أن المؤرخين المتأخرين الذين جهلوا في تضخيم أعجاد مؤسس الأسرة الزنكية ، بالغوا في أهمية احتلال الرهاء حتى يظهروا زنكي بطل المسلمين جميعاً في الحرب ضد الكفار .

وإذا صحّ القول بأن زنكي لم يوجه اهتمامه لحرب اللاتينيين بصورة رئيسية فإنه لا يصبح ذلك عن ابنه نور الدين الذي خلفه في حلب . ان كثيراً من المؤرخين الذين يقرون بأن زنكي لم يكن بطل الحروب الدينية ، كما يُصَوَّر أحياناً ، يؤكّدون على ان الأسلام قد وجد في نور الدين بطلاً تقياً مخلصاً كان تخليص بلاد المسلمين من الكفار شغله الشاغل . ومع ذلك فاني أميل إلى الشك في أن يكون حتى نور الدين نفسه مهتماً بالحروب الدينية كحروب دينية اهتماماً خاصاً . ما لا شك فيه أن نور الدين اتفق معظم سني حياته في حروب الأفرنج . وهذا أمر سهل التوضيح إذا تذكرنا بأن نور الدين ورث القمم

الغربي فقط من مملكة والده ، وأن وجود أخيه سيف الدين غازي في الموصل قد قضى على كل أمل له في التوسع في تلك الناحية . لم تكن لنورالدين مصلحة في الجزيرة . وكان المجال الوحيد لتوسعه منحصراً في الغرب والجنوب ، باتجاه الدول اللاتينية ودمشق ومصر . وإذا كان نورالدين قد حارب الأفرنج فهو أيضاً قد احتل دمشق وأرسل جيوشه الى بلاد الخلافة الفاطمية . وإذا كان قد حارب الأفرنج باستمرار فلأنهم كانوا يقيمون في منطقة توسعه الطبيعي . ان رغبته في توسيع رقعة مملكته في الاتجاه الوحيد الممكن هي التي أملت عليه السياسة التي اتبعها في علاقاته مع جيرانه اللاتين ، ولم يكن للدين دخل في ذلك . أنا لا أزعم بان الجناح الديني من تلك الحروب لم يكن يستهوي نورالدين الذي كان بطبيعته تقياً مخلصاً في عقائده الدينية . ولكنني اعتقد بأن مراجعة تاريخ أعماله الحرية تثبت بأن دافعه الرئيسي كان سياسياً ، وأن العنصر الديني لم يكن ، في أحسن الحالات ، الا عنصراً ثانوياً يستخدمه نورالدين لأغراضه المحلية ، ولم يكن ليأخذله مأخذ الجدل .

وجه نورالدين حملاته الاولى ضد أقرب جيرانه اليه لانه كان يعلم بأن هذا الأمر سينتج اية فرصة تسنح له لمهاجمته . وعقد نورالدين حلفاً مع دمشق ليحارب انطاكية . ومن الطبيعي أن تجمله الحملة الصليبية الثانية . التي أرسلتها أوروبا ضده . يهتم بقوة نفسه ضد أي هجوم متوقع من قبل الفرنج . وعندما وجه الصليبيون هجومهم ضد دمشق ، التي كانت في السابق على علاقات حسنة معهم ، بدلاً من أن يساعدوا انطاكية في حرب نورالدين ، كان نورالدين حاضراً لمساعدة حليفه الجديد ضدهم . وما لاشك فيه أن خطر تقدمه إلى دمشق كان من العوامل التي جعلت الصليبيين يرفعون حصارهم عنها . قاد نورالدين . عام ١١٤٩ . حملة ضد انطاكية . ولكنه ترك مواصلة الحرب عندما توفي سيف الدين ، إذ وجد مصلحته تقتضي الاستيلاء على الموصل . وبعد أن نصب أحد اخوته الصغار على الموصل توجه إلى دمشق حيث أتاح له موت حاكمها أنثر فرصة التدخل المفيد . وتجدر الإشارة هنا إلى أن نورالدين،

في ذلك الوقت ، عرض على اللاتينيين صداقته وعقدَ حلف معهم إذا ما ساعدوه في الاستيلاء على دمشق . وفي عام ١١٥٠ اضطر نورالدين على أن يوجه اهتمامه نحو الشمال ، فغزا منطقة الرها حتى يمنع مسعود صاحب قونية من ضمها الى دولته . وقد اكتفى نورالدين من حملته تلك بالاستيلاء على يضيع مناطق فقط حتى يضع حداً لتوسع السلطان في الشمال ، وحتى يثبت يتيحه في حكم المنطقة . وبعد ان اتم احتلال دمشق ، في عام ١١٥٥ ، وبعد أن زالت مخاوفه على حدوده الجنوبية ، عاد إلى الرها واستولى على معظم المنطقة ، ولكنه لم يأخذها من أيدي اللاتينيين ، وإنما أخذها من أيدي أترك قونية . وما يدل على شدة رغبته في تجنب أي حرب مع اللاتينيين ، ما دام يواجه أعداءه المسلمين ، المعاهدة المعقودة عام ١١٥٦ ، والتي تعهد فيها أن يدفع للقدس الجزية التي كانت دمشق تدفعها في الماضي ثمناً لمحاكمة اللاتينيين . وعندما وقعت الحرب بين نورالدين والأفرنج ، عام ١١٥٧ ، كان سببها قيام اللاتينيين بمهاجمته دون مبرر .

كان الأفرنج قد اتبعوا ، طوال الفترة التي تلت خسارتهم للرها ، خطة الانتهازية السياسية . وعندما جاءت الحملة الصليبية الثانية الى الشرق ، وكان هدفها الوحيد استرجاع الرها ، انحرفت عن هذا الهدف نتيجة للخلافات الداخلية وللسياسة الأنانية التي اتبعها أفرنج القدس الذين عارضوا الحرب في الشمال ، ووجهت للهجوم على دمشق على الرغم من أنه كان بين دمشق واللاتينيين حلف وثيق دام عدة سنوات . وفي السنوات التي تلت الحملة الصليبية الثانية كانت مملكة القدس تمرقها الحرب الأهلية بين الملك بلدوين (١) الثالث وأمه الملكة مليزنده . وبعد أن انتهى الصراع باندحار الملكة وانصارها حول الملك بلدوين اهتمامه الى عسقلان التي يتم له الاستيلاء عليها من أيدي المصريين في عام ١١٥٣ . كان احتلال عسقلان آخر ما استولى عليه ملوك القدس من المناطق المهمة . وقد كلفهم احتلال هذه المدينة خسارة صغيرة ، وذلك

(الترجم)

(١) في الاصول العربية يرد على .

أن نورالدين اغتتم فرصة انهماك الأفرنج بالحرب في الجنوب فاستولى على بعض المناطق الصغيرة الواقعة على الحدود السورية . ولكن الضربة الكبرى حلت باللاتينيين في السنة التالية حيث احتل نورالدين دمشق ، ووحد حدوده الممتدة على طول الحدود الشرقية للإمارات اللاتينية . ولم تكن سياسة الأفرنج في الشمال خيراً من سياسة اخوانهم في الجنوب . فبينما كان بلدوين يحارب المصريين ويحسّر قلاعهم الشرقية لنورالدين ، كان رينودى شاتيون ، أمير انطاكية الجديد ، منهمكاً في سلسلة من الحروب ضد امراء ارمينية وامبراطور الروم وأتراك قونية .

واستأنف بلدوين الحرب ضد نورالدين عام ١١٥٧ ، حيث قام بغارة سلب ونهب عبر الحدود . وأعقبت هذه الغارة مناوشات متقطعة : وفي عام ١١٥٩ اعد الأفرنج والروم حملة مشتركة . وقد جعل وجود امبراطور الروم كومنينوس على رأس جيش كبير الأمر شديد الخطورة على نورالدين . على أن كومنينوس كان أكثر اهتماماً بتثبيت سلطانه على ارمينية وانطاكية منه بالتغلغل في البلاد الإسلامية . وقد عدل عن الحرب حين وافق نورالدين على تسريح عدد من الأسرى أخذوا في المعارك الماضية . يرى شالاندون أن امبراطور الروم وجد نورالدين خير كايح لجماع اللاتينيين الذين كانوا يرغبون بالاعتراف بسلطانه حينما يتهددونهم بخطر من الشرق . وعلى هذا الأساس قرر الأمبراطور عدم محاربة نورالدين . وعلى كل حال فقد عقدت هدنة بين الفريقين . وأصبح نورالدين متحرراً من مشاغله فسار إلى مكة لاداء فريضة الحج التي كان ينوي القيام بها منذ سنوات .

وبوفاة بلدوين الثالث وارتقاء أخيه أموري عرش القدس عام ١١٦٣ سارت الأمور باتجاه جديد . كان اموري كونت (١) يافا وعسقلان منذ أن استولى عليها الصليبيون . وكان يبدي اهتماماً خاصاً بتطورات الأمور في الجنوب . وقد أتاح له الحرب التي اندلعت في ملكة مصر الضعيفة فرصة

(المترجم)

(١) في الاصول العربية قومهس .

ذهبية لتوسيع سلطانه واعلاء صيته في الجنوب . وقام اموري ، يشجعه فرسان الاستبالية ، بسلسلة من الحروب مع مصر . وكانت الحرب الأهلية في مصر عبارة عن صراع بين ضيرغام وشاور على الوزارة . وقد استهوت مياه السياسة العكرة في مصر الصيادين . فوجه كل من اموري ونورالدين انظارهما الطامعة إلى الجنوب . وعندما اخبر اموري بان مملكة مصر تكاد تكون خالية من وسائل الدفاع ادعى بان المصريين لم يدفعوا الجزية التي كانوا يدفعونها بانتظام منذ عام ١١٦٠ فقام بحملة على ارض التيل . وقام النهر الخالد بحماية الشعب من جديد . فقد أرغم فيضانه أموري على الانسحاب . ولكن الملك اموري أفاد من هذه الحملة فقد اطلع على أحوال مصر ، وتأكد من سهولة الاستيلاء عليها . وفي الوقت نفسه تمكن ضرغام من التغلب على شاور . وهرب شاور إلى دمشق يطلب معونة نورالدين . وبناء على نصيحة قائده شيركوه أمر نورالدين بتهيئة حملة لإعادة شاور الى منصبه . وفي عام ١١٦٤ دخل الجيش السوري مصر دخول الظافرين ، فأعاد شاور إلى منصب الوزارة ، ثم استقر في مصر حتى يتم تنفيذ الوعود العديدة التي قطعها شاور على نفسه عندما كان لاجئاً في دمشق . وأراد شاور أن يتخلص من هذا الحليف المتغلب فالتمس من اموري أن يساعده على طرد السوريين من مصر . وكانت النتيجة قيام اللاتينيين بغزو مصر للمرة الثانية ، عام ١١٦٤ . واضطر شيركوه على قبول الشروط التي عرضها عليه اموري وموادها أن ينسحب الجيشان المحتلان من مصر . على أن اللاتينيين دفعوا ثمن تعاظم نفوذهم غالباً . وذلك أن نورالدين استولى على عدد آخر من حصونهم الواقعة على الحدود عندما كانت جيوش الأفرنج مشغلة في الجنوب . واستعرت نيران الحرب من انطاكية إلى مصر على طول حدود الدول اللاتينية . وكانت المكاسب الدائمة كلها من نصيب نورالدين . وفي سنة ١١٦٧ احتل القريقان مصر مرة ثانية ثم انسحب منها . وفي السنة التالية قاد أموري جيشاً رابعاً إلى الجنوب . وفي هذه المرة وصل اموري الى القاهرة نفسها وحاصرها . على ان شاور استدعى شيركوه من

جديد . فجاء واجبر اللاتينيين على الانسحاب . ودخل شيركوه القاهرة ف عزل
شااور من منصبه ، ونصب نفسه وزيراً للخليفة الفاطمي . وعند وفاة شيركوه ،
ولما يمض على توليه الوزارة غير بضعة أشهر ، خلفه في منصبه ابن أخيه البطل
المشهور صلاح الدين الأيوبي الذي استمر يحكم مصر بوصفه وزيراً للخليفة
الفاطمي ووالياً على مصر من قبل نور الدين . وقام اللاتينيون ، بساعدهم الروم
هذه المرة ، بمحاولة يائسة للتدخل . ولكن توقبتهم للحملة كان سيئاً . فهزموا
الواحد بعد الآخر وانهارت الحملة باكملها أمام دمياط . وأصبح صلاح الدين
السيد المطلق في مصر . وتم تطوير الدول اللاتينية .

ولو أن صلاح الدين الأيوبي كان مخلصاً لسيدته لكانت الدول اللاتينية قد
سقطت ، في أغلب الاحتمال ، في حياة نور الدين . ولكن الوالي الطموح
صلاح الدين فضل أن يتنهج سياسة مستقلة . ولم يتعاون مع السلطان اطلاقاً .
وكان صلاح الدين ، في عام ١١٧١هـ ، على درجة عظيمة من القوة بحيث أنه
لم ير ضرورة للبقاء على الخليفة الالعبوة . فلما توفي الخليفة الفاطمي العاضد
أصبحت الخلافة شاخرة ، فأمر صلاح الدين بالخطبة باسم الخليفة العباسي في
بغداد . وهكذا انتهى هذا الشقاق الديني بين الخليفتين الشيعي والسني . الذي
ساعد النصارى مساعدة مادية في حروبهم الاولى ، وأصبحت النصرانية تواجه
عالمًا اسلامياً موحداً في الظاهر . وقد تقبل جمهور الناس في مصر هذا
الانتقال من الخلافة الشيعية الى الخلافة السنية بعدم اكتراث عجيب . وان
كانت قد حدثت بعض الثورات المتفرقة انتصاراً للبيت الفاطمي . وقد ورطت
احدى هذه الثورات اللاتينيين فادت الى قيام حملة صليبية من صقلية . ولكنها
فشلت في الاستيلاء على الاسكندرية . والنتيجة الرئيسية التي أدت اليها هذه
الاضطرابات في مصر هي أنها اعطت صلاح الدين العذر في عدم الاشتراك
في حملات نور الدين على الدول الأفريقية . وبينما كان الأميران المسلمان ،
نور الدين وصلاح الدين ، يهاجمان اللاتينيين باستمرار ، فقد حرص صلاح
الدين على ألا يحارب هو ونور الدين في وقت واحد . وكان ينسحب دوماً من

منطقة القتال قبل أن يصل إليها نور الدين . وحينما كان نور الدين يطلب حضوره كان يعتبر دائماً بعدم تمكنه من الالتحاق به . ولعل صلاح الدين كان يخشى أن يعزله نور الدين عن مصر ، ولعله أدرك مطامحه الشخصية وقدر ماذا يجب عليه أن يفعل في هذه الحالة لو كان هو مكان نور الدين . والظاهر أنه ليس هنالك أي دليل على أن نور الدين كان يشك في إخلاص صلاح الدين في بادئ الأمر ، وذلك لأن صلاح الدين كان بليغاً في عرض تذله وخضوعه المطلق لسيده . على أن نور الدين ما عزم أن لاحظ التناقض بين أقوال صلاح الدين وأفعاله ، فافتنع بوجود عدم الثقة به . وكان نور الدين يعد حملة ضد صلاح الدين عندما توفي في عام ١١٧٤ .

إن انتصارات نور الدين التي ضعفت الدول اللاتينية في سورية كما تقدم معنا جعلته أحد أبطال الجهاد العظام . على أن الأمر الذي لا شك فيه ، كما يتبين حتى من هذا العرض السريع الذي قدمناه عن سيرة نور الدين ، أن حروبه كانت موجهة دائماً نحو هدف واحد ألا وهو إنشاء دولة لنفسه ولخلفائه من بعده تشمل سورية الموحدة بكاملها . ولم يتدخل في الموصل إلا ليحوزها ملكاً لأفراد من أسرته . أما في الغرب فقد كان همه منصرفاً دائماً إلى توسيع حدود مملكته وسد ثغورها . فانه حارب سلاجقة قونية بمثل الحماسة التي حارب بها أفرنج انطاكية للمحافظة على حدوده الشمالية ، وبسط سلطانه على القسم الإسلامي من سورية والقسم الذي يحتله اللاتينيون دون تمييز . وكان يستولي على كل ما يمكنه الاستيلاء عليه من البلاد ليزيد في ممتلكاته . وكان أعظم فتوحاته اطلاقاً فتحه مدينة دمشق . والحقيقة أن نور الدين كان يتجنب ، كما فعل أبوه عماد الدين من قبل ، شن الحرب على اللاتين إذا ما استطاع أن يتوسع على حساب جيرانه المسلمين . ولكنه ، وقد سدت أمامه سبل التوسع في الشرق ، وجد نفسه مضطراً على التوسع في الغرب والجنوب ، سواء أكان أعداؤه مسلمين أم نصارى ، عرباً أم أتراكاً ، أم مصريين أم يونان أم أرمن أم لاتين . لقد أملت الجغرافية حروب نور الدين مع الدول اللاتينية

إذ كان يجب أن تأتي قبل فتح مصر البعيدة . ولكن الظروف شامت أن تسلمه مصر أولاً . لقد كان من المحتم أن يملأ نور الدين أو خليفته الفراغ ، ويؤمن « منفذاً للبحر » لامبراطورته المحاطة بالبابسة من كل مكان . وأعطته مصر الشيء الذي كان بأشد الحاجة اليه لأخضاع الدول الأفرنجية : اسطولاً بحرياً ، وساحلاً ترسو في موانئه السفن . على أن الشخص الذي جنى أرباح هذا الأسطول كان صلاح الدين .

توفي نور الدين في الوقت نفسه الذي توفي فيه أموري ملك القدس . وقد هيأت الصعوبات الداخلية في القدس ، اذ تعاقب عدد من الاوصياء على ملكها المصاب بالجرام ، لصلاح الدين فرصة ذهبية ليضرب في الحال ضربته ضد اعداء الدين . ولو أن صلاح الدين كان ذلك المتعصب ، كما يصور أحياناً ، لاستهل فتوحاته بمهاجمة الأفرنج المضعضين المنقسمين على انفسهم . وربما كان الاستيلاء على الدول اللاتينية اسهل منالاً من الاستيلاء على القسم الإسلامي من سورية . ولكن صلاح الدين رأى أن يوطد مركزه في سورية الاسلامية قبل أن يهاجم اللاتينيين . كان يشعر أنه سيقهر اللاتينيين لا محالة ، ولكن عليهم أن ينتظروا دورهم إلى أن تسنح المناسبة التي تلائم الفاتح .

عندما توفي نور الدين ترك امبراطوريته لابنه الصغير (١) الذي كان له من العمر ١١ عاماً . ونصب امراء المدن المختلفة انفسهم اوصياء على الصبي . وبدأ في الحال صراع من أجل السلطة . وكان صلاح الدين ، الذي يعتمد على ثروة مصر ، منذ البداية اقوى المنافسين جميعاً . وقد احتل دمشق في عام ١١٧٤ ، ونصب نفسه وصياً على السلطان الصبي ، ثم سار إلى حلب . وطلب امير حلب مساعدة الأفرنج والحشاشين المرعيين . ولكن صلاح الدين هزم الأحراف في موقعة حمص عام ١١٧٥ . وبعد هذه الموقعة اظهر صلاح الدين نياته على حقيقتها . فخلع الملك الصغير ، ونادى بنفسه سلطاناً . وطلب من الخليفة العباسي في بغداد أن يعترف له بهذا اللقب فأقره عليه . ولم تكن الحرب

(المترجم)

(١) هو ايمانيل وقد اتخذ لنفسه لقب الملك الصالح .

التي خاضها ضد الأفرنج ، في عامي ١١٧٥ و ١١٧٦ ، إلا جزءاً من الحرب العامة التي شنها على حلب وحلفائها . وفي نهاية عام ١١٧٦ ، وقد اخضع سورية بكاملها ما عدا حلب ومناطق الحشاشين ، أحس صلاح الدين أن بإمكانه الرجوع إلى مصر واعداد العدة لاختضاع اللاتينيين المزعجين . على أن صلاح الدين لم يعرُ حرب اللاتينيين ، التي شغلته باستمرار من عام ١١٧٦ إلى نهاية عمره ، جميع اهتمامه . وأخيراً احتل صلاح الدين حلب في عام ١١٨٢ . وفي السنة نفسها قاد حملة إلى الجزيرة . وفي عام ١١٨٥ عقد مع اللاتينيين هدنة مدتها أربع سنوات حتى يفرغ لشؤون الجزيرة ويخضع أمير الموصل الزنكي .

ان تفصيل حوادث فتح صلاح الدين القدس مملّة وعديمة الجدوى . كانت الأحوال الداخلية في المملكة اللاتينية تستدعي التدخل . ولم يكن أيّ زعيم سياسي يحترم نفسه ليتدبر لحظة في انتهاز الفرصة التي اتاحتها الانقسامات الداخلية بين صفوف الأفرنج . وقد نشأ حزبان متميزان داخل الدولة اللاتينية : يتألف الاول ، بصورة رئيسية ، من النبلاء الأفرنج المستوطنين في البلاد وعلى رأسهم الكونت ريموند الثالث صاحب طرابلس ، ومن الأخوين ابلين . وتتألف أغلبية الحزب الثاني ، المسمى حزب البلاط ، من الأفرنج القادمين حديثاً الى المشرق وعلى رأسهم غي دي لوزينيان ، وزوج الأميرة سيبيل ، وجيرار دي ريد فورت ، وصاحب الميكل ، وجوسلين دي كورتيناى ، ورينو دي شانيون . وكان حزب الكونت ريموند يدعو ، باستقامة واستمرار ، إلى اقامة أحسن العلاقات الودية الممكنة مع صلاح الدين . وكانوا يعلمون أن صلاح الدين سيحترم معاهداته . أما الحزب الثاني فكان حزب الحرب . وكان موقفه هو نفس موقف الصليبيين الغربيين وطوائف الرهبنة الدينية . صحيح أن جوسلين ولد وتربى في الشرق إلا أن كرهه الشخصي لريموند وطموحه كانا يسيطران على تفكيره . أما ريموند فقد كان دائماً علو المسلمين اللود ، ويطل سياسة التوسع . ولم تستطع الأعوام الخمس عشرة التي قضاها سجيناً عند المسلمين أن تؤقّليمه للشرق ، أو أن تطف من حدة تعصبه .

كان الأفرنج هم الذين تعجلوا فتح صلاح الدين للقدس . لقد مرّ معنا أنه كان محتماً على صلاح الدين أن يستولي على الساحل بعد أن تم له الاستيلاء على داخل البلاد . ولعل صلاح الدين كان مستعداً لأن يسمح للأفرنج بالبقاء في ممتلكاتهم تحت سلطانه لو لم يدفعوه إلى حربهم بما وجهوه إليه من إهانات مقصودة وهجمات متكررة . وكان رينو شر الخناة الآثمين . فلم يكشف بمهاجمة قوافل المسلمين ونهبها مرتين في زمن المدة ، وإنما هزّ العالم الإسلامي كله ، وأثار نقمته بقيامه بغارة متهورة عقيمة على مكة المكرمة والمدينة المنورة في عامي ١١٨٢ و ١١٨٣ . ولم تقنع هذه الغارة الرعناء صلاح الدين بضرورة طرد الأفرنج من الشرق فقط وإنما خسرت اللاتينيين محالفة أمير الموصل الزنكي الذي رفض أن يكون حليفاً لهؤلاء الكفار ، متتهكي الحرمات المقدسة . حتى في ذلك الحين ، وبالرغم من أن صلاح الدين قد أعلن الجهاد ودعا المسلمين جميعاً لمعاونته في حربه ضد النصارى ، فإنه كان مستعداً ولا ريب لمصالحة أي واحد من امراء الأفرنج ما عدا رينو . لقد أقسم صلاح الدين على أن يضرب عتق رينو وقد برّ بقسمه بعد موقعة حطين . ولكنه صالح ريموند صاحب طرابلس ، وحالفه حتى بعد أن شن حربه الأخيرة على الأفرنج .

لم يظهر صلاح الدين ، طوال حربه ضد الدول اللاتينية ، بمظهر المتعصب الديني . وكان حلمه وشهامته مثار أعجاب معاصريه ، وموضع مدح المؤرخين منذ عصره فطالماً . وقد أبدى في معاملته لشعوب البلاد المفتوحة من ضبط نوازع النفس واحترام الناس ما كان مآبناً كل الميمنة للقسوة المتعارف عليها في حروب العصور الوسطى . وكانت سياسته القاضية بإيصال اللاجئين من بلاد النصارى المحتلة إلى معقل النصرانية في صور سياسة نبيلة إلى حد الحماقة لأنها أدت إلى تحشد أعدائه ، ومن ثم منعت من احتلال مدينة صور نفسها . لقد تصرف صلاح الدين ، طوال حروبه ، وكأنه يحاول محاولة واعية أن يجعل نفسه مقبولاً عند رعاياه المقبلين وإن يضع أساس دولة تعيش فيها الديانتان جنباً إلى جنب تحت ظل السلطان . وقد يتساءل المرء ماذا عساها تكون النتيجة لو لم ترسل

أوروبا الحملة الصليبية الثالثة ؟ ما لاشك فيه أن حالة نصارى سورية تحت حكم الأيوبيين المعتدل ما كانت لتكون أسوأ من حالتهم في ظل فوضاهم الدائمة . ولعلهم كانوا سيخلصون من أهوال غزوات المماليك . وقد أظهر كثير من أمراء الصليبيين في سورية استعدادهم لخدمة صلاح الدين مثل غي دي لوسينيان . حتى أن كونراد مونفيرات ، بطل المقاومة في صور ، سعى لأن يكون حاكماً لصلاح الدين على القدس .

كانت فترة الحملة الصليبية الثالثة ، ولا ريب ، فترة حروب دينية . ولم يكن فيليب اغسطس ولا ريتشارد قلب الأسد مدفوعين بالدين مثل اندفاعهما برغباتهما لكسب المجد عن طريق الحرب في الشرق . وبينما كان الاثنان قد ذهبا للحرب لأن « الحرب كانت هي الشيء الجدير بالعمل » ، فإن الحملة الصليبية هذه كانت ، على وجه العموم ، ردّ أوروبا على احتلال القدس من قبل المسلمين ، وظهور الحرب الدينية كعامل قوي من العوامل المؤثرة في السياسة . أما صلاح الدين فقد اعتبر هذه الصليبية تحدياً مباشراً للإسلام لكي يحمي فتوحاته من النصارى . وقد استغل صلاح الدين الشعور الديني احسن استغلال ليوحد المسلمين باعتباره العامل المشترك . ولكن حتى في هذه الحرب لعبت الفروسية دوراً عظيماً يعادل الدور الذي لعبه الدين . ان الاساطير التي تصور العلاقات الفروسية بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد لها أساس في الواقع وأن كان المملكان لم يلتقيا أبداً . لقد كانت علاقات صلاح الدين وريتشارد علاقات رجلين مهذبين يتنافسان في مباراة رياضية كبرى . وما لا شك فيه أن احزان ريتشارد عند فشله في احتلال القدس ، كانت منبعثة عن شعوره بالخزي لعدم تمكنه من الوصول إلى هدفه ، ولم تكن صادرة عن عدم تمكنه من انقاذ قبر المسيح . ان بنود المعاهدة التي انتهت هذه الصليبية تبين بوضوح أن الطابع الجوهري لهذه الحروب كان طابعاً زمنياً ، مشعباً بروح الفروسية . فقد نصبت هذه المعاهدة على أن يستعد الطرفان للحرب ، عندما يفزعان من مشاغلهما الحاضرة . كما أنها نصبت على أن يسمح للحجاج النصارى بزيارة الأماكن المقدسة في القدس

نحت حراسة الجنود المسلمين .

وهكذا نرى أنه حتى في هذه الفترة التي سيطر فيها الدين على سياسة المسلمين كانت الحرب لا تخلو أبداً من جانب دنيوي . ولم تولد الخلافات الدينية تعصباً أعمى عند القادة . وكان هدف صلاح الدين سحق قوة الصليبيين السياسية ، ولم يكن إبادة النصارى . لقد حقق هدف الزنكيين بتوحيد سورية ومصر وزاد عليه . وكان هدف صلاح الدين المحافظة على الأمبراطورية التي استولى عليها كان القرن الثاني عشر أعظم عصور الحملات الصليبية . أما تاريخ الدول اللاتينية في سورية في القرن الثالث عشر فيعتبر عادة خاتمة . لان استمرار وجود الدول اللاتينية ، وإعادة تنظيمها بعد الحملة الصليبية الثالثة ، ومقدرتها على البقاء حية خلال قرن حافل بالمحن المتواصلة ، يعود بصورة كلية الى المناهضات التي مزقت المسلمين ومنعت اي حاكم من توحيد سورية مرة ثانية في دولة واحدة قوية . وعندما تمكن المصريون ، في النهاية ، من بسط سلطانهم على جيرانهم الشرقيين ، حان وقت زوال الدول اللاتينية ، ففشي أمرها واحدة بعد الأخرى . أما لماذا لم تصف الدول اللاتينية قبل هذا الوقت فمرده إلى أن هذه الدول لم تعد تشكل خطراً على الدول الإسلامية ، ولان المسلمين كانوا منشغلين بانفسهم عن اللاتينيين . وطوال القرن الثاني عشر ، وخاصة في النصف الاول منه ، كان خوف المسلمين من قيام النصارى بحروب انتقامية تتمثل في صليبية جديدة يشنها عن محاربة النصارى إلى أن يصبحوا هم اقوياء في بلادهم اولاً . وكانت الدول اللاتينية مفيدة باعتبارها حواجز بين الدول الإسلامية المتخاصمة . نعم كانت الدول اللاتينية غير مؤذية ، بل كانت نافعة إلى حد ما . وما كان المسلمون ليعيروا هذه الدول اهتمامهم قبل أن يحلوا المشاكل الكبرى القائمة بينهم . نعم لقد قامت حملات صليبية طوال القرن الثالث عشر ، لعلها قدمت للدول اللاتينية مساعدات حقيقية ، كما أنها إلى حد ما اعادتها إلى مكانتها السابقة كعامل مهم في السياسة الشرقية . على أن الحملات الصليبية في القرن الثالث عشر كانت كافية فقط لتقوية عزائم الأفرنج في سورية ، ورفع معنوياتهم ، دون

أن تكون خطراً حقيقياً على المسلمين . ونستني الحملة الصليبية التي قادها القديس لويس من كل ما تكلمنا عنه من الدوافع الدنيوية . ولكن هذه الحملة لم تؤد إلى تحسن الوضع في القدس بصورة محسوسة .

لقد اغدقت أوروبا الغربية الرجال والأموال على الحروب الصليبية في القرن الثاني عشر . ونالت الحملات الصليبية في اوائل القرن الثالث عشر مقداراً كافياً من المساعدات والعون . على أن أوروبا ، منذ منتصف القرن ، أخذت تسأم من القضية بأكملها . حتى أن السلة البابوية ، بصورة عامة ، أخذت تفقد اهتمامها بالأراضي المقدسة . ومنذ عام ١٢٠٨ أصبحت الحروب ضد الكفار والهراطقة تعتبر في نظر معظم البابوات ، أهم من الحروب ضد المسلمين . ووجه البابوات الرجال والأموال ، التي جمعت لحرب المسلمين في الشرق ، نحو الحروب الأوربية . ووصلت مثالية الحملات الصليبية إلى الحضيض في الحملة التي شنّها البابا بونيفاسيوس الثامن على امراء كولونا . لقد انفق البابا الأموال الطائلة وهدر دماء العديد من الرجال ضد اخصامه ومنافسيه من الكرادلة . ولم يقدم للنصارى المعدّين في الشرق سوى دموع التماسيح . وأصبح زي الحروب الصليبية ، في نظر النبلاء ، عتيقاً بعد أن وصل أوج رفعة في الحملة الصليبية الثالثة . غير أن الحروب الصليبية ظلت عند النبلاء مهنة محبة خلال السنوات الأولى من القرن الثاني . واجتذبت الحملة الصليبية الرابعة صفوة الفرسان في فرنسا . وكون هذه الحملة قد بدأت من مباريات في الفروسية يشير إلى طبيعة اتجاه معظم المشاركين فيها . ولكن نسيان هذه الحملة للقدس ، ونحوها إلى مغامرات رائجة لاحتلال امبراطورية الروم ، دليل آخر على تغيير عادات الناس . لقد جذبت امبراطورية القسطنطينية اللاتينية ودول اليونان اللاتينية الفرسان الغربيين أشد مما اجتذبتهم سورية . حتى أن الأفرنج القاطنين سورية تركوا يوتهم ليشاركوا في مغامرات الشمال . أما عامة الناس الذين كانوا عماد الحملات الصليبية الأولى فقد فقدوا كل اهتمام بها الآن . وقد رجح قَدْرُ غير المصلين على حِمَكَةِ الصليب كما يبدو من الحوار الذي فيه ريتيف . وأصبح الناس يلازمون يوتهم ،

وأخذوا يعتنون ببساتينهم . وما كان يناله الصليبيون من خيرات روحية وبركات سماوية ناله أولئك بشرائهم صكوك الغفران .

قامت في أواخر القرن الثاني عشر حملة صليبية — وقد كانت تنمة للحملة الصليبية الثالثة أكثر منها حملة مستقلة — كان بإمكانها أن تغير اتجاه التاريخ . لقد وضع الأمبراطور هنري السادس خطة لحملة صليبية لو تمت لأدخلت تحت سلطانه ليس فقط سورية ومملكة القدس وإنما امبراطورية الروم أيضاً . وأعد الأمبراطور خطط هذه الحملة اعداداً جيداً بعد أن حصل على ولاء ملكي قبرص وأرمينية . وأرسل هنري الفرق الأولى من جيشه إلى الشرق . ولكنه توفي قبل أن يستطيع ارسال فرق جديدة ، فانهار المشروع . كان هنري السادس من الأشخاص القلائل المحظوظين الذين ماتوا في ريمان شباههم وإبان تفتح قابلياتهم . ويستطيع المؤرخون أن يفكروا بحرية تامة عما كان سيحدث لو قبض لهنري أن يعيش ويحقق أحلامه . ولكن التاريخ لا يكتب بصيغة « الماضي المشروط » ، فالحقيقة أن الخطط التي وضعها الامبراطور هنري لم تحقق أي شيء إطلاقاً .

ولم يتابع المسلمون ، من الجهة الأخرى ، الحافز الذي أطلقه لهم صلاح الدين ليكملوا إخضاع اللاتينيين . فانه عند وفاة صلاح الدين انقسمت مملكته بين ابنائه ، وأصبحت مصر ودمشق وحلب مقر ثلاث دول مستقلة . وبدلاً من أن يتعاون الأخوة الثلاثة على طرد الأفرنج اشتبكوا في حروب للتفرد بالسلطان . ولم تنته هذه الحروب الا بعد أن استولى سيف الدين ، وهو أخو صلاح الدين ، على ممالك أبناء أخيه ، واصبح هو السلطان الوحيد في البلاد . وكان عهد سيف الدين ، ١٢٠٢ — ١٢١٨ ، عهد سلام ونقاة بالنسبة للدول اللاتينية . لأن سيف الدين كان يميل إلى مصادقة الأفرنج ، وكان صديق ريتشارد الحميم . كما أنه حاول محاولة جدية أن يتزوج أخت ريتشارد . وعقد سيف الدين مع جان دابلين ، الوصي على ملك القدس ، هدنة وثيقة ، انصرف اثناهما القرينان إلى العناية بشؤونهما الداخلية . وقد كان بالإمكان أن تستمر

هذه الصداقة لولا أن الأفرنج نقضوا الهدنة قبيل وفاة السلطان . وذلك أن الأفرنج أُجبروا على متابعة الحرب بقلوم جماعات جديدة من الصليبيين الاوربيين يقودهم أندرو الهنغاري . ولم تنفع هذه الفرقة الاولى من الحملة الصليبية الخامسة ، التي حاربت في سورية في عام ١٢١٨ ، القدس الا قليلاً ، لأن لم تكن قد اضررت بها . وعادت هذه الفرقة الى بلادها قبل أن يصل القسم الأعظم من الصليبيين إلى المشرق .

وعندما وصل القسم الأكبر من جحافل الصليبيين توجهوا إلى مصر ، وكانت يومئذ تحت حكم الملك الكامل وهو أحد أبناء سيف الدين . وكانت الخطة العسكرية التي اتبعتها الحملة الصليبية الخامسة صائبة . فقد اثبتت التجارب العسكرية أن الاستيلاء على القدس أمر شديد الصعوبة . ومن هنا رأى قادة الحملة ان الهجوم على مصر — والاستيلاء عليها أيسر من الاستيلاء على القدس — قد يضطر السلطان على التنازل عن القدس ثمناً للسلام . وبناء على هذه الخطة فقد وجه الصليبيون هجومهم على دمياط الواقعة قرب مصب نهر النيل . وصبح ما توقعه الصليبيون ، إذ قدم لهم الملك الكامل القدس مقابل دمياط . على أن القاصد الرسولي ييلاجيوس لم يوافق على رغبة قادة الحملة الزميين بقبول هذه الشروط ، وطلب منهم أن يهزموا المصريين هزيمة تامة ساحقة ، وذلك بالاستيلاء على القاهرة . وسار جيش الصليبيين ، يقوده ييلاجيوس ، داخل مصر حتى وصل إلى المنصورة الواقعة عند التقاء فرعي النيل . على أن الصليبيين ، الذين فاجأهم فيضان النيل واصطلموا بمقاومة المصريين ، اضطروا إلى التنازل عن كل ما استولوا عليه مقابل أن يسمح لهم السلطان بالعودة إلى سورية .

عندما كان الملك الكامل يقاوم الصليبيين أعانه أخوه الملك العظيم صاحب دمشق . ولكن ما كاد الخطر يزول حتى أخذ الأخوان يتنازعان على اقسام الأمبراطورية . وحالف الملك العظيم أترك خوارزم وطلب مساعدتهم . أما الملك الكامل فالتفت ناحية الغرب ، وحالف فريدريك الثاني ملك صقلية وعاهل الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وهو من الصليبيين المتحمسين .

كانت الحملة الصليبية التي قادها فريدرىك الثاني فريدة في الحروب الدينية . فقد كان فريدرىك بطبيعة مزاجه . اخر رجل يتصوره الخيال يمكن أن يقود حملة صليبية . كان لادريا ، متساعجاً مع جميع الأديان . غير متساهل مع أصحاب البدع ، لانه كان يعتبر البدعة في الدين من مظاهر التمرد على السلطة الشرعية القائمة . واقسم قسم الصليبيين عندما توج امبراطوراً عام ١٢١٥ . ولكنه ظل يؤجل الوفاء بالعهد . ولم يتهيا للحرب الا عند ما أصبحت مساعدته عديمة الجدوى للحملة الصليبية الثالثة . وأراد البابا أن يوجه اهتمام فريدرىك إلى القدس ويستشير حميته فدبر ، عام ١٢٢٥ ، زواجه من ايزابيلا دى برين اميرة هذه المملكة الصليبية . والحق أن زواج الأمبراطور قد أثار رغبته في مملكة القدس ولكن استجابته لهذه القضية جاءت بشكل لم يفكر به البابا التقى . ان الاهتمام بالقدس ، بنظر البابا ، يجب أن يتخذ شكل حرب صليبية . أما بنظر الأمبراطور العملي غير المتدين فكان الاهتمام بالقدس يعني الاستيلاء على المملكة باحسن طريقة عملية ممكنة . وقد يسر له الملك الكامل احسن الطرق حين طلب مساعدته في حربه ضد دمشق . وعرض عليه الملك الكامل أن يقدم له القدس مقابل امداده بالمساعدة العسكرية . وقبل الأمبراطور هذا العرض ، وشرع يعد حملة عسكرية على المشرق . وكانت طريقة الأمبراطور مخالفة للتقاليد بعض المخالفة ، فقد ابجر على رأس حملة صليبية ، كحليف لأمير مسلم ، في اسطول معظم بحارته من المسلمين .

ومات الملك المعظم فلم يعد الملك الكامل بحاجة إلى معونة حلفائه الغربيين . وهاجم المصريون سورية ، واستولوا على المناطق الجنوبية . وجاء الملك الأشرف ، حاكم البفيرة ، وهو أحد اخوة الكامل ، من الشمال ، وعرض على أخيه اقتسام أمانة دمشق بحيث يأخذ هو مدينة دمشق ويأخذ الكامل الاقسام الجنوبية . وبناء على هذا لم يكن السلطان مستعداً لان يقدم لفريدرىك القسم الأعظم من البلاد التي استولى عليها حديثاً مقابل مساعدة لا حاجة له بها الآن . ولكن فريدرىك كان قد وضع خططه ، وصمم على

ان ينفذها . وبينما ذهبت مقدمة الجيش إلى سورية ، في عام ١٢٢٧ ، تجمع القسم الرئيسي من جحافل الجيش في برنديزي حيث فنك بهم المرض فتكاً ذريعاً . وكان الأمبراطور نفسه بين من أصابهم المرض . على أن فريديريك ، بالرغم من مرضه ، استقل المركب وعزم على الأبحار . ولكن خطورة مرضه اضطرتة الى العودة إلى الميناء . وشرح للبابا غريغوريوس التاسع سبب عودته . ولكن البابا المغضب الهائج رأى أن المرض ليس أكثر من دوار البحر ، وعلماً ينتحله فريديريك لارجاء الأبحار فأنزل به عقوبة الحرم في الحال . ولو أن البابا غريغوريوس كان يعلم بالمعاهدة بين فريديريك والملك الكامل لما شك في صدق نواياه على الذهاب . على أنه ، حتى في تلك الحال ، ما كان ليغني عقوبة الحرم . ولما شفي الامبراطور من مرضه وقرر الأبحار منعه البابا من الاشتراك في الحملة . لان التقاليد الدينية تمنع المعاقب بالحرم من المشاركة بآية حملة صليبية مقدسة . ولم يدر البابا كم كانت حملة فريديريك غير مقدسة في الحقيقة .

لم يكن جيش الأمبراطور كبيراً بحيث يمكنه من تحقيق أي شيء بالقوة . ورفض بطريرك القدس والفرسان الاسبتالية والفرسان الداوية ومعظم رجال الدين وعدد من نبلاء المملكة اللاتينية أن يتعاونوا معه . وكانت الوسيلة الوحيدة التي تمكنه من تحقيق اهدافه هي أن يثبت أن باستطاعته أن يكون مصبر ازعاج . وهو ما فعله بالضبط . لأنه لم يكن يأمل أن يحقق أي مطلب من مطالبه الا عن طريق المفاوضات . ولحسن حظ فريديريك أن الملك الكامل كان مثله رجلاً أنيساً محباً للدنيا متساعجاً يستطيع أن يفهم موقفه ويقدره . ويذكر المؤرخون المسلمون أن الأمبراطور أخبر السلطان بصراحة بأنه يريد أخذ القدس ليحافظ على شرفه ومقامه في بلاده ، ولو لم يكن أخذ القدس ضرورياً لحفظ مركزه في أوروبا لما طالب به . ووافق السلطان على غير رضى وبعد تردد ، على عقد معاهدة يأخذ بموجبها الأمبراطور فريديريك القدس على أن يحتفظ المسلمون ببعض المناطق المعينة فيها ، وان يتمتع أبناء الديانتين بالحرية الكاملة في الحج واداء الفرائض الدينية . وكان جواب بطريرك القدس على

هذه المعاهدة المشينة أنه جعل المدينة المقدسة بلداً محرماً ، ومنع النصارى الصالحين من زيارتها . ولكن الأمباطور واتباعه المقربين اهتموا أمر البابا اهماً تاماً . قد يكون من الخطأ اعتبار حملة فريديريك حملة صليبية . والحقيقة أنها لا تحتوي على شروط تعريف الحملة الصليبية . فالحملة الصليبية عبارة عن حملة عسكرية تقوم تحت رعاية البابا ، ويشر المشاركون فيها بنيل الغفران والقوائد الروحية . وعلى الرغم من أن هذه الحملة كانت الحملة الصليبية الوحيدة ، باستثناء الحملة الاولى ، التي نجحت في الاستيلاء على القدس ، وبالرغم من أنها كانت ، باعتبار نتائجها ، أعظم نجاحاً من جميع الحملات الصليبية المتأخرة ، فإنها لا يمكن أن تعتبر حملة صليبية حقاً إذا أخذنا مقاصد المتحاربين بنظر الاعتبار . فقد سبق فريديريك والكامل عصرهما من حيث التسامح الديني . وكانا كلاهما يمثلان تلك الأقلية الضئيلة من الرجال الذين تعلموا ، من اختلاطهم ببناء الأديان الأخرى ، أن يتغاضوا عن الدين ، وأن يقيموا سياستهم على أسس دنيوية بحتة . وكان سكان سورية ، بصورة عامة ، يدهبون هذا المذهب . على أن العالم الإسلامي ، ومثله العالم المسيحي ، لم يكونا مستعدين لقبول هذا الحل المعقول للمشكلة .

كانت الفترة التي تلت حملة فريديريك الثاني فترة انهمك فيها المسلمون والمسيحيون بحروب أهلية كادت تشغلهم تماماً عن الخلافات الخارجية . ان من يقرأ تاريخ فيليب دى نوفارا ، وهو اوثق المصادر عن حوادث مملكة القدس في اعوام ١٢٣٠ - ١٢٤٠ ، يشعر وكأن الشؤون الخارجية غير موجودة وذلك لشدة استغراق المؤرخ بالصراع الداخلي . وعند ما كانت تقع حرب بين الدول الإسلامية كان الأفرنج يشتركون فيها حلفاء لدولة اسلامية ضد دولة اسلامية أخرى . وكان المسلمون منهمكين انهماكاً شديداً بخلافاتهم الشخصية بحيث انصرفوا عن محاولة القيام بأي عمل موحد ضد اللاتينيين . حتى أن افراد الطوائف العسكرية الكبيرة ، وهم الد أعداء الاسلام ، نسوا المواثيق التي قطعوها على انفسهم ، وحالفوا ، دون تحجل ، المسلمين ضد النصارى ،

وخاصة ضد الطوائف العسكرية الأخرى . فقد تحالف فرسان الداوية مع دمشق ضد فرسان الاسبتالية ومصر . وكانت المعارك التي وقعت بين طوائف الفرسان النصارى المتنافسة من اضرى المعارك التي حدثت في هذه الفترة .

كانت الحروب التي نشبت بين ابناء المدن الايطالية المختلفة اسوأ من الحروب التي تكلمنا عنها . فقد حارب ابناء بيزا والبندقية وجنوا ومرسليا وقطلونية بعضهم بعضا في جميع موافئ الشرق . وكانوا يبدلون حلفاءهم بين حين وآخر ، الا أنهم كانوا يسعون دائماً للتفوق السياسي والتجاري . وقد قتل عدد الذين قتلوا في عكا ، عام ١٢٥٧ - ١٢٥٨ في حرب « القديس سابا » ، بأكثر من عشرين الف شخص . بدأت هذه الحرب معركة محلية بين ابناء البندقية وجنوا . ولكن سرعان ما اشترك فيها الأفرنج أيضاً . فقد ساعد ابناء البندقية سكان عكا وملك قبرص ومعظم نبلاء الأفرنج والفرسان الداوية ، والفرسان التيوتون وابناء بيزا والبروفنسال . بينما ساعد ابناء جنوا حاكم صور وسكانها والفرسان الاسبتالية وابناء قطلونية والانكونيتانيون . وقد اصبحت عكا وصور باضرار فادحة من جراء هذه الحرب . تحطمت الممتلكات داخل اسوارهما ، وتعطلت تجارتيهما ولم يعقد الصلح بين آخر المتحاربين إلا عام ١٢٧٧ . وعندئذ سمح لابناء البندقية بدخول صور ولم يكن النبلاء اللاتينيون أقل استعداداً للحرب . فقد مزقت الحروب الداخلية انطاكية طوال معظم القرن . وكان امراؤها يحاربون بين حين وآخر إلى جانب ملوك أرمينية وفرسان الاسبتالية ، كما أنهم كانوا يحاربون إلى جانب اتباعهم حكام جبيل والبترون . وشغل الصراع بين الايبليين والمستعمرين مملكة القدس أكثر من عشر سنوات . وما كاد هذا الصراع ينتهي بطرد المستعمرين حتى قام صراع عائلي حول الاستيلاء على العرش . وقد اشترك في المراحل الأخيرة من هذا الصراع ملوك قبرص وعمال شارل اوف انجو ملك صقلية . ومن حسن حظ اللاتينيين أن ممالك الايوبيين في مصر وسورية كانت تخوض فيما بينها حروباً لا تقل ضراوة عن الحروب التي كانوا يخوضونها هم . أما الإمارات الصغيرة

فقد انتهزت فرصة انشغال الدول الكبرى بالحرب لتخوض هي حروبها الصغيرة . ان تاريخ الحملات الصليبية التي قادها ، عام ١٢٣٩-١٢٤٠ ، ثيو أوف شامبانية ملك نافار وريتشارد أوف كورنول يبين كيف أن هذه الحروب الأهلية كانت تستطیع أن تقحم حتى الصليبيين من الغرب ، وتعطل الفائدة من مساعدتهم للقضية الصليبية .

بدأ ثيو حملته الصليبية بهجوم على المصريين . ولكن المصريين هزموه في معركة قرب غزة شر هزيمة ، وأسروا معظم قواده . ودعا أمير حمص ليكون حليفه ، فقبل وسار متوجهاً اليه ولكنه عندما وصل إلى حمص علم أن الأمير قد عقد صلحاً مع أعدائه ، فوجد نفسه في حيرة ممضة . وعرض سلطان دمشق على الصليبيين ، بواسطة فرسان الداوية ، ان يعيد اليهم قلعة صفد وغيرها من القلاع التي كان قد استولى عليها لقاء مساعدتهم في حملته على مصر . وتم الحلف . وسار جيش الأفرنج وجيش دمشق باتجاه الجنوب إلى يافا . ولكن فرسان الاستبالية ، وهم الد أعداء فرسان الداوية ، كانوا قد اعلوا خطة معاكسة . فقد اتصلوا بثيو وعرضوا عليه أن يحالف مصر ضد دمشق مقابل أن يعيد له السلطان جميع الرجال الذين اسروا في معركة غزة . ويجدر بنا أن نذكر هنا أن صفد والقلاع التي أرجعها أمير دمشق لثيو كانت ملكاً لفرسان الداوية . على حين كان بين الأسرى الذين وعد سلطان مصر باطلاق سراحهم زعيم الفرسان الاستبالية . فوافق ثيو ، الذي اربكته القضية إلى حد كبير ، على الدخول في مفاوضات مع مصر . وكان في الوقت نفسه ما زال متمسكاً بحلفه مع دمشق . والظاهر أن ثيو ، وقد شعر بأنه قام بتنفيذ جميع التزاماته الصليبية على ما يرام ، غادر يافا فجأة ، وعاد إلى فرنسا . واستلم قيادة الحملة الصليبية ريتشارد أوف كورنول الذي وصل إلى المشرق بعيد مغادرة ثيو . وقام ريتشارد بتوقيع المعاهدة التي تقدم بها المصريون ، ثم انصرف لتحصين عسقلان . وبعد أن اتم هذا العمل قفل راجعاً إلى اوربا ، وترك الأفرنج في سورية حيارى بين الحلفين .

ان سقوط المستعمرين في صور الذين جلبوا التحالف مع المصريين عام ١٢٤٣ ، والنصر الذي أحرزه الشاميون وفرسان الداوية على المصريين قوى مركز الحزب الشامي بين اللاتين ولكن المصريين تحالفوا مع أمير الكرك . وشبت حرب عامة على طول الحدود . ثم تخلت الكرك عن مصر وانضمت إلى دمشق . وقبل اللاتينيون جميعاً بمخالفة دمشق ، فاضطرت مصر على عقد حلف معاكس مع أنراك خوارزم . واحتل الأتراك ، عام ١٢٤٤ ، مدينة القدس التي كانت بيد اللاتينيين منذ عام ١٢٢٩ . وهزم الجيش المؤلف من اللاتينيين والدمشقيين المتحالفين هزيمة ساحقة في غزة ، وتحمل اللاتينيون معظم الخسائر . وتقدم المصريون المنتصرون فاحتلوا دمشق نفسها ، في عام ١٢٤٦ ، وقضوا على المنافسة القائمة بين فروع الأسرة الأيوبية . ولكن الخطر الجديد ، الذي كان سيهدد سلطان الأيوبيين على سورية ، ظهر لأول مرة في تلك السنة التي انتصر فيها المصريون . فقد غزا المغول ، الذين اندفعوا من سهوب آسيا نحو شمالي سورية ، وأرغموا أمير انطاكية على دفع الجزية لهم .

وقبل أن نبحت الصراع بين المصريين والمغول ، هذا الصراع الذي فاق كل الأحداث في سورية طوال ربع القرن التالي ، نرى من الضروري أن نقف قليلاً عند الحملة الوحيدة في هذا القرن التي يصح أن تسمى حرباً دينية . في عام ١٢٤٤ ، وفي إحدى نوبات المرض ، حمل القديس لويس ملك فرنسا الصليب . وكان الجيش الذي قاده مؤلفاً من جنود فرنسيين جذبهم إلى الحملة قوة الملك وشدة اقناعه . ولا حاجة بنا للبحث عن أي دافع سياسي لهذه الحملة الصليبية . فقد كان الدافع الوحيد هو تقوى لويس الأصلية ورغبته في تخليص الأرض المقدسة . وكانت الحملة الصليبية نفسها الجواب الذي أعطاه فرسان فرنسا للمكهم المحبوب الذي كان يحكم فيما سمي « بنهاية الأقطاعية » . وربما كان لويس هو الشخص الوحيد في الحملة الذي كان يحسن إلى تخليص القبر المقدس . وكان مستعداً للتضحية بقوة مملكته وثروتها في سبيل هذه القضية المقدسة . ولم يكن سعي غالاهاذ وراء الكاس المقدس اقنى وأظهر من سعي

لويس وراء القبر المقدس. وكان لويس، مثل غالاهاد من قبل ، وحيداً في كماله . وإذا كان بإمكان المرء أن يحكم بما كتبه جوافيل (وهو احسن مؤرخ نستطيع أن نعلمه) فإن روح الفروسية والولاء الاقطاعي ، وليس الحماية الدينية ، هما الدافعان اللذان كانا يسيّران الفرسان الذين رافقوا الملك . لقد كان جوافيل مستعداً لأن يتبع سيده الملك إلى باب جهنم ، ولكنه لم يكن مستعداً للسير وحده في هذا الطريق .

ان الحملة الصليبية التي قادها القديس لويس معروفة جيداً مما كتبه عنها جوافيل ، ولهذا لا نرى حاجة لاطالة الوقوف عندها . ان احتلال دمياط ، والتقدم إلى داخل مصر ، ومعركة المنصورة ، وهزيمة الملك وأسرّه ، حوادث شائعة في قصة يعرفها الناس جيداً . ولم يحقق لويس شيئاً مهماً خلال اربع سنوات أقامها في سورية بعد أن اطلق سراحه من مصر . لقد فشلت هذه الحملة ، بصورة عامة ، فشلاً فاجعاً . ولم تكن محاولة لويس الثانية ، وهي الحملة المشنومة على تونس عام ١٢٧٠ ، أكثر نفعاً للاتينيين في المشرق من الحملة الاولى . وأزيلت وفاة الملك القديس ، في معسكرة في تونس ، القوة التي كان بإمكانها أن تساعد الأفرنج في المشرق ، وتركهم يعتمدون على وسائلهم الخاصة . ودخل آخر الصليبيين المخلصين الصادقين القدس السماوية عوضاً عن القدس الأرضية التي طالما تشوق للوصول إليها .

وأهم من حملة القديس لويس الثورة التي قامت في مصر عام ١٢٥٠ فإنه في اثر وفاة السلطان الأيوبي (١) حدثت ثورة في البلاط حملت إلى العرش اول السلاطين المماليك ، واقامت دولة المماليك التي أوصلت مصر إلى اوج شهرتها وقوتها في العصور الوسطى . على أن المماليك ما كادوا يبدأون ببسط سلطانهم على سورية حتى واجههم المغول الذين اكتسحوا الشرق الأوسط بقيادة هولاكو . لقد اندفع المغول من قلب آسيا كالعاصفة الهوجاء ، واكتسحوا بسرعة خاططة ايران والعراق ، وقضوا على الخلافة العباسية في بغداد ، وقتلوا

(١) هو الملك الصالح ايوب المتوفى في ٣ تشرين الثاني سنة ١٢٤٩ . (المترجم)

سكان تلك المدينة الجلييلة عام ١٢٥٨ . وقضى جنود هولاكو خان الكواسر على الحشاشين المرعبين وطردوهم من قلعتهم الحصينة آلموت ، وسقطت حلب ودمشق فريسة هينة لهم . واستغل المغول « حرب الأعصاب » إلى ابعد مدى . فقد كان ذكر اسمهم مبعث خوف وفزع في البلاد التي عزموا على غزوها . وعززوا القصبص التي تصف قسوتهم ومنعتهم بارتكاب فظائع هزت الشعوب المتمدنة وملأتها رعباً . وجُرفت ممالك وامارات في سورية وروسيا والعراق بسيول من الغزوات والمذابح . وكانت الظواهر تشير إلى أن لا شيء يستطيع صد تقدم المغول الملمر .

فرحت أوروبا النصرانية وهلت لانصارات المغول . ولما كان المغول ، بصورة عامة ، مسالين للنصارى ، ولما كان بينهم عدد كبير من النساطرة ، ولما كانت زوجة هولاكو نصرانية ، ولما كان كيتبُوعا الذي تسلم قيادة المغول في سورية بعد رجوع هولاكو إلى سيبيريا نصرانياً ، فقد اعتبر البابا وحكام اوربا الغربية المغول حلفاء لهم في صراعهم المشترك ضد الأسلام . وكان البابا يحلم ، طوال سنوات عديدة ، بانشاء حلف عظيم بين المغول واوربا يسحق الدول الإسلامية سحقاً . وترددت الوفود بين اوربا وبين بلاط سلطان المغول ، وكان أشهرها الوفدان اللذان ترأسهما جون اوف بيانو كاريني ووليام اوف ربريكيس . ولم يفتن الى الخطر الحقيقي لتوسع المغول الا فريدريك الثاني الذي دعا إلى اعداد حملة صليبية ضدهم . على أن فريدريك نفسه كان متهماً بنظر البابا ، إذ كان المعروف عنه أنه كان حليف المصريين . وفضل البابا أن يوجه الحملة الصليبية ضد فريدريك ، وأن يفاوض اليرابرة الأسويين لأجل اقامة حلف معهم . كانت فكرة اعداد حملة صليبية مغولية مسؤولة عن كثير من الأخطاء التي ميزت سياسة السدة البابوية تجاه الشرق في نهاية القرن الثالث عشر ، والتي ادت إلى ضياع مملكة القدس ضياعاً تاماً . ويبدو أن بعض المؤرخين الأوروبيين قد وقعوا تحت تأثير هذا السحر نفسه . وفروسيه ، مثلاً ، بأسف شديد الأسف لفشل الأفرنج في سورية في مساعدة الغزو المغولي مساعدة

قلبية فعالة . ولكن يبدو لي أن المساعدة التي قدمها الصليبيون للمغول هي التي أدت إلى خراب الدول اللاتينية ، وأن سياسة الصداقة والسلم مع الممالك والاعتراف للممالك بشيء من السيادة ، كانت هي السبيل الوحيدة للبقاء على وجود الصليبيين في سورية حتى أننا ولو اعترفنا بأن إبادة الدول اللاتينية كانت من أسس سياسة الممالك يجب علينا أن نتذكر بأن المدن التي تحالفت مع الممالك ضد المغول اتيح لها أن تبقى مدة طويلة بعد سحق المدن التي ساعدت المغول . وإن الممالك لم يهاجموا المدن النصرانية ما دامت قائمة بالتزامات المعاهدات الموقودة معها .

كان الأفرنج في سورية منقسمين على انفسهم في موقفهم من المغول ، كما كانوا منقسمين في كل شيء آخر . فقد خضع ملوك ارمينية وامراء انطاكية وطرابلس للغزة ، وقدموا لهم الجزية والمساعدات العسكرية . اما امراء المناطق الجنوبية فكانوا مترددين بين التحالف مع المغول وبين التحالف مع المصريين . وقد فضل جوليان أمير صيدا وجون دى ابلين أمير بيروت وجون أمير جبيل وفرسان الداوية وسكان عكا محالفة المصريين .

وقعت المعركة الاولى الفاصلة بين المغول والممالك في عين جالوت في اليوم الثالث من ايلول ١٢٦٠ . وكان يقود المغول القائد التتاري كِتْبُوغَا . وكانت تساعده جيوش من ارمينية وانطاكية . اما الإمارات اللاتينية في الجنوب فقد قلمت على اقل تقدير ، مساعدات سلبية للمصريين . وفي هذه المعركة هزم المغول هزيمة ساحقة ، فقد قتل كِتْبُوغَا وتفرق جيشه . واندفع الممالك المتصرون فاسترجعوا دمشق وحلب ، وشنوا حرباً تاديبية على النصاري في الشمال ، ليحذروهم عاقبة من يساعد اعداء السلطان . ولكن المغول ظلوا محتفظين بالجزيرة والقسم الشمالي من سورية . وكانوا ينتظرون الفرصة المناسبة لاسترجاع ما فقدوه .

وفي تلك الاثناء اغتصب السلطان الكبير بَيْبَرْس البَنْدُكْدَادِي عرش مصر بعد أن اغتال سلفه السلطان قُطُز . ان حروب بيبرس ضد اللاتينيين

جعلته في ذاكرة الناس احد اباطال الاسلام العظام . على ان يبرس يستحق ان يتبوأ مكاناً علياً في التاريخ باعتباره مؤسس عظمة مصر المملوكية . وعلى الرغم من ان يبرس كان مسلماً تقياً فانه لم يكن مدفوعاً بالدين اكثر ممن تقدمه من السلاطين ، ولم تكن حروبه ضد اللاتينية الا خطوة محتمة فرضتها عليه سياسة التوسع المصرية . ومما يدل على ان الحروب التي خاضها لم تكن حروباً دينية ، او جهاداً ، رغبته الملحة في كسب صداقة الملوك النصارى : شارل ملك انجو وصقلية ، وجيمس اوف اراغون ، وافونسو امير قشتالة ، وميخائيل باليولوغس (ميخائيل الثامن) امبراطور القسطنطينية . لقد سعى يبرس أن يعقد مع هؤلاء جميعاً محادثات سياسية وتجارية . وجمع يبرس ، كما فعل صلاح الدين من قبل ، بين حرب اللاتينيين في سورية وبين السطو على الدول الاسلامية المنافسة له . وقام بحروب ضد الامراء الايوبيين في سورية والحشاشين في لبنان ، والايلاخانيين في ايران ، والبربر في شمال افريقيا : والتونيين . ونصب ، عام ١٢٦١ ، خليفة عباسياً في القاهرة ، بعد ان هدم المغول عاصمة الخلافة بغداد . ولم يفعل يبرس ذلك احتراماً للخلافة ، وإنما لانه كان يسعى لتحقيق سيادة مصر ، وقد وجد في الخليفة العباسي اداة صالحة لتثبيت مركزه ضد القاطمين المدعين بمصر .

شن يبرس معظم حروبه على اللاتينيين في سورية بين عامي ١٢٥٦ و ١٢٦٨ . وقد احتل ، في هذه الفترة ، قيسارية ، وارسوف ، ويافا ، وعدداً من حصون طوائف الفرسان . واستولى حتى على انطاكية المنيعه ذاتها واسلمها للنهب والسلب . يذكر غروسيه أن سبب النجاح العظيم الذي احرزه يبرس هو انه ، على عكس صلاح الدين ، حارب مجنود محترفين ، وعلى هذا فلم يكن مضطراً على تحمل اعباء حقوق وامتيازات جيش اقطاعي . وكان قادراً على ابقاء جنوده في ساحات القتال مدة اطول مما كان يستطيع فعله صلاح الدين . ومن هنا فقد كان بإمكانه ان يقوم بحروب طويلة الأجل وفي مناطق نائية .

في عام ١٢٧٠-١٢٧٢ قاد الأمير ادوار (الذي أصبح فيما بعد ادوارد

الاول ملك انكلترة) آخر الجيوش الصليبية الى المشرق ، لحساب مملكة القدس ، وكان هذا الجيش هو القسم الوحيد من حملة القديس لويس الثانية الذي وصل الى سورية . ولم تحقق هذه الحملة شيئاً سوى انها اوغرت صدر السلطان ، وعجلت في سقوط حصن الاكراد العظيم وغيره من الحصون اللاتينية .

ولم يستطع اللاتينيون ان يتفادوا الحروب الأهلية . فقد قام شارل اوف انجو ، الذي اشترى لقب ملك القدس من ماري اميرة انطاكية التي كانت احد المتخاصمين على العرش ولكنها غلبت على امرها سنة ١٢٦٨ ، بالاستيلاء على عكا عام ١٢٧٧ بالتعاون مع فرسان الداوية وضد هيو ملك قبرس الذي منحته المحكمة العليا عرش القدس . واتبع شارل السياسة التي سار عليها فريدريك الثاني في المشرق فكان صديقاً لمصر كما مر معنا . وقد ساعد ولاته على عكا سلاطين مصر وكانوا دائماً على علاقات حسنة معهم . وعقد يوديس بيلتشين حاكم عكا ، في عام ١٢٨٣ ، هدنة مع قلاوون مدتها عشر سنوات .

ولم تمنح وفاة بيبرس ، في عام ١٢٧٧ ، الأفرنج في سورية غير فترة قصيرة من السلم . لان قلاوون الذي ارتقى عرش مصر عام ١٢٧٩ تابع بقوة شديدة الحرب التي لم يتمها سلفه العظيم . وقد احرز اول انتصاراته العظيمة على الجيش المغولي عام ١٢٨٠ . جاء هذا الجيش لغزو سورية ولكن قلاوون اباده في معركة قرب حمص . وقد حطم هذا النصر قوة المغول في سورية تحطيماً عظيماً تماماً . وسارع امراء المدن اللاتينية الجنوبية ، بعد هذا النصر المؤزر ، لعقد معاهدات مع السلطان ، ولكن بعد فوات الاوان . فقد كان قلاوون يخشى أن يعود النصارى فيساعدوا المغول . وكان احتلال طرابلس اعظم الفتوحات التي تمت في عهده . كانت طرابلس آنذاك تخوض حرباً أهلية صغيرة سببها خلافة بوهيميون السابع على العرش . فقد طلب احد الفريقين المتنازعين مساعدة الجنوبيين ، بينما طلب الفريق الآخر مساعدة السلطان . وجاء قلاوون . ولكنه عندما غادر طرابلس عام ١٢٨٩ لم يكن قد بقي شيئاً فيها وبعد سقوط طرابلس

لم يعد طرد اللاتينين نهائياً من سورية لیتطلب الا جهوداً ضئيلة . فلم يعد يند اللاتينين سوى عكا وبيروت وصيدا وطرطوس وبعض الحصون المنعزلة : وتوفي قلاوون في عام ١٢٩٠ قبل ان « ينظف » سورية من اللاتينين ، على ان الاشرف خليل ، الذي خلف قلاوون ، اكمل العمل ، فاحتل عكا في ايار من عام ١٢٩١ . أما سبب هجوم الاشراف على عكا فهو قيام الصليبيين الذين وصلوا إلى عكا حديثاً بغارة على الاراضي الاسلامية ، فنقضوا بعملهم هذا الهدنة ، واعطوا السلطان العرلر لهدم المدينة . وبعد سقوط مدينة عكا استسلمت المدن اللاتينية الواحدة بعد الأخرى . وانتهى امر مملكة الصليبيين ، وتم توحيد سورية .

ولم يُحدث سقوط عكا رد فعل عنيف في الغرب . لقد حزن البابوات لهذه الخسارة ولكن لم ترسل اية حملة صليبية لمحاولة احياء المملكة الصليبية المنقرضة . غير أن الذين كانوا يدعون إلى صليبية جديدة اسهبوا في ذكر الخطط لتهيئة حملة صليبية جديدة . ولكن هذه الخطط لم تثمر . على ان انتهاء امر المملكة الصليبية لم ينه الحرب بين النصارى والمسلمين . فقد انهك ملوك قبرس ، وهم ورثة مملكة القدس ، بحروب متواصلة مع المصريين وقد وصف احتلال بطرس مدينة الاسكندرية في عام ١٣٦٥ بأنه حملة صليبية ولكن في تسميته صليبية جديدة شيئاً من المبالغة . على ان هذه المناوشات كانت اقرب إلى الغزوات منها إلى الحروب الدينية المقنعة . ولم يكن احتلال الممالك لقبرص ، بقيادة السلطان برساي في القرن الخامس عشر ، مسبباً عن أي دافع ديني ، وانما لان القبارصة كان ينجرون ويعينون القراصنة الذين كانوا يهاجمون السفن المصرية وينهبونها .

وشبه بما تقدم ان الحملات التي ارسلت لاييقاف تقدم الاتراك قد اطلق عليها احياناً اسم الحملات الصليبية . على أن جانباً من جوانب الحملات الصليبية التي انطلقت من نيقوبوليس في عام ١٣٩٦ ، يستحق هذا الاسم . فقد كانت دوافعها مزيجاً من المغامرة الفروسية ، والصوفية الدينية ، والسياسة العملية .

ولكن هذه الحملات ، باستثناء حملة نيقولوبوليس ، لم تجتذب إلا القليل من الأشخاص الذين لم يكونوا مدفوعين وراء المنافع الدنيوية الشخصية . وبصعب علينا ان نرى في هذه الحروب غير حروب سياسية واقتصادية . ولكن التوسل بالدين استمر في كل حرب يشترك فيها ناس يعتقدون ادياناً مختلفة . فقد كانت كل حرب ضد المسلمين تسمى حرباً صليبية ، وكانت كل حرب ضد النصارى تسمى جهاداً . وقد دعيت هذه الحروب هكذا لاستغلال ما في الدافع الديني من اثارة عاطفية ، ولكسب تأييد جماهير الشعب للحرب ومرد الصعوبة العظمى في بحث هذه الأمور الى موقف المؤرخين المعاصرين من ابناء الديانتين . ازاء هذه الحوادث - فقد اكد المؤرخون المسلمون والنصارى على العناصر الدينية في حروب غير دينية . ومجد مؤرخو الديانتين تقى القواد الدين كانوا يحاربون في سبيل الدين . وتجاهلوا كلهم الاسباب العملية في سبيل التأكيد على العوامل التي تستهوي الجمهور . وبطبيعة الحال لا يمكن ان تتخذ الوثائق الرسمية مقياساً لوزن صحة اخبار المؤرخين . لان هذه الوثائق ، شأنها شأن المؤرخين بل اكثر ، لا تقدم لنا الا الجوانب المثالية والعقابلية من القضية .

وختاماً لهذا البحث أود أن اعيد تلخيص موضوعي . في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، في عصر الحروب الصليبية والجهاد ، لعب الدين الدور الذي تلعبه العقائد السياسية اليوم . ولم يتوسل المسلمون والنصارى ، ما عدا بعض الاشخاص المعروفين ، بالدين الا ليتخفوه ستاراً يخفون وراءه مقاصدهم الدنيوية السياسية . على ان الناس ماتوا ، وما زالوا مستعدين ليموتوا ، تحت لواء العقائد والمثل العليا . لقد كانت الحماسة الدينية الملتهبة ، في عصر الحروب الصليبية ، دافعاً ، مهماً ثميناً . ولكنه لم يكن ، الا في الأحوال النادرة ، السبب الاول او الدافع الغالب الثابت .

المراجع

- 1 — L. Bréhier : L'Eglise et l'Orient au Moyen Age : Les Croisades, 5th ed. (Paris, 1928)
- 2 — The Chronography of Bar Hebraeus, tr. E.A. Wallis Budge, Oxford, 1932
- 3 — C.R. Conder: The Latin Kingdom of Jerusalem, London, 1897.
- 4 — The Damascus Chronicle, Tr. H.A.R. Gibb, London, 1932.
- 5 — René Grousset : Histoire des Croisades, 3 Vols. (Paris, 1934-36)
- 6 — P.K. Hitti, History of the Arabs, 2nd Ed. (London, 1940)
- 7 — E.G. King, Knights Hospitallers in the Holy Land, London, 1931
- 8 — S. Lane-Poole : Saladin, New York 1898.
- 9 — S. Lane-Poole: History of Egypt in the Middle Ages, London, 1901

الاسلام ونمط الحياة الاسبانية^(١)

لاميريكو كاسرو^(٢)

لقد تناولنا في بحثنا السابق المفردات اللغوية والعادات والعقائد والمؤسسات الاجتماعية التي لها علاقة مباشرة ، او غير مباشرة ، بالواقع التاريخي ، وهو ان العرب ونصارى اسبانيا كانوا يعيشون جنباً الى جنب . اما الآن فأسألكم الى القارئ الكريم ان يسايرني قليلاً الى نواحٍ اشد غموضاً واكثر تعقيداً من النواحي التي درسناها سابقاً . وقد لا نجد في هذه النواحي الغامضة المعقدة ادلة واضحة بيّنة على مدى تغلغل الحياة الاسلامية في اعماق الحياة الاسبانية ، وعلى مدى تفاعل الاسلام تفاعلاً حياً مع النفس الاسبانية . ولكن يحق لنا أن نفترض ان ذلك الاتصال الحميم وتلك العلاقات الوثيقة التي نشأت بين المسلمين والاسبان — والتي اشرنا اليها سابقاً (٣) — يجب ان تكون قد اسفرت على ما يبدو عن نشوء خصائص وميول في النفس الاسبانية تشبه الخصائص والميول المتأصلة في الحياة الاسلامية . وهذه الميول وهذه الخصائص المكتسبة عن طريق التفاعل الحياتي تقابل ما يسميه علماء الطبيعة بـ « شبه استحالة » (٤) على انني حين استعمل هذا المصطلح « شبه استحالة » فانما استعمله لظهار ما أريد أن اقوله مدركاً في الوقت ذاته ان « شبه الاستحالة » هنا لا ينطبق على الانسان كما ينطبق على المعادن التي تتبلور فيتغير شكلها الخارجي . غير اننا نرى شيئاً من هذا في كلمة *hijodalgo* (ابن شرف او ابن نبل) التي جئنا

على دراستها سابقاً . وهي كلمة اسبانية في استعمالها غير انها عربية اسلامية في تركيبها واصلها ومعناها .

ان النفس البشرية تقوم بحركات وتأتي اعمالاً داخلية لا تختلف عن الحركات والاشارات التي تصدر عن الجسد المادي . ولذا يقول الاسباني ، وهو قول شائع معروف عندهم : « روحه تتلوى متناقلة في جسده » . ويعنون بذلك ان روحه متكاسلة خاملة . ونحن اذا نظرنا في حياة الانسان نجد احياناً كثيرة ان النفس والذات تتعاشان ولكن عيشة ثقيلة مملّة خاملة ، واحياناً اخرى يشتد التوتر بينهما حتى يبلغ حد القطيعة . ومع ذلك فان العلاقات بين النفس والذات تكون في الغالب منسجمة متساوقة اما برضى الجسد او بالرغم منه . حدث عندما كان كونت كابرا يستعد مرة للخروج إلى المعركة انه لاحظ الخدم الذين كانوا يلبسونه ثيابه ويقلدون اسلحته ويقصون الخوذة على رأسه انه كان يرتجف . وعندما ابلوا استغرابهم بما اعتراه وهو الذي عرف بالشجاعة اجابهم قائلاً : « ان الجسد يتهيب من التجربة القاسية التي ستلقيه فيها النفس » (٥) وللامير كونده قول يشبه هذا القول سبقه اليه ايضاً اغناطيوس ليولا (مؤسس الحركة اليسوعية) . ومثل هذه الحالات التي نجد فيها صراعاً او توتراً بين النفس والجسد تنشأ في حياة كثيرين من الناس ، وليس بالأمر العسير سرد امثلة على ذلك . فان الحكيم الذي يكرس نفسه للحكمة ، والبطال المغوار ، والاخلاقي المتزمت المتشدد في اتباعه قوانين الأخلاق ، هؤلاء وغيرهم يستطيعون ان يسجنوا انفسهم في سجن الذات ويفضوا عن رغبات النفس من ميول ومشاعر ، ويستطيعون ان يتغاضوا عن كل ما يتطلبه فيهم الجسد من رغبات وحاجات . ان هذه المشكلة لمن المشاكل الانسانية معروفة مألوفة لكن حلها في منتهى العسر . وليس غرضي معالجة هذه الناحية ، انما مررت بها مرأً يسيراً لأقول للقارئ الكريم أن الناس بالنسبة إلى الاعمال العقلانية والارادية التي يقومون بها طائفتان : طائفة تستطيع أن تفصل الذات عن الجسد وعن النفس وطائفة اخرى لا تستطيع الفصل بين

الذات وبين الجسد والنفس (٦) .

ان الصراع بين نزعات الجسد وميوله وبين سلطة الذات وجبروتها المنتظم قديم العهد . فقد نشأت عنه على ممر العصور حركات روحية فكرية مختلفة : التشف والتزهد ، والفلسفة الرواقية المسيحية ، والتزعة الصوفية . وفي اقدم الآداب اشارة إلى هذا الصراع بين الذات والجسد . ففي ملحمة الاوديسا لهوميروس الشاعر الاغريقي ذكر له في مطلع الباب العشرين . ولا يتفرد الأسبان في انهم اختبروا هذا الصراع العالمي او أنهم اشاروا اليه ، وانما يتفردون في انهم لم يلتمسوا في حياتهم مخرجاً او منفذاً لهذا التوتر الداخلي ، لهذه الازدواجية القائمة بين ميول الجسد ونزعاته ورغائبه وبين العقلانية الصرف . وهذا يختلف عن الكيان الافرنسي . ان قوام الحياة الافرنسية منذ القرن الحادي عشر — وهو القرن الذي تبدأ ان تظهر فيه معالم الفكر الافرنسي والحياة الافرنسية . يتميز بتسلط الذات العقلانية على متطلبات الجسد ورغائبه . أما الأسبان فقد كانوا على نقيض هذا . فانهم اكتفوا بان عاجلوا هذا الصراع من حيث هو مادة لجدل ديبالكتيكي أي لجدل منطقي . وهذا يساعدنا على تفهم موقف اليسوعيين (المتأثر بالنظرة الكاثوليكية الاسبانية) من اتباع كورنيليوس جانسن ، وكيف أنهم رفضوا أن يأخذوا بمنطقه الديني ، وكيف قاوموه بنوع من الفتاوى الدينية التي هي اقرب إلى النفاق منها إلى الحقيقة . وهذا النوع من الفتاوى الدينية ليس كله نفاقاً في نظر باسكال مثلاً ، لكنه نوع من التكييف الذي يحاوله المؤمن للتغلب على الصراع الحيائي العنيف في داخله . وليس هنالك مثال عام او نموذج قياسي عام نستطيع ان نعمل به هذه الظاهرة تعليلاً مستوفى . لان كل رجل خاطئ انما هو مثال فريد حي قائم بذاته لا شبيه له بين الخطاة . ولو ان الناس استطاعوا ان يتبعوا بدقة تعاليم كورنيليوس جانسن الحرفية (بدقة واخلاص) لأدّى بهم هذا المسلك إلى إلهة العقل .

كل عمل يصدر عن العقل يستهدف بلوغ الحقيقة والتبّت من أنها الحقيقة ،

وبعد ان تُكتشف الحقيقة تُجرّدُ حالاً من العنصر الشخصي . أي انها تصبح تجريداً قائماً بذاته بقطع النظر عن الانسان الذي اكتشفها . وفي الوقت ذاته تصبح ايضاً ملكاً مشاعاً يحق لكل من يبتدي اليها ان يفوز بها وان يحصل عليها كما حصل عليها العقل الذي اكتشفها اولاً . وكل امرئ يستطيع أن يكون عقلاً . لان العقلانية امر فردي . وفي الوقت ذاته ظاهرة عامة . ولكي يغلو المرء عقلاً لا يتحم عليه أن يعرف الرجل الذي اكتشف الحقيقة . ولنضع القضية بتعبير آخر : ان الذي يتقبل الحق وما في الحق من حقيقة يعترف ضمناً بوجود شيء خارج ذاته . مستقل عنه . قائم بذاته . واذن فالرجل المفكر الذي يجعل من نفسه موضوعاً لتفكيره يفصل عن ذاته شيئاً كان جزءاً منها . واعتراف المرء بكيان مستقل للفكر وللأشياء يعني ضمناً أنه يعترف ايضاً ان لا بد له في وجودها وكيانها . وهذه الصفة ... الاعتراف بكيان مستقل للفكر وللأشياء وانها خارج اطار الذات -- من الصفات التي تتميز بها النظرة الفلسفية الاوربية الى الحياة والكون . ولكن هنالك مقابل هذه النظرة نظرة اخرى تأخذ بها شعوب اخرى ترى ان اشترك النفس بما يقيق بها من فكر وأشياء أولى من عزل النفس عن العالم المحيط بها والانصراف الى التأمل في ما تخلفه الحياة من البؤس والشقاء والذي تسفر عنه هذه التأملات حقائق تخفي الذات التي خلقتها ولا تتجاوب مع الذات التي تتصل بهذه الحقائق (نظرية ، او سيدّ او آلة صناعية) . ولم يك الاسباني يوماً ليهم بهذه الأمور لأنه لا يميل كثيراً الى التفكير ... وكما الملح الى ذلك الوزن دي بلنسية في القرن الخامس عشر . بكلام آخر فان الاسباني مهما امعن في التفكير فانه لا يستطيع ان يعنو لضرورة الانفصال انفصلاً تاماً عن ذاته حتى ولا عن رغائب جسده . لقد ألف النطونيو دي نيرينا - وهو اعظم عالم انساني في اسبانيا - جداول رياضية يستطيع الناظر فيها ان يحسب فوراً الاوقات الفلكية . وليس هذا فقط بل يستطيع أن يعرف الوقت في مختلف المدن الاوربية . لكنه يقول صراحة في المقدمة التي كتبها لهذه الجداول ان الدافع الوحيد الذي حفزه للقيام بهذا

العمل هو أن يتخلص من راهب صديق له كان يزرعه دوماً بالسؤال عن الوقت كلما طرأ عطل على ساعته . فالفكر عند الاسباني شيء يجب ان يتحد ويمتزج امتزاجاً كلياً بحياة المرء كلها ومن جميع نواحيها . وهذا مما لا يدع مجالاً للتفكير المجرد وافراض النظريات وهو يفسر لنا لماذا لم يظهر من الاسبان فلاسفة مبدعون اضافوا شيئاً جديداً إلى جماع الفكر الانساني . ولندكر هنا ان فكرة الخلود عند ميكال دي اونا مونو كانت تعني ضمناً الخلود المادي ، اي بقاء جسده خالداً ، وربما الثياب التي ألبسوها جثته .

ان الاسباني يؤثر التعبير الحميم الدافئ عن نفسه وعن مشاعره على متطلبات التفكير المطلق البارد . ولذا تراه ، عند التعبير عن نفسه وعن مشاعره ، يكثر من الاشارات والحركات ويلجأ الى التشبيه والمجاز . واذا كانت الاشارات والحركات التي يقوم بها الاسباني عند التعبير ذات قيمة خاصة كما الملت الى ذلك في مكان آخر (٧) فلأنه يعنى بتثقيف النفس وتأديبها اكثر منه في الانطواء الفكري . فليس في نظر الاسباني من قضية يمكن اعتبارها قضية عقلانية مجردة حتى ولا قضية وجود الله . على اننا نجد من ناحية اخرى انه يعنى غاية العناية بكل ما له علاقة بأسلوب التعبير عن النفس والمشاعر . فالتعبير والأسلوب التعبيري عنده قضية هامة وخطيرة . وقد نقل الينا انطونيو بارترز جملة يعزونها الى دوق ألبي « عن الحياة او الشكل الذي يجب ان يظهر به الرجل في الاماكن العامة والمواقف الرسمية » . يقول الدوق : « اذا خرج الرجل من بيته واضياً الدثار (Cape) حول عنقه وكثفيه فان هذا للدليل على انه في المواقف الرسمية سيخفي شيئاً من عواطفه وسيكبح من جماح طبعه . وله عندما يعود إلى بيته ان يترعه لكي يستريح ويعود إلى سجيته في التعبير عن ذاته . فوتر القوس يجب ان يُحْمَلْ كشي يرتخي عود القوس فيستريح » (٨) ولكن عواطف الاسباني ومشاعره المتأججة هي دائماً في داخله نائرة كانت أم ساكنة .

والآن دعنا نُوغِل في سبر اعماق هذه الحياة الداخلية . يستعمل الاسباني فعل Amanecer أي أصبح وفعل Anochecer أي أمسى . واننا لا نعرف

لغة اوروبية تصرف هذين الفعلين مع الضمائر فلا يقال مثلاً (في اللغات
الاوربية) « يذهب الرجل الى فراشه معافى فيصبح بارداً ، اي ميتاً » وهي
جملة وردت في كتابات احد كتاب الاسبان في القرن الرابع عشر . وهذه
الظاهرة تظهر ايضاً في اللغة البرتغالية .

ونحن مدينون في اكتشاف السر في هذين الفعلين الغريبيين اللذين تنفرد
الاسبانية في استعمالهما بمعنى اصبح وامسى الى الف لومبارد الذي يقول لنا انهما
دخلتا الاسبانية من العربية . فان « اصبح » تفيد دخل في الصباح ، واختبر في
الصباح وادرك في الصباح او صار كيت وكيت في الصباح ، أي أن العربي عندما
يقول « اصبحت » فكأنه يريد أن يقول « عشت الصباح » وكذلك فعل امسى
أي دخل في المساء « وعاش المساء » ومسى تعني في العربية حياً تحية المساء
داعياً لصاحبه ان يكون مساوؤه مساءً خير (٩) . وهو مثال آخر على التلقيح
الفكري الذي حصل بين العرب والاسبان : فعل رومانسي ليبر عن ظاهرة
من ظواهر الحياة الداخلية عند العرب . وهذا امر ذو اهمية كبرى في تفسير
الخاص للتاريخ الاسباني . لان تلقيح العربية للغة الاسبانية لم يقتصر على الأمور
المللموسة والمحسوسة بل تعداها الى الاختبار الداخلي الروحي . فان الاسباني
بدلاً من أن يقنع بملاحظة الظواهر الطبيعية وادراكها فان نفسه تُغيّر الظواهر
الخارجية التي يلاحظها ويجعلها تستحيل الى احساس من صميم نفسه ، وجوهر خلقه .
اي انها لا تبقى مؤثرات خارجية بل تتحول الى امور تتفاعل داخلياً مع نفسه
تفاعلاً حميماً ، بحيث يسهل على الاسباني ان يقول « صادفني الليل » وصادفت الليل .

ان تعريف فعل Amanecer (اصبح) مع الضمائر — وهو استعمال
تنفرد به الاسبانية عن سائر اللغات الرومانسية — يجب الا ينظر اليه انه مجرد
أثر خارجي من آثار اللغة العربية في اللغة الاسبانية . ففي اقتباس اللغة الاسبانية
لهذا الاستعمال دلالة واضحة على أن نوع الحياة الروحية الاسبانية المسيحية
ينطوي على شعور مرهف بقيمة الذات ، بقيمة الفرد ، والا لَمَّا امكن ان
تتجاوب الاسبانية مع العربية تجاوباً روحياً يجعل الاسباني يقول كما يقول العربي

« اصبحت وامسيت » . وهذه الدوافع النفسية في الرجل الاسباني التي لا تعرف حلوداً او آفاقاً تقف عندها هي التي كانت دوماً تغذي الفردية العنيفة التي تتميز بها الحياة الاسبانية . وعلى ذلك فقد اقتبس الفردُ الاسباني عن العرب والعربية تلك النواحي التي كانت تتعاطف وتتجاوب مع الاوضاع الحيوية الاسبانية . وهذه الاوضاع والمهام والامكانات تكونُ الاطار المادي للحياة وهذه بلورها تعود فتخلق مزيداً من هذه الاوضاع والمهام والامكانات . ولذا تستمر قوالب الحياة المادية بعناد تحفزها الظروف ، وتكون قوالب الحياة ذاتها في الوقت نفسه حافزاً لخلق ظروف اخرى . ومن العجيب ان برثولومي دي ارجنزولا (١٥٦٢ - ١٦٣١) كان يشعر حتى في عصره بدفق بحوية الوعي الذاتي في فعل Amanecer (اصبحت) مصرفاً مع ضمير المتكلم حيث يقول بلسان لوسيفر المتغطرس : قال الواحد المتكبر قديماً ، معبراً عما في نفسه :

« انا اشرف المخلوقات ، أنا الذي « اصبحت » ينبوع بهائي ومجدي . »
عندما سأتكلم بعد قليل عن رئيس كهنة هيتا ، سأشير إلى أن العربي يستطيع ان يتحول بسهولة فائقة من حقيقة الشيء الداخلية الى صورته الخارجية . وهكذا ينتقل بسهولة من الذاتي الى الموضوعي ومن الموضوعي الى الذاتي . فان وجهي الحقيقة عنده بمثابة شيء واحد . ويبين ان الصباح والمساء كياناً موضوعياً ، اي انهما شيان محسوسان ، ولكن الصباح والمساء في الوقت ذاته هما ما يتحسسه المرء فيهما وما يختبره بهما ، ولذا يقول العربي اصبحت غنياً وامسيت فقيراً . فالصبح والمساء هنا اختباران ، اي وجه واحد من الحقيقة . فان حقيقة الشيء على انه شيء وحقيقته على انه اختبار في نظر العربي شيان متداخلان متشابكان كما في زخرف عربي لا نهاية له ، وهو يتصورهما معاً عن طريق الاختبار الحسي لا عن طريق التمييز العقلي .

ان للحقيقة « نفساً وروحاً » والمرء لا يجرد ذاته كلياً من الامور التي ليست شخصية (Non-personal) لان هذه الامور التي ليست شخصية لا كيان لها بمعزل عن الشخصية ولذا كان فعل Amanecer (اصبحت) ظاهرة عظيمة

الأهمية ، ظاهرة موضوعية وذاتية معاً تتغلغل فيها عواطف المرء وتنسل إليها مشاعره عن طريق اختبار أحبّ ان ادعوه « هجيناً » . فان الاسباني المسيحي باقتباسه هذه الظاهرة الداخلية عن العرب يشعرونا انه متى احس في قرارة ذاته بان ما يقتبسه يلائم احساساته ومشاعره فانه لا يتهيب منه كما انه لم يتهيب عندما اقتبس عادات خارجية اخرى مثل تقبيل اليد وغسل الميت والجلوس القرفصاء على الارض ونحوها .

يستطيع شاعر عربي اندلسي أن يقول :

أكر على الكتبية لا أبالي أحتفي كان فيها أم سواها
ويقول شاعر آخر : « ان قرى اشبيلية تفوق سائر القرى جمالاً » وبهاء
بمبانيها والعناية الفائقة التي يشملها بها ساكنوها من الداخل ومن الخارج » . (١٠)
فالعبرة العربية « في داخل الطعان او خارجه » و « من الداخل ومن الخارج »
تعكس لنا قلقاً جذرياً ورغبة ملحة للاحاطة بالعالم من الداخل ومن الخارج
ولاكتناف الشخص الذي يدرك الكون كوحدة . فالحقيقة اذن هي الحقيقة كما
يعيشها الفرد بكيئته ، لا كما يدركها العقل موضوعياً . ان الغربي ينظر الى النهار
على انه قدر من الوقت يجري خارج اطار النفس ، لكن العربي يقول : « سافر
نهاره وعاد مساءه وامسى نهاره » . (١١) وهذه العبارات على ما تعكسه من
مظاهر روحية داخلية تعيننا ايضاً على فهم العبارة العربية « ابن الايام » التي
يطلقونها على الرجل العالم الفهم الذي اختبر الدهر . وقد يكون الانسان « ابن »
أو « اباً » أي شيء يحيط به (كما في الكلمة الاسبانية المأخوذة معنى من العربية
nijodalgo اي ابن النبل والشرف) . وكما في كنية الخبز في العربية اذ
يسمى « ابو جابر » . وامثال هذه التعابير التي تضفي على الاشياء صفة
شخصية ، كثيرة مألوقة في الادب العربي (١٢) .

واذا تركنا حقل اللغويات جانباً وذهبنا الى حقل آخر ، حقل الفن ، فانا
سنجد امثلة تشبه هذه الظاهرة . فقد اشرت منذ سنوات خلعت الى ان الكاتب
الاسباني او الفنان الاسباني يميل احياناً الى عزل الحالة او البيئة التي يجد فيها

موضوعاً لفنه عن الموضوع ذاته . حتى ولا عن عملية الخلق الفني نفسه . بل هو يجمع في عمله الثلاثة معاً : البيئة او الحالة ، والموضوع ، والقطعة الفنية المخلوقة ، مما يعكس لنا رواسب الافكار والمشاعر التي كانت تدور في رأس الفنان وقلبه . ففي صورة « الوصائف » (Las meninas) بريشة فيلكاز ، نجد المنضدة او السبورة التي يضع عليها الرسام لوحته ، واللوحة الخشبية التي يضع عليها الوانه ، بل لا يفوته ان يرسم صور بعض الحضور الذين كانوا في مشغله يراقبون عملية الرسم . (١٣) وقد قلت في دراسة سابقة لي اني ارى في هذه الظاهرة نوعاً من البدائية لا تميز بين الآلة والناس والعناصر ولا تقرر المكان اللائق بكل منها . وهذه الظاهرة تنطبق ايضاً على « قصيدة السيد » حيث نرى الأسطورة تمتزج امتزاجاً كلياً بالاختيار الآن ، وحاولت ، آنَ ذلك ، أن اربط بين هذه الظاهرة وبين الأساليب العصرية الجديدة واشرت الى أنها تبلغ ذروة التمام عند سرفانتس حيث قلت « ان في قصيدة السيد ، على بعدها عنا في التاريخ ، لوميضاً يشير بالقصة العصرية . » (١٤)

عندما أشار اوبري ف.ج. بل (Bell) الى الدراسة التي قمت بها حول القديسة تريزا اطلق على هذه الخصائص الاساسية التي تتميز بها العبقريّة الاسبانية اسم « النزعة التوحيدية » Integralism . وكان الاديب الانساني الوزو لوبز بنتشيانو قد قال سنة ١٢٩٦ ان « الكتاب لكي يكون كتاباً بحق يجب ان يتجلى فيه كاتبه بكليته » اي روحاً وعقلاً وجسداً . وهذه العبارة كما يشير بل (Bell) بحق يمكن اعتبارها الشعار العام للادب والفن الاسبانيين (١٥) . وقد ابدى كارل فوسلر مثل هذه الملاحظات دون ان يكون له سابق علم بما ابديته انا او غيري في هذا الموضوع والحق اننا نحن ، الذين درسنا الخصائص الاسبانية قد اكتفينا من هذه الظاهرة بالاشارة اليها وبابداء حكم عليها ، سواء اكان هذا الحكم في صالح الفن والادب الاسبانيين اللذين تمثل فيهما « النزعة التوحيدية » او الواقعية ام كان ضدّهما (١٦) . ولكن فائنا ان الادب والفن ، بالرغم من اهميتهما في حياة الجماعة ، ليسا سوى مظهرين من مظاهر الحياة ونزعاتها .

او بكلام آخر ان الفن والادب الاسبانيين انما هما ناحيتان من واقع الحياة الاسبانية التي احاول ان ارسمها .

اما مدى ما يمكن اعتبار النزعة التوحيدية التي تتميز بها الحياة الاسبانية الروحية نتيجة لتوطن العرب واليهود شبه الجزيرة الاسبانية قروناً عديدة فأمر سيظهر لنا شيئاً فشيئاً كلما حاولنا الايغال في الاعماق التاريخية . وهو عمل ليس من الحكمة ان نقوم به على وجه السرعة ، او أن نهمل بعض فروعه ولواحقه . لقد رأينا في الفصول السابقة ، لا سيما في الفصل الذي خصصناه لاعتقاد الاسبان بستيغو ، كيف ان مؤسسي اسبانيا كانوا مرغمين على ان يكييفوا حياتهم بما يلائم الحياة العربية الاسلامية لكي يأمنوا البقاء اولاً ، وليستأنفوا النضال ثانياً . وقد استطاعوا البقاء بفضل وفرة نشاطهم وزخم حيويهم وسُمُو إيمانهم لا بفضل اعمال قاموا بها عن طريق العقل والتكر . وبكلام آخر لم يلجأوا إلى العقل لاستنباط وسائل يحلون بها مشاكلهم . ولو ان حدة حماسهم الديني وتعصبهم الإعمى لمعتقداتهم اصابها شيء من الفتور ، لفسح المجال للعقل والفكر المادئ ليحل محلها في حياة الاسبان لكان قضي قضاء مبرماً على ستيغو وعلى كل شيء يدور حوله . لان زعامة ستيغو لم تكن معتقداً بدائياً يعتنقه السذج ، كما شاع بين الناس ، بل كان الاعتقاد بستيغو حجر الزاوية الذي كانت تقوم عليه الملكية في اسبانيا . ولكي نفهم فاعلية هذا الاعتقاد في حياة الاسبان اود ان اشير إلى شيء حدث في حياة الافرنسيين يشبه هذه الظاهرة في حياة الاسبان تمام المشابهة من ناحية ويغايرها تمام المغايرة من ناحية اخرى — اود أن اشير إلى « عيلة قيام الدولة » (*raison d'état*) كما كان يفهمه ملوك فرنسا في القرن السابع عشر الذين انخضعوا كل شيء لحكم العقل وجعلوا بالتالي كل شيء جامداً ثابتاً (*Static*) مبتدئين بالدين منتهين إلى اللغة . فان ملوك فرنسا ومستشاريهم حرصاً منهم على الاتقع فرنسا في فوضى اجتماعية ودينية حاولوا اغراق غرائز النفس الافرنسية المتوقدة في نهر من العقلانية والاماليب الموضوعية . وتحقيقاً لذلك لم يتورعوا عن ان يضحوا بكل شيء

من انطلاقة الشعر الى عفوية اللغة . فقد ألبسوا فرنسا ستره ضيقة كانت تشد على اضلاعها لكنها تبلى للناس بحكم الظاهر في ثوب جميل . وهكذا انتصرت العقلانية في فرنسا ، ولم تستطع الميول الاساسية في حياتهم ان تنجو من قوانين « الحكمة » (Sagesse) كما يتجلى عند رابليه ، او في الغرائز الجاحشة او فورة تلقائية ؛ فقد خضعت جميعها لسلطة العقل والفكر .

وكما ان حرية القلب او المشاعر قد كبئت في فرنسا وكبح جماحها- الا في حالات قليلة شاذة - هكذا كانت حرية التفكير والابداع العقلي في اسبانيا المسيحية . فان الحياة التي ابدعت ذلك الايمان القوي الراسخ الذي نجى اسبانيا وخلصها ، راحت الآن تبني حوله سياجاً يمنع عنه كل نور ويدراً عنه كل اذى . فقد كانت الغاية القصوى التصرف الحسن والسلوك الحميد لا العقل المستطلع ولا العقل النفاذ . وعلى ذلك فقد اصبح التوكيد في بلاط الفونس العالم وفي بلاطات اخرى على صيانة الاخلاق والقوانين وعلى تنميتها والتمرس بها . فاشتهرت جامعة سلامنكا منذ القرن الثالث عشر وما بعده بدراسة فقه القوانين والشرائع بينما لا نثر على ذكر اللاهوتي شهيرا وفيلسوف لامع تولى التعليم في تلك الجامعة خلال العصور المتوسطة . والواقع ان المركز العلمي الوحيد الذي عرف بنزعه العقلانية انما كان معهد الدراسات للحضارة الاسلامية في طليطلة . فـ « عند الباريسيين تزدهر العلوم الثلاثة : الصرف والنحو والبلاغة والمنطق ، وعند اهل طليطلة تزدهر العلوم الاربعة : الحساب والهندسة والفلك والموسيقى ، واشتهر اهل سالرنو بعلوم الطب ، واهل بولونيا بعلوم القانون . » (١٧) وهكذا نرى في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ان طليطلة كانت تتزعم المعاهد العلمية في حقول هامة مثل الرياضيات والهندسة والفلك والموسيقى . وبعد هذا بقليل عندما عزم الفونس الثامن على انشاء مركز للدراسات العلمية وجد انه يستحيل عليه أن يطلب من العلماء المسلمين ان يعاونوه في تحقيق المشروع لان قشتالة كانت غير الأندلس . وكذلك كان يستحيل عليه أن يلجأ إلى العلماء الأسبان المسيحيين لا لسبب سوى انه لم يكن بينهم اكفاء لتولي هذه المناصب التدريسية .

وعليه فانه أرسل سنة ١١٨٥ في طلب اساتذة وعلماء من « فرنسا ولومبارديا ليعلموا في مملكته حتى لا ينجو قيس المعرفة عنده فانه حيث تنشأ المدارس وتؤسس مراكز العلم والمعرفة يهيئ الله السبل المستقيم لعباده . وبهذه الطريقة نستطيع ان نحسن حالة الفروسية ونأخذ بيدها الى الامام » . (١٨)

الفرق في النزعة التوحيدية بين الحياة

الاسبانية والحياة الاسلامية

انه لمن الواضح أن اسبانيا المسيحية لم تحذو حذو الحياة الاسلامية في الأمور الفكرية العقلية او في الأمور التكنية . ويكتفينا من الأمر ان نقول بان العلاقة بين الشعبين الاسلامي والاسباني لم تكن علاقة استاذ بطالب . واضيف بهذه المناسبة انه بالرغم مما قد يتجلى في بحثي من اوجه الشبه في التركيب الحياتي الأساسي لذين الشعبين فليس هنالك ما يحتم علينا القول بان نتائج هذا الشبه في التركيب الحياتي يجب ان تكون متشابهة ايضاً . فان ناموس العلة يخوننا هنا اذ هو لا يعمل في هذا الحقل الروحي . ومهما يكن من أمر فان عناصر الحضارة الاسبانية التي نعتنى بها في تلك الحقبة من تاريخ اسبانيا لا تهمننا بقدر ما تهمننا ما تلقى عناصر هذه الحضارة من الاضواء على ما اسميه مجازاً -- واصر كثيراً على هذه التسمية -- اطار الحياة او المسكن الذي يضم الحياة . فليس الذي يهمننا أن نرسم صورة جامدة ثابتة بل ان نتبين عملية حياة محملة بضروب الامكانيات (وعدم الامكانيات) التي في حال تحقيقها في الزمان والمكان تشكل جوهر تاريخ الأمة .

ونحن إذا اطلقنا على اوجه الشبه المشتركة بين الاسبان والمسلمين « النزعة التوحيدية » فان هذا لا يعني ان لهذه النزعة نفس المفعول في التركيب الحياتي عند الشعبين . وقد عبر شكسبير عما اريد ان اقول في رواية هملت :

« نعرف ما تستطيع الندامة ان تفعله ؟ جرب ! اي شيء لا تستطيع الندامة تفعله ؟ ولكن ما نفع الندامة وما نفع ما تفعله إذا كان المرء لا يريد أن يندم ؟ » هذا هو الفرق بين الفكرة كمجرد فكرة وبين تحقيقها عملياً ، اي تحقيقها تحقيقاً حياتياً . فكل الشعوب اللاتينية كاثوليكية المذهب ، لكن كل امة منها تحيلاً كلاكيتها على نحو يختلف فيه عن سواها . فالقديس فرنسيس الساليسي لا يمكن أن يكون اسبانياً كما أن القديس اغناطيوس لا يمكن أن يكون افرنسياً . وديكارت وهيجل كلاهما فيلسوفان ، ولكن قبل ان يشتركا في كونهما فيلسوفين كان الواحد منهم افرنسياً والآخر المانياً . كذلك كلا الشعين الاسباني والعربي بصرفان فعل « اصبح » و « امسى » مع الضمائر لكن الاسباني عندما يقول اصبحت وامسيت فانه لا يقرن الوعي الشخصي بظاهرة الصباح كصباح والمساء كمساء ، اي أنه لا يقرن ذاته بالظاهرة الطبيعية كما يفعل العربي . والعرب والاسبان يتفقان كشعين في استيعاب العالم المحيط بهما وضمه إلى الوعي الشخصي ، ولا يستطيعان ان يتجردا عن انطباعاتهما ومشاعرهما وعقائدهما بيسر . ومن هنا كان الشعيان يقاومان كل تغيير وتجديد ويحرصان على الاستمسك بالعرف والتقليد . يومهم كاسهم وغدهم كيومهم ، لا فرق في ذلك .

وبالرغم من اوجه الشبه بين الاسبان والمسلمين فان الشعين كانا في وضعين مختلفين اي ان الإطار الحياتي او المسكن الذي تقيم فيه الحياة — حيث تتحد قوى العقل ووعي الموضوعية والذاتية — عند احد الشعين غيره عند الآخر : فالعربي في تعبيره عن وعيه لكيانه يبدو وكأنه في حالة تحرك وجريان ، وكأنه العالم الذي يعيش فيه سيل يجرفه معه . فهو لذلك لا يتصف بالثبوت او الاستقرار . مثال ذلك ان الرجل قد يسمع مغنياً او مغنية تغني فيحرك الغناء اشجانه ، فيقفه ويصغى ، ثم يعبر عن شعوره بقوله :

« لا تعذلوني على القلب إن صيد فؤادي بصوت تغريد »

طوراً جليد وتارة طرب كالعود منه الزوراء والعود (١٩) .

واذن فكيفان المسلم كيان لا يعرف الثبوت ولا الانسجام فالشاعر يستعمل

لقطة « القلب » ليعبر بها عن التغير الذي يطرأ على المشاعر والرغائب ، والقلب من القلب اي التغير ، ومن اللفظ ذاته يشتق القلب الذي هو مركز الشعور والعواطف . هذا مثال من امثلة كثيرة يرينا كيف تستطيع العربية ان تعبر عن تركيب حياتي متغير متقلب . فالنزعة التوحيدية عند المسلم ، فاذا لم اكن على خطأ في التقدير ، تعني شعوره بانه في حالة تحرك وجريان وتغير مستمر في هذا الكون الانساني — المادي الذي اوجد فيه فهو دوماً في حالة تجديد وصيرورة . واني لاتصور الكيان كنهر يشعر ان ذاته تتحقق في انحداره الدائم نحو البحر كما في المجرى الذي يسيل فيه . فكيان النهر اذن نزعة توحيدية تتألف من البحر ومن النهر في الوقت ذاته :

والان نستطيع ان نلوك لماذا كان المسلم يُعنى عناية خاصة بالكيمياء أي بتغيير العناصر من حالة الى حالة اخرى ، ولماذا كان يهتم بأثر النجوم في طوابع البشر ومقدراتهم ، ولماذا راقب له المدرسة الاسكندرانية او الافلاطونية المستحدثة ونظرية الانبثاق ، ولماذا كان يجب ان يرى الاشكال المرئية ذات الاشكال المحدودة تستحيل الى نماذج من رسوم وصور . ولا شك ان العربي كان يجد مسرة وبهجة تتعدى النفع المادي في شقّه تُرعاً واقنية للري تشبه الزخرف العربي — الأرابسك — في تداخلها وتشابكها وتعرجاتها . وانه كان يرى متعة وروعة في تتبع دورة النبات من بنة الى نبتة فثمر فبنة (٢٠) ويراقب المياه تجري في الأقنية والترع كما تجري في انايب آلة التقطير او كما يسير المسافر على وجه الأرض من قطر الى قطر ، وقوافل الناس وعاداتهم تتوالى على انماط لا حصر لها . (٢١)

أما الحياة الاسبانية الحقيقية فكانت تختلف عن حياة المسلم اختلافاً بيناً كما سيتجلى للقارئ تباعاً فيما بعد . أما الآن فيحسن بنا ان نترك الاسباني جانباً وان نركز اهتمامنا على المسلم ذاته وعلى حياته .

عندما خرج العربي المسلم في القرن السابع الميلادي من الجريزة العربية واستوطن مواطن الحضارة الهلينية في مصر وسورية وبلاد فارس واتصل

اتصالاً وثيقاً بمعامل الفكر في هذه البلدان اخذ في اقتباس النواحي الفكرية التي فيها امكانات تتجاوب مع تركيب حياته الاساسي . وانا نلاحظ اثناء تفاعل الحضارة الفارسية مع الفكر العربي بعض حالات كان العربي يبدي ازاءها فضولاً عقلياً ، وكان يُعجب بالناحية التقنية العملية لهذه الحضارة . ولكن يبدو ان مجال الاشتراك في خلقها او تمثيلها كان اعسر مما يستطيعه جوهر الحياة الإسلامية او تركيبها الخاص . وقد بلغت قرطبة شاوياً بعيداً في التقدم الحضاري نظير ما بلغته بغداد سابقاً في المشرق . فاذا كان العرب في المشرق وفي الأندلس والمغرب قد استطاعوا ان يمثّلوا عناصر حضارية غريبة عن تركيب حياتهم الاساسي ، فلماذا ، اذن ، لم يجدّ الأسباني المسيحي حلو المسلم الذي كان يهتم اهتماماً شديداً بقضايا الفكر ؟ إذا كان العربي قد استطاع أن يتجاوب فكرياً مع حضارة غريبة عنه لماذا عجز الأسباني المسيحي عن مثل ذلك ؟ انه لسؤال دقيق مُخرج ولكنه سؤال يتناول جوهر المشكلة التي احاول درسها .

وليسمح لي القارئ هنا أن اقلل اليه كلام رجل ثقة كان له من الاطلاع ما يؤهله لأن يتكلم بلسان الأسباني المسيحي . هذا الرجل هو الأمير جوان مانويل حفيد الملك القونس العالم . يقول هذا الأمير في كتابه : Conde Lucanor :

« سأتكلم عن امور اشعر انها نافعة للمرء مجدية في خلاص نفسه ومفيدة في تحسين حالته الجسدية وفي الحفاظ على شرفه وصون ما تملكه يده . وبالرغم من أن هذه الأمور التي سأتكلم عنها ليست اموراً عميقة خفية في حد ذاتها كعلم اللاهوت والهندسة والميتافيزيقيات والفلسفة الطبيعية والاخلاقية وغيرها من العلوم الجلييلة العميقة ، أقول ، بالرغم من انها ليست على شيء من هذه الخطورة فانها في نظري احرى بالمعالجة لأنها اوفر نفعاً لي واجدى لامارني فكلامي عنها اولى من كلامي عن غيرها من القضايا . » (٢٢)

ان الرجل الأسباني الحقيقي كان دوماً يعي ما يصنعه وعياً صحيحاً ويدرك الدوافع التي كانت تدفعه الى العمل ادراكاً تاماً . وكان يعلم ان هنالك قضايا فكرية في حقول أخرى ، لكنه لم تنشأ عنده رغبة في النفاذ اليها . ومن كلام

الأمير جوان مانويل نستدل بوضوح على أن فكر المرء لا يمكن عزله عن الشعور الواعي بمكانه من موطنه الحيوي ، وبما أن الفكر الأسباني لم يستطع - أو لم يشأ - أن يعزل نفسه عن هذا الموطن الذي تقيم فيه الحياة ، لذلك لم ينجح في الارتفاع إلى أعلى من صعيد الحاجات الآتية والرغائب الجسدية القريبة . فانه اذا لم يكن في البيت زيت ثقلي به بيضة فأول ما يتبادر إلى الذهن ان المشكلة الآتية مشكلة ايجاد الزيت . اما ما هو الزيت ، وما هي خصائصه ، وشعورنا باننا لا نعرف ما الزيت وعملنا فكراً على سد هذا النقص في المعرفة ، فأمرنا تختلف اختلافاً تاماً عن المشكلة الاولى ، مشكلة ايجاد الزيت لثقل البيضة . ان الفكر المجرد المطلق يستطيع ان يبقى بمعزل عن الدوافع وعن النتائج المترتبة ، وعملية التفكير هي دوماً عملية حل للمشاكل من البدء الى النهاية . والرجل المفكر يضع جانباً جميع الاعتبارات التي لا علاقة لها بتفكيره مبتدئاً بكيانه الخاص . فالتفكير يجب أن يكون تجرداً وانعزالاً ، وهذا ما لم يكن الأمير جوان مانويل يرغب فيه عندما كان يفكر . اذ كان يرغب في أن يكون تفكيره اولاً في الحفاظ على امارته ، اي الحفاظ على كيانه الخاص بوصفه الأمير جوان مانويل .

لكن القارئ الذي يحب التفصي سيسأل السؤال الذي سألناه نحن : لماذا لم يحذُ الأسباني حذو المسلم فيقلده في نشاطه الفكري مع العلم انه كان في شبه جزيرة ايبيريا فلامسقة مسلمون واطباء وعلماء في النبات ؟ لماذا لم يُبدل الأسباني بين القرن العاشر والثالث عشر ميلاً محسوساً الى تعهد العلوم النظرية والفنون العملية ؟ ويزداد السؤال تعقيداً وخطورة عندما يذكرنا التاريخ بان الأسبانيين من ابناء مقاطعة الأراغون وقشتالة كانوا يسيطرون على مناطق متسعة في ايطاليا بل وفي بلاد اليونان وذلك من اواخر القرن الثالث عشر الى اوائل القرن الثامن عشر . وللقارئ ان يضيف الى هذه الممتلكات الأجنبية - إذا كان ما اشرنا اليه ليس كافياً - مقاطعة فرانك كومت (مقاطعة في فرنسا) التي سيطر عليها الأسبان من ١٥١٩ - ١٦٧٨ واخرى في بلجيكا حتى عام ١٧١٣ .

وإذا كان البدو الذين انطلقوا من الجزيرة العربية واحتلوا مواطن الملية في سورية ومصر وفارس استطاعوا ان يمثلوا العلوم الاغريقية وأن يقتبسوا عن انوارها فلماذا لم يستطع الأسبان ان يقلدوا الايطاليين والبورغنديين والبلجيكيين في نشاطهم الفكري ؟ وأول جواب يتبادر إلى ذهن الانسان ان مشاكل التاريخ — اي مشاكل الحياة الانسانية — لا تفسر بالجدل القياسي ولا بالمقالات العابرة . وفضلاً عن هذا فإن الشعب الذي يتروح ويتوطن بقاعاً اخرى لا يستطيع ان يغير اتجاه سيره الذي تحدده له سجيته وفطرته الاولى ، وهو كشعب لا يستطيع أن يفعل شيئاً لا يتناسب مع تلك السجية وتلك القطرة مهما كانت طبيعة تلك السجية قابلة للمط والتكيف . ويجب الا تخطئ فتمزج بين الحركات التاريخية التي حدثت في الاسلام والتي لها صلة وثيقة بجوهر الحياة الاسلامية وبين ما طرأ على هذا الجوهر من تغيير أو تلاش . فان العربي الذي ترك الجزيرة في القرن السابع وتوطن بلداً اخرى ظل محتفظاً بلغته مع ما كانت عليه بغداد في المشرق وقرطبة في المغرب من الجلال والابهة . « وفي عصرنا هذا لا تزال بعض القبائل العربية تحتفظ بالاسماء التي عرفت بها في القرن السادس للميلاد ... والقبائل البدوية في الجزيرة العربية بالرغم من التغيير العظيم الذي أحدثه فيها الاسلام وبالرغم من الانقلابات العظيمة التي أحدثتها العلوم الغربية التكنية في حياتها لا تختلف اليوم بشئ عن القبائل العربية قبل الاسلام . » (٢٣)

ان اشتغال العرب بالعلوم جاء عرضاً ، ولم يكن لاشتغالهم بها اي اثر في تغيير مزاجهم او سجيتهم . فقد ظلت اعتقاداتهم الدينية غير منسجمة في طبيعتها مع النشاط الفكري العلمي الذي ابدوه . ولم يحرزوا من التقدم ما احرزته شعوب اخرى انطبعت بالطابع الاغريقي الروماني الجرمانى . وقد عالج هذه المشكلة المستشرق الألماني بيكر في كتابه الموسوم بـ « تراث القدماء في المشرق والغرب » . حيث يسأل نفسه : كيف تم للفكر الاغريقي الذي لم يفهمه الغرب فهماً صحيحاً ان يحدث في العرب اعجوبة الاحياء الفكري ، بينما قصر في المشرق عن احداث ذلك الأثر (ص ٣٢-٣٣) . ويحجب بيكر عن سؤاله بقوله :

« ان وضع الشرق التاريخي والجغرافي والخلقي لم يوجه العرب الى الاهتمام بالمؤلفات الأغريقية إلا لما فيها من حقائق عامة يمكن أن تطبق على العقليّة الشرقية - وبالدرجة الأولى تلك الحقائق العامة التي يمكن الاستفادة منها في المناقشات الجدلية ». لكننا قد نكون اقرب إلى الصواب والدقة إذا اعتبرنا هذه المشكلة من ناحية جوهر الكيان الإسلامي . فقد كانت معرفة العرب بالآغريق في القرن التاسع والعاشر أجود من معرفة الايطاليين بهم في القرن الرابع عشر . ومع ذلك لم يطرأ على نظرة المسلمين للعالم وللكون أي تغيير اسامي ، وذلك لان حياة الناس في جوهرها لا تتألف من المعرفة والعلم والحضارة بل تتألف من الأثر الذي تركه المعرفة والعلم والحضارة في جوهر الحياة . او كما قلنا سابقاً في المسكن أو الأطار الذي تقيم فيه الحياة .

لقد اقتبس بعض المسلمين اساليب التفكير واخذوا الصنائع والفنون عن الشعوب التي غلبوها على امرها - المصريين والسوريين والفرس . وجميعهم كانوا قد اخذوا بالحضارة الهلينية وتأثروا بروحها تأثراً عميقاً . ولكن لم يخطر على بال مسلم عربي ان يعيد احياء هوميروس الشاعر أو سوفوكليس أو بندار أو أرسطوفانس (٢٤) لا لسبب الا لخشيته من أن تحدث ترجمة هذه الروائع في نفوسهم اثرأ يبعد بينهم وبين جوهر حياتهم الخاصة ، ويجردهم من حقيقتهم الانسانية . وشبهه بهذا موقف الكتاب الايطاليين في العصور المتوسطة . فانهم كانوا يعرفون الملحمة الافرنسية الخالدة « Chansons de Geste » حتى أن بعض الكتاب الايطاليين كانوا يكتبون باللغة الافرنسية ، ولكن بالرغم من هذا كله فانهم لم يتنجسوا لنا ملحمة ايطالية ، اللهم الا اذا اعتبرنا بعض اشعارهم وقصائدهم الهزلية المجوئية من نوع الملاحم !

من يقرأ تاريخ الخليفة العباسي ، المأمون ، (٨١٣-٨٣٣) يتبادر إلى ذهنه لأول وهلة انه أمام حاكم من حكام القرن الثامن عشر حاكم عادل مستبد نير العقل . وقد سماه أحد افراد بلاطه « امير الملحنين » (٢٥) وكانت أم المأمون فارسية الأصل وزوجته امرأة فارسية . ولم يكن المأمون يسير على النهج

الاسلامي القويم : السنة ، بل كان يظهر جنوباً نحو تعاليم اصحاب البدع : ففي سنة ٨٢٧ سن قانوناً لمعاقبة الذين يؤمنون بان القرآن غير مخلوق ، وانه ازلي الوجود مع الله . وفي عهد خلافته وُفق العلماء إلى قياس قوس انحناء الأرض ، واحرزوا تقدماً في الفلك والطب ، وكان هذان العلمان قد ازدهرا في هذه البقعة قبل الفتح الاسلامي . ومع ذلك فقد عمل المأمون على ترجمة ارسطو إلى العربية ، ولم يكن ذلك يدافع الحب المجرد للمعرفة ذاتها بل من أجل ان يستعين بالمنطق الأغريقي للدفاع عن العقائد السنية في الإسلام التي كانت عرضة لهجوم نقد اصحاب المعرفة الباطنية (Gnostics) . (٢٦) وقد جاءت الفلسفة الأغريقية عوناً للعرب في بناء جدل ديني منطقي (دياكتيكي) يشبه الفلسفة المدرسية التي نشأت عند المسيحيين في الغرب شيئاً تاماً يدافعون به عن السنة ازاء تجويزات اصحاب المعرفة الباطنية Cnostics .

إذن يحق لنا أن نرى في حركة العلوم الإسلامية وازدهارها اما استجابة لرغبات وحاجات مادية عملية (٢٧) او احياء للعلوم والفلسفة الأغريقية والفارسية بقدر ما كانت هذه العلوم وهذه الفلسفة تلائم الحياة الإسلامية وتسجم مع روحها وبكلام آخر ، ما دامت لا تحدث تغييراً اساسياً جلياً في حياتهم الداخلية . وفضلاً عن ذلك فان انتصار الإسلام انتصاراً حاسماً رائعاً ، والسلطة العظيمة المطلقة التي كانت للخليفة ، والمسافات الشاسعة التي كانت تفصل بينه وبين رعيته ، جميع هذه العوامل افسحت المجال أمام الخليفة ليشغل بالعلوم ولينغمس في النشاط الفكري على اختلاف ميادينه دون ان يكون هنالك خوف من أن يتعدى هذا النشاط الفكري البلاط فيسري بين عامة الرعية ويزعزع ايمانها . وقد استطاع خليفة كالحكم الثاني (٩٦١ — ٩٧٦) في قرطبة ان يجمع خزانة كتب عظيمة جداً ويشجع الناس على الأخذ بالمعرفة . وما يدل على ان مسكه بالفلسفة واخذه بالعلوم كان أمراً سطحياً لم يتغلغل في قرارة روحه ندمه على جمعه كتب العلم في خزائنه وتشجيع الناس على الأخذ باهداب العلم . فانه قبل وفاته بستين اصبغ بمرض خطير . واذ كان يستعد لللقاة ربه ندم على شغفه

بالفلسفة واوصى وريثه على الخلافة ان يلزم كتاب الله (٢٨) . فكان ما قام به سابقاً من درس للفلسفة ومن تبحر في العلوم لم يكن سوى طوي عابر او خطيئة اقرؤها عن عمد : يسهل عليه ان يستغفر الله من أجلها ويعود الى حظيرة السنة . (٢٩)

ولم يكن الأسباني المسيحي يختلف عن المسلم العربي في قلة تقديره للعلم النظري والفكر الناقد . اذ لم يكن للعلم او للفكر عند الاسبانيين اصاله او أهمية عملية في حياتهم . ولكن المسلمين كانوا يجابهون احياناً حالات لم يجابهها المسيحيون . فقد كانت عاصمة الاسلام دمشق وبغداد لا مكة ولا المدينة . أي أن عاصمتهم انتقلت الى البلدان المفتوحة التي اعتنق معظم سكانها الدين الجديد . أما الاسبان فلم تكن عاصمتهم نابولي او ميلان او بيزانسون او بروكسل إنما كانت مدريد . ومن جهة ثانية للقارئ أن يقارن بين سرعة الفتح الذي تم على يد المسلمين في سورية ومصر والعراق وفارس في غضون عشرين سنة بعد موت النبي (٦٣٢) . وبطء الاسبان في استعادة المناطق التي خضعت للحكم الاسلامي في اسبانيا وهم آنذاك متفرقون لا تربط بينهم رابطة سياسية . ان الاسبان المسيحيين لم ينقصوا على المسلمين في القرن الحادي عشر انقضا البازي على طير صغير . ولا حاولوا ان يفرضوا دينهم على المسلمين المغلوبين . كلا . بل كان على الاسبان ان يقوا ضمن اطار فرضته عليهم ظروف الحرب . ولم يكن للاسبان شعور المسلمين ابان الفتوحات بان هنالك خلافة ثابتة مستقرة في بغداد تبحث في نفوسهم الثقة والاطمئنان .

ان الممالك الأسبانية المستقلة التي انشأها الأسبان في البلدان الأجنبية ظلت دوماً بمعزل عن الشعوب المغلوبة التي تسلطوا عليها لاختلاف حضارتها وعاداتها عن حضارة الأسبان وعاداتهم . بكلام اخر لم يمحوا من الايطاليين شعباً اسبانياً ولم ينجحوا في جعل البلجكيين امة اسبانية . (٣٠) غير انهم نجحوا في تغيير هند اميركا الحمر الى اسبان لغة وحضارة - على غرار ما فعل العرب في تحويل مصر وسورية وفارس وبعض اقسام الهند الى بلدان اسلامية . غير ان الفارق

بين اسبنة الهنود على يد الاسبان واسلام الاقطار الاسلامية على يد العرب فهو ان الهنود لم يكونوا على شيء من الحضارة خلافاً لما كانت عليه الشعوب التي اعتنقت الاسلام . فانهم كانوا قد وقعوا قبل ذلك تحت تأثير الهلينية . والحقيقة انه اذا أردنا ان نفهم حقيقة اوجه الشبه ووجه الخلاف بين الخصائص العربية والاسبانية سنجد ، عند التحليل النهائي ، ان الفرق يكمن في الدوافع او الحوافز التي تشكل التركيب الحيائي ، او التي هي جوهر الحياة الروحية لكل من الشعبين . فانه حسب المنطق الأغريقي كانت حقيقة الوجود عند العربي قبل ظهور محمد تسير في اتجاه العدم : يقول عبيد بن الأبرص »

» بما قد ارى الحي الجميع بغيطة بها واليالي لا تنوم على حالٍ » .

ويقول ابو العتاهية احد شعراء القرن التاسع :

» ايا دنياي مالي لا اراي اسومك منزلاً إلا نياي »

» الا واراك تبذل يا زماني لي الدنيا وتسرع باستلاي » (٣١)

ولكن عملية الخلق الالهي المستمرة هي التي نتجت العلم من العدمية . ولولا عملية الخلق هذه لكان مصير حقيقة الوجود الى الاضمحلال والتلاشي في العدم الذي انبثقت عنه . ولو ان حقيقة الوجود تجردت من مادتها الأصلية فانها مع ذلك تظل تحتفظ بقيمة الحس والشعور . فان الحس لا العقل هو الذي يستطيع ان يوقف سير الوجود الى العدم . والحس قبس من نور اله حكيم يحرص على ان تبقى الاشياء وتستمر ولو اختفت مظاهرها المادية . الله هو الذي خلق البقاء السرمدي وهو الذي يحدد حيوية الحوريات الايكار - (القرآن ، سورة ٤٥ : ٣٥) . وفي مقال يعزى خطأ الى امبيدوكليس ، نصنّفهُ فلسفي ونصفه الآخر لاهوتي) نجد العبارة التالية : » ان النفوس الجزئية التي غرر بها عالم الطبيعة الذي تعيش فيه جرت مجرى الطبيعة في عضنائها وتزدها على الروح والعقل ، واسترسلت في الملذات الجسدية وفي الماكل الشهية والمشارب المفرحة والملابس الناعمة وفي مشاهدة الجمال الجسدي والانغماس في نشوة الحب . ونسيت المجد والبهاء وعميت عن الجمال الحقيقي وتغافلت عن التسامي الروحي

والنفسى والعقلي ، معرضة عن جوهر الاشياء . » (٣٢)

إن هذا الفيلسوف العربي يذم الأمور التي رغب فيها عامة المسلمين ظناً منهم أنها أمور عادلة حسنة يرضى الله عنها . والفيلسوف المجهول الاسم هذا إنما يتكلم بلسان الافلاطونية المستحدثة . ويفكر بفكر اشرىتي ويتناول أموراً ليست ذات وقع في الأوساط الإسلامية العادية . إن أطايب هذه الدنيا شهية لذيلة ولهذا اهتم العربي باختيارها والتفنن في ممارستها . ولما كانت أطايب الدنيا حلالاً فقد وسع المسلم على نفسه نطاق الرغائب والحاجات وبرر الترف ، وهذه بدورها أدت به إلى استنباط الوسائل للحصول على دواعي الرغد للفوز بالعيش المترف الناعم . فتقدمت من ثم التجارة وارتقت الفنون الصناعية وعلم الكيمياء وغيرها من العلوم التي تساعده على تحقيق هذه الرغائب . حتى أن الحج إلى مكة أدى إلى مضاعفات مجدية في العيش . وبهذه الطريقة غيّر الدين الإسلامي حياة البدوى البسيطة البدائية إلى حياة مليئة بالمطالب والحاجات . لكن هذا الدين نفسه كان بدوره استجابة للتركيب الحيائي الخاص الذي وجد العربي نفسه فيه — ذلك التركيب الحيائي الذي لا تزال لغة البدوى كما كانت قبل الإسلام مرتبطة به ارتباطاً وثيقاً . والفارق بين العربي قبل الإسلام وبعده هو أن العربي بعد ظهور الدعوة كان يشعر كأن السماء قد أرسلته إلى هذه الأرض ليملك كل ما عليها وليمتع ناظره بجمالها ولينعم باحبابها وليعبر عن جمالها بشعره فهو يقول عن الجوزة :

ومطبة الفقير احسن ما ترى كما انطبق الجفنان يوماً على الكرى
ويقول عن الحمامة :

فستى طوق لازودي لكل موسى الطلى احوى القوادم والظهر
واذا أراد الشراب قال :

اشرب على السوسن الغض الذي نعما وباكر الانس والورد الذي نجما (٣٣).
وفي التاريخ الإسلامي امثلة على هذه تعد بالآلاف . وهي مرتبطة ارتباطاً

وثيقاً بهذا العالم المرمي المحسوس عن طريق الخواص . وهوذا شاهد عيان يصف لنا الزيارة التي قام بها الفيلسوف المتصوف ابن مسرة للمسكن الذي كانت تسكنه مارية جارية النبي في المدينة ، يقول :

« لقد شاهدت كيف ان ابن مسرة ... قام بشيرة إحدى الغرفتين » : وحسب هذه القياسات بنى ابن مسرة فيما بعد صومعة في جبال سيارا بالقرب من قرطبة حيث تنسك فيها. (٣٤) ان المسلم يستطيع ان يشعر انه يحيا في الأشياء، أما الأسباني المسيحي فانه يشعر بالأشياء انها في داخله، في ذاته . عندما التقى الأمير دون جوان مانويل بحميه الملك جايمنس الثاني في اراغون سنة ١٣٠٦ قال له الملك : « ان اشد ما يعاب به المرء ان لا يكون واعياً ملركاً » (٣٥) فالاسباني لا يعاب بان تفقد المجالس التي تضم الصبح « عندما يفتح الورد » . ان وظيفة تركيبه الحياتي هي ان تسوق العالم وما فيه من اشياء الى ذاته ، إلى شخصه ، لا أن تذيب ذاته او شخصه في العالم وفي الأشياء التي فيه . وهذا هو الفارق الذي ياعد بين المسلمين وبين الاسبانيين المسيحيين ودفعهما في اتجاهين متعاكسين : المسلم يذيب ذاته في الأشياء حوله ، والاسباني يحاول أن يذيب الأشياء حوله في ذاته .

بعد أن وصلنا في بحثنا إلى هذه المرحلة فاني آمل أن يكون القارئ الكريم قد ادرك الآن رفضي لفكرة « التأثير » او « الاثر » الذي يخلفه شعب في آخر عندما تجمعهما ظروف السياسة او الاجتماع . اننا اذا اردنا ان نفهم حقيقة هذا التاريخ (تاريخ العلاقات بين العرب والاسبان) ، او اي تاريخ آخر ، علينا ان نعيد النظر في قضية « التأثير » . ويجب ان نفتش عن سبب اعمق من هذا . فاذا قلنا مثلاً ان التزعة التوحيدية عند المسلمين جعلت الاسبان يأخذون ايضاً بالتزعة التوحيدية ، فيكون في نظرهم الى الأشياء وحدة وشمول ، فان قولنا هذا لا يعني ان هذه السجية الإسلامية (التزعة التوحيدية) دخلت الحياة الاسبانية دخولاً ميكانيكياً كما يُدخل التجار اسفيناً في الخشب او الحجر . بل الاصح ان يقال ان الغموض الذي يشوب وظيفة الوجود عند الاسباني هو الذي

خلق الظرف الروحي الملازم ويمكن الأسباني من أن يتمثل في حياته خصائص كانت بالأصل خصائص اسلامية . فوحدة الشمول في الذات وفي النفس وفي الجسد صفة اتصف بها المسلم والأسباني المسيحي كلاهما ولكن من اوضاع متباينة ووجهات نظر مختلفة . وينطبق هذا القول على ميل المرء الى ضم العالم الخارجي اليه وجعله اياه جزءاً من ذاته . وقد اشرنا سابقاً إلى برنولومي ليوناردو دي ارجنزولا وكيف انه عزا إلى الشيطان تصرف فعل « اصبحت » . الشيطان يقول « اصبحت » ، وكيف ان الأسباني عندما يقول اصبحت وامسيت ، فإنه لا يشعر انه تلاشى في الصبح والمساء ، او أن الصباح والمساء ضمنا اليه فأصبح جزءاً لا يتجزأ من الصبح والمساء ، بل هو يضم الصباح والمساء اليه فيقول عوضاً عن اصبحت وأمست : جاءني الصباح او اتاني المساء فوجداني كيت وكيت . ويقول : انت تملأ لي لي اوانت تشغل نهارى . (٣٦) فالقضية التاريخية التي نحن بصدها ليست في جوهرها مجرد عثور على دلائل تدل على وجود تأثير او على العثور على مصادر تاريخية ، إنما القضية هي توضيح للوضع الروحي الذي تجري فيه الحياة والتاريخ . وبعد ان بلغنا في دراستنا هذا الحد نستطيع القول بان الأسباني كان يشعر بالكيان والوجود شعوراً شخصياً . وكان يفكر بالكيان والوجود تفكيراً خارقاً ، أي أن الوجود يتمددى حدود الطبيعة . فان الفونس العالم مثلاً ، عندما اخذ يفكر بطريقة لشفاء مريض ما ، بلأخيراً إلى التعاويذ واستمان بالأرواح ، ليس جهلاً منه ، وانما إيماناً منه بان هنالك قوى خارقة للطبيعة يجب أن يلجأ اليها الانسان او يجب عليه استعطافها . وذلك إيماناً منه بان حكمة الله اعظم من حكمة الانسان ، وبان اصالة الفكر الحقيقي هي الايمان بالله . واذا كان الأسباني لم يوغل في تبخيره في اسرار الكون ، واذا كان لم يتعمق في مجاولته اكتشاف اسرار الطبيعة ، فلانه كان يشعر بتواضع امام قدرة الله . وكان يشعر بالخضوع التام لارادته . والسبب ذاته لم يؤمن الأسباني بفعل السحر والسحرة كما كان الأمر مألوفاً في البلدان الأروبية الأخرى . فان الساحر شخص أعطي قوى عاقلة وقوى شيطانية لاجتراح العجائب . وكان ملوك فرنسا يدلون مرض

تَورَمُ الغدد في العنق بعلاجات ووسائل سحرية لأن الافرنسي اقام تفكيره على الثقة بالعقل لا على الثقة بالايمان . فان جان دي جوفيل - وكان رجلاً مسيحياً على الطريقة الافرنسية - لم يكن يؤمن انه اذا مكن المسلمين من قطع رأسه فانه يدخل الجنة . أما غلامه فقد اقترح عليه دخول الجنة عن هذا السبيل (قطع رأسه) . قال « انا اوافق على ان يقطع المسلمون رؤوسنا جميعاً اذا كان هذا العمل يُدخلنا الجنة » . وعلى هذا يجيب المؤرخ الذي ارخ للقديس لويس : « ولكن نحن لا نصدق ولا نؤمن بهذا القول » . (٣٧) وتاريخ فرنسا حافل بأمثلة باعترافات كهذه تدل على قيام العقل إلى جانب الايمان . وقد اوردنا جملة من هذه الأمثلة من التاريخ الأفرنسي لمقابلته بالتاريخ الأسباني .

اما المسلم فانه يخضع كل شيء في الحياة لغاية واحدة : ان يعيش حسب مشيئة الله و ارادته . ومن هذه الناحية لا نشك في ان الاسباني كان يتفق مع المسلم اتفاقاً تاماً . « مهما كانت مشيئة الله و ارادته » شعار الأسباني ايضاً . وكان اتصال المسلم بالاسباني عاملاً في جعل الاسباني يشعر شعوراً عميقاً باهمية هذه الناحية في الحياة . ولكن الى جانب هذا كان الأسباني يعلق اهمية عظمى على « مشيئتي أنا ، إرادتي أنا » . فالأسباني في عبادته ربه كان يمزج مع خضوعه لله ، واستسلامه إلى مشيئته ، شيئاً من تقديسه لذاته هو واحترامه لارادته الخاصة كانسان . ولكن تقديسه لذاته واحترامه لمشيئته و ارادته لم يكن في نظره عملاً انانياً يعمل له ارضاء لكبريائه ، بل كان يسميه « حفاظاً على الشرف والكرامة » . وللحفاظ على الشرف والكرامة الانسانية ضحّى الكثيرون من الاسبانين بحياتهم وقاسوا من العذاب الروائى . فجهود الناس وما خلفه العرب واليهود من غنى حضارى ، وما قام به الأجانب من اعمال ، جميعها كانت تُستخدم في اسبانيا لخدمة النبلاء واعلاء شأنهم ومجدهم . وعبرة الاسباني « Mio Cid » « يا مولاي » لم تكن شيئاً عارضاً في اللغة الأسبانية او طارئاً ، لكنها كانت من جوهر التركيب الحياتي عند الاسباني . وباعتبار هذا الجوهر او التركيب الحياتي الاسباني لا يمكن اخضاع العالم او الاستيلاء عليه بواسطة المعرفة والفكر بل بواسطة الارادة - تلك الارادة

التي تجعل الإنسان يحيا حياته لتمجيد ذاته ولتعزيزها ورفع مقامها ، او لتمجيد خالقه وتعظيمه . وهكذا نرى أن تاريخ اسبانيا الحقيقي قائم على ركنين متقابلين هما قطبان تلور الحياة الأسبانية الفردية حولهما : التحول عن التقصي العقلي ، والاندفاع مع الحيوية الارادية ، وذلك رغبة في العيش من أجل الذات ، وحسب مشيئة الله في وقت واحد

ان اقتباس الأسباني للعناصر الحضارية على نحو متقطع ، وتبنيه للمعارف والعلوم التي كانت من نتاج الأجانب الغرباء على نحو غير منتظم ، يجب ان ينظر اليه كمحاولة قام بها الأسباني للتعويض عن النقص الذي فرضه جوهر او تركيب الحياة الأسبانية . فان الفونس الثامن اراد أن ينشئ جامعة فحشد لها جمهرة من العلماء الأجانب . أما المنظمات الدينية الأجنبية وفن العمارة القوطية والرومنسية فقد أدخلت إلى اسبانيا لتمجيد الله وتعظيمه . ولقد كان في اسبانيا طيلة تاريخها عناصر حضارية غريبة (وشرقية أيضاً) بلوجات متفاوتة . فالكنايس كانت تعكس اهتمام الأسبان بالله ، وكانت الملحمة الأسبانية والقصة والمسرحية تعكس اهتمامهم بالإنسان كإنسان . ففي هذه الحقول الأدبية ، وفي حقلي الرسم والنحت ، الحقل الذي يعنى الفنان فيه برسم جسد الإنسان وشكله — كان للأسبان القدر المعلن ، فبرز من بينهم عباقرة من الطبقة الاولى . اما المسلم فلم يشعر قط من جهته بالحاجة إلى خلق ملحمة او قصة كقصص سرفنتس او تمثيلية كتمثيلية لوب دي فيغا ، او صورة كصورة فلاسكيز او غويا . ذلك لأنه وجد حسب مشيئة الله وبارادته ، ولم يشعر إطلاقاً بأن شخصه يقف مع الله وجهاً لوجه . فالعقل العربي لا يستطيع أن يتصور حتى ولا على سبيل التخيل الروائي — إنساناً يقلر أن يرسم صورة لذاته يجعلها فيها متفاعلة مع شخصيات اقوام آخرين . ولذلك كان قصصه الأدبي نوعاً من السرد الاخباري تنساب سير الأفراد في مجرى أحداثه .

ان الأهمية القصوى التي يعلقها الاسباني على الذات باعتبارها احد قطبي وجوده جعلته يعتبر الذات مركزاً للوجود . فان جميع اعماله وجهوده ومراميه

تدور حول هذا المركز : الذات . وهذا ما جعل الذات تحتل المقام الاول ، وتنفرد بالسيطرة تامة . فالأسباني يتكلم عن ذاته ، وعن جسده ، وعن ملذاته ، وعن احزانه ومصائبه . ولكل شيء مبرر ، ولكل شيء قيمة حالما تنشأ لهذا الشيء صلة او رابطة بالذات . وعندما يبلغ الانسان الى هذه المرحلة من جعل الذات قطب الوجود ومن تقييم الأشياء بالنسبة الى الذات . نقول ، متى بلغ الانسان هذه المرحلة فسرعان ما تتلاشى الفروقات بين الطاهر والدنس ، بين الروحي والمادي ، وبين المحزن المبكي والمفرح المبهج . والأمثلة على صحة زعمنا هذا كثيرة ومبثوثة في صفحات هذا المؤلف ، يكفيها منها القول بان الأسباني كان يقلد فيها العربي تماماً كما قلده في تصريف فعلي اصبح وامسى مع الضمائر . ولكن يحسن بنا ان نتذكر ان الفارق بين الاثنين هو ان المسلم يؤمن ان اعظم شيء واتفه شيء هو من صنع الله . اما الأسباني فكان يمزج بين الأشياء النبيلة والأشياء الدنيئة ليجمع اكبر قدر ممكن مما هو في متناول الذات . ومن أجل ذلك وجد الأسباني في الأسلوب العربي خير اداة للتعبير .

يلقي علينا ابن حزم (١٠٦٤ / ٩٩٤) درساً في الاحتشام والتواضع امام القوى العظيمة في الكون في قصة تنورحول الخليفة هارون الرشيد . قيل : طلب الرشيد مرة قدح ماء ليروي عطشه الشديد . وكان الزاهد ابن السمك يجلس الى جانبه . فقال له الزاهد « كم كنت تدفع ثمن هذا القدح من الماء لو ان خادمك عجز عن احضاره اليك ؟ » فأجاب الخليفة « ملكي بأسره ! » فقال له ابن السمك « وان كنت لا تستطيع اخراج هذا الماء من جسدك بعد ان تكون قد شربته فماذا تدفع ثمن اخراجه ؟ » فقال الخليفة « كنت اهب مملكتي بأسرها » فقال الزاهد « فكيف تفخر بملك لا يساوي ثمن قدح ماء او اخراجه بولاً من جسدك ؟ » (٣٨) ان المسلم لا يستنكف عن ذكر حاجات الجسد الطبيعية وعن وظائف الجسم ، لا بل ان التحدث عنها في الأحاديث النبوية مشفوع بكثير من الاحترام والاحلال .

ان الأسباني عندما أراد أن يجعل من الطاهر والدنس وحدة يخضها لسيادة

الذات لم يستطع ان يميز بينهما تمييزاً واضحاً مع علمه بأنهما ظاهران ضروريان لحياته . ان الدون دياغو هورتادو دي مثلوزا سفير الأمبراطور تشارلز الخامس في البندقية لم يكن نبيلًا عظيمًا وحسب ، بل كان ايضاً اديباً مفكراً له ولع خاص بجمع المخطوطات الأغريقية . وهذه المخطوطات التي جمعها أصبحت فيما بعد المجموعة الأغريقية المشهورة في مكتبة الاسكوريال لعهد فيليب الثاني . ولكن في رسائل الدون دياغو إلى كاتم اسرار الأمبراطور نجد هذا الجمع بين النقيضين : اسمعه يتحدث في إحدى رسائله الرسمية عن غرامياته مع يهودية :

« الحقيقة يا مولاي ان إحدى خصيتي أصابها ضرر من جراء اصطدامي بكرسي يتعذر معه شفاؤها . ولا أشك في انك ستتكرر كما تكررت لذلك الحسنة اليهودية ، لاني قد تعهدتها منذ زمن بالتدريب والتعليم فأصبحت مشتبهى نفسي . واني لا أجد متعة في الدنيا تفوق معاشرتي لما . » (٣٩)

والغريب في هذه الأباحة أنها واردة في تضاعيف رسائل تشتمل كذلك على مهام رسمية ، وهي وثائق يجب حفظها في ملفات الملك الرسمية . وساعد إلى سرد امثلة أخرى في فصل تال توضيح ما نحن بصدده من مزج الجميل والقيبح ، والطاهر والدنس في وحدة . وقد كان سرفنتس وكيفادو ولوب دي فيغا وتيرسودي ملوينا وغيرهم كثيرون لا يستنكفون عن ان يجمعوا معاً النبيل الشريف . والرذيل الدنيء . ولولا معاشرة الأسبان للمسلمين لما تسنى لهم ان يعبروا عن هذين الوجهين في الحياة وكأنهما امر واحد . ولكن يجب ان نتذكر انه بالرغم من هذه المشابهات بين الأسبان والمسلمين فان هنالك فروقاً اساسية في نظر الشعبين الى هذه الأمور وفي نقطة الانطلاق التي يبدأ كل منهما منها . واطن اننا نستطيع الان ان نفهم كيف ان الأسباني الذي سافر كثيراً وعاش في بلدان غريبة كما فعلت شعوب اوروبية أخرى — ان لم تقل انه يزهم في الأسفار والرحلات — لم يدع في ادب الرحلات . فالاسباني الذي يقطن في انكلترا او في فرنسا يكتب عن نفسه وعما جرى له في تلك البلدان ، دون ان يخطر له في بال ان يؤلف كتاباً جغرافياً او جيولوجياً او تاريخياً عن البلاد التي يزورها او

يتوطنها . فبرنال دياز دل كاستيليو عندما الف كتابه المتع الموسوم « بتاريخ فتح المكسيك » كتبه على اساس تقرير عن عمل عسكري اعده احد الجنود ليرفع الى الملك كما اوضح لنا رامون اكليزيا هذا الأمر فيما بعد . وكذلك كتاب « اخبار الهند » فانه في الواقع تعبير عن ولاء كاتبه لخالفه او لمليكه او ليطل من الأبطال تمجيداً لنفسه . أما العرب فأنهم خلافاً للأسبان ، قد عنوا بوصف البلدان التي فتحوها او توطنوا فيها او زاروها كما عنوا بوصف بلادهم . ولذا فقد ترك العرب انتاجاً ضخماً قيماً في ادب الرحلات .

وخلاصة القول ان الأسباني المسيحي والمسلم كانا يتشابهان في اعتبارهما الذات والعالم الخارجي وحدة لا تتجزأ ومع ذلك فقد كانا يختلفان ايضاً اختلافاً جوهرياً . فقد كان اتجاه النوافع الحياتية عند العربي يرغمه على ان يعبر عن ذاته تعبيراً موضوعياً ، اي انه كان يجد في الأمور الخارجية ، او الخارجة عن الذات ، موضوعاً يعبر عن ذاته وجدانه . ولذا ظهر بين العرب رجال مفكرون مثل ابن رشد وابن خلدون ، وظهرت عند العرب علوم كالكيمياء وصناعات وغيرها من الأمور الموضوعية التي هي خارج الذات . اما عند الاسباني فقد كان الاتجاه الحيوي من الخارج ، من الاشياء الى الداخل او الى الذات لان هذا الاتجاه هو من واقع الأطار الذي يحيط بحياته وبكيانه ، وهو واقع الجوهر الذي يجعل للتاريخ معنى واضحاً .

الهوامش

- ٢ - ترجمة Vital Structure الواردة في الاصل . ويريد بها المؤلف التركيب الحيوي الداخلي للحياة . وقد آثرنا استعمال « جوهر الحياة » حيث يريد الكاتب « التركيب الحيوي للحياة » أي المنصر الاعم الذي يدخل في تركيب الحياة للروحي . (المترجم)
- ٣ - من كتاب The Structure of Spanish تأليف Americo Castro History الترجمة الانكليزية ، مطبعة جامعة برنستون ، ١٩٥٤ .
- ٤ - لا ادعي انني قد استفدت جميع المصادر عند كتابتي الفصل الذي يعني بما قلده به الاسبان العرب في حياتهم او بما تبناه الاسبان او اقتبسوه عن العرب ، وذلك لاني لم اكن أعني بالكمية او المقدار الذي اخذه الاسبان عن العرب بقدر ما كنت أعني بالأثر الروحي الذي تركه هذا القدر في جوهر الحياة الاسبانية . واني لا اشك في ان القارئ الكريم يستطيع ان يجد امثلة اخرى كثيرة إذا استعرض تاريخ العرب في اسبانيا .
- ٥ - انني لا استعمل هذا المصطلح « شبه استعالة » بالمعنى التقديري الوضع الذي استعمله به شينغلر .
- ٥ - Melchor de Santa Cruz, Floresta General, 1574, No. 174. يصف ابن عربي احمد مشائخ الصوفيين بقوله : « كان قوي الروح ضعيف الجسد صاحب الوجه . كان شديد صارماً مع نفسه ، واذا قال له احدهم لماذا لا تمتع النفس كان يجيب : اني اذا اردت ان امتع نفسي فاني اقسو عليها واحاسيها حساساً صيراً . كان يقوم في الليل ويقضي وقتاً طويلاً منه في الصلاة واقام الى ان يمليه التعب » Vidas de Santone, tr. by Asin, p. 103.
- ٦ - Cf. J. Ortega Y. Gasset, «Vitalidad, Alma, Espiritu», in Obras Completas, 1936 pp. 489 ff; Francaiseo Romero, Filosofia de la persona, Buenos Aires, 1944. ان الزعم بان وفاقية سينكا تتخلل في اعشاق الحياة الاسبانية زعم لا اتقبله بارتياح (راجع كتابي : La realidad historica de Espana 1954, Appendix I
- ٧ - Aspectos del vivir hispanico, 1949.

٨ - Biblioteca de Autores Espanoles, XIII, 505a. ويضيف انطونيو بارتز على ملاحظة الدوق : « لان النفس والعقل اشد تأثراً بالغة التي تكون على فطرتها وسجتها الاول منها بالغة المتكلفة المزخرفة » .

٩ - Zeitschrift fur romanische Philologie, 1936, LVI, 641-633.

١٠ - Al-Shaquadi, Elogio del Islam enpanol, tr. by E. Garcia Gomez, 1934, pp. 96-97.

١١ - G. Meloni, «Alcuni Studi sul tempo presso i semiti», in Saggi di filologia Semitica, Rome, 1913, p. 132.

١٢ - نستطيع ان نجد امثلة على هذه الميزة ، ميزة اغفاء الشخصية على الاشياء او اعتبار الاشياء شخصية ، في Chronica do descobrimento e conquista de Guiné, by Gomes Bannes de Azurara. فان المؤلف (للقرن الخامس عشر) في نهاية الفصل الثاني عشر عند وصفه احد ابطاله ، اتمام كولسلفيز ، يقول : « دعنا الآن ننهي هذا الفصل تاو كين اتمام لير تاح هنا حتى نجعله (فيها بعد) ، في الفصل التالي ، فارساً » . ثم يتابع كلامه فيقول : « و الآن ليقسم اتمام شرف الفروسية كما حزمنا ان نعلمها عليه في هذا الفصل ، ثم انذا ستلحقه ايضاً يسلك الفروسية التابع للمسيح » . هذه المبارات نجدها على ص ٧٦ و ٧٧ من طبعة الفيكونت دي كاريرا باريس ، ١٨٤١ . لاحظ كيف ان المؤلف يضيف ذاته على الحوادث . فليس اتمام هو الذي يصبح فارساً او هو الذي ينتمي الى هذا السلك او ذاك ، انما المؤلف ذاته هو الذي يجعل اتمام كيت وكيت ، وهو الذي يقتله ويعطي ويكلام آخر ، فعوضاً عن ان يتكلم بضمير الغائب فيقول اتمام حمل او صار او اصبح ، يقول « انا » ... ان اصحاب البلاغة في عصرنا يسمون هذا الاسلوب اسلوباً حيويّاً ؛ لكن الامر في نظري اعمق جداً من ان يحيط به هذا الوصف .

١٣ - Santa Teresa y otros ensayos, 1929, p. 11.

١٤ - «Poesia y realidad en el poema del cid,» in Tierra firme, Madrid, 1934, I, 22.

١٥ - Revue Hispanique, 1930, LXXX, 372.

١٦ - Vossler's essay, « Realismus in der spanischen Dichtung der Blutezeit » (1926), Aan now be read in Algunas caracteres de la civilizacion espanola, 1942.

١٧ - Geoffroi do Vinsauf, «Documentum de Arte Versificandi,» in E. Faral, Les Arts poetiques, p. 283.

١٨ - Cronica General, p. 686. ان الدراسات التي كانت تقوم بها مدارس بلنسية كانت من المآتي التي قام بها الفونس الثامن . وهذه الدراسات هيأت السبيل لقيام جامعة سلامنكا .

١٩ - ابن سعيّد المغربي (القرن الثالث عشر) كتاب رايات المبرزين ، نشره Emilio Garcia

Gomez Madrid, 1942 p. 187.

٢٠- القرآن الكريم : سورة ٧١ : ١٩ ، سورة ٢٠ : ٥٧ .

٢١- يقول مترجما ابن بطوطة (١٣٠٤ - ١٣٧٧) : « قل ان تجد شعباً يحب الاسفار في البلدان الثانية كالعرب » يقول ابن بطوطة من مصر : « ... وبها ما شئت من عالم وجاهل ، وجاد وهازل ، وحليم وسفيه ، ووضيع وفنيه ، وشريف ومشرف ، ومثكر ومعروف . تموج موج البحر يسكانها وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها . شياها يمد على طول المهد ... » فان المرء يشعر ان حياته تسمى في مجرى . وهذا ما اريد ان اوكده . فان للمربي لا يسافر ليرى ، كما فعل هيرودس ، بل ليجعل مجرى حياته وسيرها يتجاوب مع مجرى التغيرات التي تنأت عن السفر ، فالطريق شبه مجرى والاماكن تعتبر كأنها في مجرى .

Biblioteca de Autores Espanoles, Li, 426.

٢٢-

G. Levi Della Vida, « Pre-Islamic Arabia, » in The Arab Heritage, ed. by N. A. Faris, p. 49.

٢٤- ان الزعم القائل بان الفلسفة الاغريقية والعلوم الاغريقية لم تكن معروفة في مصر عندما احتلها العرب زعم خاطئ . فقد عثر على وثائق تفيد ان هوميروس والمصريين الاغريق والحطباء والشعراء الفلانيين كانوا يدرسون في مصر وان لم تكن هذه الدراسة المركزة لتحدث ثروة فكرية . قايمل : C. H. Idris Bell, Egypt from Alexan - der the Great to the Arab Conquest, Oxford 1948, p. 61.

De Lacy O'Leary, How Greek Science passed to the Arabs, London, 1948, p. 162.

٢٦- راجع : C. H. Becker, op. cit., p. 14. كانت الفلسفة التي تعرف بالفلسفة المعرفة Gnosticism (وهي كلمة اريقية تعني ان مصدر المعرفة وحي من الله بواسطة طريقة شبيهة عجيبة) تشكل خطراً مباشراً على المسيحية كما كانت قديماً بعد خطراً على الاسلام . فان الفلسفة الشرقية التي غزت الغرب عادت الى الشرق بشكل فلسفة تروق لامة الناس . والواقع ان الاحجية والتماويل والاعمال السحرية كتمهيد ماضى يمزج عليه فيشره العاشق والمحبة فيشفى ما به ، واهمال التمتع ترد الى اصلها الى المعرفة الباطنية .

٢٧- مثالا على ذلك ان اول ما وردت لفظة « الجبر » في مؤلف يضم مجموعة كبيرة من القوانين التي يتقسم الميراث ومسائل تجارية اخرى .

Julian Ribera, La ensenanza entre los musulmanes espanoles, pp. 172 - 173.

٢٩- وهذا ما حدث لكثيرين من استقراطيي الاسبان في القرن الثامن عشر . فان كولت ارادوا واسل فوثير وبهت انه يهدأها . وقد اجاب فوثير من هذه الرسائل ، بايات يدمو فيها

« السيد البلنيد » و « قاهر التين المخيف » و « يزق صائب الجهل » واجمع :
 Poesie de Voltaire, IV, 1821, pp. 172 — 173. رجل شارل الفولتير ، قد وجه
 بعمله هذا الانظار الى سائر الاكثيروس الذين « لم يكونوا اقل خطراً من اليسوعيين » .
 وكذلك حدث للشرىف اولافندي الذي هرب من ديوان التفتيش الاسباني ولكنه عاد ونشر
 مؤلفه الموسوم « انتصار الانجيل » او الفيلسوف التي ارتد الى الايمان « Cf. François
 Rousseau, Regne de Charles III d'Espagne, I, 196, 232; II, 54)
 وقد كتب دوق البيا الى روسو ويحث اليه بهدايا نفيسة . ولكن جميع هؤلاء النبلاء
 والاشراف ماتوا في احضان الكنيسة الكاثوليكية بالرغم مما أبدوه احياناً من التحرر ؛
 وجهمهم نفوساً على ما قاموا به واستغفروا الله تماماً كما فعل الحكم الثاني .
 ٣٠- اي انهم لم يفرسوا الاسبانية عليهم ولم يستطيعوا ان يغيروا لغتهم ولا يجنحوا في ضمهم
 الى جوهر الحياة الاسبانية . غير ان الاسبان نجحوا نجاحاً يسيراً في تكييف الحياة عند اهل
 نابولي وفي مس جوهر كيانهم . يقول كروتشي « ان الولاء الخالص الذي اظهره نبلاء
 نابولي لاسبانيا وملوكها ، ومواقف الشرف التي اخذوها على انفسهم ان يكونوا مواطنين
 مسلمين بعد ان اخضعهم الاسبان وسلبوهم حريتهم واستقلالهم جعلت اهل نابولي يدافعون
 عن ملك نابولي وملك اسبانيا بشجاعة وتضحية لم تعرفا عند من تقدمهم . فانهم لم يقاقلوا
 بهذه الروح عندما كان يحكمهم ملك نابولي (Croce, Storia del regno di napoli
 12f. — 115, pp. 1944 . وقد اشتهر فرسان نابولي في القرن السابع عشر بشجاعتهم في
 ساحة الوضى . فالمركسة الشهيرة المعروفة بانتصار براغ (١٦٢٠) التي حصلت آل
 هابسبورغ كان الفضل فيها لكتيبة من اهل نابولي . ولكن هذه الشجاعة في نظري كانت
 صفة طارئة وليست منبثقة من جوهر الحياة وتركيبها . لانه بعد انقضاء قرن واحد على
 احتلال الاسبان لنابولي عاد اهل ايطاليا الى سجيبتهم الاولى والى خصائصهم الحياتية .
 فقد كانوا اذكيا ، وكانوا ذوي مواهب فنية ، لكن مزاجهم لم يكن كذلك
 (Cf. Croce, op. cit, pp. 224—5) اما فيما يتعلق ببلجيكا ، وبالرغم من كل
 ما كتب عن فساد الحكم الاسباني فيها فان البلاد ظلت امينة مخلصه للملك اسبانيا حتى ابان
 الفساد الذي طغى في عهد شارل الثاني . وقد كان القلب « كاثوليكي » الذي يلقب به
 ملوك اسبانيا اثر روسي عظيم على عامة الناس . وقد احتفظت اسبانيا بالسيطرة على
 بلجيكا حتى عام ١٧١٣ وذلك بفضل « النفرة » التي ولدتها الكلفينية الهولندية والغالية
 الافرنسية « (H. Pirenne, Hist. de Belgique, 1926, V., p. 50) ونضيف
 الى هذا ان حدود بلجيكا الحالية هي الحدود التي كانت حدود بلجيكا ايام الاحتلال
 الاسباني سنة ١٧١٣ . ولولا الاحتلال الاسباني لكانت هولندا ضمت اليها المقاطعات
 الفلمنكية ، وفرنسا المقاطعات التي تتكلم الافرنسية . اي انه لولا اسبانيا لما كان في
 الوجود دولة اليوم تعرف بدولة بلجيكا .

Quoted by G. E. Von Grunebaum in «Growth and Structure of Arabic Poetry» in The Arab Heritage, ed. by N. A. Earis, pp. 136, 148.

In M. Asin, Abenmassarra y su escuela, 1914, p. 52. —٣٢

El libro de las banderas de los campeones, de Ibn Sa'id al-Maghribi' tr. by E. Garcia Gomez, Madrid, 1942, pp. 133-135.

M. Asin, Abenmassarra. y su escuela, p. 39. —٣٤

Libro infinito, ed. by J. M. Blecua, p. 91. —٣٥

Quevedo, Obras en verso, ed. by Astrana, 1932, p. 61. —٣٦

Histoire de Saint Louis, ed. by N. de Waillys, 319. —٣٧

Los caracteres y la Conducta, tr. by M. Asin, Madrid, 1916 p. 115. —٣٨

Raymond Lully (Evast y Blanquerna, Barcelona, وتظهر القصة ذاتها في
(1935, p. 238 ولكن بصورة ملطفة . يقول لالانكرنا لالامبراطور : « ما أجنس
ملكك الذي لا يساوي ثمنه ثمن الخبز الذي تأكله » .

A. Conzalez Palencia and E. Mele, vida y obras de Don Diego —٣٩
Hurtado de Mendoza, Madrid, 1943, III, 302 . في هذا الحادث يشير دون

ديافو الى علاقة غرامية مع وصيفة يهودية . يقول : « منذ ثلاثة اشهر وانا انعم
بحسب اجل لثاء ايطالية . وبعد ان تم التهام بيتنا على الزواج صدت هي قائلة انها يهودية
ولا تستطيع ان تعمل شيئاً ان لم اتهود انا » وبما اني كنت على وشك التهود فاني قبلت
293, 297, 298, 284, 288, 291, 285 (III) . ولست ادرى اذا

كان دون ديسافو مازحاً ام جاداً عندما اشار بطرف عيني الى نسبة اليهودي عندما يقول
وكذبت على وشك » وفي شعر حزلي دعي دون ديفافو » اليهودي الاول » .

نشاط ابن خلدون في مصر المملوكية ١٣٨٢-١٤٠٦ ولترج. فشل مقدمة

يحتل عبد الرحمن ابن خلدون المولود في تونس في ٢٧ ايار (مايو) ١٣٣٢ والمتوفى في القاهرة في ١٧ آذار (مارس) ١٤٠٦ ، مكانة خاصة في اخبار التاريخ الإسلامية . ذلك بان المقدمة ، من حيث انها لبنة في بناء دراسة التاريخ ، تعتبر من افضل ما قدمه عالم عربي أصالة وإبداعاً .

« فالعلم الجديد » ، علم التاريخ ، الذي ادعى اكتشافه و « القوانين الأصلية التي تتحكم في المظاهر الاجتماعية والتاريخية التي وضعها ، والعوامل الاقتصادية والجغرافية التي رأى انها تُعَيِّن السير التاريخي » ، وتصوره « للعصية » (١) جميع هذه الأمور وغيرها كثير أحكمت مكاناً فريداً في ميدان العلم العربي والاوربي . فقد قيل فيه انه « لم يُتَّح لمسلم ان تكون نظرتة فيها مثل هذا الشمول ومثل هذه الفلسفة في آن واحد ، ولم يحاول ان يتقصى قوى

* من *Semitic and Oriental Studies* تحرير Walter J. Fichtel من منشورات جامعة كاليفورنيه فيقعه اللغات السامية المجلد ١١ ، مطبعة جامعة كاليفورنية ، بركلي، ١٩٥١ .
- منذ ان نشرت هذه المقالة في الاصل الانكليزي قام محمد بن ناويث الطنجي بنشر التصريف بابن خلدون ووحلته غرباً وشرقاً (القاهرة ١٩٥١) ، كما اتم واضح المقال كتابه *Ibn Khaldun and Tamerlane, Berkley, 1952.*

(المترجم)

الأحداث الخبيثة . او ان يكشف القوى الخلقية والطبيعية العاملة تحت السطح .
او ان يستشف القوانين الثابتة للتقدم والانحلال في الأمة ... لقد فاق عصره
كثيراً ، وقد اعجب به قومه لكنهم لم يلحقوا به . فكان وراثته واتباعه من
اهل الفكر مؤرخي اوربة العظام في العصور المتوسطة والحديثة مكيافلي
وفيكووغبون « (٢) . ولقد اعتبره بعضهم انه مونتسكيو العرب . (٣) وانه
السابق في مضمار علم الاجتماع الحديث (٤) . وانه في طليعة الفلاسفة
الاجتماعيين ، (٥) واول مؤرخ للثقافة . (٦) واول كاتب نظر الى التاريخ
على أنه موضوع حُرِّيّ بعلم خاص (٧) .

وما لا شك فيه ان اكثر من محاولة واحدة قد بُذِلَت للتعرف إلى اسلاف
ابن خلدون عن طريق تحليل المصادر الأدبية التي افاد منها في بحوثه والتي قد
يكون اقتبس منها اراءه التاريخية والفلسفية والاجتماعية (٨) . ومع ذلك فقد
بدا جلياً ، بان مثل هذه الدراسات : لا يمكنها ان توصلنا إلى جواب شاف فيما
يتعلق باصول آرائه وتكوينها (٩) . واني اجرو فاقدر بان المصدر الأصيل
والاساسي الذي استمد ابن خلدون اراءه منه لم يكن هذه الكتب والمصادر
— على ما لها من الأهمية من حيث انها يسرت له الوثائق والتمثيل لهذه الآراء —
بل بالأحرى كان تجارب حياته الفريدة وتأملاته فيها (١٠) . ان خبرة ابن
خلدون الفارقة في حلية السياسة في المغرب واسبانيا هي التي اتاحت له سبيل
التعرف الفريد لطبيعة الظواهر الاجتماعية والسياسية . وتطور التاريخ والمجتمع ،
وقيام الاسر والدول وسقوطها . فقد تولى ابن خلدون : في بلاط كل اسرة
هامة تقريري . . نائف متنوعة — فكان كاتباً ملكياً وحاجباً وقطباً سياسياً ومستشاراً
ودبلوماسياً ومفاوضاً وسفيراً وحتى زعيماً ورئيساً للقبائل البربرية (١١) . هذا
الاختبار يمكن ان ينظر اليه على انه الملهم الاول والاساس الواقعي الأصلي
الذي اقام عليه بناءه الاجتماعي الفلسفي الضخم . والى ذلك كان ابن خلدون
يملك قدراً كبيراً من دقة الملاحظة وتوقد الذهن .

وقد وضع ابن خلدون ترجمة حياته فخلف لنا المصدر الأهم الذي لا غنى

عنه لفهم شخصيته وعمله . ومجرد ان يرى ابن خلدون انه من الاهمية بمكان ان يضع كتاباً يروي فيه احداث حياته ، قد يدل على ان الرجل كان يدرك لا اهمية اختباراتة الفريدة فحسب ، بل الصلة الوثيقة بين قصة حياته وبين مآتيه الفكرية وفلسفته وفضله على علم الاجتماع .

لسنا نقصد من هذه الدراسة ان نعالج حياة ابن خلدون بكاملها . فحياته تقسم الى قسمين منفصلين اولهما في المغرب واسبانيا حتى سنة ١٣٨٢ واثانيهما في مصر من ١٣٨٢ حتى وفاته عام ١٤٠٦ . وثاني هذين القسمين ما زال مجهولاً إلى درجة كبيرة ، وعلى اساس المصادر المتوفرة لدينا فانه لم يكن بالامكان ان نحصل الا على صورة جزئية مضطربة . وترجمة حياته ، المسماة الرحلة (١٢) او التعريف ، والتي كانت املنا في أن تزودنا بالتفاصيل كلها ، لم تكن نعرفها الا ناقصة (١٣) ، ولم تكن تتناول حياته بعد سنة ١٣٩٥ . فقد كان من المتعارف عليه ان السنوات الاحدى عشرة او الاثني عشرة الاخيرة من حياته في مصر لم تُدوّن قط . أما الآن فقد تغير الأمر ، فأصبح بإمكاننا ان نتعرف الى تفاصيل اقامته في مصر بكاملها ، وذلك بسبب مخطوطة كاملة لترجمته عُثر عليها ، ولم تنشر بعد ، وتسمى « التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً » (وهي محمّلة في مجموعة مصطفى باشا في القاهرة) (١٤) : وهذه المخطوطة ترجم للمؤلف حتى سنة ١٤٠٥ (٨٠٧-٨) اي إلى قبل وفاته ببضعة شهور (١٥) . وهذا المصدر الجديد يمكننا من النظر إلى كتب التراخي والسير التي وضعها المؤلفون العرب في مصر المملوكية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر (١٦) ، وتقييم الاشارات المتفرقة الواردة فيها الى ابن خلدون تقييماً نقدياً (١٧) .

في مصر

منذ ان وطئ ابن خلدون ارض الكنانة اتخذها موطناً جديداً له ومقاماً ، ولم يتركها — باستثناء بضع سفرات قصار — حتى وفاته (٨٠٨ / ١٤٠٦) ولم يعد الى المغرب وطنه الاول .

ما نوع النشاط الذي قام به ابن خلدون اثناء اقامته في مصر ؟ هل اتيح له ان يعود ، كما كان من قبل ، قوة دافعة وشخصية رئيسية في المجال السياسي ؟ وهل قام بدور سياسي ورجل الدولة والدبلوماسي على نحو ما تم له في شمال افريقية واسبانيا ؟ هل انسحب من الحياة العامة وانصرف الى العلم والبحث بكل ما اوتي من نشاط ؟ ان المصادر تمكننا من الأجابة عن هذه الاسئلة وذلك بتصنيف نواحي نشاطه — كما ورد في هذه المصادر — على النحو التالي :

(١) ابن خلدون في حماية السلطان برقوق

(٢) ابن خلدون المعلم

(٣) ابن خلدون القاضي

(٤) ابن خلدون المستشار المغربي

(٥) ابن خلدون الرحالة

(٦) ابن خلدون المؤلف .

ابن خلدون في حماية السلطان برقوق

لم تكن السنوات الأخيرة التي قضاها ابن خلدون في تونس مما يسر . فقد لقي معارضة متزايدة في شدةها ، وعداوة ودياسات قام بها اهل البلاط الذين نفسوا عليه رفيع مقامه عند السلطان . فأوغروا صدره عليه . وقد كان صاحب القدح المعلي في هذه الدياسات امام مسجد تونس الشهير المقي ابن عرفه (١٨) الذي تم له ان يقصيه عن بلاط السلطان .

نوى ابن خلدون ان يتخلى عن الحياة العامة البتة ومع ان مداخلاته ومسؤولياته السياسية رفعتة الى قمة الزعامة والنفوذ ، وثبتت شهرته على انه رجل دولة وفيلسوف ومؤرخ ، فقد تاق إلى ان يحزن نفسه من تلك المداخلات والمسؤوليات . اما وقد اضناه ان يكون دوماً عرضة لتقلب اهواء السلطان وتغير مزاجه ، وان يكون دوماً هدفاً لما يحكيه حوله اهل البلاط من وشايات ، فانه فكر في ترك وطنه المغرب ، وتغيير المسرح الجغرافي لعمله . لقد خطر له ان يرتحل الى

مصر ، وينصرف بكليته إلى النشاط العلمي .

وقد اذن له سلطان تونس أخيراً بمغادرة البلاد والسفر شرقاً على اعتبار انه يعتزم اداء فريضة الحج . وصادف ان كان في ميناء تونس آنذاك سفينة يملكها تجار من الاسكندرية ، وكانت على وشك الاقلاع إلى تلك المدينة . يقول ابن خلدون « فتطارحت على السلطان (سلطان تونس) وتوسلت اليه في تخلية سبيلي لقضاء فرضي فاذن لي بذلك » (١٩) .

وبعد ان قضت السفينة نحو اربعين يوماً في سقر عاصف ، وصلت الاسكندرية . وعليها ابن خلدون ، في كانون الاول (ديسمبر) ١٣٨٢ ، بعد عشرة أيام من اعتلاء الظاهر برقوق ، السلطان الجديد ، عرش مصر (١٣٨٢ - ١٣٩٩) . قضى ابن خلدون شهراً كاملاً في الاسكندرية يعد العدة للحج . ولكنه ، بسبب احوال لم يتبين لنا بعد كنهها ، قرر تأجيل الحج والذهاب الى القاهرة ، فوصلها في كانون الثاني (يناير) ١٣٨٣ / ٧٨٤ .

وقد سمع ابن خلدون ، وهو بعد في المغرب ، الكثير عن القاهرة من التجار والرحالة والحجاج القادمين من مصر . وتذكر قول احد علماء المغرب له : « من لم يرها (القاهرة) فانه لم يعرف عز الاسلام (٢٠) » . والواقع أن الاثر الذي تركته القاهرة في نفسه كان بالغاً : فقد وصف جمال المدينة وعظمتها ونيلها ومبانيها واسواقها وصفاً فيه الكثير من الروعة .

الا انه ، من الجهة الأخرى ، لم يكن غريباً عن حلقات القاهرة الفكرية . فان شهرته كمؤلف للمقدمة وكتاب العبر وكرجل دولة ودبلوماسي كانت قد سبقته هناك . فانتشر خبر وصوله بسرعة واثار اهتمام اهل العلم . فليس غريباً ، والحالة هذه ، في أن يدعى إلى النزول على الرحب والسعة وأن يسعى أهل العلم ، شيوخاً وطلاباً ، الى تكريمه ودعوته إلى الاقراء في الأثر (٢١) . ولما كان ابن خلدون قد اعترم ان ينصرف إلى العلم والبحث انصرفاً كلياً ، فقد قبل هذه الدعوة ، وقرأ عدداً من الدروس لعلها تناولت فلسفته في التاريخ ونظريته في العصبية ، وتطور الدولة والمجتمع وسقوطهما .

وقد كان لظهور ابن خلدون على مسرح الفكر في القاهرة اثر بالغ في نفسه : فقد توثقت اواصر المودة بينه وبين الأمير ألتنبغا الجوباني (٢٢) وهو واحد من اكابر اصحاب النفوذ في بلاط السلطان برقوق . وكان هذا الأمير سبباً في تعريف السلطان بابن خلدون . ولستنا ندري فيما اذا كان السلطان رغب في هذا التعرف ، او ان ابن خلدون سعى الى ذلك . وعلى كل حال فان اللقاء الاول بين السلطان وابن خلدون انتهى الى صداقة وثيقة خالصة دامت طوال حياة السلطان وحكمه .

وهذه الصلة بين السلطان وابن خلدون والثقة التي اولاها اياه السلطان ، هي التي عيّنت نشاط ابن خلدون ومجرى حياته في مصر . فقد كان برقوق ينفرد به كثيراً ، وكل المناصب التي تولاها ابن خلدون في مجال التعليم والقضاء والسياسة انما كان منشؤها هذه الصلة الشخصية . وحيثما كان يشغر منصب ما ، سواء أكان ذلك في مدرسة ما ام في قضاء المالكية ، كان السلطان يفكر بابن خلدون على انه الاول والاصح له . وقد وجد ابن خلدون في برقوق من يحبه ويرعاه ، بحيث انه اغرقه بالمن والالطاف واغدق عليه العطاء وحياه من العطف ما يسر له السير في مشاريعه . وقد اعترف ابن خلدون باستمرار بالمقام الخاص الذي ناله والخير الذي جناه من هذه الصلة . فقد كتب قائلاً « منذ ان وصلت مصر والسلطان يحبوني بعطفه . لقد انساني فرقتي وابتعادي عن وطني » . هذه الصلة بصاحبه الأمر كانت الدعامة الاساسية لحياته في مصر ، وهي المفتاح الذي يعيننا على فهم نشاطه التالي هناك (٢٣) .

ابن خلدون المعلم

كان اول منصب تولاه ابن خلدون في ظل برقوق هو وظيفة استاذ في المدرسة القمحية في القاهرة سنة ١٣٨٤ (٢٤) . كانت القمحية من منشآت صلاح الدين وقد خصها بتدريس الفقه المالكي . وقد عين ابن خلدون مديراً للتعليم بها وظل في عمله بضع سنوات . وقد كان اول دروسه فيها حدثاً ادبياً ، فقد حضره

كثيرون من اعيان البلاط . وكتاب « التعريف » يروي انه تحدث في ذلك اليوم عن الأسلام وانتشاره التاريخي وعن مجد مصر وصاحب امرها وتغني بمديح الممالك وخص برقوق بقسط منه كبير وقال « اولوني عناية وتشريفاً ، وغمروني احساناً ومعروفاً ، واوسعوا بمهمتي ايضاحاً ، ونكرتي تعريفاً . » (٢٥)
وقد عهد الى ابن خلدون بتدريس الفقه المالكي في المدرسة الظاهرية الكائنة في حي بين القصرين (٢٦) فقام بذلك بعض الوقت حتى ذهب لاداء فريضة الحج . وبعد عودة ابن خلدون من مكة سنة ١٣٨٩ عينه برقوق استاذاً للحديث في مدرسة صرغتمش التي بناها الأمير سيف الدين صرغتمش وجعلها مقفاً .
وقد فصل ابن خلدون اخبار درسه الاول فيها في التعريف ، وكان درساً يلور حول موطأ مالك بن أنس (توفي ٧٩٥ م) ، الذي كان ابن خلدون قد درسه على خيرة الاساتذة في تونس (٢٦) .

وقد احس ان اول ظهور له في هذه المدرسة كان نجاحاً كبيراً . فقد كتب « وانقض ذلك المجلس ، وقد لاحظتني بالتجلة والوقار العيون ، واستشعرت اهليتي للمناجب القلوب . واخلص النجى في ذلك الخاصة والجمهور » (٢٧) .
وقد اثار في نفسه ان حضر الدرس كثيرون من الرجال الممتازين ، وقد صفقوا له . وبعد ان ترك مدرسة صرغتمش بسنة واحدة عهد اليه بادارة الخانقاه البيبرسية وهي مؤسسة صوفية هامة . ولم يعد عليه ذلك المنصب بالفخر فحسب ، ولكنه حمل اليه غنماً مادياً كبيراً (٢٨) . وقد خص درسه الاول في هذه المناسبة « بالعصبية » وانطباقها على تاريخ مصر في عهد الممالك (٢٩) .

وقد اعتُبر ابن خلدون انه على درجة كبيرة من المقدرة كعالم واستاذ . فقد ترك في نفوس اولئك الذين حضروا دروسه اثرأ حميداً . والمصادر المعاصرة تؤكد هذه الحقيقة المرة بعد المرة ، وهي ببللك توحيد حكمه على نفسه . فان ابن حجر الذي عرفه شخصياً والذي حضر الكثير من دروسه يقول عنه انه « كان سلساً وحسن المحاضرة » . وابن الركاكي ، الذي كان ينقده نقداً شديداً ، يعترف بان « القاءه كان في غاية الجودة والإمتاع » . ومثل ذلك يقول الغيني ،

وهو الذي يتهم ابن خلدون بأعمال تدعو إلى اللوم . وحتى البشيشي يمتدح
مقدرته كمعلم جيد ومحدث لبق (٣٠) . اما المقرئزي فانه ، بطبيعة الحال ،
يكثّر من مدح شيخه كما كان يسمى ابن خلدون (٣١) .

ابن خلدون القاضي

ان الدور الاكبر الذي أُعِدَّ لابن خلدون لم يكن في مجال التعليم ، لكن
في منصب قاضي القضاة ، المنصب الذي شغله ما لا يقل عن ست مرات اثناء
اقامته في مصر (٣٢) ، ذلك المنصب الذي تمثّل فيه نشاطه الرئيسي في القاهرة .
فقد كان قضاة القضاة هم اصحاب الفصل في شؤون القضاة في مصر . وقد
كان هؤلاء اربعة ، واحداً لكل مذهب منذ ان جعل السلطان بيبرس الأمر
كذلك (١٢٦٠ / ٧٧٦) (٣٣) . وقد كان لقاضي القضاة الشافعي : وهو
المذهب الرسمي في مصر ، التقدم على الآخرين . فقد كان له سلطة تفوق
سلطتهم ، وكان له الاشراف على الايتام والوصايا واليهود وما الى ذلك .

وقد كان تعيين قاضي القضاة ، كما يراه الاسلام نظراً وعملاً ، امراً ملكياً
خاصاً بولي الأمر . ومن ثم فقد كان من صلاحيات برقوق ان يعهد بهذا المنصب
الى ابن خلدون . ويتضح لنا ، عندما نتذكر الصداقة الوثيقة التي كانت بين
الرجلين ، لماذا كان برقوق يعين ابن خلدون في منصب القاضي المالكي كلما
خلا المنصب من شاغله (٣٤) . وقد حاول ابن خلدون رفض مثل هذا الشرف ،
لكنه حُصِّل في آخر الأمر على التزول عند رغبة صديقه العالي الشأن والحاحه ،
فتقبل خلة من يد برقوق لمناسبة تنصيبه قاضياً للقضاة ، وتولى العمل في آب
(اغسطس) ١٣٨٤ (١٩ جمادى الآخرة ٨٦٧) (٣٥) . فوجد نفسه مدفوعاً
للمرة الثانية الى الحياة العامة : وهي الحياة التي كان يأمل في الانصراف عنها .
واخذ بتصريف شؤون القضاة من المدرسة الصلاحية في حي بين القصرين
(قصري الفاطميين) في القاهرة .

اقبل ابن خلدون على عمله بخير ما عنده من النية الطيبة . وبالكثير من

النتالية ، ملوكاً تمام الإدراك واجبه نحو الناس ونحو السلطان . وهو حامي . وجرب ان يحقق ، غاية ما يستطيع ، هذه الثقة التي وضعها السلطان فيه . فهو يقول « قممت بما دفع الي من ذلك المقام المحمود ، ووفيت جهدي بما امنني عليه من احكام الله ، لا تأخذني في الحق لومة لائم ، ولا يزعني عنه جاه ولا سطوة ، مسوياً في ذلك بين الخصمين ، آخذاً بحق الضعيف من الحكيم ... جانحاً الى التثبت في سماع البيئات ، واجراء العدل مجراه » (٣٦) . ويشرح لنا ابن خلدون الأسس التي استرشد بها في القضاء بين الناس ، وبين الصعوبات التي لقيها . فقد اشاح عن امجاد كان يقبلها غيره من القضاة ، واصر على مقاومة اي ضغط كان يقوم به زملاؤه لحمله على المشاركة في أمور متعارف عليها . وقد كان الشهود العقبة الرئيسية في طريقه ، اذ ان البعض منهم كان يخون الأمانة او انه كان واقعاً تحت نفوذ رجال الدولة ، وبذلك استعمل هذا البعض منصبه لمغايات نفعية شخصية او تحزبية . وكان على ابن خلدون ان يعنى بالمفتين ، الذين كانوا يتخذون صفة القضاة ويصدرون احكاماً تحالف رأي المحكمة . ووصفه للاصلاحات التي رأى من الضروري ادخالها — من مثل إلغاء ظلمات معينة واصلاح بعض ما تواضع عليه الأعيان والأمراء من وسائل دنيئة — على غاية الخطورة لفهم النواحي القانونية لتلك الفترة من تاريخ المماليك (٣٧) . وما لبث ابن خلدون ان مر به اختبار مرير . فقد لقيت اصلاحاته مقاومة عنيفة ، واثارت البغضاء والاستياء في الدوائر القوية النفوذ . ولعل خصومه كانوا يحسدونه لما كان يتمتع به من طيب الاحدثة عند السلطان ، ولأنهم كانوا يخشون ان تنتزع من ايديهم صلاحيات منحهم اياها الزمن ، ولو أنها غير مشروعة . ويروي في التعريف « فكثرت الشغب عليّ من كل جانب ، واظلم الجوييني وبين اصحاب الوظائف » (٣٨) .

يبدو أن تعيين ابن خلدون في منصب قضاء القضاة قد اثار من اول الأمر ازوار الأعيان وبرمهم . فقد كانوا يرون في تعيينه للتدريس في الأزهر او للمحمية او مدرسة صرغتمش امراً حقاً ومناسباً لرجل له صفات ابن خلدون ،

أما ان يُدعى « غريب » ، وحديث عهد بالمبوط في ارض مصر ، ليشغل احد المناصب القضائية الرئيسية ، ثم يجرؤ على ادخال اصلاح ، والغاء مصطلحات ورسوم ثابتة ، فأمر لم يكن في مقدور الناس تقبله عن طيب خاطر وبدون اعتراض . وعلى كل فان المعارضة التي لقيها احدثت رجة في دوائر القاهرة الرسمية ، ودعي القضاء والمفتون الى اجتماع خاص لبحث قضيته (٣٩) . وقد وصلت انباء تعيينه قاضياً واخبار الصعوبات التي لقيها الغرب ايضاً ، حيث قيل في التعبير عن الاشمئزاز « كنا نعد خطة القضاء اعظم المناصب فلما وليها هذا (ابن خلدون) ، عددناها بالضد من ذلك » . واضاف السخاوي « ويقال ان اهل المغرب لما بلغهم ولايته (ابن خلدون) القضاء تعجبوا ونسبوا المصريين الى قلة المعرفة » (٤٠) . ولكن هذا القول الذي نقله السخاوي في ترجمته لابن خلدون يفقد الكثير من قيمته متى عرف القارئ ان صاحبه هو محمد بن عرفة ، مفتي تونس ، وهو اكبر خصوم ابن خلدون واشدهم عنفاً ، بحيث لا ينتظر منه اصدار حكم عادل في اية قضية تتعلق به (٤١) . ولكن نفراً من معاصري ابن خلدون من المصريين اعربوا عن استيائهم من الطريقة التي تصرف فيها ابن خلدون في شؤون القضاء . فالسخاوي يقول « فتنكر للناس بحيث لم يقيم لأحد من القضاة لما دخلوا للسلام عليه مع اعتذاره لمن عتبه عليه في الحملة ، وفنك في كثير من اعيان الموقعين والشهود وصار يعزr بالصنع ويسمي الزج فاذا غضب على انسان قال زجوه فيصفع حتى تحمر رقبته . » (٤٢) ومع ذلك فان مؤرخاً ومترجماً وضويعاً مثل تغري بردي يؤكد من جهة اخرى ان ابن خلدون كان يقوم بواجبه في القضاء مع مراعاة الكمال ، ويقرر ، ايضاً ، انه كان شديداً ، عندما يقول « كان ابن خلدون مسرفاً في دقته . فقد تجاهل شفاعة كبار القوم في البلاد ، وابن ان يصغي الى توسلات الأغنياء . ولذلك فقد تكلموا عليه أمام السلطان حتى انه أعفاه من القضاء » (٤٣) . أما بعض النقاد الآخرين ، مثل الركراكي ، فقد عارضوا ابن خلدون على أساس الجهل والضعف في الأمور الشرعية وقلة اطلاعه على المصطلح والرسوم المقبولة (٤٤) .

ويبدو أن ابن خلدون نفسه كان يرى ان مقاومة جماعة من كبار رجال الحكومة له انما يرجع الى رفضه قبول الرشوة (وقد كان قبول الرشوة أمراً متفقاً عليه) وإلى تشدده في أن يكون قضاؤه في الأمر الذي بين يديه قائماً على طبيعة القضية .

وبالرغم من المحاولات التي بذلت لحمل برقوق على عزل الرجل الذي وضعه تحت حمايته ، فان السلطان أبداه طويلاً . ولا شك أن هذا التأيد الأدبي هو الذي حمل ابن خلدون على القول « فقامت في ذلك المقام المحمود ، ووفيت عهد الله وعهده (السلطان) في اقامة رسوم الحق » (٤٥)

ومع ذلك فقد ابدى رغبة في اعتزال منصبه القضائي ، وزادادت رغبته في ذلك لما بلغه ان المركب الذي كان يحمل زوجته وابنه قد غرق . يقول ابن خلدون « نعظم المصائب والجزع » (٤٦) ورجع الزهد ، واعتزمت على الخروج عن المنصب ، فلم يوافقني عليه ، لكنني خشيت ان النصيح ... خشية من تكبير السلطان وسخطه (٤٧) . « لكن يقول « شملتني نعمة السلطان — ابده الله — في النظر بعين الرحمة وتخلية سبيلي من هذه المهلة التي لم اطق حملها (٤٨) ، وما يجدر ملاحظته هو أن ابن خلدون ، رغم انه نحى عن القضاء ، فقد ظل السلطان يفتدق عليه نعمة ويوليه تأييده ، وقد عهد اليه بتدريس الفقه المالكي في المدرسة الظاهرية (٤٩) .

يقول ابن خلدون في التعريف ان اصدقائه ومريديه أمّلوا ان يروه في منصب القاضي ثانية . وقد تحقق هذا ، ولكن بعد اربع عشرة سنة . إذ لما فرغ المنصب بوفاة قاضي القضاء المالكي في عام ١٣٩٩ أعاد برقوق ابن خلدون إلى هذا المنصب الهام .

والظاهر أن ابن خلدون كان على آتم الاستعداد لقبول وظيفة قاض ، التي جهد في الحصول عليها منذ ان عزل لاول مرة . ففي ساعة من ساعات الثقة في النفس نراه يقول « وكان (السلطان برقوق) يراني الاولى بذلك ، لولا وجود الذين شغبوا من قبل في شأني من امراء دولته وكبار حاشيته ، حتى انقضوا ،

وانفقت وفاة قاضي المالكية ... وكنت مقيماً بالفيوم - لضم زرعي هنالك :
فبث عني وقلدني وظيفة القضاء . . . ويقول عن تعيينه وعمله « فجريت على
السنن المعروف مني ، من القيام بما يجب للوظيفة شرعاً وعادة وكان رحمه الله
يرضى بما يسمع عني في ذلك » (٥٠) .

ولم يكد يمر عام على تعيين ابن خلدون ثانية في القضاء حتى توفي صديقه
وحاميهِ السلطان برقوق (حزيران - يونيو - ١٣٩٩) . وبما ان قاضي القضاء
يعينه السلطان شخصياً ، فانه ، بحسب العادة الاسلامية ، يفقد وظيفته ، بحكم
الطبيعة ، عند وفاة السلطان ، ما لم يُعده السلطان الجديد إلى وظيفته . وقد
فعل ذلك السلطان فرج بن السلطان برقوق ، إذ ثبت ابن خلدون في وظيفته
عملاً بوصية ابيه (٥١) . على أن ابن خلدون لم يلبث ان تعرض الى حملة
جديدة ، او على الأصح الحملة القديمة على شكل أشد . وكان مما آتهم به انه زاد
عدد نواب القاضي والشهود ، الأمر الذي لم يفعله في ولايته الاولى للقضاء (٥٢) .
وقد كان بمصر فقيه من المالكية « ينوب أكثر اوقاته عن قضاة المالكية ،
فحضره بعض اصحابه على السعي في المنصب » (٥٣) . ويتهمه ابن خلدون
بأنه رشاكبار أهل الدولة والامراء ليعينوه ، ويقول أن هذا الساعي تمت سعابته :
وبذلك عزل ابن خلدون من وظيفته في ايلول - سبتمبر - ١٤٠٠ (المحرم
٨٠٣) (٥٤) .

وعزله الثاني هذا من وظيفة القضاء ، لم يضع حداً لعمله كقاض . ولا شك
في أن دعوة ابن خلدون لا اقل من اربع مرات لتولي القضاء بعد عزله للمرة
الثانية يلقي كثيراً من الضوء الخاص على حال الدولة في ذلك الوقت . وقد مر
بابن خلدون اكبر حادث ، في تاريخ حياته قبل ان اعيد للقضاء للمرة الثالثة ،
ذلك هو التقاؤه بتيemor في دمشق (٥٥) في مطلع سنة ١٤٠١ . وغياب ابن
خلدون الطويل عن القاهرة حمل الناس على الظن بانه توفي . فلما خلا منصب
قاضي القضاة المالكي في القاهرة لم يكن ابن خلدون حاضراً ليملاه .
ولما عاد ابن خلدون من دمشق إلى القاهرة كان كثير الاهتمام بالعودة الى

القضاء . وتتواتر المصادر على انه كان حريصاً على ان يعين ثانية وانه نجح فعلاً (٥٦) . فقد أراد السلطان فرج ، على ما يبدو ، ان يكافئ ابن خلدون على ما قام به في سبيل المماليك وهو بدمشق وسفارته الى تيمور ، فعزل القاضي المالكي وهو جمال الدين عبدالله الأزهري (٥٧) بعد شهر واحد فقط من تعيينه في وظيفته « وأعاد ابن خلدون الى وظيفة قاضي القضاء » . كان هذا في نيسان (ابريل) ١٤٠١ (شعبان ٨٠٣) .

وقد لقي ابن خلدون حتى في ولايته الثالثة للقضاء سعيات ومخاطر ، فعزل مرة أخرى في شباط (فبراير) ١٤٠٢ (رجب ٨٠٤) ، ولكنه أعيد في تموز (يوليو) ١٤٠٢ (ذي الحجة ٨٠٤) وولي القضاء للمرة الرابعة الى ايلول (سبتمبر) ١٤٠٣ (ربيع الاول ٨٠٦) . وفي شباط (فبراير) ١٤٠٥ (شعبان ٨٠٧) ولي القضاء للمرة الخامسة وظل فيه فقط الى ايار (مايو) ١٤٠٥ (ذى القعدة ٨٠٧) (٥٨) . وفي كانون الثاني (يناير) ١٤٠٦ (شعبان ٨٠٨) ولي القضاء مرة أخرى . ولكن لم يمر عليه الا وقت قصير (٥٩) حتى دهمه الموت (٦٠) فوضع حداً لحياته (٦١) في آذار (مارس) ١٤٠٦ (رمضان ٨٠٨) (٦٢) .

ابن خلدون مستشار الشؤون المغربية

لم تنقطع صلة ابن خلدون بالمغرب واسبانيا لما غادر تونس . لقد ظل يرأس الأصدقاء والعلماء ورجال السياسة ، وكانوا هم يتابعون اخباره ونجاحه في وطنه الجديد باهتمام كبير . وكان الزوار والحجاج (٦٣) والتجار من أهل المغرب يزورون ابن خلدون ، ابنهم الكبير ، إذا مروا بالقاهرة (٦٤) ، فكانوا يملونه دوماً بأخبار وطنه الاول . وقد كان هؤلاء الناس انفسهم هم الذين يحملون اليه أخبار المشرق لما كان هو مقيماً في المغرب (٦٥) . وكثيراً ما كان ابن خلدون واسطة تعريف هؤلاء بالسلطان . وقد تعرضت مرة قافلة حجاج مغربية للنهب وهي في طريقها إلى مكة ، فطلب أصحابها حماية السلطان وكان ذلك بوساطة

ابن خلدون الشخصية . وقد حدث ان هبط القاهرة رجل مغربي معروف اسمه الشيخ يوسف ورجا ان يتدخل السلطان برقوق في مصلحته مع سلطان تونس ، وكان برقوق في سورية . فتولى ابن خلدون الأمر . فلما عاد برقوق إلى القاهرة قدم ابن خلدون الشيخ إلى السلطان ، فلي طلب الشيخ (٦٦) . واحتفاظ ابن خلدون بصلاته مع اكابر القوم في شمال افريقية كان في نظر السلطان برقوق أمراً فيه الخير والفائدة .

ويبدو أن التأييد المطلق الذي كان ابن خلدون يلقاه لدى السلطان برقوق ، لم يكن الباعث عليه عناية السلطان بالعلماء عامة وابن خلدون خاصة باعتباره مؤرخاً كبيراً ، انما كانت ثمة رغبة عند السلطان في أن يفيد من مهارة ابن خلدون الدبلوماسية ومقدرته واتصالاته بالمغرب . ذلك بان السلطان كان حريصاً على الحفاظ على صلات الود مع جيرانه في المغرب . وفي الواقع أن دور ابن خلدون في الوساطة بين مصر والمغرب ، بين الشرق والغرب ، مدونة في فصل خاص من التعريف هو « السعاية في المهاداة والالطاف بين ملوك المغرب والملك الظاهر . » (٦٧)

وقد كانت العلاقات « الدبلوماسية » بين حكام شمال افريقية وسلاطين الممالك في القاهرة تتخذ شكل تبادل الهدايا والرسائل والسفراء (٦٨) . وقد كانت هذه عادة قديمة العهد ، واستمرت على ذلك في أيام السلطان برقوق . فقد كان برقوق شديد الرغبة في الحصول على الاشياء الثمينة النادرة مما يوجد في المغرب وخاصة السلاح والحلي والبغال والخيل والسيوف والحريز والكتان والقنب والخلود والأصباغ والنحاس ، فافاد من صلات ابن خلدون مع حكام الغرب . وقد كان أشد هذه الامور طلباً خيول المغرب — وقد كانت الخيول مما يصدر حتى إلى ايطاليا وغيرها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

ومن الأمور البارزة انه لم يكذب ابن خلدون تتوثق صلته ببرقوق ، حتى كتب إلى سلطان تونس يحثه على ارسال بعض الخيول الى برقوق — ولعل الأخير اقترح ذلك — لان خيول مصر من حيث القوة والجمال لا تدار في خيول المغرب .

وقد ارسلت خمسة احصنة إلى برقوق ، لكنها لم تصله . فقد كانت ظهر على المركب الذي هلك فيه زوج ابن خلدون وابنه اذ ثارت عليه عاصفة شديدة . وقد رغب برقوق ايضاً أن يتناع خيولاً . يقول مؤلف التعريف « وبعث (برقوق) الي ، فحضرت بين يديه وشاورني في ذلك (شراء الخيول من المغرب) فوافقته ، وسألني كيف يكون طريقه (طريق المملوك) ، فاشرت بالكتاب في ذلك إلى سلطان تونس . » (٦٩) هذه وغيرها مما ورد في التعريف تشير إلى الدور الذي قام به ابن خلدون ، ولو إلى حين ، بوصفه خبيراً ومشيراً في الشؤون المتعلقة بالمغرب . ويبدو أن ابن خلدون كان يدرك قيمة العمل الذي يقوم به لبرقوق ، ولخرج من بعده ، ويؤكد انه اكتسب بذلك سمعة « بسبب انهماكهم في اقامة صلوات دائمة بين هذين الملكين . » (٧٠)

ولعلّ هذا التعلق بالمغرب يفسر لنا احتفاظ ابن خلدون بزيه المغربي ، فلم يتخذ له زياً القاضي المصري ، الأمر الذي عابه عليه خصومه من معاصريه (٧١) . فقد ظل طيلة حياته « مغربياً » وغريباً ، وكان يبدي ذلك بشكل واضح في زيه وفي اشيائه اخر (٧٢) . وبما يلفت النظر بشكل خاص انه إثر عودته من دمشق إلى القاهرة بعث إلى سلطان المغرب بتفاصيل ما جرى له مع تيمور ، وذلك تجديدياً لصلاته بالمغرب (٧٣) .

ابن خلدون الرحالة

كانت حياة ابن خلدون في الغرب حياة مثيرة . فقد تقلب في مناصب رفيعة متعددة ، لكنه كان ينتقل من سيد إلى سيد بقليل ما يبدل مكان نشاطه . فقد رأيناه في تونس وبسكرة وبجاية وتلمسان وغيرها من مدن شمال افريقية ، وفي غرناطة واسبيليه في الأندلس . أما في مصر فقد كانت حياته مستقرة بعض الاستقرار . ولم يترك مصر ، اثناء اقامته فيها ، سوى ثلاث مرات : إلى مكة وإلى دمشق وبيت المقدس وإلى دمشق ثانية . وكانت غيبته قصيرة ، وضع خطة اداء فريضة الحج في سنة ١٣٨٢ ، لما غادر تونس ، ولكنه لم

يقم بها الا في سنة ١٣٨٧ (رمضان ٧٨٩) . وقد اذن له برفق بذلك كما أنه زوده بالموثقة والتقد وودعه . فلما عاد في ايار (مايو) ١٣٨٨ (جمادى الاولى ٧٩٠) مثل بين يديّ السلطان وحديثه عما جرى له . وقد بعث الحجج في نفس ابن خلدون نشاطاً ، إذ لقي كثيرين من علماء الغرب والشرق (٧٤) .

وبعد ثلاث عشرة سنة خرج في سنة ١٤٠٠ (٨٠٢) لأول مرة إلى دمشق والقدس والأماكن المقدسة ، ولم يكن من قبل معروفاً انه كان « مسافراً إلى القدس » ، والأشارة الوحيدة إلى ذلك في المخطوطة الجديدة للتعريف (٧٥) : ويصف زيارته للقدس والمسجد الأقصى حيث ادى الصلاة ، ولكنه تمنع عن دخول كنيسة القيامة (٧٦) . ومن القدس ذهب إلى الخليل إلى مقام ابراهيم ، وفي طريقه مر ببيت لحم حيث اعجبه « البناء العظيم على موضع ميلاد المسيح » (٧٧) . ويرجع انه عاد إلى القاهرة في ايار (مايو) ١٤٠٠ ، منضمّاً في طريق عودته إلى جماعة السلطان فرج بظاهر المدينة وهو في طريق عودته من دمشق منتصراً على نائب السلطنة بسورية الأمير تم الذي كان قد ثار على السلطان .

كانت رحلتا ابن خلدون إلى مكة وإلى القدس ارضاء لشعوره الديني ورغبة منه في العلم . لكن رحلته الثالثة والأخيرة إلى دمشق كانت شيئاً فرضه عليه السلطان فرج . ولنتذكر ان السلطان فرج ، لما بلغه خبر زحف تيمور على دمشق ، أعد حملة لصده مع جيشه (٧٨) . وقد اقنع الأمير يشبك ابن خلدون ان يصحب الجيش إلى دمشق (٧٩) . فغادر القاهرة مع الجماعة السلطانية في ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٤٠٠ ، ووصل دمشق في ٢٦ كانون الاول (ديسمبر) وظل فيها إلى ١٤ شباط (فبراير) ١٤٠١ حيث عاد إلى القاهرة فوصلها في ١٧ آذار (مارس) ١٤٠١ (شعبان ٨٠٣)

والدور الذي قام به ابن خلدون في دمشق وتدلّيه من سور المدينة كي يلقي تيمور ، اكبر فاتحي العالم في عصره ، والأمر التي تحدثنا عنها في مدة خمسة وثلاثين يوماً — جميع هذه الأمور تمثل النروة في حياة ابن خلدون المليئة.

بالأحداث (٨١) ، وكانت خاتمة سلسلة من الحوادث بدأت قبل أربعين سنة إذ أرسل سفيراً إلى بلاط الملك النصراني بلور الظالم في اشبيلية (٨١) . وقد اتاحت هذه الأسفار لابن خلدون الفرص لتوسيع آفاقه والتعرف على مناطق وارض جديدة والالتقاء بالعلماء المشاركة ، وفوق كل ذلك الاطلاع على الكتب والوثائق في مكتبات الشرق وغزائنه ، وهي لم يكن ليراها لولا تنقله واسفاره (٨٢) . وقد كان الرجل ، على ما يبدو ، العالم الرحالة ، حتى ان الهدف الديني من حجه يبدو وكأنه فقد مكانه الأصلي . فانه يفصح عن ذلك بقوله « ثم كانت الرحلة الى المشرق لاجتلاء انواره ، وقضاء الفرض والسنة في مطافه ومزاره ، والوقوف على آثاره في دواوينه واسفاره » (٨٣) . وقد جمع في القدس معلومات تتعلق بالعوامل الجغرافية والمناخية عن البلاد ، الأمر الذي يفسر لنا وصفه الدقيق كما يبدو في مقدمته (٨٤) . وقد استغل كذلك زيارته الاولى لدمشق للافادة العلمية ، كما يظهر من عبارة في المقدمة انه « وجد في احد مكتبات دمشق مخطوطة من تاريخ ابن كثير (٨٥) وانه عثر فيها في حوادث سنة ٧٢٤ (١٣٢٤) على ترجمة « كان يفتش عنها .

ابن خلدون المؤلف

لما غادر ابن خلدون تونس كان يعترزم ان ينصرف بكليته إلى الدرس وتجديد هواياته العلمية (٨٦) . ولكن ، كما لاحظنا من قبل ، لم تجر الرياح كما اشتهى . فقد أصابه في مصر ما أصابه في المغرب ، من صراع في نفسه بين رغبة ملحة للعمل والحصول على القوة والنفوذ في الجهة الواحدة ، والتفاني في سبيل العلم في الجهة الثانية . هذا الصراع الذي ظل الصفة التي غلبت على شخصيته (٨٧) . فقد كان في الوظائف العامة والمناصب العليا من الاغراء ما يجعله على تفضيلها على عزلة حياة العلماء .

فانه لم يكد يصل القاهرة حتى انجذب إلى الحياة العامة وحمل على التدخل في السعاب وما تتطلبه السياسة من ملاسبات ، خاصة لما عين قاضي القضاة

المالكي - وهذه هي الأمور بعينها التي كان يتوق إلى تجنبها في بيئته الجديدة .
إلا أنه في الفترات التي كانت تمر به بين التعيين وال عزل - وهي حالة كادت
ان تكون مستمرة اثناء اقامته في مصر - كان يتابع اشتغاله بالعلم ، ويقضي
وقته في عزلة العلماء . وبعد ان مني ابن خلدون بمرارة الحيرة اثر عزله الاول
من القضاء اعترم للمرة الثانية ان يهب وقته جميعه « منذ تلك اللحظة » للتعلم ودرس
القرآن والتأليف « مؤملاً » من الله قطع صباية العمر في العبادة ومحو عوائق
السعادة . « (٨٨) وهكذا نجده بعد عودته من الحج يقول « ولزمت كسر
البيت تمتعاً بالعافية لابساً برد العزلة عاكفاً على قراءة العلم وتدريسه لهذا
العهد » (١٣٩٥) . وبعد عزله من القضاء للمرة الثانية (١٤٠١) قال ايضاً
« ورجعت أنا للاشتغال بما كنت مشغولاً به من تدريس العلم وتأليفه إلى أن
كان السفر للمدافعة تمر (تيمورلنك) عن الشام . » (٨٩)

وما لا ريب فيه ان ابن خلدون اتيح له في هذه السنوات الطوال ، التي
كانت تمر بين تحمله اعباء المناصب العامة واعتزاله ، ان يكون منتجاً في حقل
العلم . فما الذي كتبه ؟ ما هي الكتب التي وضعها في هذه السنوات الثلاث
والعشرين التي قضاها في مصر ؟ وما الذي كانت تعنيه هذه العبارة الواردة
مراراً « الكتابة في العلم وتأليف الكتب » ؟ ان ابن خلدون لايين قط نتائج
عمله العلمي في مصر .

لا شك في أن اعداد دروسه ومحاضراته كاستاذ للحديث والفقه وما اليهما ،
وخاصة خطبه في مفتتح التدريس - كل ذلك كان يستغرق الكثير من جهده
العلمي والأدبي . وقد نظم الشعر ايضاً ، ولو ان نقاده لم يروا فيه شيئاً يستحق
العناية (٩٠) . وكان ابن خلدون مغرم بكتابة الرسائل ، ومراسلاته مع
اصدقائه وقرنائه في المغرب تملأ المجلدات . يضاف إلى ذلك أن عمله كقاض ،
إلى جانب وظيفته كنصوح للسلطان برفوق ، كان يحتاج إلى الكثير من الوقت
والبحث والتحقيق ؛

ومع ذلك فهذا ما كان ليملاً وقته ولا ليرضي مطامحه العلمية ؛ وأما انه

انتج أكثر من هذا فأمر لا يحتاج إلى دليل .

من المشهور ان مؤلفيه العلميين (٩١) اللذين تقوم عليهما شهرته على أنه أحد كبار مؤرخي الإسلام قد وضعهما واتمهما مبدئياً وهو بعد في المغرب ، فان مؤلفه التاريخي « كتاب العبر » وضع (٩٢) بين سنتي ١٣٧٤ و ١٣٧٨ ، وقد رفع اجزاء منه إلى السلطان أبي العباس في تونس سنة ١٣٨٢ (٧٨٤) ، اي في السنة نفسها التي رحل فيها إلى مصر . على ان الكتب الموجودة اليوم بين أيدينا من هذا الكتاب تدل على انه أجرى فيها تغييرات و اضاف اليه زيادات اثناء اقامته بمصر (٩٣) .

وفي الواقع فليس ثمة من ريب في أن ابن خلدون قضى سنوات كثيرة في مصر يقرأ ويبحث وينقب في سبيل إعادة النظر في كتبه والزيادة فيها . فقد اضيف إلى النسخة الأصلية لكل من المقدمة والعبر فصول وجمل هي نتائج اختباراته اثناء اقامته في مصر ، ومأخوذة من مصادر لم يتيسر له الحصول عليها وهو في تونس . ودراسة نقدية مع تحليل ومقارنة للنسخ الخطية الموجودة بين أيدينا للمقدمة وكتاب العبر (وهي دراسة كان يجب أن تتم من قبل) تمكننا من الوصول إلى طبيعة ما اضاف به ابن خلدون في مصر إلى مخطوطاته الأصلية والتقدير الذي اضاف به . ولكن ، حتى وان قمنا بتحقيق محلود النطاق فان هذا التحقيق يدلنا على ان المقدمة في شكلها النهائي فيها قدر لا يستهان به من المادة الجديدة التي جاءت من مصر . واثرا اقامته في مصر على المقدمة واضح من قوله « ولقد وقفت بمصر على تأليف متعددة (في الفلسفة والعلم) لرجل من عظماء هراة من بلادخراسان يشهر بسعد الدين التفتازاني (المتوفى ١٣٩٠) » (٩٤) . أو قوله انه كان في مصر لما قبض السلطان برقوق على الأمير محمود وصادر أمواله (٩٥) . وقوله ايضاً أنه لما كان في المشرق (٩٦) ومثل هذه الأقوال موجودة متفرقة في اجزاء المقدمة (٩٧) .

وواضح إذن أن مؤلفاته التاريخية لم توضع بشكلها النهائي في المغرب ، إنما كان يُغيّر فيها ويضاف اليها باستمرار في المشرق ، على مراحل مختلفة

و درجات مختلفة ايضاً (٩٨) ، وقد ازداد معرفة نتيجة لاسفاره وملاحظاته
ونتيجة لاطلاعه على خزائن الأدب في مصر وغيرها (٩٩) .

إلا أن جهود ابن خلدون في العلم في مصر لم تقتصر على مراجعة ما كان قد
وضعه من قبل . لقد وضع ايضاً شيئاً جديداً . فمن ذلك مؤلف ، وضعه في
القاهرة على ما يظهر ، هو ترجمة لتيমور ونسبه وتسببه السلطة وفتوحه
ومآثره (١٠٠) . ولما التقى تيمور ذلك اللقاء التاريخي في دمشق ، سأله تيمور
عن مؤلفاته ، قال ابن خلدون « قد وضعت كتاباً في تاريخ المشرق والمغرب
ذكرت فيه جميع الحكام . وقد هيأت اخبارك واود ان أقرأها عليك لتصحح
ما فيها من اخطاء . » (١٠١) فاذن له تيمور بذلك ، ولما سمع نسبه سأل ابن
خلدون أنى تأتت له معرفة كل هذا ، فاجاب « من ثقافة التجار الذين هبطوا
البلاد . » (١٠٢)

وثمة عمل أدبي آخر هو نتيجة هذا الحديث بين ابن خلدون وتيمور في
دمشق . فقد اظهر تيمور - وكان محباً للتاريخ كما هو معروف - اهتماماً خاصاً
بجغرافية المغرب وتاريخه . والظاهر ان ما زوده به ابن خلدون في اجابته على
استلته لم يرو غليله ، فقال « لا يقنعني هذا ، واحب أن تكتب لي بلاد
المغرب كلها اقصاها وأدانيها وجبالها وانهاره وقراه وامصارها حتى كأني
اشاهده . فقلت يحصل ذلك بسعادتك ... واقمت في كسر البيت ، واشتغلت
بما طلب مني في وصف بلاد المغرب فكتبته في أيام قليلة ، وأوعيت الغرض
فيه في مختصر وجيز يكون قدر ثلثي عشرة من الكرايس المنصفة القطع ،
ورفعته اليه فاخذته من يدي وأمر موقعه بترجمته إلى اللسان المغربي . » (١٠٣)
ولسنا نلري بالضبط فيما إذا كانت هذه الترجمة قد تمت فعلاً . فلا الترجمة
ولا الأصل العربي وصل إلينا .

وبالإضافة إلى ما قام به ابن خلدون من نشاط علمي اثناء اقامته في مصر من
مثل مراجعة مؤلفاته التاريخية وتوسيعها ووضع رسالة خاصة في تاريخ المغرب
وضع تاريخ التتار (الططر) وتيمور ، فان عمله الأصيل ، وهو آخر ما نفع

به العلم ، هو التعريف ، الذي هو ترجمة حاله بقلمه . والترجمة الشخصية لم تكن حدثاً جديداً في الأدب العربي ، (١٠٤) فقد فعل ذلك قبله وبعده كثير من أهل العلم . إلا أن ابن خلدون ، حينما قرّر ان يترك هذا النخر للأجيال التي تأتي بعده ، كان يدرك أن " اختباره الغد في حياته المليئة بالصور والعبر تستحق التدوين .

وقد كتب التعريف على دفعتين - الأولى تمت في مصر عام ١٣٩٤ وكان له اثنتان وستون سنة من العمر . وهذا الجزء هو الذي كان معروفاً إلى الآن . أما القسم الثاني الذي يروي احداث حياته حتى بضعة شهور قبل وفاته فقد كتب بعد عودته من دمشق سنة ١٤٠١ (٨٠٣) . وهذا القسم ، وهو الذي عثر عليه حديثاً ، يقع في نحو خمسين صفحة تتحدث عن اقامته في مصر ، هو مادة جديدة كلياً ، وهو المصدر الوحيد لمعرفة نشاط ابن خلدون في مصر (١٠٥) . قد ينقد التعريف من حيث قلة تنظيمه وتكرار العبارات . ولعله كتب في فترات متقطعة ، فصلاً " فصلاً " ، ولذلك فانه ينقصه وحدة العمل الادبي الذي يجب ان يطلع علينا به المؤلف . ومع كل ذلك النقص ، فان النسخة الخطية الكاملة التي عثرنا عليها للتعريف وثيقة انسانية تاريخية من الطراز الاول (١٠٦) . انها تمكننا من التفهم العميق لبعض النواحي السياسية والتعليمية والدينية والقضائية لحكم المماليك . وفوق هذا كله فانها مرشد لا يثمن لحياة رجل من اعظم الشخصيات التي عرفها الاسلام ونشاطه .

حاشية - بعد الفراغ من اعداد هذه الدراسة زرت استانبول حيث عثرت على نسختين اضافيتين كاملتين للتعريف . وسأفيد مما في هذين المصدرين الجديدين في الترجمة الانكليزية التي اعدتها للتعريف ، وفي دراستي عن ابن خلدون وتيمور ، التي هي على وشك ان تم . (وج.ف.)

Ibn Khaldun and Tamerlane, Berkley, 1952. هذه الدراسة تمت ونشرت بعنوان
(المترجم)

الهوامش

١ - من حيث الفكرة المتعلقة بالمصيبة راجع Fr. Gabrieli, « Il concetto dell' asabiyah nel pensiero storico di Ibn Khaldun, » Atti della Reale Accademia delle Scienze di Torino, LXV (1930), 473-512; T. Khemiri, « Der 'Asabya Begriff in der Mukaddima des Ibn Khaldun, » Der Islam, XXI (1936), 163-188; also Gaston Bouthol, « L'Esprit de corps selon Ibn Khaldoun, » Revue de Sociologie (Paris, 1932), والفصول المتعلقة بالموضوع في الدراسات التي وضعت من ابن خلدون .

٢ -- راجع R. Nicholson, A Literary History of the Arabs (London, 1923), pp. 428-429. Note also the pertinent remarks by V. V. Bartold in Mussulman Culture (Calcutta, 1934), p. 66: ابن خلدون الشهيرة هي اول المحاولات والوحيدة التي قام بها العرب للاستغناء عن طريقة الاخبار بالطريقة العلمية ، ووضعت قواعد لسير التاريخ . فقد كان التاريخ ، على ما فهمه ابن خلدون ، علماً جديداً ، لقد كانت نظرياته مستقلة تماماً عن نظريات اليونان العملية . فقامد اتبع المؤرخ العربي اختيارات تاريخية اوسع اتفقاً بما كان عند اليوناني . فبدلاً من ان يقتصر هذا المؤرخ العربي في اتخاذ اساس ينير سبيله في نظرياته من التأثير السيامي ، كما كانت الحال عند المؤرخ اليوناني ، فإنه اعتمد كثير الاحوال الاقتصادية والانتقال من البداوة الى الاستقرار ومن القرية الى المدينة . ولنا نعرف بعد أي معلمين واي كتب اثرت في ابن خلدون » .

٣ - J. Hammer - Purgstall, Ueber den Verfall des Islams nach den ersten 3 Jahrhunderten der Hidschra (1812).

٤ - L. Gumplowicz, « Ibn Chaldun, ein arabischer Soziologe des 14. - 15. Jahrhunderts, » in Soziologische Essays (Innsbruck, 1899).

٥ - Taha Hussain, Etude analytique et critique de la philosophie sociale d'Ibn Khaldoun (Paris, 1917).

٦ - A. von Kremer, *Ibn Khaldun und seine Cultur-Geschichte der islamischen Reiche* (Vienne, 1879).

٧ - R. Flint, *History of the Philosophy of History* (Edinburgh, 1893), pp. 157-170. See also A. Muller, *Der Islam im Morgen-und Abendland* (Berlin, 1878), Vol. II, p. 666.

مؤرخي العرب أجمالاً .

٨ - راجع آخر محاولات قام بها غرينباوم «As-Sakkaki on Milieu and Thought», JAOS, LXV, (1945), 62, and his *Medieval Islam* (Chicago, 1945), pp. 339-240.

٩ - يذكر ابن خلدون في مؤلفاته مدحاً كبيراً من الكتب العربية التي قرأها واستعملها . وسعد جديلاً كاملاً بأساء هذه المصادر لنشر في مناسبة تالية ، ولكن هذه كلها لن نرشدنا إلى حل القضية وهي أصول هذه الآراء الفلسفية والاجتماعية الأساسية التي استمد منها آراءه .

١٠ - من الضروري أن يتعرف المرء إلى تقلبات حياة الرجل وأن يفهم دوافعه وحقيقته العلمية .

v. Kremer, p. 6

١١ - راجع Kâmil Ayad, *Die Geschichts- und Gesellschaftslehre Ibn Khalduns* (Stuttgart, 1930) ; B. Rosenthal, *Ibn Khalduns Gedanken über den Staat* (Munich, 1932) ; H.A.B. Gibb, *The Islamic Background of Ibn Khaldun's Political Theory* (Bulletin, School of Oriental Studies; London, 1933), pp. 23-31; J. de Boer, *Geschichte der Philosophie im Islam* (Stuttgart, 1901) . G. Sarton, *Introduction to the History of Science* (Baltimore, 1948), vol. III, Pt. 2, pp. 1767-1779.

١٢ - حاجي خليفه ، الجزء الثاني ص ١٠١ رقم ٢٠٨٥ : راجع أيضاً Silvestre de Sacy, *Chrestomathie arabe* (Paris, 1826), Vol. I, pp. 390-394.

١٣ - نشر النص غير الكامل من ترجمة حياته في كتاب الأمير الجزء السابع ص ٢٧٩ - ٢٨٢ بعنوان «التعريف بأبن خلدون» . وقد لخص دي سلاتن هذه ونشرها في *Notices et Extraits* (Paris, 1844), pp. 50-60, 187-210 (Journal Asiatique, Paris, 1844). وقد أعيد نشره مع تصحيحات في *Notices et Extraits* (Paris, 1863-1868), Vol. XIX, pp. vi - 1xxxiii.

١٤ - إن كاتب هذه السطور حصل على صورة هذه المخطوطة ، وهي مكونة من ١٦٦ ورقة . وقد أشار بروكلمان (GAL, Suppl. II, pp. 342-3) إلى هذه المخطوطة لكنه من المؤكد أنه لم يعرف أنها مخطوطة كاملة للتعريف . راجع دراسات عن مخطوطات ابن خلدون G. Gabrieli, «Saggio di bibliografia e concordanza della storia

d'Ibn Haldun, « Rivista degli Studi Orientali, (Rome, 1924), 169 - 211; Nathaniel Schmidt, « The Manuscripts of Ibn Khaldun, » JAOS, XLVI (1926), 171-176, and his study, Ibn Khaldun (mentioned below), pp. 47 - 53; M. Plessner, « Beiträge zur islamischer Literaturgeschichte, » Islamica, IV (Leipzig, 1931), 538 - 542, وتماذج بشكل خاص مخطوطات المقدمة وكتاب المبرر
١٥ - الذي امره ان اول من لفت النظر الى هذه المخطوطة كان طه حسين (op. cit. p. 15)
وبن اشار اليها ولم يقرأها ، Nathaniel Schmidt, in his Ibn Khaldun, Historian, Sociologist and Philosopher (New York, 1930), pp. 39-41 ; J. Montgomery, in JAOS, LI (1931), 328, وحيث يشير الى
مخطوطة لم تشر بعد هي تلمة ترجمة ابن خلدون الشخصية . وقد اكتشفت حديثاً وقد افاد
منها محمد عبدالله عنان كثيراً في الترجمة الانكليزية لكتابه من ابن خلدون ، Ibn Khaldun, His Life and Work (Lahore, 1941) لكن دراسته كثيرة الاخطاء المطبعية
والنقلات وفيها كثير من علم الفقه .

١٦ - المؤلفات الاوروبية التي عالجت تاريخ مصر في عصر المماليك ليس فيها الا القليل مما يمكن
ان يفيدنا في هذه الناحية ، ولعل المؤلفين لم يدركوا أهمية الدور الذي قام به ابن خلدون
في مصر . راجع : G. Weil, Geschichte des Abbasidenchalfats in Eyp- ten, Vols I and II (Stuttgart, 1860; 1862); Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages (London, 1901); G. Wiet, L'Egypte arabe, de la conquête arabe à la conquête ottomane (642-1517) (Paris, 1937).

١٧ - ان البحث الذي قام به كاتب هذه السطور عن مخطوطات أخرى الرحلة أدى الى انه حصل من
الاستاذ هـ. رتر في استانبول على ما يبين وجود نسختين أخريين الرحلة ، الواحدة في
ابا صوفيا رقم ٣٢٠٠ والثانية في اسد افندي رقم ٢٢١٨ . ولم يكن بالامكان يومها
(٢٦ آب - اغسطس - ١٩٤٧) التأكد فيما اذا كانتا نسختين كاملتين ، بسبب وجودها
في داخل بلاد الاناضول ولم يكن الحصول عليها متيسراً . ولم يتمكن كاتب هذه السطور
من الاستيثاق فيما اذا كانت هذه النسخ المنفرقة في المشرق - مصر وتونس وغيرها - هي
كاملة . راجع الحاشية في آخر المقال .

١٨ - فيها يتعلق باين عرفة راجع التمرير ورقة ٩٠-٩١ (تاويت ٢٣٢) والمبرر الجزء السابع
ص ٤٤٩ و ٤٥١ . راجع ايضاً R. Brunschvig, La Berberie orientale sous les Hafides (Paris, 1947), Vol. II, p. 391,
خلدون من اقوى واهرز شخصيات البلاط الحفصي في القرن الرابع هجرى . ويمكن ان نعتبر
حسن اين عرفة ومنافسته لابن خلدون اسد الاسباب الرئيسية التي جعلت ابن خلدون على

مناذرة البلاد الى مصر .

١٩- التبريف ورقة ٩٦ (تأويت ٢٤٥) . يرى كثيرون ان ترك ابن خلدون ببلده كان في الواقع هرباً . راجع ابن حجر في MS Arabe 1603 Paris, fol. 223 ؛ شذرات ج ص ٧٧ . لقد أصر سلطان تونس أسرة ابن خلدون أملاً في حمله على المودة الى تونس . التبريف ورقة ٩٧ (تأويت ٢٤٩) .

٢٠- التبريف ورقة ٩٦-٩٧ (تأويت ٢٤٦-٢٤٨) ؛ المبرج ج ص ٥٢ .

٢١- التبريف ورقة ٩٦-٩٧ (تأويت ٢٤٧-٢٤٨) ؛ المبرج ج ص ٥٢ ؛ المنهل ورقة ٤٩ ؛ السخاوي جزء ٤ ص ١٤٦ .

٢٢- لا يشير ابن خلدون الى هذه الشخصية في التبريف بهذه المناسبة ، ولكن راجع المبرج جزء ص ٤٧٦-٤٧٨ ، المنهل ورقة ٤٩ ، النجوم جزء ٦ (النهرست الابيدي) ، السخاوي جزء ٤ ص ١٤٦ .

٢٣- في التبريف اماكن كثيرة يتحدث فيها ابن خلدون عن كرم برقوق وعطفه عليه ؛ التبريف ورقات ٩٧ ، ١٠٧ ، ١١٠ ، ١١٥ ، ١٢١ (تأويت ٢٤٩ ، ٢٧٩ ، ٢٨٥ ، ٢٩٤ ، ٣١٠ ، ٣١٠) رجع أيضاً للتبريف ورقة ١٤١-١٤٢ (تأويت ٣٦٦ وما بعدها) . راجع أيضاً المبرج جزء ٥ ص ٤٦٧ وما بعدها جزء ٧ ص ٤٥١-٤٥٢ .

٢٤- التبريف ورقات ٩٦-٩٧ ، ١٠٧ ، ١٠٨ (تأويت ٢٤٥ ، ٢٥٣ ، ٢٧٩) المخط ج ٢ ص ٣٦٤ ، ٣٦٤ ؛ السخاوي ج ٤ ص ١٤٦ .

٢٥- النص بكامله موجود في التبريف ورقة ١٠٨-١١٣ (تأويت ٢٨٥-٢٨٥) .

٢٦- التبريف ورقة ١١٥-١٢١ (تأويت ٢٩٤-٣١٠) ؛ ابن القرات جزء ٩ قسم ١ ص ١٥٠ المخط جزء ٧ ص ٤٠٣ .

٢٧- التبريف ورقة ١٢١ (تأويت ٣١٠) المخط ج ٢ ص ٤١٤-٤١٧ من الخاتمة في مصر .

٢٨- حسب رواية ابن القرات (ج ٩ قسم ١ ص ٦٥) فقد تلقى ابن خلدون خاتمة خاصة على مادتهم في الجبل على من يتولى التدريس في مدرسة عامة . راجع التبريف ورقة ١٠٩ ، ١٢٢ (تأويت ٢٧٥ ، ٣١٠ ، ٣١٢) . بخصوص معنى "خاتمة" راجع M. Quatremère in Maqrizi-Suluk (transl.; Paris, 1845), Vol. II, Pt. 2, pp. 70-79 .

٢٩- التبريف ورقة ١٢٤ ، ١٢٢ (تأويت ٣١٠-٣١٣ ، ٣٢١ وما بعدها) ؛ السخاوي ج ٤ ص ١٤٦ ؛ السخاوي ج ١ ص ٢١٨ ؛ شذرات ج ٧ ص ٧٧ .

٣٠- بخصوص الملأ الواردة أسأهم في السخاوي ج ٤ ص ١٤٧-١٤٨ راجع Brockelmann (GAL and Suppl.) and Encyclopaedia of Islam .

- ٣١- لم يكن المقرئ يملئاً حفر دوس ابن خلدون فحسب ، ولكنه كان معجباً به وتاباً له . وقد اشار اليه بقوله « شيعنا » و « اساذنا » . وقد تحدث عن « مقدمة » ابن خلدون حديث احترام وأشار اليها على انها فريدة وانها خلاصة للمعرفة والملم وانها لا تجارى وهي نتيجة علم عزيز وبصيرة نيرة . وقد نقل السخاوي (ج ٤ ص ١٤٧ ، ١٤٨) عن المقرئ من « للمقود » و « السلوك » (غير المنشور) . هل ان معاصري المقرئ لم يوافقوه على نظرتهم الى ابن خلدون ، وردوا اصحابه يابن خلدون الى انها كانتا يتفقان في الميل الى الفاطميين . ان اثر ابن خلدون في المقرئ حري بدراسة خاصة . راجع اغانة الامة بكشف الدمة للمقرئ (القاهرة ، ١٩٤٠) . والقلشني وهو معاصر لابن خلدون ينقل عن العبر كثيراً . راجع W. Bjoerkman, Beitræg zur Geschichte der Staatskanzlei im islamischen Aegypten (Hamburg, 1928); also G. Wiet, Les Biographies du Manhal Sufi (memoires de L'Institut d'Egypte, Cairo, 1932).
- ٣٢- لم يكن في عزل القاضي وتعيينه مرات متتلة اية غرابية في ذلك الوقت. فابن حجر السقلافي (ت ١٤٩٩) ، وهو من علماء تلك الايام ولي القضاء ست مرات. راجع Brockelmann, GAL, Vol. II, p. 67.
- ٣٣- راجع بخصوص بجرس الكتب الواردة ذكرها في الهامش رقم ١٦ اعلاه .
- ٣٤- كان ابن خلدون ، بوصفه مغريباً ، مالكي المذهب ، وهو المذهب الرسمي لثقال افريقيا .
- ٣٥- وردت اخبار توليته قضاء المالكية غير مرة في التعريف - ووقات ٩٨ ، ١٠٨ ، ١١١ ، ١١٥ ، ١٢١ (تلويث ٢٥٤ ، ٢٧٩ ، ٢٨٥ ، ٢٩٢ - ٣ ، ٣١١) ، راجع ايضاً كتابات معاصريه : النجدي ج ٦ ص ٢٤٢ ، ١٦٤ ، ١٢٢ ، ٢٧٠ ، ٢٧٦ ، المنهل ورقة ٦٩-٥٥ ، الخياط ج ٢ ص ٧٦ ، ١٩٠ ، ابن اياس ج ١ ص ٢٩٢ ، ٣٠٥ ، ٣١٥ ، ٣٣٧ ، ٣٤٢ : السيوطي ج ١ ص ٢١٨ ، ج ٢ ص ١٢٢-١٢٤ . هل ان جداول القضاء المالكين في ما رواه السيوطي ليست موضع نقشة تامة ، ولذلك يجب ضبطها بمقابلتها بمصادر اخرى .
- ٣٦- التعريف ووقات ٨٩ ، ٩٩ (تلويث ٢٥٤ ، ٢٥٨) ، العبر ج ٧ ص ٤٥٢ .
- ٣٧- يخص ابن خلدون منصب القاضي وما يمت ال وظيفته بصلة بفصل في مقدمته . راجع المقدمة ص ، ولا شك في انه افاد ما ذكره الماوردي في الاحكام السلطانية ، وهو وصف كلاسيكي . بخصوص كل ما يتعلق بالقاضي في الاسلام من حيث اصل المنصب والصفات المطالبة في القاضي الخ . راجع Emile Tyan, Histoire de l'organisation judiciaire en pays d'Islam (Lyon: Vol. I, 1938; Vol. II, 1943). Gaudefroy-Demombynes (in Revue des Etudes Islamiques, 1937, pp. 109-147) and J. Schacht (in Orientalia, Rome, 1948, Vol. XVII, pp. 515-519); Also Annemarie Schim mel, « Kalif und

«Kadi im spaetmittelalterlichen Aegypten, » in Die Welt des Islams (Berlin, 1942), Bd. 24, pp. 1-128.

راجع أيضاً التعريف (تلويث) ص ٢٥٥ وما بعدها (المترجم)

٣٨- التعريف ورقة ١٠٠ (تا ٢٥٩) . وقد استعمل ابن خلدون التعبير نفسه من قبل في تونس لما شعر بمدواة معاصريه بسبب نعم سبقت اليه في ما يشبه هذا . راجع التعريف ورقة ٢٩

(تا ٩١) ، اللبرج ص ٧٤٢٢ .

٣٩- التعريف ورقة ٩٨-٩٩ (تا ٢٥٩)

٤٠- السخاوي ج ٤ ص ١٣٦ .

٤١- راجع بشأنه هامش رقم ١٨

٤٢- السخاوي ج ٤ ص ١٤٦ .

٤٣- المنهل ورقة ٤٩-٥٠ .

٤٤- السخاوي ج ٤ ص ١٤٧ . والعبارة باسماها هي « وسئل عنه الزكراكي فقال مرى من العلوم الشرعية ، له معرفة بالعلوم العقلية من غير تقدم فيها . » (المترجم)

٤٥- التعريف ورقة ١١١ ، ١٢١ (تا ٣٨٥ ، ٣١٠)

٤٦- مأساة أسرة ابن خلدون راجع بشأنها التعريف ورقة ٩٧ ، ١٠٠ ، ١١١ ، ١٢٩ (تا ٢٥٣ ، ٢٥٩ ، ٢٨٥) ، وكان ابوا ابن خلدون قد توفيها أثناء الطاعون الاكبر في المغرب سنة ١٣٤٩ (التعريف ورقة ٢٤ - تا ٥٥) .

٤٧- التعريف ورقة ١٠٠ (تا ٢٥٩ - ٢٦٠) .

٤٨- نفس المكان ، التلويح ج ٦ ص ١٢٢ .

٤٩- كان من المؤلفين ان يكون للقضاة ، مع مناصبهم القضائية ، وظائف تدريسية في الحديث او الفقه في المدارس الكبرى . فلم يكن غريباً تجميع عدد من وظائف التدريس بيد القاضي راجع (Tyan, Vol. II, pp. 81-91)

٥٠- التعريف ورقة ١٣٣ (تا ٣٤٧) . هذا التمييز الثاني كان في ايسار (مايو) ١٣٩٩ (رمضان ٨٠١) .

٥١- نفس المكان . يقول ابن خلدون « وترتب الامور من بعده كما عهد لهم » . بخصوص حكم فوج راجع هامش رقم ١٦ والفصول الموافقة في المقرري وابن تقي بري وابن اياس .

٥٢- قيسها السخاوي ج ٤ ص ١٤٦ .

٥٣- التعريف ورقة ١٣٤ ، ١٣٥ (تا ٣٤٨ ، ٣٥٠) .

٥٤- هذه الاشارة هي الى التمييز الثاني الذي ورد ذكرها في الحديث بين ابن خلدون وتيمور . فقد جاء في التعريف ورقة ١٤١ ، ١٤٢ (تا ٣٦٩) ان تيمور سأل ابن خلدون « وكيف كانت توليته اياك القضاء ؟ فقلت : مات قاضي المالكية قبل موته بشهر ، وكان يظن في المقام بالمعمود في القيام بالوظيفة ، ويحري المدة والمحق ، والامراض من الجلاء ،

قولاني مكانه ، ومات لشهر بعد ما فلم يرعى أهل الدولة بمكاني فادالوني منها بنيري .
جزاهم الله » .

On this event see the present writer's study, « Ibn Khaldun and — ٥٥ —
Tamerlane, » in the I. Goldziher Memorial Volume (Budapest,
1951, Pt. II).

٥٦- المنهل ورقة ٥٥ .

٥٧- ابن خلدون يمتنع مقدرة هذا القاضي وتمقله وتقواه . التصريف ورقة ١٤٩ (تا ٢٨٢)
راجع أيضاً السخاوي ج ٤ ص ١٤٨ ، السيوطي ج ٢ ص ١٢٢-١٢٤ .

٥٨- التصريف ورقة ١٤٩ (تا ٢٨٤) .

٥٩- يروي ابن حجر (انباء النبى ، ورقة ٢٢٣) ان ابن خلدون ولي القضاء هذه المرة ثمانية
ايام فقط . راجع أيضاً شلوات ج ٧ ص ٧٧ .

٦٠- ثمة اجماع على ان ابن خلدون مات وهو في منصب القضاء للمرة السادسة ، وقد دلت في مقبرة
الصوفية خارج باب النصر . راجع النجوم ج ٦ ص ٢٧٦ ، المنهل ورقة ٤٩ ، شلوات
ج ٧ ص ٧٧ .

٦١- توفي يوم الاربعاء ٢٥ رمضان سنة ٨٠٨ (١٧ آذار - مارس - ١٤٠٦) ، وقد عاش
٧٦ سنة و ٢٥ يوماً بحسب التقويم القمري (او ٧٤ سنة شمسية) . راجع المنهل ورقة
٤٩ ، النجوم ج ٦ ص ٢٧٦ ، شلوات ج ٧ ص ٧٧ .

٦٢- ان الفترات التي شغل فيها ابن خلدون منصب قاضي القضاء هي كما يلي : (١) من تموز -
يناير ١٣٨٤ الى حزيران - يونيو ١٣٨٥ (٢) من ايار - مايو ١٣٦٩ الى ايلول - سبتمبر
١٤٠٠ (٣) من نيسان - ابريل ١٤٠١ الى شباط - فبراير ١٤٠٢ (٤) من
تموز - يوليو ١٤٠٢ الى ايلول - سبتمبر ١٤٠٣ (٥) من شباط - فبراير
١٤٠٥ الى ايار - مايو ١٤٠٥ (٦) من كانون الثاني - يناير ١٤٠٦ الى آذار
- مارس ١٤٠٦ اي الى وفاته .

٦٣- لما كان ابن خلدون حاجاً في مكة وصلته رسالة من الشاعر الوزير ابن زمرك المرابطي مع
تصديده في السلطان برقوق . وقد طلب الشاعر ايضاً من ابن خلدون ان يبعث اليه كتاباً من
حصري . التصريف ورقات ٨٨ ، ٨٩ ، ١٠١ ، ١٠٥ (تا ٢٢٧ وما بعدها ، ٢٦٢ ،
٢٧٢-٢٧١) . راجع بخصوص هذا الوزير الشاعر :

R. Blachère, « Le Vizir-Poète Ibn Zamrak et son oeuvre, » Annales de l'Institut d'Etudes Orientales d'Alger, Vol. II, 1936, pp. 291 - 312; and E. García Gómez, Ibn Zamrak, el poeta de la Alhambra (Madrid, 1943). See also A. R. Nykl, Hispano-Arabia.

Poetry (Baltimore, 1946), pp. 366-369.

٦٤- لقد ظل المغاربة ، في أفريقية وإسبانية ، شديدي التعلق بابن خلدون وتابعوا نشاطه في مصر يشي من الإهتمام ، فليس غريباً أن يكون عزله من القضاء قد وجد صدى في المغرب. فقد كتب قاضي غرناطة ، وهو صديق لابن خلدون ، يقول « وقد كان بلغ ما جرى من تأخيركم عن الولاية التي تقلدتموها ، وتحملتموها ثم تعرفت كيفية انفصالكم وأنه كان عن رغبة من السلطان الملقب بـ«الحاكم» . (التصريف ورقة ١٠٦ ، ص ٢٧٤ - ٢٧٥) .

٦٥- التصريف ورقة ٥٦ (ص ١٢٦) ، المبرج ٧ ص ٤٢٨ - ٤٢٩ . وقد جاء في رسالة بحث بها ابن خلدون إلى ابن الخطيب (سنة ١٣٩٧ - ١٣٩٨) « وأما المشرق فأخبار الملاج هذه السنة من اختلاله وانتفاض سلطانه وانزاع الجفاعة على كرسيه ... حتى لو هموا ان الحبة (المبرج في الأثر) اتصلت بالقاهرة أياماً » . راجع أيضاً المبرج ٦ ص ٣٩٦ حيث يقول « أن أخبار المغرب وصلته في مصر على أيدي أولئك الذين وسلوها من تلك الديار » .

٦٦- التصريف ورقة ١٢٩ (ص ٣٤٠) . راجع بخصوص هذا الأمر كتاب الاستقصاء ج ٤ ص ٧٧ .

٦٧- التصريف ورقة ١٢٧ - ١٢٢ (ص ٢٣٥ - ٣٤٦) . يتحدث ابن خلدون كدورخ عن العلاقات السابقة بين المرينيين والمماليك ويطينا تفاصيل عن تبادل الأشياء بين الطرفين . وفي العبر تفاصيل أخرى حول هذه القضية . راجع المبرج ٥ ص ٤٢٠ وما بعدها ، ٤٤٠ ، ٤٧٩ ، ٥٠١ . وقد وردت الرسوم للمختلفة المتصلة بهذه الأشياء في المخطوطات . راجع ج ٨ ص ٧٩ (من تونس) ومن ٨٤ (من للسان) ومن ٨٧ (من فارس) ومن ٩٩ و ١٠٣ - ١١٥ (من المرينيين) . ولنا نريد أن نشير إلى جميع الوثائق التي توضح العلاقات بين المماليك وحكام المغرب . راجع :

M. Canard, «Les Relations entre les merinides et les mamelouks au XIVe siècle», Annales de l'Institut d'Etudes Orientales d'Alger, 1938-1941, Vol. V, pp. 41-81.

بخصوص العلاقات بين المماليك والمغربيين في تونس راجع :

R. Brunachvig, La Berbérie orientale sous les Hafsides, Vol. I (Paris, 1940), pp. 204, 216; Vol. II (Paris, 1947), pp. 311-429.

٦٨- كان حكام المغرب يمشون إلى المشرق برفقاء مخصوصين في أحوال خاصة . فقد حمل سفيراً من هذا النوع وسائقاً مهنياً وهذا ما شجعت إلى بروتوق إثر عودته إلى العرش بعد الثورة التي قامت ضده ، أو لما تولي العرش سلطان جديد .

٦٩- التصريف ورقة ١٣٠ (ص ٣٤٠ - ٣٤١) .

٧٠- لقد نتج عن جهد ابن خلدون في تمكين الصلات بين مصر والمغرب حدث أدبي هام . فقد-

اتخذ إحدى مناسبات تبادل الرسل وأهدايا فرصة لإرسال نسخة منقحة ومزيد عليها من كتابه المبرر إلى أحد سلاطين المرينيين بفاس . وهذه النسخة لا تزال محفوظة في مكتبة جامع القرويين . وتعتبر هذه النسخة أنها تحتوي على آتم ما وصل إلينا من الجزئين الثالث والخامس من المبرر . راجع :

E. Levi-Proveçal in Journal Asiatique, 1923, pp. 161-168.

٧٢- راجع السخاوي ج ٤ ص ١٤٦ ، ١٤٨ ، شعرات ج ٧ ص ٧٧ ، وأيضاً :

Tyan. Vol. I. pp. 280-313; Quatremère, Maqrizi-Suluk, Vol. II, Pt. 2, pp. 72 ff.; R. Dozy, Dictionnaire des noms des vêtements chez les arabes (Amsterdam, 1845).

٧٣- وقد روى ابن عربشاه ما يؤيد هذا فيما يتعلق بابن خلدون ، إذ قال أنه لما ظهر ابن خلدون مع بقية القضاة أمام تيمور ، لفت الذي المرفي نظر الفاتح الكبير فقال : « ليس هذا الرجل من بلادكم » . وكان ابن خلدون ، على ما رواه ابن عربشاه ، يحتمر عمة خفيفة أنيقة ويرتدي جبة على طوله وعليها حاشية حالكة للسواد ، تبدو كأنها يده اليلة

الظلماء . راجع : J.H. Sanders, Tamerlane or Timur the Great Amir (London, 1936), p. 114.

٧٤- التصريف ورقة ١٤٧ (تا ٢٨٠) .

٧٥- التصريف ورقات ١٠٠ - ١٠١ ، ١٠٧ ، ١١١ ، ١١٥ ، ١٢٢ (تا ٢٦١ - ٢٦٢ ، ٢٧٨ ، ٢٨٥ ، ٢٩٥ ، ٣١٢) وخاصة التصريف ورقة ١١٥ و ١٢١ - ١٢٢ (تا ٢٩٥ و ٣١٠ - ٣١٥) . قابل التفاصيل التي أوردها ابن الفرات ج ٩ ص ١٦ و ٣١ في وصف الطريق من القاهرة إلى مكة وما فيها من صعوبات .

٧٥- التصريف ورقة ١٣٤ (تا ٣٤٩ - ٣٥٠) .

٧٦- يستعمل ابن خلدون تمبيراً كان شائعاً بين كتاب المسلمين وهو « القباة » بدل « القباة » . راجع المقدمة ، ياقوت (تو ١٢٢٩) معجم البلدان طبعة وستنفلد (ليبرغ ١٨٦٦ وما بعدها) ص ١٧٣ ، ٥٩٩ ، و Encyclopedia of Islam مادة القدس (- al « Kuds ») . راجع أيضاً Le Strange, Palestine under the Moslems (London, 1890), p. 202.

٧٧- التصريف ورقة ١٣٤ (تا ٢٥٠) و Le Strange, pp. 298 - 300.

٧٨- بخصوص تاريخ هذه الفترة وأحداثها راجع التجوم ج ٦ قسم ١ ص ٥٤ - ٦٢ و ٧٣ - ٨٥ ، ابن أبيهاس ج ١ ص ٣٢٨ - ٣٣٣ ، وغيرها من التراخيخ المعاصرة لها .

٧٩- لا ندرى البواطن التي حفزت يشيك على اصطحاب ابن خلدون . قد تكون مقدرة ابن خلدون وصفاته الخاصة كدبلوماسي ومفاوض وثقة التي كان السلطان يوليه إياها حلت

يشك على اعتباره ذا قيمة خاصة بين أتباع فرج. وقد حدث كثيراً أن اصطحب السلاطين القضاة في الحملات العسكرية. راجع تيان ج ١ ص ٣٠٠. وكثيراً ما كلف القضاء مهام المفاوضات والسفارة. تيان ج ١ ص ٣٣٠ و ج ٢ ص ١٢٨ ، القلقشنجي ج ٤ ص ٣٦ و ج ١١ ص ٢٠٧ . ولم يكن ابن خلّون يوماً في ولاية القضاء ، على ما يؤكد هو نفسه والمصادر الأخرى . راجع السخاوي ج ٤ ص ١٤٦ ، السلوك ورقة ٢٤ وما بعدها .

٨٠- راجع لكاتب هذه السطور مقالاً عنوانه « Ibn Khaldun and Tamerlane » I. Goidziher memorial Volume (Budapest 1951) Pt. II حيث درست هذه المشاكل بتفصيل. راجع أيضاً في مجلة للمجمع العلمي العربي في دمشق المجلد ٢٢ (١٩٤٧) ص ٣٩٦-مسألة المنقور له محمد كرد علي ثمن « ابن خلّون و تيمورلنك » . ٤٠٧ والمجلد ٢٢ (١٩٤٨) ص ١٥٩ ، راجع أيضاً مجلة المجمع المذكورة مجلد ٢٢ (١٩٤٧) ص ٣٩٦-٤٠٧ . ثمة شبه بين لقاء ابن خلّون و تيمور و لقاء غوته و نابليون في : A. Muller, Der Islam im Morgen- und Abendland (Berlin, 1878,) Vol. II, p. 670.

٨١- بخصوص سفارة ابن خلّون نيابة عن ملك غرناطة الى بدار سنة ١٣٦٢ راجع التصريف ورقة ٣٦-٣٩ (تا ٨٤ وما بعدها) ، المبرج ٧ ص ٤١٠ - ٤١٥ ، السخاوي ج ٤ ص ١٤٥ ، كان واسطة تقديم ابن خلّون الى بدار طيبب البلاط اليهودي ابراهيم بن زوردر وهو من اصداقاء ابن خلّون . وسفارة ابن خلّون الى بدار وسفارته الى تيمور ، على ما بينهما من تباين في الاحوال التاريخية والفايات ، فهما من عناصر التشابه الشيء الكثير . فمن ذلك ان كلا من الحاكمين على ما يروى ، عرضا على ابن خلّون ان يقيم عنده ويتخذه . ومن ذلك ورود اخبار البغلة في كل من المناسبتين . راجع للتصريف ورقة ١٤٦ ، ١٤٨ (تا ٣٧٧ ، ٣٨٠-٣٨١) . بخصوص بغلة ناضي القضاء راجع تيان ج ١ ص ٢٨١ ، ٣٠٧ ، ٣١١ .

٨٣- كان ابن خلّون يدرك تماماً ، وهو بعد في المغرب ، ما ينتقصه من اخبار الشرق. التصريف ورقة ٥٦ (تا ١٢٦-١٢٧) المبرج ٧ ص ٤٢٨ - ٤٢٩ . وكان يعتمد يومها على الحجاج ورواياتهم المصنوعة على حاجته من الاخبار ولا سيما اخبار مصر . إلا أنه بعد رحيله إلى مصر وانامته هناك ثلاثاً وعشرين سنة ، أتبع له أن يتصرف إلى الشرق قراءة ورحلة وملاحظة . ولكن ظلّ بعض معاصريه يشيرون إلى جهله بأخبار الشرق . راجع ابن حجر في السخاوي ج ٤ ص ١٤٨ ، شذرات ج ٧ ص ٧٧ والمقدمة ص ٦ (طبعة بيروت ، ١٨٧٩) .

٨٣- الملفدة ص ٥٦

٨٤- المقدمة ص ٥٩-٦٠ .

٨٥- ابن كثير (توفي ١٣٧٣) وضع كتاباً عاماً في التاريخ هو البداية والنهاية . راجع Brockelmann, GAL., Vol. II, p. 49; Suppl. II, p. 48. والمقدمة نشر كاترميرج ص ٢٠٠ . هذه الفقرة موجودة في نسخة واحدة فقط من المفسر وفي الترجمة التركية (راجع Prolegomena, Vol. II, p. 236) . ولما ذهب ابن خلدون الى دمشق للمرة الأولى اصطلمه فرج بوصفه قاضي القضاة المالكي .

٨٦- التعريف ورقة ٩٦ (تا ٢٤٥) ، المبرج ج ٧ ص ٤٤٢ .

٨٧- التعريف ورقة ١٠٠ و ١٣٣ (تا ٢٦٠ ، ٣٥٠) .

٨٨- التعريف ورقة ١٠٧ (تا ٢٧٨) .

٨٩- التعريف ورقة ١٣٥ (تا ٢٥٠) مثل هذه التماييز ترد كثيراً في التعريف . راجع ورقات ٩٦ ، ١٠٠ ، ١٠٧ ، ١١١ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٥ (تا ٢٤٥ ، ٢٦٠ ، ٢٧٨ ، ٢٨٥ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٣٥٠ ، ٣٥٢) .
٩٠- المقرئ في السخاوي ج ٤ ص ١٤٦ ، ١٤٧ ، ابن الخطيب في المقرئ ج ٤ ص ٤١٣ وما بعدها .

٩١- لم يكن المبرز والمقدمة نتاجي ابن خلدون الوحيين في أول أيام اشتغاله بالعلم ، ولكنهما هما اللذان وصلا إلينا . فقد روى صليقة الوزير لسان الدين ابن الخطيب (الاحاطة في اخبار غرناطة ، القاهرة ، ١٣١٩ هـ . واحد روايته المقرئ في نفع الطيب ، بولاق ، ج ٤ ص ٤١٤ - ٤٢٦ وخاصة ص ٤١٩) ان ابن خلدون قد وضع ما لا يقل عن ستة كتب أخرى هامة . ولم يصلنا من هذه الا الأسماء (أ) شرح البردة البوصيري (ب) رسالة في المنطق (ج) تلخيص ابن رشد (د) تلخيص المحصل للقرطبي (هـ) رسالة في الحساب (و) شرح اصول الفقه لابن الخطيب . راجع Prolegomena, de Slane, Vol. I, p. xcix.

٩٢- راجع التعريف ورقة ٨٩ - ٩٠ (تا ٢٣٠ وما بعدها) ، المبرج ج ٨ ص ٤٤٤ - ٤٤٥ ، Prolegomena, Vol. I, p. lxxvii . وقد انسحب الى قلعة سلامه في عمل وهران وقضى أربع سنوات في عمل المسودة الأولى لتاريخه . انظر أيضاً الحملة الختامية في المقدمة . قال مؤلف الكتاب على الله عنه « أتممت هذا الجزء الأول بالوضع والتأليف قبل التنقيح والتعليق في مدة خمسة أشهر آخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبعمائة » ثم تلمسته بعد ذلك وهديته والحقت به تواريخ الأمم كما ذكرت في أوله ، وشرطته وما العلم الا من عند التمييز للكرم . * (ص ٥٥٦) .

٩٣- انظر مثلاً المبرج ج ٥ ص ٤٤٠ - ٥٥٠ و ٥٦١ - ٥٦٣ وغيرهما حيث تورد الاحداث.

التاريخية الى سنة ١٣٩٥ . لقد غادر تونس سنة ١٣٨٢ .

٩٤- المقدمة من ٤٢٠ و ٤٩٩ . بخصوص هذا المؤلف راجع Brockelmann, GAL, II, p. 515; Suppl. Vol. II, p. 301, and Encyclopaedia of Islam, Vol. IV, p. 634.

٩٥- المقدمة طيبة كاترمير ج ١ ص ٢٢٦ .

٩٦- المقدمة ٢٩٨ .

٩٧- المقدمة ٢٩٩ . راجع أيضاً الفصل السادس من « العلم » في المقدمة (ص ٣٧٥ وما بعدها) الذي يظهر اختياراته في مصر بوضوح .

٩٨- في المقدمة اشارات من ترجمته لنفسه ، وهذه ستستخدم في وضع ترجمة لابن خلدون .

٩٩- في استانبول نسخة من المقدمة كتبت سنة ١٣٩٧ أي بعد وضعها بعشرين سنة ، وتحتوي أقدم نسخة لها . راجع M. Plessner, Islamica, 1931, p. 541.

١٠٠- التبريف ورقة ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٤٨ (تا ٣٥٠ ، ٣٩١ ، ٢٨٠-٢٨٣) . انظر أيضاً المبرج ص ٥١٥ - ٥٣٥ ، ٥٥٤ وما بعدها حيث انضاف ابن خلدون اخبار التتار وتيمور .

١٠١- راجع ابن قاضي شهبه ورقة ١٨١ .

١٠٢- انظر ابن قاضي شهبه ورقة ١٨١ حيث يروي ان تيمور طلب من ابن خلدون ان يصحبه الى دياره . ومن الصعب التأكد فيما اذا كان ابن خلدون قد فكر جدياً بترك مصر والالتحاق بتيمور . فكرم السلطان فرج وتقدم السن بابن خلدون لا بد . قد معناه من التفكير يمثل هذا الأمر . الا ان العناء الذي كان للكثيرين في مصر يناصبونه اياه قد يكون حمل ابن خلدون على التفكير . يمكن آخر في العالم الاسلامي على نحو ما تم له لما غادر تونس الى مصر . ولا شك في ان ذلك يكون نهاية طريقه لحياة غنية لو ان الرجل قرر ان يجعل خاتمة معاناته في عاصمة تيمور سمرقند في اواسط اسية . وجدير بالذكر ان المؤرخ التركي حاسبي غلبيته يروي خطأ ان ابن خلدون توفي في سمرقند في خدمة تيمور (ج ٢ ص ١٨١) . وقد نقل هذه الرواية الحاطلة d'Herbelot في Bibliotheque Orientale, 1697, Vol. II, p. 418. كما نقله غيره خطأ ايضاً .

١٠٣- التبريف ورقة ١٤٢ وما بعدها ١٤٤ (تا ٣٧٠-٣٧٤) .

١٠٤- انظر دراسة Franz Rosenthal « Die arabische Autobiographie, » in Studia Arabica, Vol. I (Analecta Orientalia (Rome), Vol. XIV, pp. 1-40, esp. 33-34). ومع انه لم يعرف المخطوطة الكاملة للتبريف فانه نجح في تقييم حياة ابن خلدون الى سنة ١٣٩٥ .

- ١٠٥- الورقات (١٤٩-٩٦) التي تروي اخبار اقامته في مصر مقسمة على النحو التالي بالنسبة الى النسخة المصرية : ورقة ٩٦ مفره الى المشرق وتمييزه قانسياً في القاهرة (تا ٢٤٦)
ورقة ١٠٠ الخلع الى مكة (تا ٢٩١)
ورقة ١٠٧ تمييزه معروفاً في الخوانق (تا ٢٧٩)
ورقة ١٢٢ تمييزه في خانقاه بيروس ومزله (تا ٣١٢)
ورقة ١٢٧ محمولاته لاقامة تبادل في الهنداسا بين برقوق وملوك المغرب (تا ٣٣٥)
ورقة ١٣٣ تمييزه قانسياً للمرة الثانية (تا ٣٤٧)
ورقة ١٣٥ خروج للسلطان فرج الى سورية لرد التتار (تا ٣٥١)
ورقة ١٤٠ لقاءه مع تيمور سلطان المغول (تا ٣٩٩)
ورقة ١٤٥ حودثه الى القاهرة (تا ٣٧٧)
ورقة ١٤٩ تمييزه قانسياً للمرة الثالثة والرابعة والخامسة (تا ٣٨٣)
١٠٦- نسخة القاهرة هي النسخة التي تنتهي بأبيات من الشعر (ورقة ١٤٩) .

المصادر العربية

الكتاب	الإشارة
الاستقصا في تاريخ المغرب الأقصى - للتناصري - ج ٤ - الدار البيضاء ١٩٥٥ ؛	الاستقصا
ابن خلدون - (١) التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً نسخة مصطفى باشا رقم ١٠٩ القاهرة ؛	التعريف
(٢) طبعة محمد بن تاووث الطنجي ، القاهرة ١٩٥١ طبعة المطبعة الأدبية - بيروت - ١٨٩٧	التعريف (تا) المقدمة
كتاب العبر ، بولاق - ١٢٨٤ هـ (سبعة مجلدات)	العبر
تاريخ ابن القرات - الجزء التاسع طبعة قسطنطين زريق - بيروت ١٩٣٦ - ١٩٣٨	ابن القرات
صبح الاعشى - القاهرة - ١٩١٣ - ١٩١٩	القلقشندى
الخطط للمقرئزي - بولاق - ١٢٧٠ (مجلدان)	الخطط
كتاب السلوك للمقرئزي - نسخة باريس رقم ١٧٢٨	السلوك
ابن قاضي شهبة الاعلام بتاريخ الاسلام نسخة باريس رقم ١٥٩٩	ابن قاضي شهبة
(١) ابن حجر العسقلاني - انباء الفهر - نسخة باريس رقم ١٦٠٣	ابن حجر
(٢) رفع الاصر عن قضاة مصر - نسخة باريس رقم ١٤٩	
عجائب المقدور في نوائب تيمور - كلكتا - ١٨١٦	ابن عربشاه
بدر الدين العيني - عقد الجمان - نسخة باريس رقم ١٥٤٤	العيني

الكتاب	الإشارة
ابن تغري بردي - النجوم الزاهرة - طبعة وليم بوير ، بركلي ، المجلد الخامس (١٩٣٢-١٩٣٦) والمجلد السادس (١٩١٥-١٩٢٣) .	النجوم
ابن تغري بردي - المنهل الصافي - نسخة باريس رقم ٢٠٦٨ الضوء اللامع - المجلد الرابع - القاهرة - ١٣٥٣	المنهل السخاوي
حسن المحاضرة - مجلدان - القاهرة - ١٣٢١	السيوطي
بدائع الزهور - ثلاثة مجلدات - بولاق - ١٣١١ - ١٢	ابن اياس
نفح الطيب - المجلد الرابع - بولاق - ١٢٧٩	المقري
ابن العماد - شذرات الذهب - المجلد السابع - القاهرة ٣٥١	شذرات
كشف الظنون - سبعة مجلدات طبعة فلوغل - لينزغ ١٨٣٥ - ١٨٥٨	حاصي خليفة

بالفرنسية

Les Prolegomenes b'Ibn Khaldon,
traduit en francais par M. de Slane
(Notices et Extraits, vols. 19-21;
Paris 1863-1868) .

Prolegomena

الفِستوة (٥)

جهل هي الفروسيّة الشرقيّة

جيرارد زالفر

إن المجتمع الاسلامي ، برغم القليل من المؤلفات والمقالات القيمة التي يتناولته ، لا يزال من المواضيع التي تحملت النصيب الاوفر من اهمال الباحثين المتحدثين في شؤون الشرق . ومهما كانت الاسباب التي ادت الى هذا النقص — وقد تكون الاسباب التي تفسره كثيرة — فانه من الواجب على الباحثين الراسخين في علمهم ان يدرسوا العالم الاسلامي على نحو ما درس المجتمع المسيحي . ومثل هذا العمل يتطلب تعاوناً وثيقاً ونقداً بناء يفضطلع به المؤرخون الاجتماعيون وعلماء الاجتماع الذين يعرفون الظواهر الاجتماعية معرفة جيدة تفوق معرفة المستشرق ، ولو انهم من غير الاختصاصيين في اللغات الاسلامية . ولئن كان ثمة من يتكرر بان كازل حينئذ يكرر « Carl Heinrich Becker » قد قام بابرز عمل في دراسة المجتمع الاسلامي ، فهو لاء حلة من ارباب الرأي . على ان العمل الذي قام به بتكر مدني في

(٥) هذا المقال منشور في Proceedings of the American Philosophical Society, vol. 94, No. 5, October 19, 1950 من منشورات الجمعية الفلسفية

الأمريكية ، فلادلفيا ، ١٩٥٠ .

واقعه لعناية الرجل بتبادل الآراء على نحو مفيد للغاية مع امثال مكس وبر (Max Weber) وارنست ترولتش (Ernst Troeltsch) وابرهارد غوطين (Eberhard Gothein). ولكن رغبة منا في ان يكون التعاون بيننا وبين غير المختصين بالاسلاميات مجدياً بالنسبة للفريقين ، يجلبنا ان نحاشي نعت الظواهر باستعمال التعابير التي لا تصفها وصفاً صحيحاً .

فالاحصائي في الفروسية الاوروية المقتنع بجدوى الدراسة المقارنة في فهم المشاكل التي تعرض له اثناء تنقيهِه ، والراغب في البحث عما اذا كانت الفروسية معروفة في العصور الاسلامية الكلاسيكية - هذا الاحصائي ، قد يجد فائدة كبيرة في مقالين كتبهما فرانس تشر (Franz Taeschner) هما « نظام الفروسية الاسلامية في عهد الحروب الصليبية » (Islamisches Ordesrittertum zur zeit der Kreuzzuge) والفتوة الفروسية في العصور الوسطى الاسلامية (Das Futuwwa-Rittertum des islamischen Mittelalters) وفيهما خدمة كبيرة وقيمة للتاريخ الاجتماعي . ولكن المعلومات التي يحويها المقالان تثير الكثير من الشك فيما اذا كانت تعابير مثل « الفروسية » (Chivalry) و « نظام الفروسية » (Order of Chivalry) تتم عن اكثر من مظاهر سطحية للحقيقة المنشودة في هذا الموضوع . وسنحاول في الدراسة توضيح هذه المسألة .

لسنا ننوي ان نعرض هنا لتفاصيل الدراسات التي قام بها الباحثون ، وخاصة في المانيا ، في موضوع الفتوة . بل الذي نرمي اليه هو ان نتناول تلك الناحية من الفتوة التي قرنها الباحثون بالفروسية الاوروية . والبحث التالي هو دراسة نقدية للحقائق التي جمعها تورنغ وكاله وتشر وفنك (Thorning, Kahle, Taeschner, Wittke) وللآراء التي ابدوها بهذا الصدد . ونحن نعرف لهم بفضل كبير ، حتى حيث لا نستطيع ان نقبل ما توصلوا الى اقراره .

من الصعب ان نعرف الفتوة تعريفاً يوضح قيمتها في جميع الحالات

والعصور التي استعملت هذه الكلمة فيها . ونخرج الكلمة اللغوي لا يلقي على المشكلة كثيراً من الضوء . فهي تستعمل أحياناً في معناها الأصلي الدال على الشباب . ولكننا الآن معنيون بمعناها الفني الدال على جماع الفضائل الخلقية من شجاعة وكرم وشهامة وضيافة ونكران الذات وروح التضحية ، مرتبطة جميعها بطقوس معقدة كانت بعض الجماعات تراعيها مراعاة دقيقة . وقد كانت بعض ظلال المعاني التي توحىها هذه الكلمة تغلب على البعض الآخر ، وذلك باختلاف الأوساط التي كانت تستعمل فيها في نطاق العالم الإسلامي . ويتضح أخيراً أن الكلمة أطلقت على منظمات متعددة ادعت ، في فترات مختلفة ، بأنها تتعهد فضائل الفتوة والطقوس المتصلة بها ، وأنها من جهة أخرى ترسم الصفة التي يتحلى بها من انتقاد للفتوة أو انسلك في مثل هذه المنظمة . فقد كان يطبق على مثل هذا الرجل « فتي » (جمعها فتيان أو فتية) ، وهو تعبير كثيراً ما ترجم في بعض اللغات الأوروبية بمعنى « فارس » (Ritter, Knight, Chevalier) :

ليس ثمة ما يدلنا على أن العرب في جاهليتهم ، أيام كانوا يعيشون حياة أقرب إلى البداوة ، ويتزلون في أراضي الجزيرة القاحلة ، قد استعملوا كلمة فتي للدلالة على عضو منهم إلى جماعة خاصة تتميز عن سائر القبيلة بالعمل من أجل هدف معين أو بحسب طقس معين (والفتوة بالمعنى المجرد لم ترد في ما نعلم من الشعر العربي القديم) . فني هذا المجتمع المتجانس الذي كان كل فرد فيه قبل كل شيء يمثل الفئة الاجتماعية التي ولد فيها ، لم يكن ثمة مجال لأي نوع من التفرقة إلا عندما يتخلى الفرد عن الحماية التي تزوده بها جماعته ، ويقبل أن يعيش في منفاة حياة محفوفة بالمخاطر . واذن فالفتى ، في عرف العرب القديم ، هو الذي تتجسد فيه الصفات التي تتطلبها القبيلة على أم وجه ، وهي درجة كبيرة من الصمود يحقق للقبيلة ترابطها ، وشجاعة في القتال تضمن حماية كافية ، وكرم يحفظ للقبيلة اسمها الطيب في الحوار . ومن الجهة الثانية فإن الشهامة والجلود يساعدان الفرد على رفع مكانته ، ويمكثانه ، في الوقت نفسه ، من أن يمد بالاعون إلى الآخرين . وهذا المثال القديم للفتى ، كان موضوع اهتمام الناس حتى بعد

ان استولى العرب على اقاليم الامبراطورية البيزنطية والساسانية . فثمة قول يعزى إلى الخليفة معاوية بن ابي سفيان (٦٦١ - ٦٨٠) هو « انما الفتوة في الاطعام وضرب الروثوس » (١) واذ كان الشعور الديني القوي بين عرب الجاهلية مفقوداً ، فان الفتوة (ولنستعمل الكلمة ولو ان وضعها فيما يبدو يعود إلى زمن متأخر) لم يكن لها دلالة دينية فيما بينهم — على الأقل فيما نعينه نحن عندما نستعمل كلمة « دين » .

ولكن بعد ان تغلب العرب على الأمم المتحضرة في الشرق الأدنى ، نجد كلمة فتى تستعمل استعمالاً يكاد يكون مقصوراً في الدلالة على اعضاء في جماعات ، حاولت كل منها ان تحقق فكرة الفتوة بوسائلها الخاصة . فعلى اي وجه نفسر هذه المسألة ؟

لقد أصبحت العربية وسيلة التفاهم بين الجماعات المستقرة ، واكثرها من سكان المدن . وهذا المجتمع ذو الحضارات الزراعية والمدنية المتباينة ، كان بينه وبين الجماعات القبلية البدوية التي سادت في بلاد العرب بون شاسع . ولم يكن المجال المتاح للفرد في هذه الدولة لان ينمي نشاطه محصوراً في نطاق القبيلة والأسرة والأمة . فهناك جماعات متعددة كانت قد زهت في الامبراطورية الرومانية (٢) في غضون ازمة متطاولة نلرت نفسها لأغراض مختلفة . فمن جماعات الصناعات وقدماء المحاربين الى منظمات للشباب او منظمات رياضية او دينية او اجتماعية خالصة . هذا المجتمع القديم ، الذي انضم اليه الكثير من العرب المستقرين ، تقبل الدين الجديد كما قبل الشعر الذي جاء به هؤلاء الجدد . واقتبس الى ذلك الكثير من المثل العليا عند العرب القدامى بسبب ما كان يتمتع به السادة الجدد من مقام خاص . على ان هذا المجتمع القديم طور هذه المثل بحيث سدت حاجاته الخاصة . وترتب على ذلك ان احتفظ القوم المستقرون بمثل الفتى ، بعد ان طعموها بصور من الحياة لم يكن لأهل الصحراء عهد بها من قبل . لقد كتب فرنس تشر عدداً من المقالات عن تاريخ الفتوة في الشرق الأدنى من العصر الجاهلي إلى الماضي القريب ، حينما كانت الفتوة لا تزال باقية الأثر

في النقابات المهنية . ولم يكتف تشربان وضع امامنا ما جمع من مواد وما وصل اليه من نتائج ، ولكنه عرض علينا جهود سواه من الباحثين . فلزام علينا عندما تستعمل كلمة « تاريخ » هنا ان نذكر دوماً حدود ادراكنا التاريخي عندما نعالج مثل هذا الموضوع المعقد . فان معرفتنا عن التاريخ الاسلامي الاجتماعي ، بل وعن التاريخ السياسي ، ليست بوجه العموم في مستوى البحث التاريخي الحديث . فالكثير من المصادر الاصلية لم ينشر بعد ، والكثير مما نشر لم ينل بعد من التمهيص النقدي ما يفي بحقه .

وثمة فجوات كثيرة في معرفتنا عن النظم . فالكاتب المسلمون الذي بحثوا في الفقه الدستوري قد شرحوا المثل واحكموا وصفها مستندين الى القرآن الكريم والحديث الشريف ، بدلاً من الأوضاع الواقعية . فتفاصيل الحياة اليومية التي هي بالغة الأهمية بالنسبة الى المؤرخ الاجتماعي غالباً ما توجد في كتب الأدب على اختلاف انواعها ، واكثر ما ترد حيث لا ينتظر العثور عليها . ومن ثم فهناك حالات كثيرة لا يزال يعوزنا فيها اطار صالح نعتمد عليه في تنسيق المعلومات النزرية التي نملكها عن ظاهرة اجتماعية معينة . واذن فالوقت لم يحن بعد للوصول الى نظام مفصل . ان كتاب الفرد كريم (Alfred V. Kremer) عن تاريخ حضارة الشرق في زمن الخلفاء (Geschichte des Orients unter den Chalifen) قد اصبحت قديماً من وجوه كثيرة وكتاب ادم متر (A. Mez) عن الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري (واسمه الألماني: Die Renaissance des Islams) لا يعدو كونه الخطوة الاولى في سبيل تصوير جميع نواحي الحياة الثقافية والاجتماعية في قرن واحد تصويراً شاملاً ، وهو القرن الرابع الهجري (القرن العاشر الميلادي) . وقبل ان ننظر في جماعة الفتوة في أيام الخليفة الناصر (١١٨٠ - ١٢٢٥) ، وهي التي أطلق عليها الباحثون الاوروبيون خاصة اسم الفروسية ، يتوجب علينا ان نلقي نظرة على جماعات الفتوة الحربية التي قامت قبل ايامه . فهذا النوع من جماعات الفتوة كان معروفاً في القرن التاسع بين فئات من المتطوعين للجهاد في بلاد ما وراء النهر وخراسان . ويترتب علينا في صدد هذا البحث ان نشير الى أن

الفتوة كانت تضم جماعات من الرجال المسلحين الذين اسهموا في الجهاد دون ان يكونوا جزءاً من الجند النظامي . واهم من هذا ان نذكر ان الفتوة لم تكن قط أساساً لحيث نظامي في الدولة (٣) . وكثيراً ما عرفت العصور الوسطى فرقاً كبيرة من المتطوعة تقدمت للدفاع عن دار الإسلام . وبينما كانت القوى النظامية تخضع لقواد تعينهم الدولة ، كانت هذه الفرق تظل دائماً تحت قيادة رؤسائها الخاصين بها ، وكثيراً ما كانت تتحدى سلطة الدولة إذا لم ترضها أحوالها المادية ، وها هي هذه الفرق توجد على الحدود الشرقية للخلافة ، في خراسان وبلاد ما وراء النهر ، في القرن التاسع . وقد ارشدنا و. بارتولد (W. Barthold) إلى الثورات التي حركتها هذه الفرق ، وإلى الدور الذي لعبته في قيام الدولة الصفارية التي انشأها أحد قوادها (٤) . ولعل بارتولد كان مصيباً إذ سماها « نقابات المحاربين » . وعلى كل حال فليس ثمة أي شبه بينها وبين « الفرسان » (Knights) (٥) . ولما كان هذا الحكم ذا أهمية خاصة بالنسبة إلى بحثنا ، فإنا نقبس فيما يلي ما أورده متر عن هؤلاء المحاربين في سبيل الإسلام ، قال :

إن « وكذلك لم يهمل الناس واجب الجهاد ، واعتنوا به جادين على عاداتهم دائماً ، وقد أراد كثير من المؤمنين الصالحين ان يدخلوا الجنة من باب الجهاد في سبيل الله ، فكان غزاة المسلمين من كل بلد وناحية يتدفقون كالسيل إلى مدينة طرسوس ، وكانت قاعدة حربية وثغراً من ثغور مملكة الإسلام مما يلي حدود الروم ، وهم اعداء الإسلام الذين ورثوا عداوته جيلاً عن جيل ، كما كانت ترد على تلك المدينة صلوات أهل البر وارباب النعم من المسلمين الذين لا يستطيعون الخروج للجهاد بأنفسهم . يقول ابن حوقل « ليس من مدينة عظيمة من حلمستان وكرمان ... إلى مصر والمغرب الا وبها (طرسوس) لأهلها دار ينزل بها غزاة تلك البلدة ، ويرابطون بها إذا وردوها ، وتكثر لديهم الصلوات ، وترد عليهم الأموال والصدقات العظيمة الجسيمة ، إلى ما كان السلاطين يتكلفونه وارباب النعم يعانونه وينفقونه متطوعين متبرعين ، ولم يكن في ناحية ذكرتها رئيس ولا نفيس الا وله عليها وقف من ضيعة ذات مزارع وغللات او مسقف من

فنادق . . .

« وكان أهل الثغور يكرمون في بغداد ، ويحكي عن أبي علي القالي اللغوي المشهور المتوفي عام ٣٥٦ هـ / ٩٧٦ أنه سمى القالي ، لأنه لما انحدر إلى بغداد كان في رفقة فيها أهل قالي قلا ، وهي قرية من قرى منازل مجرد (بارمينية) . » وكانت ثغور مصر المسماة بالمواحيز يعمرها أهل الديوان والمطوعة ، وكانت أحباس السيل التي يتولاها القضاة تجمع في كل سنة ، فإذا كان شهر ايبس بعث القاضي ما اجتمع من أموال السيل ، ففرقت على مواحيز مصر من العريش إلى لوبية ، واعطيت للمطوعة ومن كان فقيراً من أهل الديوان . وكانت بلاد ما وراء النهر ثمانية ناحية تلي طرسوس من حيث وقوف اهلها للجهاد ، وذلك لما اشتهر به اهل ما وراء النهر من الشوكة وشدة البأس ، ومن انهم اكبر أهل الإسلام نصيباً في التضحية واعظمهم حظاً في الجهاد ...

« وكانت رغبة الخراسانيين في الجهاد وحميتهم له سبباً في سيرهم الى الجبهة الغربية في مملكة الأسلام ، وذلك عندما توالى نجاح الروم في مهاجمة بلاد الإسلام : ففي عام ٣٥٥ هـ / ٩٦٦ م خرج من خراسان قوم يظهرون أنهم غزاة ، وكان عددهم نحواً من عشرين ألفاً ، وساروا حتى بلغوا الحدود الشرقية للدولة: بني بويه ، ولكن سيرتهم لم تكن سيرة الغزاة ، فلم يكن لهم رئيس واحد ، بل كان لأهل كل بلد من بلادهم رئيس ، فاستراب بهم صاحب الحد ، وارسل بصورتهم ، وخالف ركن الدولة وزيره ابن العميد في امرهم ، وكاتب الحد بان يأذن لهم في الدخول ، فसार القوم باجمعهم ، ومعهم فيل عظيم من بين الفيلة ، واجتمع رؤساؤهم إلى الوزير ابن العميد ، وخاطبوه ان يسأل الأمير ركن الدولة ان يطلق لهم مالا يستعينون به على أمرهم ، وظن ان القليل يكفيهم على رسم الغزاة ، فاذا هم يطعمون في شي كثير ، وقالوا : « نحتاج إلى مال خراج هذه البلاد كلها التي في ايديكم ، فانكم انما جيتموها لبيت مال المسلمين . لئلا نأثم ان تأثمهم ، ولا نأثم اعظم من طمع الروم والأرمن فينا ، واستيلائهم على

• ابن حوقل ، ص ١٢٢ - ١٢٣ .

تفغورنا ، وضعف المسلمين عن مقاومتهم » ... فلما أصبحوا باكروا الحرب ، وهجموا على دار الاستاذ ابن العميد ... ولكن الوزير وركن الدولة تمكننا من هزيمتهم » (٦) .

يتضح من هذا ان هذه الجيوش المتطوعة التي استطاعت ان تظل بعيدة عن رقابة سلطات الدولة الشرعية انحلت بحيث اصبحت تضم جميع العناصر المشبوهة التي اتخذت الجهاد وسيلة لأشباع رغباتها عن طريق النهب والسلب (٧) . ومع انه ليس من الانصاف في شيء ان تنسب مثل هذه البواغث الى جميع المجاهدين ، فان القرائن الدالة على ما قامت به هذه العصابات من الاخلال بالنظام من الكثرة بحيث لا يجوز لنا ان نبررتصرفها . ومع ذلك فقد كان دور هؤلاء المجاهدين احيانا حاسما في التوسع السياسي الذي احرزه الاسلام . فمحمود الغزنوي ، مثلاً ، استخدم عشرين ألف غاز جاء بهم من اماكن متفرقة في بلاد ما وراء النهر (٨) . ومع ان سلوك هؤلاء المجاهدين لم يكن دوماً متحلياً بالفضيلة ، فمن غير المستغرب انهم كثيراً ما كانوا يخضعون لقواعد حياة الصوفية ولتقتضيات التقشف .

ويرتب على ذلك ان توجه اهتمامنا إلى مجال آخر من مجالات النشاط حيث قامت الفتوة بدور هام ، هو مجال التصوف الديني . ويجب ان نذكر ان اول ما وصلنا من اخبار الفتوة التصوفية جاء من خراسان ، كذلك الذي وصلنا عن الفتوة المقاتلة ، وان ذلك يعود في كلا الأمرين إلى القرن التاسع . وبما يعتبر نموذجاً للفتوة التصوفية ما قاله ابو حفص عمر النيسابوري الحلي المتوفي بعد ٢٦٠ للهجرة ، ٨٧٣ للميلاد) . قال : « وسئل بعضهم من يستحق اسم الفتوة فقال من كان فيه اعتناء آدم وصلابة نوح ووفاء ابراهيم وصدق اسماعيل . واخلاص موسى وصبر ايوب وبكاء داود وسخاء محمد (صلعم) ورأفة ابي بكر وحماية عمر وحياة عثمان وعلم علي ، ثم مع هذا كله يزدري نفسه ويحتقر ما هو فيه ، ولا يقع بقلبه مما هو فيه انه شيء ، ولا انه حال يرى عيوب نفسه . ونقصان افعاله وفضل اخوانه عليه في جميع الأحوال » (٩) .

وثمة ما يدعو إلى الشك في ان الفتى الصوفي كان دوماً عضواً في منظمة فتوة ، ومع ذلك فالتنا عرف خبر فتى اسمه نوح كان صوفياً وفي الوقت ذاته رئيساً لمنظمة الفتية في نيسابور (١٠) . ولما كان يوصف بالعار ، فمن المحتمل ان جماعته كانت من أهل الجهاد ممن اشرنا اليهم قبلاً (١١) . فقد كان في خراسان (كان نوح من اهل نيسابور) سبعة عشر بيتاً محصناً للمقاتلة في سبيل الاسلام . وكان أهل هذه الأربطة لا يمارسون الحرب فقط ، ولكنهم كانوا يمارسون اموراً دينية ايضاً (١٢) . ومهما كانت الحال فان كتباً عن الفتوة اخذت تظهر منذ القرن العاشر وضعها بعض المتصوفة ترد فيها الكلمة « الفتوة » بالمعنى الصوفي التقشفي الخالص دون أن تكون ذات صلة بمنظمة ما . ولقد حلل تشنر بضعة كتب من هذا النوع (١٣) ، فلسنا بحاجة إلى معالجة هذه القضية هنا . وعلى كل حال فقد ظل المتصوفة يساهمون في العمل مع جماعات لم تكن صوفية في اصلها ، ونحن نعرف ان الذي ادخل الخليفة الناصر في الفتوة هو متكشف صوفي :

ويرى تشنر ان جماعات المحاربين التي تشمل ما يسميه « مقاتلة الحدود الادين » أو « جماعة فرسان البلاط » أو « نظام الفروسية » تمثلها الجماعة التي يتزعمها الخليفة الناصر لدين الله (حكم ١١٨٠ - ١٢٢٥) . ونرى المؤرخ العربي ابن الاثير يقول عن الناصر ما يلي :

« وجعل جل همه في رمي البندق والطيور المناسب وسراويلات الفتوة ، فبطل الفتوة في البلاد جميعها الا من يلبس منه سراويل يدعى اليه ولبس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوة ، وكذلك ايضاً منع الطيور المناسب لغيره الا ما يؤخذ من طيوره ومنع الرمي بالبندق الا من ينتمي اليه . فأجابه الناس بالعراق وغيره الى ذلك الا انساناً واحداً يقال له ابن السف من بغداد فانه هرب من العراق ولحق بالشام فارسل اليه يرغبه في المال الجزيل ليرمي عنه وينسب في الرمي اليه فلم يفعل فبلغني ان بعض اصدقائه انكر عليه الامتناع من اخذ المال فقال يكفيني فخراً انه ليس في الدنيا احد الا يرمي للخليفة الا أنا . » (١٤)

سنعرض لمسألة الباس الامراء سراويل الفتوة فيما بعد . أما هنا فستحدث

عن كتاب في الفتوة وضع لتستعمله جماعة الناصر .
وضع هذا الكتاب ابن العبار لمنظمة الناصر (لم يطبع النص العربي بعد) ،
والذي يؤخذ من تحليل بعض فقراته لا يحملنا على الاعتقاد بان الاراء والقوانين
الواردة في هذه الفقرات موضوعة للمحاربين . فالمؤلف يوضح ان الذي اغراه
بوضع الكتاب هو الرغبة التي لمسها عند جميع الناس في ان يكونوا فكرة دقيقة
عن الفتوة . فهو يقول ان الحديث عن الفتوة قد كثر لا سيما منذ ان احياها
الناصر . لقد جرب الجميع ان يسيروا في ركاب الخليفة ، فقرر المؤلف العربي ،
رغبة منه في ان يخدم الخليفة ، ان يجمع كل قواعد الفتوة والمروة (١٥) (وهي
صفة كثيراً ما تلازم الفتوة ، وقد تكون مرادفة لها) .

يعرف الاعضاء « بالفتيان » ويدعو كل منهم الآخر « رفيقاً » . واول
« فتي » كان ابراهيم الخليل ، وخير من يمثل الفتوة النبي وعلي . ولما كانت
الجماعة تتحلّى بالفضيلة وكرم الضيافة ، فلم يكن للخطاة والسفهاء مكان
فيها (١٦) . ويحوز لليهود والنصارى ان ينضموا اليها مؤقتاً لكن لا يجوز لهم
ان يغدوا اعضاء نظاميين الا بعد اعتناقهم الاسلام (١٧) .

ويشترط في الفتى ان يكون مسلماً ذكراً حائزاً على جميع المؤهلات العقلية ،
ويحوز ان يكون من الانس او الجن ، حرّاً او رقيقاً ، خصباً او حائكاً او حجاماً
او كانساً الخ . ولكن ليس لمن على الخمر او المتاجر بها او جاني ضرائب او
مئولي عشور او قارئ بحث او شخص مهتك او ممثل او رقاص او مقامر او
مشعوذ او جلاذ طاغية الخ . ان يكون فتي . ويفقد الرجل « فتوته » اذا ارتكب
احدى الكبائر او تمادى في احدى الصغائر . ويعد قتل الصاحب او الاعتداء عليه
بقسوة من الكبائر . ولا يقتل مرتكبو الكبائر في الفتوة الا بعد تجربة توبة صادقة
وضمانة كفيل . والفتيان ينتظمون في طوائف تسمى كل منها « بيتاً » ، وكل
بيت ينقسم الى « احزاب » . والفتى الكبير يتعهد المريد « ويشده » عندما يقبل
في الحزب ويتقبل منه العهد . ويتوجب على الرفيق الجديد ان يطيع كبيره ويكرمه
كأبيه . ويسمى كبير الكبير « الجلد » ، وتكون نسبته الى الرفيق الجديد مثل ذلك :

ومثل هذه « النسبة » تحدد العلاقة بين رقيقين موضوعين في عهدة كبير واحد ، ويعهد الفتيان الى « الوكيل » بالاشراف على « البيت » وادارة الاجتماعات ، وهو الى ذلك يدير شؤون القضاء وينفذ العقوبات . ويقوم « النقيب » بتنظيم الاحتفالات ويلقي الخطبة في حفلات قبول الرفقاء الجدد (١٨) .

وكان القبول في الفتوة يتم على دفعتين . الاولى يعهد فيها بالمريد الى الكبير وتسمى « الشد » . اذ يشد المريد بمنطقة ويسقى كأس ماء ملح وهذا الفعل الأخير يعرف « بالشرب » . وتأتي الدفعة الثانية بعد ان يقضي المريد مدة تنتهي بحراسيم « التكميل » وليس السراويل (١٩) . وفي بعض الأحيان كان يستعاض عن السراويل بالسلاح (٢٠) .

وثمة فرق طريف بين كتاب الفتوة لابن العمار (وهناك كتاب آخر وضعه لجامعة الناصر شخص يسمى الخرتبرتي (٢١) يشبهه في كثير من صفاته) من حيث الإشارة الى قبول عامة الناس في الفتوة ، وبين ما رواه المؤرخون الذين يؤكدون ادخال الناصر لبعض امراء العراق وشمالى سورية وآسية الصغرى بل وامراء غزنة في الفتوة (٢٢) . وقد درج سلاطين المماليك في مصر فيما بعد حتى القرن الرابع عشر على منح سراويل الفتوة للامراء والأعيان المصريين في بعض الأحيان (٢٣) .

ومنح السراويل للامراء هو الذي ادى الى الرأي القائل بان الفتوة تنفق الى درجة ما (هي اقل عند تشنر واكثر عند فتك) مع الفروسية الاوروبية ، وتقوم فكرة الاتفاق هذه بشكل خاص ، على اساس المطابقة بين مبدأ التبعية (homage) الغربي والرباط الجامع بين الرقيق والكبير . وتحليلنا هذا لخصائص الفتوة متأثر الى حد بعيد بما دونه ابن الساعي ، وهو من الاخباريين الذين عاشوا في بغداد في القرن الثالث عشر . فقد ورد في المجلد التاسع من كتابه الكبير نص امر أصدره الناصر في التاسع من صفر ٦٠٤ للهجرة (٤ ايلول - سبتمبر ١٢٠٧) : « ويروى المؤلف اولاً الأحداث التي حملت الناصر على اصدار الأمر فيقول : « في هذه السنة اهدرت الفتوة القديمة وجعل امير المؤمنين الناصر لدين الله

— رض — القيلة (٢٤) في ذلك والرجوع اليه فيه وكان هو قد شرف عبد الجبار بالفتوة اليه وكان شيخاً (٢٥) مترهداً فدخل في ذلك الناس كافة من الخاص والعام وسأل ملوك الأطراف الفتوة فنفذ اليهم الرسل ومن البسهم سراويلات الفتوة بطريق الوكالة الشريفة وانتشر ذلك ببغداد وتفتى الاصاغر الى الأكابر (٢٦) . واتفق ان الفاجر العلوي كان رفيقاً للوزير ناصر بن مهدي . وكان له رفقاء فاختصم احد رفقاته مع رفيق لعزيز نجاح الشرايبي . وصار بذلك فتنة عظيمة بمحلة قطفتا حتى تجالدوا بالسيوف فانتهى ذلك الى الأمام الناصر لدين الله — رض — فأنكره وتقدم الى الوزير يجمع رؤوس الاحزاب وان يكتب في ذلك منشور يؤمرون فيه بالمعروف والالفة وينهون عن التضامن ويقرأ بمحضر منهم ويشهد عليهم بما يتضمنه فمن خالفه اخذ سراويله وابطلت فتوته وعوقب بما يرى من العقوبة . واحضر الفاجر العلوي وقال الوزير للحاضرين اشهدوا علي أنني قد نزلت عنه : وقرأ المنشور عليهم المكين ابو الحسن محمد بن محمد الفنمي كاتب ديوان المعمور وهو من انشائه وهذه نسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم ... قد امر الخليفة كل من تشرف بالفتوة انه من قتل له رفيق نفساً نهى الله تعالى عن قتلها وحرمه وسفك دماً حقه الشرع المطهر وعصمه ان يتزل عنه في الحال في جمع الفتيان عند تحققه لذلك ومعرفة . وان كل فتي يحوي قاتلاً ويخفيه ويساعده على امره ويؤويه يتزل كبيره عنه ويغير رفاقته ويتبرأ منه . فان الفتي متى قتل فتي من حزبه سقطت فتوته ووجب ان يؤخذ منه القصاص . وان قتل غير فتي عوناً من الأعوان او متعلقاً بديوان في بلد سيدنا ومولانا الأمام المفترض الطاعة على كافة الأنام الناصر لدين الله امير المؤمنين وخليفة رب العالمين فقد عيب هذا القاتل في حرم صاحب الحزب (الخليفة) بالقتل فكانما عيب على كبيره فسقطت فتوته بهذا السبب الواضح ووجب اخذ القصاص منه عند كل فتي راجح . وليعلم الرقعة الميمونة ذلك وليعملوا بموجبه وليجروا الأمر في امثال ذلك على مقتضى الأمور به وليقفوا عند المحدود . في هذا المرسوم المطاع ويقابلوه بالانقياد والاتباع — ان شاء الله تعالى . كتب .

في تاسع صفر سنة اربع وستمائة (٤ ايلول - سبتمبر - ١٢٠٧) : وسلم الى كل واحد من رؤساء الاحزاب منشور بهذا المثال فيه شهادة ثلاثين من العلول : ثم كتب تحت كل مرسوم ومنشور ما هذا صورته « قابل العبد ما تضمنه هذا المرسوم المطاع وقابله بما يجب عليه من الاتقياد والاتباع والامثال وهو الذي يجب العمل به فتوة وشرعاً وهذا المعروف من سيرة الفتيان المحققين نقلاً ، وقد التزمت نفسي اجراء الأمر على ما تضمنه هذا المرسوم الاشرف فمتى جرى ما ينافي بالمأمور به المحلود فيه كان اللرك لازماً لي والمواخذة مستحقة على ما يراه صاحب الحزب ثبت الله دولته واعلى كلمته وكتب فلان بن فلان في تاريخه » (٢٧) .

هذه الوثيقة ، التي نشرت بأمر الخليفة نفسه ، تعيننا على استشفاف حقيقة الفتوة عبر الرسوم والطقوس . وحقيقتها لا تتفق و « نظام القروسية » الا في القليل القليل ، كما انها ليست جزءاً من الاداة السياسية بيد صاحب الأمر : فالخليفة ييسط سلطته على الفتوة بوصفه قائدها ، لا على انه رئيس الدولة . فالأمر الذي اصدره الناصر يقول مثلاً « اذن ، كما لو انه اقترف جرماً ضد كبير ... »

وقد اثير هذا السؤال : لماذا كان الناصر زعيم الفتوة الاكبر ؟ وثمة جوابان لهذا السؤال - اقترح احدهما فتك والآخر تشي . فالذي يراه فتك ان قبول امراء معينين من سورية والعراق واسية الصغرى وحتى غزته لسراويل الفتوة من الناصر ، بل وطلب بعضهم لها منه ، يقوم دليلاً على حرص الخليفة على اقامة خطط دفاع يقي البلاد من زحف الصليبيين على المسلمين . ويشير ايضاً الى ان طوائف الغزاة او المتطوعة في خراسان كانت في القرنين التاسع والعاشر ، قد احتلت تقاليد الفتوة (راجع فوق) . ويرى كذلك ان الناصر أراد ان يوحد مقاومة الجهاد الجديد تحت لوائه ، وان يرد في الوقت نفسه الى الخلافة العباسية الهيمية التي كانت قد فقدتها منذ قرون . ويشير فتك ايضاً الى أن كثيرين من الامراء المعاصرين للناصر اتخنوا لقب « غازي » ، ويرى ان امراء سورية

والعراق على الأقل قد نقلوا فكرة « الغازي » الأصلية من مجال الحركة الشعبية إلى بلاط الامراء . « لم يعد الغازي مجازاً كما كان في الازمنة الخوالي ، بل أصبح من القرمسان الاشراف ممن يتوق الامراء ان يكونوا في عدادهم » (٢٨) . لكن هذا لم يكن كافياً . « فان الخليفة الناصر جعل من هيئات الفتوة منظمة يقوم هو بنفسه على رأسها . وليس ثمة ما يرمي اليه سوى ان يربط هؤلاء المقاتلة الى شخصه برباط جديد . وفتوة المدن كانوا من هذا النوع ، كما كان الصنّاع في المدن ذوي أهمية خاصة لمثل هذه الغاية . ولكن الذين كان يرمي (الناصر) الى الاهتمام بهم هم رؤساء الجيش والامراء . لقد كان هؤلاء يؤلفون طبقة متميزة ، ولم يكن من الممكن دمجهم في المنظمات المدنية . فكان من الضروري ان يكون لهم منظمة خاصة بهم ذات طابع من نوع الفروسية . وهنا قامت حركة هؤلاء الغزاة » (٢٩) . والذي يتضح من مجرد فحص مثل هذه الدعوى ، انها لا تركز على وثائق تؤيدها . فقد اظهر تشنر بما لا يقبل الريب بان الناصر متصل تماماً من حروب الجهاد التي جرت في ايامه . وعليه فاهتمامه بالفتوة لم يكن ناتجاً قط عن أية فكرة متصلة بالجهاد .

« ان صلاح الدين ، الذي كان معاصراً للخليفة ، جاهد ضد الصليبيين جهاداً مريراً حتى انتزع منهم موقعاً بعد الآخر في سورية وفلسطين . وقد طلب من الخليفة العون في جهاده ضد الكفار . ولكن الخليفة المقيم في بغداد بعيداً عن المعركة ، لم يمن بالاحداث القائمة في الغرب حيث كانت تقوم المعارك في سبيل الدين ، واكتفى بأن ارسل إلى صلاح الدين ، بالاضافة الى كلمات التشجيع ، فئة قليلة من المقاتلة ... ولا شك ان انعدام الكلام عن الجهاد في كتب الفتوة ، يدل دلالة واضحة ، ولو بطريقة سلبية ، على ان الخليفة لم يكن يهتم بالجهاد . ومن ثم يتوجب علينا القول بان الديار الاسلامية حيث كانت فكرة الجهاد قائمة بكل قوتها ، لم تقم هذه الفكرة بأي دور في المناسبة الوحيدة التي ظهر فيها نظام فروسية بالمعنى الأرفع ، اذ تخطى دور المحاربين على التخوم » (٣٠) . ومع ذلك فجواب تشنر يبدو مثل الجواب السابق شيئاً غير مقنع . فتشنر

يشير الى أن الناصر استغل ضعف الدولة السلجوقية ليفيد في تغذية طموحه البعيد، فحاول من جهة ان يعيد للخلافة العباسية ما كان لها من مكانة سياسية كانت قد فقدتها منذ القرن العاشر واراى، من جهة اخرى، ان يقضي على الاختلافات في العالم الإسلامي ، لا سيما الخصومة القديمة بين السنة والشيعة . وقد حاول تحقيق هذين الهدفين عن طريق تقوية الفتوة (٣١) .

كيف كان يمكن للفتوة ان تساعد الخلافة على استعادة منزلتها السياسية ؟ وههنا يتجلى اختلاط المفاهيم بشأن القروسية مما ادى إلى هذه المبالغة الشديدة في الاراء . « فقد كانت الفتوة بالنسبة اليه وسيلة لدعم سلطانه في جميع الأقطار الإسلامية . وقد اصبح التشديد بشأنها ضرورة ماسة في الوقت الذي بلغت فيه الوسائل الحقيقية لتعزيز الخلافة الغاية من الضعف وذلك لان الرقعة التي ظلت تحت تصرفه كانت صغيرة ، وكانت سلطته الزمنية فيها مع ذلك موضع نزاع شديد . ولا شك في ان الخليفة كان يتمتع بمركز الشرف الاول بالنسبة الى حكام العالم الإسلامي ، ولكن هذا لم يكن يعني في الواقع الا شيئاً قليلاً » . فحاول من ثم ان يربط « الامراء » اليه شخصياً عن طريق « واجبات التبعية » ، المتحدرة من انضمامهم الى جماعة الفتوة (٣٢) . وكما اصبح الامراء مرتبطين بشخص الخليفة بحكم انضمامهم هذا الى جماعة الفتوة ، هكذا اصبح سواهم من انضم اليها من جماعة الرجال المسلحين الكبيرة ، وفئة الفرسان ، وغيرهم من الرجال » (٣٣) .

ولسنا ندري لماذا يستعمل تشنر تعبير « واجبات التبعية » هنا . اذ أن الشرق الإسلامي لم يعرف قط شيئاً شبيهاً بالتبعية (homage) التي عرفتها اوروبا الغربية . فقد كانت الجيوش مكونة من المرتقة والرقيق . ولم يكن فيهم من هم من قبيل الفرسان . نعم لقد كان هناك جماعات من مقاتلة الحدود المتطوعين ، لكن هؤلاء لم يكونوا دعاة فعالة لسياسة القوة . ولم تكن الخلافة ، من حيث تكوينها الاجتماعي ، قائمة على نظام اقطاعي اساسه علاقات تعاقدية بين السادة والاقبال ، على ما كانت الحال عليه في اوروبا في العصور الوسطى . فلقد طالما

كان مفهوم الخلافة أنها دولة اوتوقراطية لجماعة المسلمين يحكمها خليفة الله على الأرض . ومن ثم فقد حافظ حكام الدول الإسلامية التي استقلت عملياً عن الخلافة على اعتبار الخليفة ، على ضعف نفوذه ، اميراً للمؤمنين من حيث المبدأ ، ولم يزيدوا بهذا الاعتبار عن كونهم اعاوناً له . حقاً ان العلاقة الشخصية بين السيد والقبيل كانت ، في النصف الاول من العصور الوسطى في اوروبة ، ذات خطورة سياسية فائقة وذلك بداعي الضعف الإداري والعسكري الذي اصاب الحكومة ، وقد كانت الخلافة في العصور الوسطى تشبه حكومات اوروبة ، ولو في الظاهر ، من حيث اتصافها بالاختلال والعجز (٣٤) ، لكن الخلافة لم تفقد قط صفتها الاوتوقراطية الأصلية مع كل ما وصلت اليه سلطة الخليفة الشخصية احياناً من الضعف البالغ من النصف الثاني من القرن التاسع وما بعد . قد نسلم بان رابطة الفتوة قد تزود جماعة معينة بالأساس الخلفي والعائلي ، وتجمع بين افرادها وتوثق الصلة بينهم وبين رئيسهم ، لكنها لم تكن جديرة بان تغدو اسامياً قوياً لاعادة النشاط الى الخلافة وهي التي تقوم على فكرة انضمام المسلمين عامة تحت امرة خليفة النبي .

وما يستلفت النظر ان كتاب ابن العمار وكتاب الخريزني عن الفتوة — وقد كتب اولهما لجماعة الخليفة الناصر والثاني لابن الخليفة — لا يؤيدان ما ذهب اليه فتك او تشتر . فالناصر لم يكن ، بالنسبة الى الفتوة ، امير المؤمنين : بل كان « سيد الجماعة » ، وكان بإمكانه ان يطلب من « الرفقاء » ان يصونوا السلم في البلاد . لكن القيادة العليا للقوى التي تحكم العالم الإسلامي وتحارب الكفار لم تكن مهمة من يمنح سراويل الفتوة ، بل كانت خاصة بامير المؤمنين ، وهو القائم على شؤون امة محمد . ولا شك ان تولي مهمة « سيد » الفتوة كان تدبيراً اقتضته الحاجة : وسنحاول ان نبين الى أي حد حققت هذا الغرض . وغير خاف ان مثل هذا الأمر ، اي تولي سيادة الفتوة ، ما كان العالم الإسلامي ليعتبره من الناحية القانونية والخلقية مساوياً لمقام الخلافة .

الا ان السؤال الذي يواجهنه الآن هو : لما لم يكن احد الخلفاء قد سبق له ان

انصل بالفتوة ، فما الذي حمل الناصر على اعادة تنظيم الفتوة ، بل وتولي رئاستها . لنلق اولاً نظرة على رأى ابن العمار في الذي قام به الناصر . فهو بعد ان يعدد احد عشر حامياً من حماة الفتوة ، مبتدئاً بأحد اصحاب الرسول ، سلمان الفارسي ، يستأنف الكلام قائلاً :

« وهكذا تحدرت الفتوة الى ايماننا باستمرار ، وتشعبت الى فروع مختلفة ... كالرهاصية والشحنية والخليلية والمولديه والنبويه (او النبوية) ... وبما ان هذه التقسيمات لم تتم وفقاً لأنظمة الفتوة ، او وفقاً لعادات الأجداد الشرفاء او منهمجهم في العمل ، اخذت الخلافات بينهم ترداداً باطراد ... ولما كان هذا قد استمر حتى ايام سيدنا الامام الناصر لدين الله امير المؤمنين ... فقد حصر اهتمامه في التحقق من الانساب (٣٥) (انساب الفتوة) ، ثم اتخذ « كبيراً » له في الفتوة المتنسك المفضل التقي الشيخ عبد الجبار بن صالح البغدادى ... لان حياته كانت نقية وكذلك كانت طريقته » (٣٦) .

فانخليفة كان قد ازعجه انحراف مثل الفتوة عن التقليد السامي وفساد تصرف اعضائها الأمر الذي ادى الى تفاقم الفروق بين طوائفها المختلفة . قال ابن العمار في مقدمته بهذا الصدد « فجمع ما كان مشتتاً من عاداتها (الفتوة) واحيا ما كان قد اندثر من انظمتها » (٣٧) .

والرهاصية التي ذكرها ابن العمار ذات منزلة خاصة في بحثنا هذا ، ذلك لأن « الكبير » التابع للناصر ، وهو المتنسك عبد الجبار ، كان شيخاً لهذه الجماعة التي سميت باسم احد رؤسائها السابقين ، عمر بن الرهاص (٣٨) ، وقد ورد ذكره في كتاب « انساب الفتوة » الذي وضع للناصر . بناء على ذلك يمكن القول بان الناصر كان ذا صلة وثيقة بالرهاصية في بدء عهده بالفتوة . ولعل المولدية اتخذت اسمها من المولد النبوي ، لان الاحتفال به كان امرأ ذا خطر في الأوساط الشعبية الصوفية في دنيا الإسلام ، والنبوية تدل ، بشاهد اسمها ، على صلتها الوثيقة بالنبي . وقد جاء عن هذه الجماعة في رحلات ابن جبير أنها كانت تكافح الشيعة كفاحاً شديداً في سورية في القرن الثاني عشر (٣٩) . وهذه الحقيقة

تنقض ما ذهب اليه ماسينيون من فرض وجود صلة ولاء ما بين الفاطميين وجماعة النبوية (٤٠). والظاهر ان هذه الجماعة كانت قد وقتت جهادها على مناوأة المارقين من الاسلام ، ولكن ليس هناك ما يدل ، ولو من بعيد ، على انها كانت على اتصال « بالغزاة » الذين كانوا يجاهدون الكفار على حدود الدولة الاسلامية . ويروى ابن الاثير اخبار اضطرابات خطيرة حدثت في بغداد بين ٩٧٩ و ٩٨٢ م بقيادة الفتيان والعيارين (٤١) ، احرقت في اثنائها ضواحي الكرخ وهي منطقة أكثر سكانها من الشيعة . ويقول المؤرخ العربي ان هذه الحوادث تسببت عن وجود عدد كبير من المجاهدين آنذاك في بغداد . ومن المؤكد ان النبوية كانوا في هذه الاثناء على نحو من الاتصال بمتطوعة الجهاد ، ولكن ليس لدينا اية تفاصيل عن نوع هذا الترابط (٤٢). ويزودنا ابن الاثير بحقائق أخرى تعيننا على توضيح دور جماعات الفتوة في الحصومات الداخلية في بغداد (٤٣). فقد حدثت اضطرابات أخرى خطيرة في بغداد ، وفي ضاحية الكرخ نفسها ، في اوائل سنة ١٠٥٣ م على ما يروى ابن الاثير (٤٤) ، نشأت من الخلاف بين السنة والشيعة ثم اشترك فيها مرتزقة الأتراك . ونحن الآن نقرب من أيام الناصر واضطرابات بغداد ١١٣٥ - ١١٤٤ ، التي تخلفت عن اجتماع عدد كبير من المجاهدين (٤٥) .

« في آب (اغسطس) ١١٣٧ اشتد ارهاب العيارين بقيادة شخص اسمه ابن بكران ، واستفحل حتى ان والي بغداد ، الشريف ابو الكرم ، ادخل ابن اخيه ابا القاسم في جماعتهم ، « فشد ولبس سراويل » الفتوة على يد ابن بكران . ولم تغف الاضطرابات الا بتدخل الوزير ، وقد هلك ابن بكران بوقعة من ابي القاسم المذكور » (٤٦) .

وهذا الذي فعله حاكم بغداد هو الذي يفسر لنا اهتمام الناصر نفسه فيما بعد بالفتوة . فان السلطات بعد ان يشتت من القضاء على هذه المنظمات ، حاولت ان تتدخل في صميمها على أمل ان تتمكن من أن تغير وجهتها او تحطمها من الداخل . على ان طبيعة هذه المنظمات البغدادية ليست واضحة لنا .

فماسينيون يرى ان ثوار سنة ١١٤٠ انما كانوا «جماعة لصوص» (٤٧) ، ولكن المصادر لا توحى بشيئا من هذا . يضاف الى هذا ان ترجمته لتعبير الفتوة : « الفروسية المتمردة » و « البطولة خارج القانون » انما هي مثل آخر من امثلة استعمال كلمة « فروسية » استعمالا لا معنى له . ولعل بعض اعيان المجتمع البغدادي توسلوا بالفتوة لزيادة الاتباع حولهم . لكن اي رأي من هذا النوع لا بد ان يكون سابقا لوانه قبل ان تتوفر لنا المعلومات الكافية عن تاريخ مدينة بغداد الداخلي في هذه الفترة . ومع ذلك فان اللور الذي قام به اعيان الشيعة من اهل التدبين في جماعة الناصر يشير الى على شيء في هذا الاتجاه (٤٨) . ولقد كان ثمة تسلل من جهة المتصوفة — مثل « كبير » الناصر — كما يبدو من المظاهر الصوفية التي تتحلى في كتابي الفتوة الموضوعين لجماعة الناصر . وقد رأينا ايضا ان تسلل المتصوفة الى صفوف الفتوة المقاتلة في خراسان قد عرف منذ القرن التاسع

ثم ان الاضطرابات التي حدثت في بغداد في اوائل العقد الخامس من القرن الثاني عشر ، وما قاله ابن الأثير من ان العيارين « نهبوا وسرقوا وقتلوا » في هذه المناسبة ، وان قسما من السكان كان يعطف على الارهابيين ، حملت تشنر على ابداء رأى جدير بالاهتمام قال : « يبدو اذن ان اجرام العيارين كانت تحمل فكرة محبة الى الشعب البسيط لعلها من نوع الأفكار الاشتراكية ، نظير محاولة القضاء على التوزيع غير العادل للثروة ، ولو بطرق غير مشروعة » (٤٩) . ويؤيد تشنر رأيه باقتباس عبارة من رسالة كتبها أ. زكي والذي طوغان جاء فيها أن كلمة عيار كانت في تركستان الى زمن حديث تعتبر « اللص الشريف ذلك الرجل الذي كان يلجأ الى اعمال اللصوصية لأنه يفشل في الحصول على تسوية لوضعه الاجتماعي او الحرية لشعبه (مثل البشكير ضد الروس) . » (٥٠) وما يؤسف له ان ما لدينا من المعلومات اليوم لا يمكننا من تعيين العلاقة الدقيقة بين « عياري » بغداد في القرن الثاني عشر وقبائل البشكير في الأرمنة الحديثة . و اشارة ابن الجوزي البغدادي (توفي ١٢٠٠م) ، وهو معاصر للناصر ،

الى ان العيارين — الفتيان كانوا يقومون باعمال اللصوصية ليست بأي حال اوضح دلالة من غيرها (٥١) .

فما هو الضوء الذي تلقيه هذه المعلومات المتقدمة زمنياً على سياسة الناصر نحو الفتوة ؟ يبدو ان الاضطرابات التي حاول الناصر ان يضع لها حداً عن طريق تشريع الفتوة ، لا تختلف الا قليلاً عن الاضطرابات التي اثرت في الفتوة قبل أيام الناصر بزمان طويل . ورغم قلة ما بين ايدينا من معلومات يبدو اننا لا نعدو بحجة الصواب ان قلرنا ان الناصر قد رمى مما فعله اصلاً الى السيطرة على جماعات الفتوة . وذلك خاصة في بغداد والعراق ، حيث كانت للخليفة سلطة فعلية ، فان رئاسته للفتوة قد يقوى السلطات العامة في موقعها من هذه الجماعات.

ولعل المعلومات التاريخية تمدنا بما يؤيد وجهة نظرنا هذه ولو بطريقة غير مباشرة . لقد تولى الناصر الخلافة سنة ١١٨٠ . اما تاريخ تقبله السراويل من الشيخ الصوفي عبد الجبار فلم يذكره الا المؤلف التركي حاجي خليفة الذي وضع كتابه ١٦٤٨ (٥٣) . والمؤلف يورخ للحادثة على انها تمت سنة ١١٨٢—١١٨٣ ، لكنه لا يشير الى المصدر الذي اخذ عنه .

والسؤال الذي يجب ان يسأل هو : متى اعتمد الناصر اصلاح الفتوة بحيث أصبح هو نقطة الدائرة في هذا النظام ، وابطل على الأثر دعوى كل عضوية لا يقرها هو او مندوبوه ؟ يقول ابن الساعي ان هذا الاصلاح تم في السنة نفسها التي اذيع فيها امر الخليفة الناصر اي سنة ١٢٠٧ م (٥٤) . لكن تشير (٥٥) وكاله (٥٦) كلاهما يرفضان هذا التاريخ على اعتبار ان قبوله يعني الاعتراف بان الخليفة كان قد أصبح رئيساً للمنظمة . على انه من المحتمل ان يكون قد حقق الأمرين في سنة واحدة . فلعل الخليفة كان قد انتظم عضواً عادياً في الفتوة في سنة ١١٨٢ وحازر ، قلر المستطاع ، ان يقوم بعمل ربما ادى الى مغامرة جسيمة . لكنه عمد سنة ١٢٠٧ الى اتخاذ الخطوة الحاسمة لأن الاضطرابات بلغت من الاتساع حداً لا يسمح بالتردد .

وقد اورد ابن خلدون المؤرخ التونسي والعالم الاجتماعي الكبير (١٣٣٢ - ١٤٠٦) شيئاً عن فتوة الناصر ، فقد جاء في كتاب العبر قوله : « وكان (الناصر) مع ذلك كثيراً ما يشتغل برمي البندق واللعب بالحمام المناسب ، ويلبس سراويل الفتوة شأن العيارين من أهل بغداد وكان له فيها سند الى زعمائها يقتضيه على من يلبسه ايهاا وكان ذلك كله دليلاً على هرم الدولة وذهاب الملك عن اهلها بذهاب ملاكها منهم » (٥٧) .

فالذي يراه ابن خلدون في فتوة الناصر انها لعب هواة ، يمثل تصرف فرد من أفراد سلالة بلغت الغاية من الانحلال . لكن تشر ، اذ يلمح الى ما قاله ابن خلدون ، لا يقيم له وزناً اذ يفصل المؤلف عن الناصر قرناً من الزمان (٥٨) . والذي يبدو لنا ان ابن خلدون ما كان ليتحدث عن نشاط الخليفة يمثل هذه اللهجة لو كان في هذا العمل من الملابس السياسة الهامة ما يخلعها عليه فتك وتشر . حقاً ان المؤلف العربي لا يوحى بتفسيرنا لكن النتائج التي توصل اليها ، تبدو اوثق من افترض « الفروسية » المبني على تدبير الخليفة في لباس الامراء السراويل . ومثل هذا العمل قد لا يعدو كونه « هو امير » ، لا خطر له .

ولما لم يكن من شأننا ههنا ان نعالج الفتوة بالنسبة الى طوائف الصناعات (٥٩) ، وهي صاحبة الفضل في حفظ كتابين وضعا عن فتوة جماعة الناصر ، نتقدم الآن بعرض النتائج التي وصلنا اليها فيما يتعلق بفتوة الناصر . انه من الواضح ان هذه الظاهرة الاجتماعية لا تمت الى الفروسية التي عرفتھا العصور الوسطى الاوروبية بصلة ما ، اذ كانت هذه الفروسية تقوم على اساس منتظم من اقطاع الأرض . والذي بين ايدينا من الوثائق لا يستدل منه على أن الاصلاح الناصري ردى الى وضع نظام على هذا النحو . أما التساؤل عما اذا كان المجتمع الاسلامي قد عرف اتجاهاً ما يمكن مقابله بنظام الاقطاع الاوروبي فيخرج عن نطاق هذا المقال وغايته (٦٠) . وعلى كل فالروح التي كانت تتغلغل في البناء التنظيمي لهذين المجتمعين لم يكن واحداً في طبيعته .

وما يعرفه الجميع ان المجتمع الاسلامي في العصور الوسطى يزخر بالأمثلة

الساطعة على روح الفروسية والمروءة (٦١) . ومن الأمثلة البارزة الدالة على هذه الفضائل اسامة بن منقذ ، الذي عاصر صلاح الدين . فهذا الرجل النبيل كثيراً ما التقى امراء وفرساناً من المسيحيين الذين حملتهم الحروب الصليبية الى شواطئ فلسطين ولبنان وسورية ، فامتدح خصالهم الحربية . ومع ذلك فكثيراً ما كان يشعر بالفور والاشمزاز من عادات بعض انداده الاوروبيين . ومما استرعى انتباهه بشكل خاص المكانة البالغة الرفع التي كان « الفرسان » يتبوأونها في السلم الاجتماعي والمقام الخطير الذي حظوا به في اوصاف الفرنجة (٦٢) .

وتدليلاً على الفوارق العميقة التي كانت تفصل بين المجتمعين نقبس هذه العبارة عن اسامة حيث يقول : « والافرنج ، خلطم الله ، ما فيهم فضيلة من افضائل الناس سوى الشجاعة ، ولا عندهم مقدمة ولا منزلة عالية الا الفرسان ، ولا عندهم ناس الا الفرسان — فهم أصحاب الرأي وهم أصحاب القضاء والحكم » (٦٣) .

الهوامش

- ١ - See Taeschner, 1937: 43, n. 2r 1934: 9 ff.; 1944a; 343-345.
- ٢ - Ziebarth, 1896; Taeschner 1944a: 346.
- ٣ - Taeschner (1927: 388, n. 12) يشير هذا الى ان الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان (٦٨٥-٧٠٥) انشأ فرقة عسكرية خاصة قوامها مبيد وأن هذه الفرقة ، على ما ورد في شهادة رجل من اهل القرن الثامن، سميت «الفتيان» ولا تزال الى الآن. فاذا كان هؤلاء فتيةاً بالملحى الفنى ، كان لدينا في هذه الحالة جماعة حربية من الفتيان انشأها صاحب السلطان ، التي لم تكن بالضرورة من الجيش النظامي . لكن من المحتمل ان قرر هنا فيها دلالة «العبد» ، كما تلمح في القرآن الكريم (١٢ : ٣٠ و ٣٦ الخ . راجع « الفتوة » لغارس) . ويستفهم هوزي من قاموس بلور القبالا معنى العبد المتحرر. لكن هذه الاشارة بالذات تجيز استعمال معنى «عبد» استعمالاً عاماً . يضاف الى هذا انها تشير الى ما شاع استعماله في العربية في اسبانيا في القرن السادس عشر. ومع ذلك. فاذا ثبت ان رأينا كان دقيقاً فانه يتفق تماماً مع الفكرة المتضمنة في رواية القرن الثامن: فالجنود الممنون «سوا مبيداً الى يوم الناس هذا» لان اصلهم كان رقيقاً او ما اذلك.
- ٤ - Barthold 1928: 214; Taeschner 1964a: 347 ff.
- ٥ - يجب ان نذكر ان القروسية الأوروبية في اوجها لم تكن ظاهرة من ظواهر الحياة الاجتماعية. جاءت جبراً ، او انه من الممكن القضاء عليها دون الاخلال بالبناء الاجتماعي الذي تقوم عليه ، بل كانت جزءاً اساسياً من المجتمع . وقد كان الفرسان يكونون نواة الجيوش ان في الشرق او الغرب حتى نهاية العصور ، ولكن وضعهم الاجتماعي كان يختلف اختلافاً كبيراً بين الشرق والغرب . وقد بين ك. ه. بكر وآخرون بده ان الاتباع قام في الغرب على اساس اقتصاد مختلف سببه قلة الثقل وخاصة الذهب (راجع Bloch 1933) ، ولذلك فلم يكن بالاسكان انشاء جيش حامل؛ بينما في العالم الاسلامي يبرت الحالة الاجتماعية. لقوله ان تشيخه جيشاً حاملاً وان تدفع اجرتة فقراً. ويسبب قيام الفلاح في الادبارة ارفع اصحاب السلاطون تدبيراً جيداً منذ القرن الهائبر ان يتركوا جمع الضرائب بيد الخوادم افره. ولذلك فلم يبعث تشابه سطحي بين ما جرى في الشرق وبين حقوق المقنعين الغربيين في الارضي .

- ٦ - متر (الترجمة العربية) ج ٢ ص ٧٥-٧٨ .
٧ - Macdonald, Jihad.
٨ - Barthold, 1928: 287 and n. 2. اننا نأشد الحاجة الى سلسلة من الدراسات
المفصلة من تكوين الجيوش الاسلامية وتنظيمها بلمهم البلاد والازمنة . راجع Gibb,
1932: 31-40. حيث نجد ملاحظات ممتازة من تنظيم الجيوش الاسلامية في الشرق الادنى
في ايام الصليبيين .
٩ - Taeschner, 1937; 63, 64. والنص منقول من كتاب الملاحة السلمي بخطوة برلين.
(الترجم)
١٠ - الحجويري ص ١٨٣ ، المطبوع ج ١ ص ٣٣٤ ؛ 190-1: 1918: Hartmann,
Hartmann, 1914:47; Taeschner, 1937: 51; 1918a: 197;
١١ - بشأن « عيارون » بهذا المعنى راجع Koprulu, 1937, 102n. عندما تستعمل عيار بمعنى
« نذل » او « لص » فانه من الصعب القول فيها اذا كانت الكلمة لا تدل كونها شتيمة
يلقي بها الخصوم في وجه خصومهم .
١٢ - راجع ابن خلكان (ترجمة هي سلاتن) ج ١ ص ١٥٩ هامش ٣ .
١٣ - Taeschner, 1937: 47 ff.
١٤ - ابن الاثير ج ١٢ ص ٢٨٦-٢٨٧ .
١٥ - Kahle, 1932: 113 ff.
١٦ - Thorning, 1913: 49.
١٧ - Thorning, 1913: 188.
١٨ - Thorning, 1913: 194. ff.
١٩ - Taeschner, 1944a: 366.
٢٠ - Thorning, 1913: 204, 217.
٢١ - Taeschner, 1932: 294-297.
٢٢ - Thorning, 1913: 309, note 1, 210, note 1.
٢٣ - Poliak, 1939: 15.
٢٤ - القبله هنا مستعملة استعمالا مجازيا .
٢٥ - راجع فوق بخصوص تطور الفتوة الصوفي .
٢٦ - Kahle, 1933: 54.
٢٧ - راجع ابن السامعي ص ٢٢١-٢٢٦ و Kahle, 1933: 52 ff.
٢٨ - Wittek, 1936: 306-307. ليس في اتخاذ الامراء لقب « غازي » ما يبرر ، في
رأينا ، قول ذلك وسفاجيه بانهم غلوا متمسكين بتنظييات الفتوة كما ارادها الغازي .
٢٩ - Wittek, 1936: 307.
٣٠ - Taeschner, 1938: 402.

- ٣١- Taeschner, 1938: 403. بخصوص منزلة علي في فلسفة الفتوة ودور الماربيين في فتوة الناصر راجع. Taeschner, 1938: 398. وعلاشنا ١٦ و ٤٨ و ٥٢ .
- ٣٢- أن طويشي (١٩٤٠ ج ٦ ص ١١٢ هامش ٣) قبل هذا الرأي كما هو . « ١٠٠٠ اراد (الناصر) ، من جهة اخرى ، أن يجمع امراء دار الاسلام حول شخصه من طريق اعادة تنظيم الفتوة كما لو انها منظمة فرسان يقوم هو على رأسها » .
- ويرى بروكلمان (1939 : 222) Brockelmann ان جماعات الفتوة التي التفت حول الناصر شخصياً كانت « جماعات حربية » .
- ٣٣- Taeschner, 1938: 405
- ٣٤- راجع امر الناصر فوق .
- ٣٥- ومعنى هذا انه رغبة منه في اقامة مذهب لقي لقد نعمت كلمات جميع زعماء الفتوة واعمالهم الذين تقلوا من السلف الى الخلف .
- ٣٦- هذه الترجمة مأخوذة من Kahle, 1932: 113-114.
- ٣٧- Thorning, 1913: 47, lines 9-10 of the Arab extract.
- ٣٨- Massignon, 1948; 114, Taeschner, 1944a: 358.
- ٣٩- ابن جبير ص ١٠ .
- ٤٠- Massignon, 1942: 215.
- ٤١- Taeschner, 1930: 391.
- ٤٢- يرى تشنر (1938:387) Taeschner ان جماعات الفتوة في قلب البلاد الاسلامية « كانت من المؤكدة ... نموذج الحروب على الملوك » . على ان مثل هذا القرض ليس له ما يؤيده في المصادر .
- ٤٣- Taeschner, 1938. 391-393.
- ٤٤- Taeschner, 1938: 391-393.
- ٤٥- ابن الاثير ج ٩ ص ١٦ وما بعدها .
- ٤٦- Taeschner, 1938: 391-392
- ٤٧- Massignon, 1929 69, n. 1.
- ٤٨- Taeschner, 1938; 392. راجع أيضاً الوزير والملوي المشار اليهما في المقتبس عن ابن السامي فوق .

بعد كتابة ما تقدم وقمنا على رأي لسوفاجيه (1941: 97) Sauvaget يتعلق بجماعات الفتوة الاحداث في حلب في القرنين الحادي عشر والثاني عشر. يقول سوفاجيه « هذه المنظمة كانت تمثل قوة تحسب لها الدولة حسابها : فقد كان رئيسها في الواقع سيد المدينة ، وكان له النفوذ التام في ازمته القومى ، بحيث لم يكن باستطاعة اي كان ان يفرض سلطته دون التعاون معه . وبسبب ذلك اصبح تأييده ما يتناقص عليه المنتمون بالامر من طريق بذلك

المال . ومن ثم كانت الدولة تعرف به رسمياً ، الأمر الذي ثبت مركزه رئيساً لمدينة (ويتخصص الاسم فيصبح الرئيس) . ولم يكن يأتي من بين الرعايا ، بل على العكس كان من الأمر ذات المقام المرموق بحيث يمكنه ان يقرض احترامه على الجميع ، بما في ذلك السلطان . اننا نحسب ان هذا هو الذي كان يكمن وراء هذا التقارب بين الاميان والشعب - هذا التقارب الذي كان الطموح الشخصي يقوم فيه بدور هام وعملية - وهو الذي ادّى الى قيام علاقة هي من نوع الولاء ، وهي اشبه ما تكون بالاحوال التي ادت الى قيام المجتمع الاقطاعي في اوروية .

« وانا لنأمل ان تسع لنا معرفتنا يوماً ما من الوصول الى فهم صحيح للتطورات التي يبدو انها قامت بدور كبير جداً في تطوير المجتمع الشرقي في ايام المسلمين . »
وهنا نجد ايضاً ان دور الفتوة يقوم به رجال من الطبقات العليا . ومع ذلك فالمجتمع الاقطاعي الاوروي لا يمكن ان ينشأ من علاقات التبعية فقط ، فقد كان من الضروري ايضاً ان يمنح الملوك تابعيهم قطعاً من الارض بانتظام . ولا شك انه من المفيد ان نقارن بين الاعمال الرسمية التي كان يقوم بها رؤساء الفتوة في حلب بالنور الذي كان يقوم به رؤساء الاخوية ، وهم من الثرياء التجار ، في بلاد الاناضول في القرن الرابع عشر . (راجع 13-10: 1929; Taeschner, 349-351; Wittek, 1932) ، راجع Goldziher, 1919 بشأن فتوى ضد الفتوة في حلب في القرن الرابع عشر . راجع Schacht, 1932 بشأن فتاوى اخرى ضد الفتوة .

— ٤٩٠ — Taeschner, 1938: 392 لعله من الافضل تجنب تعبير « اشتراكي » .

— ٥٠ — Taeschner, 1938: 392

— ٥١ — Taeschner, 1938: 392

٥٢- في مقدمة رسالته من الفتوة (ابن السامي ص ٢٢٣-٤ و 9-6: 1933; Khale)
يصر الخليفة الناصر على ان الخليفة علي بن ابي طالب ، بما عرف عنه من كمال الفتوة والنهاية في الحكمة ، طبق على المخالفين لها احكام الشرع ، انساباً يستعمل ضد الفتيان سلاحهم الخاص . وهذا الاهتمام من الناصر بربط الفتوة بعلي (راجع هامش ٣١ فوق)
لم يكن المقصود منه الشكل فقط ، ولكنه كان يرمي الى ان تكون الفتويات التي يرفضها الناصر من القوة الخلقية ما يدعها ويحملها ذات اثر في نفوس الفتيان . فالفتوة الثالثة تؤكد بان السلف الصالح لم يلم عليها لانه طبق الشرع ، وفي الفقرة التاسعة نجد دفاعاً عن حق خليفة علي في حروجه (اي الناصر) في ان يتخذ نفس الخطوة .

— ٥٣ — Taeschner, 1938: 393, n. 2.

— ٥٤ — Kahle, 1933: 58.

— ٥٥ — Taeschner, 1938: 394, n. 3.

— ٥٦ — Kahle, 1933: 58.

- ٥٧- ابن خلدون ج ٣ ص ٥٣٥ .
- ٥٨- Taeschner, 1938: 395, n. 8.
- ٥٩- Thorning, 1913; Taeschner, 1916, 1941, 1941a;
Massignon, 1942; Massignon, Shadd; Sinf; Lewis, 1937.
- اننا لا نرى رأي ماسينيون ولويس .
- ٦٠- راجع Becker, 1924 والحامش ه و ٤٨ .
- ٦١- Hitti, 1942: 441-442
- ٦٢- ان كلمة Horseman لا تقابل فارس ه كما يفهم من كلمات «Knight», «Chevalier», «Ritter» (بالالمانية والفرنسية والانكليزية هل التوالي) .
- ٦٣- اسامة بن منقلة - الاعتبار ص ٦٤ .

المراجع

باللغة العربية

- العطار ، فريد الدين - تاريخ الاولياء - حرره ر. ا. نيكلسون طبعة لوزاك
- لندن - ١٩٠٦ - ١٩٠٧
- منقذ ، اسامة بن - كتاب الاعتبار - حرره فيليب حتي - نيويورك ١٩٣٠
- الاثير ، ابن - كتاب الكامل في التواريخ - لندن - ١٨٥١ - ١٨٧٦
- جبير ، ابن - الرحلة - لندن - ١٩٠٧
- خلدون ، ابن - كتاب العبر - بولاق - ١٢٧٤ - ١٨٦٦
- الساعي ، ابن - الجامع المختصر - حرره مصطفى جواد - بغداد - ١٩٣٤
- متر ، ادم - الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري - ترجمة عبد
الحادي ابوريده - القاهرة .

باللغات الأجنبية

- Arendonk, C. Van. Futuwa, Ency. of Islam.
- Barthold, W. 1928. Turkestan down to the Mongol Invasion, 2d ed. London, Luzac.
- Becker, Carl Heinrich. 1915. Barthold's Studien über Kalif und Sultan. Der Islam 6: 356 - 412. Strassburg, Karl J. Trubner.
- , 1924. Islamstudien. Erster Band. Leipzig, Quelle und Meyer.
- Bjorkman, W. Sirwal. Ency. of Islam.
- Bloch, M. 1933. Le problème de l'or au Moyen - Age. Annales d'histoire économique et sociale 5: 1-34. Paris, Librairie Armand Colin.
- Brockelmann, Carl. 1939. Geschichte der islamischen Völker und Staaten. Munich and Berlin, R. Oldenbourg. (English translation by Carmichael and Perlmann, History of the Islamic Peoples, N. Y., Putnam, 1947.)
- Deny, Jean. 1920 Futuwwet - name et romans de chevalerie turcs. Jour. Asiatique, ser. 11, 16: 182 f.
- Dozy, R. 1845. Dictionnaire détaillé des vêtements chez les Arabes. Amsterdam.
- Fares, Edouard. 1932. L'honneur chez les Arabes avant l'Islam. Paris, G. P. Maisonneuve.
- , Futuwwa. Ency. of Islam, suppl. volume.
- Ganshof, F. L. 1947. Q'est-ce-que la féodalité? 2d ed. Neuchâtel, Editions des la Baconnière.
- Ghali, Wacyf Boutros. 1919. La tradition chevaleresque des Arabes. Paris, Plon-Nourrit.
- Gibb, H.A.R. 1932. The Damascus chronicle of the Crusade. London, Luzac.
- Giese, Friedrich. 1924. Das Problem der Entstehung des osmanischen Reiches. Ztschr. für Semitistik 2: 246-271.

- Goldziher, Ignaz. 1918. Eine Fetwa gegen die Futuwwa. *Ztschr. der Deutschen morgenlandischen Gesellschaft* 73: 127-128.
- Hammer-Purgstall, J. von. 1849. Sur la chevalerie des Arabes anterieure a celle de l'Europe et sur l'influence de la premiere sur la seconde. *Jour. Asiatique* 5: 5-14.
- . 1855. Sur les passages relatifs a la chevalerie dans les historiens arabes. *Jour. Asiatique*, Aug. - Sept. 1855: 282-290.
- Hartmann, Richard. 1914. *Al-Kuschairis Darstellung des Sufitums*. Berlin, Mayer und Muller.
- . 1916. Zur Frage nach der Herkunft und den Anfangen des Sufismus. *Der Islam* 6: 31-70.
- . 1918. As-Sulami's Risalat al-Malamatija. *Der Islam* 8: 157-203.
- . 1918a. Futuwwa und Malama. *Ztschr. der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft* 72: 193-198.
- Hitti, Philip K. 1942. Chivalry, Arabic. *Ency. of Social Sciences* 3: 441-442. N.Y., Macmillan.
- Horten, Max. 1915. Monchtum und Monchsleben im Islam nach Schairani. *Beitrage zur Kenntnis des Orientes* 12: 64-129.
- al-Hujwiri. 1911. *The Kashf al-mahjub by... al-Hujwiri*. Tr. by R.A. Nicholson, Leiden, Brill.
- Junker, Heinrich. 1930. Zeremonien der Bruderschaften im Islam. Leipzig. (Extract from Jahrbuch 1928/1929 des Vereins deutscher Freimaurer, Leipzig.)
- Kahle, Paul. 1916. Zur Organisation der Derwischorden in Egypten. *Der Islam* 6: 149-169.)
- . 1932. Die Futuwwa - Bundnisse des Kalifen en-Nasir (d.622/1225). *Festschrift Georg Jacob*, 122-127. Leipzig, Otto Harrassowitz.
- . 1933. Ein Futuwwa-Erlass des Kalifen en-Nasir aus dem Jahre 604 (1207): Aus funf Jahrtausenden morgenlandischer Kultur, *Festschrift fur Max Freiherrn von Oppenheim zum 70. Geburtstag*, gewidmet von Freunden und Mitarbeitern: 52-58 = *Archiv fur Orientforschung*, Beiband I, Berlin, Ernst F. Weidner.
- Koprulu, Mehmet Fuat. 1937. *Les origines de l'Empire ottoman*. Paris, E. de Boccard.
- Levy, Reuben. 1929. *A Baghdad Chronicle*. Cambridge, Univ. Press.
- Lewis, Bernard. 1937. The Islamic Guilds. *Econ. Hist. Rev.* 8: 20-37. London, A. & C. Black.

- Macdonald, D.B. Dihad, Ency. of Islam.
- Marçais, G. Ribat. Ency. of Islam.
- Massignou, Louis. 1950. Les corps de metiers et la cite islamique. *Revue Internationale de Sociologie*, 28eme annee: 473-489. Paris, Marcel Girard.
- . 1929. Recueil de textes inedits concernant l'histoire de la mystique en pays d'Islam. Paris, Paul Geuthner.
- . 1934. Salman Pak et les premices spirituelles de l'Islam iranien. Paris, G.P. Maisonneuve.
- . 1942. Guilds, Islamic. Ency. Social Sciences 7: 214-216. N. Y., Macmillan.
- . 1948. Cadis et naqibs baghdadiens. *Wiener Ztschr. fur die Kunde des Morgenlandes* 51: 106-115. Vienna.
- . Shadd. Ency. of Islam.
- . Sinf. Ency. of Islam.
- Mitteis, Heinrich. 1944. *Der Staat des hohen Mittelalters*. 2d ed. Weimar, H. Bohlans Nachfolger.
- Poliak, A. N. 1939. Feudalism in Egypt, Syria, Palestine, and the Lebanon, 1250-1900. Lodon, Royal Asistic Soc.
- Quatremere, Etienne. 1837. *Histoire des Sultans Mamlouks* par Makrizi 1. Paris.
- Ritter, H. 1920. Zur Futuwwa. *Der Islam* 10: 244-250.
- Sau Nicolo, M. 1913-1915. *Aegyptisches Vereinswesen zur Zeit der Ptolemaeer und Roemer* I, 1913; 2, 1915. Munich, C. H. Beck.
- Sauvaget, Jean. 1941. Alep. Essai sur le developpement d'une grande ville syrienne, des origines au XIXe siecle, Texte. Paris, Paul Geuthner.
- Schacht, Joseph. 1931. Einige kairiner Handschriften ueber futuwa. *Der Islam* 19: 49-52.
- . 1932. Zwei neue Quellen zur Kenntnis der Futuwwa, Festschrift Georg, Jacob, 274-287. Leipzig, Otto Harrassowitz.
- Taeschner, Franz. 1916. Aufnahme in eine Zunft, dargestellt auf einer turkischen Miniatur. *Der Islam* 6: 169-172.
- . 1928. Das Futuwvetname des Jahja b. Halil. *Orientalistische Literaturzeitung*, 1065-1068. J. C. Hinrichs.
- . 1929. Beitrage zur Geschichte der Achis in Anatolien (14.-15.Jht.) Auf Grund neuer Quellen. *Islamica* 4: 1-47.
- . 1932. Futuwwa-Studien, die Futuwwabunde in der Turkei und ihre Literatur. *Islamica* 5: 285-333.

- , 1932a. Das Futuwwetkapitel in Gulsehris altosmanischer Bearbeitung von 'Attars Mantıq ut-tayr. Sitzber. der Preuss. Akad., der Wissenschaften. Philos. Hist. Kl. Berlin.
- , 1932b. Das Futuwwetnam des persischen Dichters Hatifi Festschrift Georg Jacob, 302-316. Leipzig, Otto Harrassowitz.
- , 1934. Die islamischen Futuwwabünde. Ztsch. der Deuts. morgenländischen Gesell. 87: 6-49. (Resumé « Entstehung und Frühgeschichte der Futuwwa » in Zschr. der Deuts. morgenländischen Gesell. 86: 16*-17*, 1933).
- , 1937. Der Anteil des Sufismus an der Formung des Futuwwaideals. Der Islam 24: 43-74.
- , 1938. Islamisches Ordensrittertum zur Zeit der Kreuzzüge. Die Welt als Geschichte 4: 382-407. Stuttgart, W. Kohlhammer.
- , 1941. Das Zunftwesen in der Türkei. Leipziger Vierteljahrsschrift für Südosteuropa 5: 172-188. Leipzig, Otto Harrassowitz.
- , 1941a. Legendenbildung um Achi Evran, den Heiligen von für Friedrich Giese, 61 ff. Berlin.
- , 1944. Der anatolische Dichter Nasiri (um 1308) und sein Futuwwetname. Mit Beiträgen von Wilhelm Schumacher. Leipzig, F.A. Brockhaus.
- , 1744a. Das Futuwwa-Rittertum des islamischen Mittelalters. Beiträge zur Arabistik, Semitistik und Islamwissenschaft hrsg. von Richard Hartmann und Hellmuth Scheel: 340-385. Leipzig, Otto Harrassowitz.
- , An-Nasir li-din-Allan. Ency. of Islam.
- Thorning, Hermann. 1913. Beiträge zur Kenntnis des islamischen Vereinswesens auf Grund von Bast. Madad et-Taufiq. Berlin, Mayer und Müller.
- Toynbee, Arnold J. 1940. A study of history 6. Oxford, Univ. Press, and London, Humphrey Milford.
- Humphrey Milford.
- Tschudi, R. 1925. Das Chalifat. Tübingen, Mohr.
- 'Usamah ibn-Munkidh, see Hitti.
- Wittke, Paul. 1932. Zur Geschichte Angoras im Mittelalter. Festschrift Georg Jacob, 329-352. Leipzig, Otto Harrassowitz.
- , 1936. Deux chapitres de l'histoire des Turcs de Roum. I. Les traits essentiels de la période seldjoukide en Asie Mineure. II. Les Ghazis dans l'histoire ottomane. Byzantion 6: 319.
- , 1938. The rise of the Ottoman empire. Tondon, Royal Asiatic Soc.
- Ziebarth, Erich. 1896. Das griechische Vereinswesen. Leipzig, Hirzel.

التطور في الدين^(٥)

جون س. بادو

رئيس الجامعة الأميركية في القاهرة سابقاً

اعترف بان كلمة تطوّر تربكني قليلاً . ولعلّ مرد ذلك إلى أنني ، كفيلسوف ، لا اعتقد بصحة نقل المقررات البيولوجية إلى مجالات فكرية أخرى . أو لعلّ مرد ذلك إلى أنني اشك في أن أمور العالم بصورة عامة ، وشؤون الشرق الأوسط بصورة خاصة ، قد تحسنت حقاً منذ عام ١٩٣٩ ، وأصبحت الآن خيراً مما كانت عليه آنذاك . والتي لأفضل أن اصف الحالة في الشرق الأوسط مستعيناً بأحدى القصص المعروفة التي تروى عن صديقي جحا .

قبل ان اغادر القاهرة سمعت القصة التالية : جاء صديق إلى جحا وقال له : « ما هذا الصوت الصارخ الصباحب الذي كان ينبعث من بيتك ليلة امس ؟ وما تلك الجلبة والضوضاء ؟ هل قتل احد ؟ » فأجابه جحا : « كلا . كل ما في الأمر

(٥) فصل من كتاب « التطور في الشرق الاوسط : الاصلاح والثورة والتغير وهو مجموعة أبحاث ألفت في المؤتمر الذي عقد برعاية « معهد الشرق الاوسط » . حرر هذه الابحاث سيدني نيتلشي فيشر ، ونشرها « معهد الشرق الاوسط » واشطن ١٩٥٢ (المترجم)

أن زوجتي ألقت بمعطف قديم من الطابق الأعلى إلى الطابق الأسفل . « فرد عليه الصديق » : « وكيف يستطيع معطف عتيق أن يحدث كل هذه الجلبة والضوضاء ؟ » فأجاب جحا : « لقد كنت أنا داخل المعطف » .

لقد ساهم الشرق الأوسط ، منذ عام ١٩٣٩ ، في الاضطرابات التي هزت عالمنا وما زالت تهزه . واعتقد بان غرض هذا المؤتمر هو البحث عما كان « داخل المعطف » ، وعن العوامل التي أدت إلى تلك التغيرات والتطورات والاصلاحات التي أثرت في الشرق الأوسط . وقد كان الدين ولا شك احد تلك العوامل . اذكر أن جماعة من المصريين ، وبعضهم من كبار موظفي الدولة ، اجتمعوا عام ١٩٣٩ ، لبحثوا في سياسة وزارة الشؤون الاجتماعية التي كانت قد انشئت حديثاً . وقدمت في ذلك الاجتماع اقتراحات جلرية . للاصلاحات الاجتماعية . وبعد ان نوقشت هذه الاقتراحات بعض الوقت سأل أحد الحاضرين : « ترى ما هو رأي كبار علماء الأزهر ؟ وما هو موقف الأسلام والمسلمين من امثال هذه المقترحات ؟ وهل تتوقع منهم تأييداً ؟ » فكان الجواب : « إذا لم يكن بإمكاننا ان نحقق هذه الاصلاحات بمساعدة الأسلام ، فسوف نجققها دون مساعدته » .

تمثل هذه الجاذفة ، بصورة عامة ، موقف القادة الوطنيين في معظم اقطار الشرق الأوسط قبل الحرب العالمية الثانية . فقد كان الاتجاه نحو العلمانية ، ونحو الاصلاحات الاجتماعية ، هو الاتجاه السائد ، كما يظهر ذلك في تركيا وإيران . وكانت الدعوة للتقدم الاجتماعي تسير على النهج الغربي . وكان الدين كثيراً ما يقرب بالمحافظين والمتحجرين الذين يأبون التقدم والسير مع الركب . فاذا لم يستطيع تحقيق التقدم الاجتماعي بمعاونة الدين ، فمن الواجب تحقيقه بدون .

والآن قارنوا بين هذه الصورة التي رسمتها وبين ما رأيته يعني ، في ٢٧ كانون الثاني ١٩٥٢ ، عندما عدت إلى القاهرة ، وكنت قد غبت عنها طويلا . بيئة اشهر حابسة ، جافلة بالحوادث الجسام . لقد وجدت على جميع جدران الجامعة والجدران الخالية في القاهرة شعارات مكتوبة من مثل « الأسلام دين

العالم » ، « القرآن أساس الدولة » ، « ايها المؤمنون احموا الوطن » . وهذه الظاهرة دليل ناطق على أن الدين قد انبعث على اثر القوضى السياسية في السنة المنصرمة ، وأخذ يشارك في شؤون الدولة العملية . ففي جميع التغيرات التي كانت مصر ذاتها تستهدفها كان الدين يساهم مساهمة فعالة .

واليوم إذا مررتم خلال الشرق الأوسط ، ونظرتم نظرة تمحيص وتدقيق ، فستجدون ان ملاحظتي السابقة قد تحققت بتمامها ، وأن الدين اخذ ينبعث ويتبوأ مركزاً فعالاً في الحياة ، في حين كان كثير من الناس ، قبل الحرب العالمية الثانية ، يعتقدون بأن انبعاث الدين بهذا الشكل أمر مستحيل . لقد حدث في تركيا ، بعد وفاة كمال اتاتورك ، احياء للشعور الديني . على أن هذه النهضة الدينية لم تكن مجرد احياء لموروث ديني ماض ، وإنما كانت محاولة لتفسير الدين تفسيراً جديداً ، ولايجاد محل له في المجتمع التركي الذي كان قد أصبح ، إلى حد ما ، مجتمعاً علمانياً . وقد حدث الشيء نفسه في ايران . وان كان الدين الذي انبعث هنا هو ، إلى حد كبير ، الدين المحافظ . فبعد زوال رضا شاه والجماعة التي التفت حوله عاد علماء الدين ، (الملاي او الشيوخ) ، إلى احتلال مراكزهم في المجتمع ، كما يظهر من اهمية الحزب السياسي الذي يقوده الملا الكاشاني . وهكذا عادت المظاهر الدينية القوية تحتل من جديد مكاناً بارزاً في الحياة الإيرانية .

وهذا الانبعاث الديني يتمثل في امور بسيطة ، كازدياد الاهتمام بالأعياد الدينية . مثال ذلك اني في هذه السنة جلست يوم عيد المولد النبوي في القاهرة الى الراديو ، ولم استمع إلى منهاج طويل عن هذه الذكرى بالعربية فقط بل وإلى منهاج طويل ايضاً باللغة الانكليزية ، حسن الأخراج ، بشرح اهمية الرسالة ، والمثل العليا التي جاء بها النبي إلى العالم . لقد اصبح المولد النبوي ، في سنوات ما بعد الحرب ، عطلة. مترابدة الأهمية بين العطل الرسمية في مصر . وإذا التفم مرة اخرى إلى الانتباه المياسية التي تعرضها الصحف الغربية بعنوانين ضخمة ، وجدتم اثر الدين ، والاحزاب الدينية ، والزعماء الدينيين ،

والشعارات الدينية ، واضعاً متكرراً في الاضطرابات التي حدثت في العراق وايران ومصر . أقول ان كل هذه الأمور التي عرضتها هي دلالة سريعة على أن الدين ، لسبب من الأسباب ، قد عاد إلى مسرح الحوادث في الشرق الأوسط منذ سنة ١٩٣٩ ، وان الاتجاه العلماني قد خفت غلوائه . ولم يحدث للإسلام تفكك — حسبما كان ينتظراً . وعلينا اليوم أن نأخذ الدين بنظر الاعتبار ، ونعيده من الاهتمام أكثر مما كنّا نفعل قبل الحرب ، ولو اقتصر ذلك على اعتباره عاملاً اجتماعياً . على انني ، وقد قلت ما سبق ، يجب عليّ أن اوضح أن عودة الدين هذه لم تكن بالدرجة الاولى ، انبعاثاً ثقافياً . فلقد مرّ الإسلام ، كما مرت المسيحية ، خلال تجديات خطيرة .

وكانت إحدى استجابات العالم الغربي ، لتلك التحديات ، انه انجب مفكرين جدداً — مفكرين من امثال تيلتش ونيبور ، والمطران شين — حاولوا ان يوجلبوا انماطاً من التفكير تساعد دينياً على أن يواجه تجديات عصرنا هذا . على انني لا اجد ، خلال هذه الفترة ، أي دليل على وجود ما استطيع ان اعتبره نهضة في التفكير الديني عند المسلمين . فالعالم العربي لم ينجب بعد امثال نيبور وتيلتش . ولم يصلر في السنوات الأخيرة ، في ما اعلم ، الاكتاب واحد يهدف بصورة مباشرة إلى معالجة هذا الموضوع الديني ، وهو كتاب قليل الأهمية .

لعلّ بعضكم تصفح في مجلة « العالم الإسلامي » (المجلد ٤٢ ، ص ٤٨ — ٥٥ ، كانون الثاني ، ١٩٤٢) المقال الذي كتبه زميلي في الجامعة الدكتور شون اوفر ، والذي يستعرض فيه اهم الكتب التي ظهرت باللغة العربية منذ بدء النهضة العلمية العربية . ويستند الكاتب في هذا المقال على آراء عدد كبير من الناس في العالم العربي ، ممن اجابوا عن اسئلة وجهها اليهم تدور حول هذا الموضوع . فقد وضع الكاتب قائمة تمثل ، في رأى قادة العرب اليوم ، الكتب الخمسة والعشرين المفضلة التي ظهرت في الفكر العربي الحديث . والمهم هنا انه ، باستثناء بعض الكتب القليلة التي ألفها طه حسين وعبد الرازق قبل عام ١٩٣٩ ، لا يوجد كتاب واحد يواجه مواجهة جدية مشكلة الدين الفكرية في

العالم الحديث .

وهكذا يبدو لي انّ هذا الانبعاث الديني اليوم لا يؤلف ، في الدرجة الاولى ، انبعاثاً فكرياً . وليس هو محاولة لخلق فلسفة دينية جديدة ، كما انه ليس محاولة اخرى لتعيين موضع الدين بالنسبة للقوى التي تتغلغل في المجتمع الآن . وإنما هو ، في الحقيقة ، عبارة عن احياء للدين كعامل اجتماعي ، وكحزب سياسي ، وكجزء من كيان المجتمع . وحيثما تجلّون الدين يعمل بنشاط ، ويرز في الصحف بعناوين ضخمة ، فستجدونه بصفته قوة من هذه القوى الاجتماعية . انني اعتقد ما قلته آنفاً صحيح للسببين التاليين . الاول ان الديانات الشرقية بصورة عامة ، والأسلام بصورة خاصة ، هي عبارة عن قوة اجتماعية — سياسية فعّالة . واطن أن هوغارت هو الذي قال ، في كتابه الجزيرة العربية ، بأن الاسلام ليس دولة دينية ، ولا هو دين للدولة ، وإنما الاسلام دين وهو في الوقت نفسه دولة . وعلى هذا فيكاد يكون من المحتم ان يستتبع كل احياء للشعور الديني احياء للدين بصفته قوة اجتماعية وسياسية . ان الوحي الذي يقرر وحدانية الله وزعامة الرسول ، يعين ايضاً الأهداف الاجتماعية والسياسية للمجتمع الإسلامي الاول .

أما السبب الثاني الذي يجعلني اعتقد بان هذه العودة إلى الدين تتخذ ، مبدئياً ، شكل الحركات الاجتماعية والسياسية ، فهو ان هذا الاحياء الديني إنما هو ردّ فعل لبعض مشكلات الشرق الأوسط ليس إلا ، ولا سيما ما حدث منها في النطاق الاجتماعي والسياسي . وعلى هذا فاني ارى في هذه المحاولة لاحياء الدين ، كقوة اجتماعية — سياسية ، سعي الشرق الأوسط لحل بعض هذه المشكلات ، حلاًّ ايجابياً ، أو على الأقل لمعارضتها والردّ عليها . وهكذا فمن أجل أن نفهم ما الذي يحدث للدين ، يجب علينا ان نلثت الآن نحو تلك القوى التي كانت تملأ عقل الجمهور ، من سنوات الحرب وسنوات ما بعد الحرب ، وتخلق المشاكل القائمة اليوم ، ثم نسأل انفسنا : « ما هي علاقة هذه القوى بالدين ، وماذا كان تأثيرها على الاحياء الديني ؟ » .

كان العامل الاول الذي اكتنف عدداً كبيراً من مظاهر المجتمع الاخرى ، منذ عام ١٩٣٩ ، هو تجدد ضغط العالم الغربي السيامي ، وازدياد تدخله في شؤون العالم العربي . كانت عملية التوافق بين الغرب والشرق ، بين الحربين العالميتين ، على الرغم من بعض الصعوبات ، منطلقة في سيرها . فقد عقدت مصر مع بريطانيا معاهدة ١٩٣٦ ، وعقد العراق مع بريطانيا معاهدة ١٩٣٠ . وظهرت بوادر من الفرنسيين ، على الرغم مما كانوا يبدونه من تقاعس ، تدل على أنهم قد بدأوا يبيتون انفسهم للانسحاب من سورية ولبنان .

والراجح أنه لو لم تجتج العالم الحرب العالمية لاستمرّت تكيّف الحياة الشرقية للتأجمات الغربية دون توقف . ولكنّ الحرب نشبت ، وارجعت عملية التوفيق هذه خطوات واسعة إلى الوراء . فالحرب هي التي فرضت على الغرب ضرورة السيطرة من جديد على الشرق . وهي التي اقتضت ان تفرض على مصر حكومة معينة ، وأن تدخل الجيوش الاميركية والانكليزية إلى سورية ولبنان ، وتطرد الجيوش الفرنسية منهما . والحرب هي التي جاءت بالجيوش الروسية والاميركية والانكليزية إلى قلب ايران ، وادّت بالنهاية ، إلى خلع الشاه عن العرش . أقول ان هذه العوامل جميعاً هي التي ادّت إلى إعادة ضغط العالم الغربي على اقطار الشرق الأوسط . على أن هذا التاريخ لم ينته بانتهاء الحرب . فضغط العالم الغربي على البلاد العربية ما زال مستمراً ، سواء كان ذلك في هيئة الامم المتحدة ، او في الصراع ضدّ روسيا ، او في سبيل الدفاع عن المصالح الامبراطورية .

ويجب ألاّ تنسوا ، ونحن نقرر هذه الأمور ، اهمية خلق اسرائيل كظاهرة من ظواهر هذا الضغط الغربي . وليس المهم ان يكون هذا الأمر صحيحاً أو غير صحيح . انما المهم ان الأقطار المجاورة لاسرائيل تعتبر خلق هذه القضية دليلاً على تدخل الدول الغربية-الكبرى من جديد في الشؤون الشرقية . ولقد خلقت هذه القضية لدول الشرق الأوسط ، كما نعلم جميعاً ، مشكلة من اكبر المشكلات السياسية . وهكذا فقد احدث الغرب-بأواقعه هذا الضغط المتزايد على دول الشرق الأوسط ، واخذ يتدخل في شؤونها الراهنة ، ويتغلغل

فيها ، ويعيث بها .

وكانت اولى النتائج المتخلفة عن تجدد هذا الضغط السياسي أن خسر الغرب ما كان لحضارته وثقافته من سحر في نفوس سكان هذه المنطقة . ومن كان منكم أباً أو أمّاً أو عالماً نفسانياً فإنه يعلم بأن الطفل اول ما يشعر بشخصيته المستقلة . عندما يبدأ بمعارضة أبيه أو أمه . فكلمة « لا » عظيمة الأهمية في تطور الشخصية ونموها . انني موجود لآنك انت موجود . وانما انفعل لفعلك ، ويرتد انفعالي عليك . وهكذا فإن الشرق الاوسط عندما بدأ برده السياسية على العالم الغربي . أخذ بتشكك ، أكثر مما تشكك في أي وقت مضى ، في سحر الانماط الغربية ، او في معنى الثقافة الغربية ، إذ اقترنت جميع هذه الأمور ، في نظر العرب ، بالضغط السياسي المتجدد .

وكانت النتيجة الثانية لهذا الصراع السياسي مع الغرب هي استنفار المقاومة المحلية ، وتوحيد قواها . إذ كيف يمكنكم ان تخرجوا البريطانيين من مصر إذا . كنتم متفرقين ؟ يجب عليكم ان تستنفدوا كل قواكم ، وان تستكشفوا القوة الخفية بايصالكم الى صفوف الشعب .

والنتيجة الثالثة أن هذا الضغط المتجدد أخذ يخلق بين جماعات كبيرة من الناضحين المتعلمين إرادة شعبية لم تجد الحكومات بدأ من أن تليي نداءها . وتتجلى هذه القضية بكل وضوح في ما حدث في مصر مثلاً . باستطاعة حكومة مثل حكومة الوفد أن تأتي إلى الحكم . ولكن ليس بإمكان اية حكومة ، اليوم ، أن تستمر في الحكم مدة طويلة ما لم توافق على اثاره المشكلة البريطانية ، وذلك لأن جماهير الشعب الذين لا يعرفون ، في الحقيقة ، شيئاً عن السياسة ، إنما يعرفون أنهم يريدون طرد بريطانيا من بلادهم . وعلى هذا فإن اثر الناضحين من أبناء الشعب وهم الرجال الاميون والفلاحون في القرى ، إنما ينمو تحت عوامل الضغط الوطني .

لقد أعطى الدين اجوبة ملائمة عن هذه النتائج الثلاث التي تقدمت وهي : اضاعة الغرب احترامه عند العرب ، وضرورة خلق مقاومة محلية موحدة .

• نزول الحكومات إلى صفوف جماهير الشعب . وذلك لأن الدين يستطيع أن يقدم انماطاً للثقافة غير غربية ، وغير ديموقراطية . ذلك بأنه ليس لغة فحسب ، وإنما هو مجتمع أيضاً . وإذا أخذت مكانة الغرب في الانحطاط كان لا بد من بعث الطريقة الشرقية ، أي المثل الدينية ، وإحلالها محله . لقد كان الدين ، بحد ذاته ، قوة عظيمة . ونحن نعلم جيداً أن المرء الذي يريد إثارة الناس ليس عليه إلا أن يتحدث عن الدين ، ويناقش قضاياها . فالدين ، والحالة هذه ، يمكن استخدامه كعامل موحد في النضال الوطني .

وأخيراً فقد كان الدين هو العامل الجامع بين أبناء الشعب الذين لا يعرفون القراءة والكتابة ، ولا يعرفون شيئاً عن السياسة ، ولكنهم يعرفون شيئاً عن الدين . وعلى هذا فالدين قد يكون أداة صالحة لربط جمهور الشعب بقضية من القضايا العامة . واني لا اعتقد بأن هذه العوامل مجتمعة قد ولدت من الدين قوة سياسية انبعثت في « فدائيان اسلام » و « الأخوان المسلمين » و « شباب محمد » وفي سواها من الجماعات المنتشرة في كل مكان من الشرق الأوسط . وهكذا عاد الدين فظهر مجدداً على مسرح الحياة السياسية .

وفي الشرق الأوسط مشكلة أخرى تتصل ، كالمشكلة السابقة ، بانبعاث هذه الظاهرة الاجتماعية والسياسية في الدين . فالى تجدد الضغط السياسي الغربي هذا ينبغي ان يضاف ابتداء من عام ١٩٣٩ ، الانحلال المتزايد في الاستقرار الداخلي . يقول احد المؤرخين المصريين ، في كتاب الفقه عن نشوء الأمبراطورية الفرنسية في شمال افريقيه ، ان الدول الاستعمارية الغربية ، خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، كانت تتوهم ان حل جميع مشاكل الشرق رهن باعطاء البلاد جـِـعات صغيرة من الحياة الدستورية . وعلى هذا فقد اعطيت جميع بلدان الشرق الأوسط مقادير محدودة من المفهوم الغربي للنظام البرلماني ، والحكومة المسئولة التي يرئسها رئيس وزراء ، وللنظام الحزبي ، تكفي لتعبيد الطريق أمام هذا النمط من الحياة الدستورية في الشرق الأوسط .

وان كل من يطالع تاريخ الشرق الأوسط ، منذ أن اخذ يتناول هذه الجمرعات

التي تخبرنا من الحياة الدستورية ، يتحقق ان هذه الجراحات الدستورية لم تكن كافية ، او أن هذا اللواء لم يكن هو اللواء الناجح ، وذلك لأن الحياة البرلمانية في جميع اقطار الشرق الأوسط قد بدت فيها بواقع الأمر علامات "خطرة" تنذر بالفشل السريع . نعم انني اعرف عن الحياة البرلمانية في مصر اكثر مما اعرف عنها في الاقطار العربية الاخرى . الا انني اعتقد بأن القوى التي تعمل في مصر هي نفس القوى التي تعمل في أي قطر آخر من اقطار الشرق الأوسط . وما عليكم ، إذا اردتم ان تتحققوا من اختلال النظام السياسي ، إلا أن تذكروا بأنه ، منذ عام ١٩٢٢ ، لم تسقط اية وزارة في مصر لان البرلمان حجب الثقة عنها ، ومع ذلك فقد كان معدل عمر الوزارة سنة ونصف سنة . وفي الربيع الماضي "شاهدنا وزارة لم تستمر في الحكم غير اربع عشرة ساعة.

وقد عاينت هذه الحالة نفسها في العراق عندما كنت اعيش هناك ، وان لم تكن سرعة سقوط الوزارات هناك مثلها في مصر . ثم ان نتائج الانقلابات العسكرية في سورية دليل آخر على ان النظام السياسي نفسه يعاني اختلالاً ما . فهذه الجراحات الدستورية الصغيرة لم تكن غير كافية في مكانها فحسب ، بل ان الحكومات التي تخلفت عنها قد عجزت عن حل المشاكل التي واجهتها بعد الحرب . ومن هنا كان الانحلال الذي تخلف عن الفشل وخيبة الأمل ٥

تأملوا بعض هذه المشاكل : تواجه الحكومة المصرية مشكلة اخراج البريطانيين من مصر والسودان . وهذه مشكلة ينوء بها اولو الزم من الرجال ، وتواجه الاقطار العربية في الشرق الأوسط مشكلة اسرائيل التي خلقها الغرب ، بالمساعدات الدولية والموال المالي الدولي . ثم فكروا في مشكلة الحكومة الايرانية في صراعها مع شركة النفط الانكليزية - الايرانية . وليس المهم في ذلك كله ان تكون هذه الحكومات على صواب او على خطأ في موقفها من هذه المشاكل ، إنما المهم ان هذه المشاكل - وهي المشاكل التي تخلفت عن الحرب - قد استعصت على الحكومات التي حاولت حلها فانهارت الواحدة بعد الاخرى ، وذلك لأن هذه المشاكل كانت تتجاوز طاقة تلك الحكومات التي تصدت لها .

ولم تكن هذه المشاكل عظيمة مستعصية على الحل فحسب ، بل ان الحكومات التي اوجدها النظام الدستوري كانت ضيقة الأسس ، وشديدة الاقتران . بالطبقات الاجتماعية ذات النفوذ السياسي . وعلى هذا فعندما اجتاحت هذه الحكومات سيل التدمير الاجتماعي المتعالي ، اخذت اسسها تهتر وتعيد . ونتيجة لما تقدم اخذ قلق الشبان يزداد من جراء افلاس جياتهم الحزبية ، وافلاس زعمائهم التقليديين ، كما اخذوا يشكون في اخلاص الحركات الوطنية التي تمثلت في حكومات لم تتوصل ، في النهاية ، إلى نتيجة ما . وهو امر يصدق ، بكل تأكيد ، على اقطار الشرق الأوسط التي عرفتها .

وعلى هذا فقد قام الشبان ، وغير الشبان ايضاً ، بمحاولات لايجاد حركات اخرى يمنحونها ولاءهم السياسي ، ولايجاد بديل عن النظام السياسي القديم . ففي مصر كان يتحتم على من أراد أن يكون ذا شعبية ، ان يمنح صوته لحزب الوفد ، لان حزب الوفد هو « الحزب » كما أن « الحزب الديمقراطي » في القسم الجنوبي من الولايات المتحدة هو « الحزب » . ومتى تبين أن حزب الوفد غير قادر على مجابهة الموقف ، فماذا ينبغي للناس أن يفعلوا ؟

ولقد كان مثل هذا الفراغ الذي خلفه فقدان الولاء السياسي وانحلال الوثام الداخلي ، وتفكك الحكم الدستوري ، هو الذي أتاح لحركة جمال عبد الناصر في مصر ، بل ولحركات اخرى ، منها حركة الإخوان المسلمين ، وشباب محمد ، لأن تنمو وتترعرع . فهذه الحركات قد جاءت إلى الشعب بديلاً عن ضروب اخرى من العمل السياسي . واني لعل علم بان عدداً كبيراً من الشبان في مصر قد انتموا إلى الإخوان المسلمين ليس لأنهم كانوا ضيقي التفكير ، وليس لأنهم يؤمنون كل الايمان بجميع ما يدعو له الإخوان المسلمون من مبادئ اسلامية . وسياسية ، ولكن لأنهم لم يجدوا منظمة اخرى يتمنون اليها . لقد كانت منظمة الإخوان المسلمين هي البديل الوحيد للنظام الحزبي الذي اخفق في نظر اولئك الشبان . وعلى هذا فقد برز الدين وهو يحمل مشوقات جديدة ، ويعطي حلولاً جديدة للمشاكل الراهنة ، ويعطي لقسم كبير من الناس البديل الوحيد عن

للأنظمة الداخلية التي اخفقت في مواجهة عوامل التحدي التي برزت في فترة ما بعد الحرب .

أما العامل الثالث ، الذي تخلف عن فترة الحرب وفترة ما بعد الحرب ، واثّر في ظهور الدين في هذا الميدان ، فهو بروز المشاكل التي تحدت أهداف الحياة الوطنية . لقد مرّ ، هذه السنة ، على ذهابي إلى العالم العربي خمس وعشرون سنة . وعندما ذهبت إلى بغداد والموصل ومن ثمّ إلى سورية ولبنان ، واخيراً إلى مصر ، لم يكن يحول في افكار قادة الحركة الوطنية اسئلة كثيرة عما يريدون أن يحققوه في بلادهم . كانوا يريدون ان يجعلوا بلادهم على نمط الغرب . كانوا يريدونها ان تكون بلداً كالولايات المتحدة او كبريطانيا او كفرنسا او كالسويد او كالمانيا . وذلك لان الأنظمة الاجتماعية والديموقراطية الغربية العامة ، في السنوات التي اعقبت الحرب العالمية الاولى ، كانت تتغلغل في هذه البلاد دون عائق ذي خطر . وكان يبدو بديهياً انه لو اتاحت الفرصة لمولاء الناس فسوف يحققون اهدافهم المنشودة . وكان هذا هو الاعتقاد السائد . وهذا ما جعل بعض الناس يقولون : « حسناً إذا لم نستطع ان نحققه بمعونة الاسلام ، فسوف ففعله بدون الاسلام . » ويجدر بنا أن نتذكر ان جميع الأهداف القومية قد تعرضت منذ عام ١٩٣٩ لتحديات كثيرة ، منها ظهور النازية والفاشية ، ثمّ ظهور الشيوعية . ولقد كادت الحركتان الاوليان ان تنجحا سياسياً . وهوذا روسيا ، اليوم ، تحقق نجاحاً سياسياً مرموقاً . وبناء على ما تقدم فإن الثقة — لا سيما ثقة الأجيال — بالأنظمة السياسية التي نقرنها بالديموقراطية الغربية ، قد اخذت ، لأول مرة ، في الاضطراب .

وقد اقترنت إحدى ظواهر هذا التقلقل الذي أصاب النظام السيامي بالانبعاث الديني في البلاد العربية ، وان لم يظهر ذلك في ايران . وهذه الظاهرة هي خلق دولة اسرائيل . وذلك لسبب بسيط للغاية هو أن اسرائيل دولة دينية — سياسية ، مهما قلنا في تعريفها . وقد قال لي عدد كبير من اصدقاءني العرب والمصريين بصراحة : « لقد صقينا حسابنا معكم ، اذا كان باستطاعة اميركا

وبريطانيا ان تخلفا دولة دينية في فلسطين ، فلم لا يكون لنا نحن المسلمين دولة دينية ؟ وعلى هذا ، فقد نتج من انشاء اسرائيل ، ومن الصراع ضد اسرائيل ، في فترة ما بعد الحرب اتجاه الى احياء الاسلام كهدف قومي جديد ، وكنظام حكومي . وما السعي لايجاد قانون مدني مبني على الشريعة الاسلامية ، أو على منهاج الأخوان المسلمين ، أو غير ذلك من الحركات ، الا محاولات واضحة ، تهدف إلى اقناع المسلمين ، الذين اخلوا يشكون في الحركات الوطنية القائمة ، بأن الاسلام هو البديل عن الشيوعية والديموقراطية الغربية ، وأن الاسلام ، بناء على هذا ، يستطيع ان يملأ الفراغ الذي خلفته السنوات الأخيرة .

وأخيراً ، كانت هنالك فضلاً عن القوى الثلاث التي تكلمنا عنها ، تلك القوة التي نتجت عن التغير السريع المدمر في انماط الحياة الاجتماعية . وارى من الضروري ان استدعي انتباهكم إلى أن الانماط الاجتماعية في الشرق الأوسط قد تغيرت خلال العقود الثلاثة المنصرمة أكثر مما تغيرت خلال القرنين أو الثلاثة القرون الماضية . ولهذا التغير سببان . الاول هو ازدياد تغلغل العالم الغربي . لقد اكتشفت ، عندما كنت في الظهران ، منذ أكثر من سنة ، ان أزمة قد نشبت بين الدين ونظام التعليم . فالصلاة ، في ظل النظام الوهابي ، فرض واجب الاداء ، وعلى المرء ان يترك عمله في الساعة الثالثة ليؤدي فريضة صلاة العصر . وقد فتحت مدرسة جديدة ، عظيمة الأهمية ، تعد الشبان السعوديين للتخصص في هندسة النفط . وعندما حلت الساعة الثالثة ظهر جنود ابن جلوى على باب المدرسة واخذوا ينادون الطلاب : « هلموا أيها الشبان إلى الصلاة فقد حان وقتها » . وما كان من المعلم الأميركي ، وهو مهندس متصلب الرأي ، إلا ان قال لهم « حسناً أيها الطلاب . لا اعتراض لي إذا اردتم ان تصلوا . ولكنكم لا تستطيعون ان تصلوا ، وتتعلموا ، في الوقت نفسه ، تشغيل آلات النفط » . وبناء على هذا لم يسمح للطلاب بمغادرة المدرسة .

ووصلت القضية الى الملك بن سعود . فقال المعلم المهندس للملك ما معناه :

« ينبغي ، يا صاحب الجلالة ، ان تقرروا نهائياً ما تريدونه من هؤلاء الناشئين : هل تريدونهم ان يتعلموا تشغيل آلات النفط ، او كيف يؤدون الصلاة في اوقاتها . فهم لا يستطيعون ان يقوموا بالامرين معاً في وقت واحد . » لقد حدث هذا في صميم اشدّ الأقطار العربية ترمناً ومحافظة .

وادلى الملك ، بقراره الناصع ، قائلاً : « حسناً . اريد هؤلاء الناشئين ان يتعلموا كيف يديرون آلات النفط . وبامكانهم ان يصلوا بعد منيب الشمس . » وهكذا أخذ النمط الاجتماعي يتغير نتيجة مداخلة الغرب . وما هذا المثال الذي ضربته إلا رمز لما يجري في العالم الإسلامي بسرعة متزايدة . وعندما تفكرون في الجندي الأميركي ، الذي اطلقت له حرية الانتقال في مصر ، وفي القرى المصرية ، تدركون ، عندئذ ، مقدار ما يصيب انماط الحياة الاجتماعية من تغير .

على أن تغير الانماط الاجتماعية لم يحدث بسبب البواعث الغربية المتزايدة وحدها وإنما حدث نتيجة البواعث الآتية من الشرق نفسه ايضاً . لقد نبهنا الدكتور كوراني الى أن قادة الشرق بدأوا يدركون بان البلاد التي تعاني الفقر والجهل والامية والمرض ، لا يمكن أن تكون في نفس الوقت بلاداً قوية سليمة مقتلدة محترمة في اعين العالم . وبناء على هذا فان قادة الحكومات اخلوا يضغظون باطراد في سبيل تغيير الانماط الاجتماعية . وخير مثال على هذا ما فعله جمال عبد الناصر إذ قال : « ليس بامكان أي فرد أن يملك أكثر من مئتي فدان من الأرض . » حتى ان اطيان الملك السابق الواسعة ، وتبلغ مساحتها حوالي ٢٠٠,٠٠٠ فدان ، قد قسمت إلى مزارع صغيرة . وهكذا فقد حدثت تغيرات اجتماعية جذرية ، انطلقت من الشرق نفسه ، وأبدتها الحكومات . ومن قاعة الجامعة الأميركية في القاهرة ، انطلقت تلك « المؤسسة الثورية » ، التي انشأتها السيدة درية شفيق ، فقامت بالمظاهرة النسائية التي طوقت

البرلمان ، هاتفة : نريد حق التصويت للمرأة المصرية . وهذه حركة مصرية صميمية كما ترون .

وهذا الانحلال الذي لحق النظام الاجتماعي ، بتأثير التغلغل الغربي وجهود القادة الوطنيين ، من الطبيعي ان يثير الكثير من الاستياء والتذمر . فهو اولا يثير استياء الأغنياء الذين استملكوا الدولة اراضيهم ، وحررت من نفوذهم الرجال الذين كانوا يمنحونهم اصواتهم الانتخابية . ويثير ثانياً استياء المحافظين من المتدينين الذين يرون في الدين ، تحت تأثير العوامل السابقة ، النظام الاجتماعي الذي يحقق مطالب الحياة . وبناء على ما تقدم فقد ظهرت في العالم العربي كما ظهرت في ايران ، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، حركات دينية واجتماعية تستهدف المحافظة على النظم الاجتماعية والتقاليد الدينية . وكانت هذه الحركات الدينية والاجتماعية تقوي بعضها بعضاً لتصدّ تيار التغيرات الجذرية التي يتعرض لها المجتمع . ان جميع هذه العوامل — تجدد الضغط السياسي الغربي ، وتغيير الانماط الاجتماعية ، وتحدي الأهداف القومية ، وانحلال الاستقرار الداخلي — تشير إلى اتجاه واحد الا وهو احياء الدين كبديل عن النظام الاجتماعي — السياسي ، الذي كان ، حتى وقتنا الحاضر ، يعطي الشرق الأوسط طابعه المميز في العصور الحديثة .

أما بعد . فاوّد ألا تتصوروا أن ما قلته إنما يمثل كل التفكير الإسلامي في الشرق الأوسط ، أو يمثل اجماع المسلمين . فهناك عدد كبير من الناس لا يحبون احياء الدين كبديل للقوى التي تكلمت عنها . وبما تجلر الإشارة إليه أن الحكومة المصرية الحاضرة لم تأخذ بمبادئ الأخوان المسلمين على الرغم من كل المساعدات التي قدموها لها . ان في غرفة العرض في معهد الشرق الأوسط (بواشنطن) نموذجاً من الاعلان المصور الذي وزعته الحكومة المصرية

على جميع القرى المصرية . وفيه صورة مسجد إلى جانبه صورة كنيسة ،
وقد كتب في اعلى الصورة « كلنا مصريون . » وتحتها صدر بيت من الشعر
لشوقي يقول فيه «الدين للديان جل جلاله...»

وإذا سألتكم ماذا تغير في الدين منذ عام ١٩٣٩ ، فان الجواب لا بد من أن
يكون ان الدين قد ولد من جديد كقوة اجتماعية وسياسية . وعلى نسبة قلرة
الدين على الاستجابة لتحدي العصر الحاضر يتوقف في النهاية مصيره . فاما أن
يتوارى ويسير الشرق الاوسط في نهج علماني ، واما ان يولد في البلاد نظام
ديني جديد يهيمن عليها ويستقر فيها .

انبعاث الاسلام

ف. م. ك. نور ثروب

ان التحول من دراسة ادب آسيا الهندوسية البوذية الطاوية (١) الكنفوشية ، إلى ادب الاسلام ، في نظر الدارس الغربي ، لشبيه بالانتقال من جو يغمره الضباب المنخفض المشبع بالرطوبة ، إلى طبقات الجو العليا حيث الصفاء والنقاء : فهناك يجد الغربي من آيات القرآن ومبادئ الاسلام ، ومن واقعية التعليم القرآني ووضوح الرسالة الإسلامية ، ما يتيح له قسطاً اوفر من راحة الوجدان ، وفهماً أجود لحقائق الأمور ، حتى لكأنه في جوه العادي وفي المناخ المكثف بحسب وضعه النفسي . وانه ليرى ، لأول وهلة ، ذلك التشديد على الاعتبارات الخلقية من حيث نص القرآن على شرعيتها ؛ ففيه ان الله هو اله العدالة ، وليس لعباده مفرّ من الحساب .

وليس تفهم هذا الاعتبار الانفعالي بالأمر العسير . فان غوامض الصوفية

• الفصل الثامن من كتاب The Taming of the Nations by F. S. C. Northrop
(New york, 1952)

(١) دين صيني ، من لفظة « طاو » الصينية ومعناها الطريق والمسك والتمقل ، والفكر والفلسفة الرئيسية فيها تدور حول التروي والتأمل الروحي والتخلي عن فكرة المنسب والقوة ، كمسلك أو طريق يؤدي إلى الانبعاث .
(المترجم)

البرهمية ، ومذهب الفناء ، والطاوية الصينية ، والمثالية الكنفوشية جميعها غريبة عن نظرة الغرب العامة إلى الأمور ، وعن طريقته الخاصة في التفكير . ومهما كان من بدهاة التجربة الشخصية ، فلا بد للمرء أن يجد ، حالما يحول انتباهه عن الأشياء التي حوله ، وعن الموضوع الذي تركّز فيه انتباهه ، انه قد غدا فكرة مجردة شاملة في محيط الوعي ، تنتقل فيه ذاتيته المتحولة كعامل فاعل ، والأشياء المتحولة كأمور منفصلة ، تنقلًا طليقًا . وبخلاف ذلك الفكر الإسلامي ، فهو يجاري علم اليونان الذي يشدد على المعرفة الحقة من حيث هي معرفة مشروعة ، وينسجم مع التعليم اليهودي والمسيحي كما ينسجم الفكر الغربي بالذات مع هذين المصدرين . والواقع ان الاسلام قد ادى إلى الغرب ، عن طريق الجامعات العربية في الأندلس ، من مصادر العلم ومبادئ الاستنارة الفكرية الكثير مما جعله ما هو عليه في الوقت الحاضر . ولابداع فاليهودية والنصرانية والاسلام تملرت ، عبر نموها التاريخي ، من اصول مشتركة . مع أن ، كلا منها قد اضافت الى هذه الأصول المشتركة عناصر تفردت بها . فهناك ، والحالة هذه جبهتان : اجدهما تضم العالم اليوناني العبراني النصراني الاسلامي ، والثانية تشمل التراث الآسيوي . لذلك كان الانتقال من الشرق الاقصى الآسيوي ، إلى دنيا الاسلام ، في نظير المفكر الغربي ، بمثابة الرجوع إلى الجو الألهي ، بالرغم مما في هذا الانتقال من المفارقات .

وهذا الانتقال من الشرق الغامض إلى الغرب الواضح ، أكثر ما يتجلى في المقدمة التي كتبها أُلطَف حسين للقصيدتين الموسومتين : « الشكوى » و « الجواب » اللتين نظمهما اقبال ، الشاعر الهندي المسلم ، والمجامي السيامي والفيلسوف القانوني ، صاحب الفضل الأكبر في قيام دولة الباكستان ، قال : كاتب المقدمة :

« ان رابندراناث طاغور ومحمد اقبال ، نظير لشعراء البرناسيين » ، قبل تريعا على عرش الأدب الهندي والباكستاني سنين كثيرة في عصر واجده . وكان كل منهما يرمز إلى عبقرية القوم الذين نبغ فيهم »

لقد كان كل منهما هندية يعيش في ظل الحكم البريطاني ، وكان يشعر أن هدفه الاول في حياته إنما هو التآليف بين معتقداته الدينية الخاصة وحضارة قومه من جهة ، وبين عقائد الغرب ومنازعة الفكرية ومقتضيات حضارته من جهة اخرى . لكن طاغور كان هندية هندوسياً من مقاطعة بنغال ، في حين كان اقبال هندية مسلماً من لاهور في البنجاب . ومع ذلك فقد وجد ألفت حسين نفسه مضطراً إلى أن يقول مستأنفاً :

« ولكن عبقرية طاغور وعبقرية اقبال قلما تلتقيان على صعيد مشترك . إذ كان بين الاثنين فوارق جذرية ، فاقبال لم يكن شاعراً وفيلسوفاً فحسب ، بل أكثر من ذلك بكثير — كان شارحاً للشرائع المقررة التي كان اجراء احكامها في الحياة مما ينهض بامم ويطيح باخرى . وكان شعره وليد الدرس العميق لهذه الشرائع ، والتفكير الطويل في احكامها . (٢) »

ونحن الان على صعيد غربي ، لان هذا المفكر المسلم انما يحدثنا ، من على ارض الهند ، بلغة اهل الغرب . ولكي نتفهم كلتا الامتين وكلا الشعريين ، ينبغي لنا ان نعتبر كل ظاهرة من هذه الظواهر مثلاً لشرعية مقررة . وعلى ذلك يستأنف ألفت حسين كلامه عن اقبال قائلاً :

« وكان هاديه في هذا البحث القرآن الكريم ... والقرآن مغاير لأي كتاب منزل آخر في الوجود ... إذ ليس فيه ما لا يتسجم مع تقديم التفكير العلمي ؛ فكل ما في الكون خاضع لشرعية مقررة ، سواء في ذلك الدورات البالغة في الدقة ، ونظم الكواكب البالغة في التعقيد ، حتى الانسان ليس بمستثنى من احكامها ، لكنه المخلوق الوحيد الذي اولاه خالقه نعمة الارادة . بحيث غدا خضوعه للشرعية خضوعاً واعياً لا آلياً . (٣) »

وهذا الدور الذي تلعبه حرية الاختيار والقبول في حياة الفرد الخاصة ، هو الاعتبار الأساسي الذي يقوم عليه الفكر الديني والسياسي في فلسفة اقبال جملةً . وهو من هذه الناحية يتجاوب مع صميم حركة التحرر البروتستانتية الديمقراطية في الغرب . فهو — بكلمة مؤجرة — في تشديده على الشرعية ، يتخون نحو قنماء

اليونان والرومان ، لكنه في تشديده على اهمية الاختيار الانساني الخاص ، ليس في قبول هذه الشريعة وحسب ، بل وفي اصلاح تفاصيل موجباتها التقليدية البالية ايضاً— وذلك من اجل أن يلائم بين روح الشريعة ، وحاجات العصر ولوضاعه الراهنة — هو اقرب الى أن يكون بروتستانتيّاً متحرراً يفكر تفكيراً عصريّاً .

ولم يكن ذلك على سبيل الاتفاق ، لان اقبال لم يقنع بان عاش حسب تعاليم القرآن ، واهتدى بهديه ، ووضع مؤلفاً قيماً في نشوء الفكر الفلسفي الاسلامي في ايران ، بل قد تتلمذ في شبابه للفيلسوف الانكليزي ما كثررت Mc Taggart . والواقع ان تشديد ما كثررت على اهمية الروح الانسانية الفردية ، كان ذا تأثير بالغ في شعر اقبال وفلسفته ، وفي نهجه السيامي فكراً وعملاً . وفضلاً عن ذلك فقد اطلع على مذاهب اعلام الفلسفة الغربية ، من فلاسفة اليونان ومن الفلاسفة المعاصرين ، واقتبس منهم جميعاً — على ما بين هويته وانشين من اختلاف في شرح نظرية النسبية — في توفيقه بين القيم الاسلامية والغربية . فهوذا رجل ، عاش في ظل الحكم البريطاني في منطقة البنجاب في صميم الهند ، يفكر ويكتب بلغة الغرب العلمية ، مستخدماً تعابير دينية فلسفية هي من وحي الاسلام . وتبلغ فلسفته تمامها في كتابه « تجدد الفكر الديني في الاسلام » حيث يستمد فكره من الاستاذ الاميركي هوكنج Hocking ، كما يستمدّها من اعلام الفكر وكبار المؤلفين في اوروبا ودنيا الاسلام .

إن كمال اتاتورك ، الزعيم التركي الكبير ، لم يكن وحده رائد الانبعاث الاسلامي في العصر الحاضر ، بل لقد كان في الباكستان — وهي اكبر دولة اسلامية — مفكر وسياسي ومنتشر من وزن اقبال . فحسناً ففعل ، والحالة هذه ، ان نحن حاولنا تفهمه ثم واصلنا السير خطوة خطوة ، في تضاعيف الافكار التي قادت زملاؤه واتباعه من مسلمي الهند نظير جناح ، إلى انشاء دولة الباكستان ، وإلى تصور النور الذي ينبغي للاسلام أن يلعبه في العالم المعاصر الذي كان اقبال يواجهه . وخير ما يوصلنا الى هذه الغاية الالتفات إلى قصيدتيه « الشكوى » و « الجواب » ، وقد سبقت اليهما الإشارة في ما ذكر عن

مقدمة ألفت حسين .

فالقصيد الأولى لا تحلو من ايلام ، لانها بمثابة شكوى من العزة الالهية . اما الجو الذي انبثقت منه هذه القصيدة فيجوز ان يوصف بما يلي : هوذا اقبال مستقر في مكتبه في مدينة لاهور الاسلامية ، وفي جواره القريب والبعيد هندوسيون يعبدون الأصنام وما تمثله من الوف الآلهة . أما هو فمؤمن بالقرآن مخلص لتعاليمه . وقد تعمق في درسه وغاص في محتواه حتى غدا من جوهر نفسه وصميم روحه . وقد اتيح له إلى جانب هذا ان يتجول في انحاء اوربا . وكان اقبال يرى ، خارج مكتبه ، من المساجد والحصون ، نظير ما كان يشاهد من المباني التذكارية في دلهي وأغرا وحيدر اباد ، بل وفي بنغال شرقاً — تلك المباني التذكارية التي ترمز الى الانتصارات التي احرزها في الهند اربعة من الأباطرة ، لعلمهم من اعظم من انجبتهم السلالات المالكة في اية مدينة من مدن العالم . هؤلاء المغول العظماء حكام الهند السابقون ، هم الذين بنوا الحضارة الهندية الاسلامية ، وتعملوها حتى ازهرت وأثمرت على يدهم ، فاذا هي حضارة رائعة خلقة . وهذه المساجد والحصون — وعلى الاخص « تاج مهال » المنقطع النظر — لا تمثل الاجانباً من عظمة تلك الحضارة التي تبلى بازائها حضارة الهند البريطانية عادية باهتة ، بل « خاماً » بالمعنى التجاري الحرفي ، وذلك بالرغم مما كان يزعمه به نائب الملك البريطاني في الهند في ملبسه ومظهره . ومع ذلك كله فقد كان المسلمون الهنود في ظل الحكم البريطاني ، يعيشون كالعبيد ، يستعطفون اسيادهم البريطانيين السماح لهم بان يفعلوا كيت وكيت ، بل وان يسمحوا لهم بان يكونوا مسلمين يتجاوبون مع الذات الاسلامية . ويستعيد اقبال ذكرى دراساته واسفارها في اوربا حيث اطلع على خير ما نشر في حقول العلم والفلسفة والدين مما قمته اليهودية والمسيحية والفكر الغربي المستنير الحديث . فقد اوغل في تأمل هذا النتاج ، وتمثله اتم تمثيل ، ولاء بينه وبين ذاتيته . ولكنه وجدته ناقصاً ومقصراً عما في التعليم الاسلامي الصحيح من التبصر الباطني ، والتأمل الروحي ، والتبحر العلمي والفلسفي . اما علة هذا التقصير فيكشفها في كتابه « تجديد الفكر

الديني في الإسلام » حيث يقول :

« ان الانسانية لفي حاجة اليوم إلى ثلاثة امور : اولها تفسير روعي لحقيقة العالم ، وثانيها تحرير روعي لذات الفرد ، وثالثها ايجاد نظام من المبادئ العالمية توجه تطور المجتمع الانساني على صعيد روعي ... ان فلسفة اوربا المثالية لم تصبح يوماً عاملاً فعالاً في حياتها العملية ، فاسفرت عن ذاتية منحرفة تحاول تحقيق نفسها عن طريق ديمقراطيات متنافرة متباغضة .. صدقوني ان اوربا اليوم هي اكبر عقبة في سبيل التقدم الاخلاقي في حياة الانسان » (٤)

والسبب الجذري الذي يعتبره مسؤولاً عن هذا الانحراف هو البون الشاسع الذي يفصل في المسيحية بين تعاليمها المثالية وحياة معتنقيها اليومية . وهذه الظاهرة اوضح ما تكون في مذهب لوثر البروتستانت ، لكنها تصدق كذلك على الكشلكة ، ويستأنف من ثم قائلاً :

« ولا ينبغي ان نفعل عن الدرس الذي نتعلمه من حركة لوثر في قيامها ونتائجها ، فان النظر الدقيق في التاريخ يرينا ان حركة الاصلاح كانت في اساسها حركة سياسية ، وأن النتيجة الصافية التي اسفرت عنها الحركة الاصلاحية في اوربا كانت احلال النظم الاخلاقية القومية محل النظم الاخلاقية المسيحية العامة (نظير تعريف الخير على أساس المبادئ العالمية ، من حيث هو كذلك لجميع الناس على اختلاف العرق والعقيدة والقومية) ، بصورة تدريجية .. فالرجل الحديث لم يعد ، من ثم ، يعيش حياة مشبعة بالعاطفة الروحية — اي حياة داخلية — لكنه صار يعيش على صعيد الفكر في نزاع صريح مع نفسه ، وعلى صعيد الاقتصاد والسياسة في خصام حاد مع الآخرين » (٥)

لقد قصد اقبال ، في رحلاته عبر اوربا ، إلى مدينة قرطبة في اسبانيا ، وزار جامعتها التي حملت إلى اوربا الكثير من الفكر اليوناني العلمي والفلسفي ، الذي نقله اليها مفكرو العرب المسلمون ، الذين تمهلهو بعد انحلال حضارة اثينا : ان هذه الذكريات التي كانت تجول في مخيلته ، وهو جالس في مكتبه في لاهور ،

جعلته يتساءل ، كما كان يتساءل كل مسلم مفكر في الهند البريطانية : علام نحن المسلمين ، اصحاب الفضل الأكبر في وصول هؤلاء الغربيين المسيحيين ، الذين تثقفوا بعلوم اليونان ، إلى ما هم عليه الآن من تقدم ورقي ، خاضعون لهم ، تابعون لحكمهم ؟

إن جميع المباني الأثرية الضخمة ، والمآثر الحضارية الرائعة المنتشرة من حدود جبال البرانس في أوروبا الاسبانية ، إلى اطراف خليج البنغال ، قد انشأها المؤمنون من أجل الله ، فكان جزاؤهم المذلة في كل مكان ، والخضوع للمسيحيين البريطانيين شأنهم هنا في لاهور . فلماذا يتخذ الله المسلمين ، وهم أمته ، بعد كل ما عملوه لنشر مجده في هذه الدنيا ؟ هذا هو موقف اقبال في قصيدته « شكوى » وهذا بعض ما قاله فيها :

« قد كان هذا الكون قبل وجودنا
والورد في الاكام مجهول الشدي
بل كانت الأيام قبل وجودنا
لما اطل محمد زكت الربي ،
واذاعت الفردوس مكنون الشدي

روضاً وازهاراً بغير شميم
لا يُرتجى وردٌ بغير نسيم ،
ليلاً لظالمها والمظلوم :
واخضر في البستان كل شميم
فاذا الوري في نضرة ونعيم

« من قام يهتف باسم ذلك قبلنا ؟
عبدوا تماثيل الصخور وقدموا
عبدوا الكواكب والنجوم جهالة
هل اعلن التوحيد داع قبلنا ،
كنا نقسم للسيوف صدورتنا

من كان يدعو الواحد القهارا ؟
من دونك الاحجار والاشجارا
لم يلبغوا من هديها انوارا
وهدى الشعوب اليك والانظارا ؟
لم نخش يوماً غاشماً جبارا ...

« من ذا الذي رفع السيوف ليرفع
كنا جبلاً في الجبال وربما
بمعابد الافرنج كان اذاننا

اسمك فوق هامات النجوم منارا ؟
سرنا على موج البحار بحارا
قبل الكتاب يفتح الامصارا

لم تنسَ افريقيا ولا صحراؤها
وكان ظلّ السيف ظلّ حديقه

سجداً تنّا والارضُ تغلفُ ناراً
خضراءَ تُنبِت حولنا الازهارا ...

«من غيركنا هدمَ التماثيلَ التي
حتى هوتْ صورُ المعابدِ سجداً
وَمَنْ الأولى حملوا بعزمٍ اكفهم
أمنَ رمى نارَ المجرسِ فأطقتْ ،
وَمَنْ الذي بلدَ الحياةَ رخيصةً

كانت تقسمها جهالاتُ الوري
لجلالِ مَنْ خلقَ الوجودَ وصورا؟
بابُ المدينة يوم غزوة خيبر ؟
وابان وجهَ الحقِّ ابلجَ نيرا ؟
ورأى رضاك اعزَّ شيءٍ فاشترى ؟

«رُحماكَ ربي هل بغيرِ جباهنا
كانت شغافُ قلوبنا لك مصحفاً
إن لم يكن هذا وفاءً صادقاً ،
ملأَ الشعوبَ جنائها وعصائها :
فإذا السحابُ جرى سقاها غيثه ،

عُرف السجودُ بيتك المعمور ؟
يحوي جلالَ كتابك المسطور
فالخلقُ في الدنيا بغير شعور
من ملحد حات ومن مغرور
واختصتنا بصواعقِ التلمير

« لك في البرية حكمةٌ ومشيةٌ
إن شئتَ أجريتَ الصحارى أنهرأ ،
ماذا دهمى الاسلامُ في ابنائه
فراؤهم قعر ، ودولة مجدهم
عاقبتنا عدلاً ، فهب لعلونا

إعيتَ مذهبها اولى الالباب
أو شئتَ فالانهارُ موجُ سَراب
حتى انطوا في بحنة وعداب ؟
في الأرض نهب ثعالب وذئاب .
عن ذنبه في الدهر يوم عقاب » (٦)

هذه هي شكوى المسلم المعاصر إلى الله . أما جواب الله عليها ، فقد اورده
تأقبال في قصيدة « جواب » حيث قال :

« وقيل هو ابنُ آدمَ في غرور
لقد سجدتْ ملائكةُ كرام
يظنّ العلمَ في كيفٍ وكم

تجاوزَ قدره دون ارحواء
لهذا الخلقِ من طينٍ وماء
وسرّ العجزِ عنه في انطواء

وملء كؤوسه دمعاً وشكوى
فيا هذا لقد أبلغت شيئاً
وفي انغامه صوتُ الرجاء
وإنْ اكثرت فيه من المراء

« عطايانا سحائبُ مرسلاتٍ
وكل طريقنا نورٌ ونور
ولم نجد الجواهر قابلاتٍ
وكان ترابُ آدمَ غيرَ هذا ،
ولو صدقوا - وما في الأرض نهر -
ولكنْ ما وجدنا السائلينا
ولكنْ ما رأينا السالكينا
ضياءَ الوحي والنور المينا
وإن يكُ أصلهُ ماءً وطنينا
لأجرينا السماءَ لهم عيوننا

« واخضعنا لملكهم الثريا
ولكنْ أخلصوا في غير دينٍ
تراثُ محمدٍ قد أهملوه
تولى هادمو الاصنام قدماً
اباهم كان ابراهيمُ ، لكنْ
وشيدنا النجومَ لهم حصونا
بنتى في الشمس ملكَ الاولينا
فعاشوا في الخلاقِ مهملينا
فعاد لها اولئك يصنعونا
ارى امثال « آزر » في البنيّة

« وفي اسلافكم كانت مزايا
تضوع شقائق الصحراء عطراً
فهل بقيت محاسنهم لديكم
لقد هاموا بخالقهم فناءً
وكوثر أحمدُ منكم قريباً
والحق ان الله لم يتفاضل عن المسلمين الذين ادعوا قصر الحمراء وتاج مهال
وحصن لاهور ومسجدها الذي يعد من اكبر وافخم مساجد الدنيا ، ولكن
لا بد من القول :

« لقد ذهب الوفاءُ فلا وفاءُ
إذا الايمانُ ضاع فلا أمان ،
وكيف ينال عهدي الظالمينا ؟
ولا ديننا لمن لم يحمي ديننا ،

فقد جعل الفناء لها قريناً :
ولن تبوا على متفرقينا
ولولا الجاذبية ما بقينا

ومن رضي الحياة بغير دين
وفي التوحيد للههم اتحاد ،
تساندت الكواكب فاستقرت

وانتم كالطيور بلا وكور
ليبركم ، وانتم في غرور
وانتم في القطيعة والنفور
لدى الاحفاد مدعاة الظهور
إذا سمعوا بتجار القبور .

» غلوتم في الديار بلا ديار
وكل صواعق الدنيا سهام
اهذا الفقر في علم ومال
ويبع مقابر الاجداد اضحى
سيعجب تاجرو الاصنام قلماً

على نهج الهداية والصواب ؟
وفي اخلاقهم يُتلى كتابي
بناة المجد والفن العجائب ؟
سوى شكوى اللغوب والاكتئاب
فما غده سوى يوم العذاب .

» من المتقدمون الى المعالي
ومن جبهاتهم انوار بيتي
اما كانوا جنودكم الاوالي
وليس لكم من الماضي تراث
ومن يك يومه في العيش يأساً

بمجد لا يراه النائمونا ؟
وضيعتم تراث الاولينا
ويُسعد بالرق الخاملونا ؟
يكون حصادها للزارعينا ؟
فهل بقي الكلم بطور سينا ؟

» اتشكو أن ترى الاقوام فازوا
مشوا بهدى اوائلكم وجلوا
أبحرتم عامل ورد المعالي
أليس من العدالة أن ارضي
نجلي النور فوق الطور باق

يوحدكم على نهج الوثام ؟
منار للاخوة والسلام
إله واحد ربّ الأنام

» ألم يُبعث لأمتكم نبي
وميصحفكم وقبلتكم جميعاً
وفوق الكل رحمن رحيم

فما لنهار ألفتكم تولي
وحسن الزلزل المكنون رهن

وامسىم جارى في الظلام ؟
بصوغ العقد في حسن النظام

أرى الفقراء عبّاداً نقاة
هم الأبرار في صوم وفطر
وليس لكم سوى الفقراء سر
أضلت اغنياءكم الملامى
وأهل الفقر ما زالوا كنوزاً

قياماً في المساجد راكعينا
وبالأساطير هم يستغفروننا
يواري عن عيوبكم العيونا
فهم في ربهم يرددونا
لننزل الله رب العالمينا

جهد المؤمنين لهم حياة
حقائدهم سواعد ناطقات
وخوف الموت للاحياء قبر
أرى ميراثهم اضحى لديكم
وليس لوارث في الخير حظ

ألا إن الحياة هي الجهاد
وبالاعمال يثبت الاعتقاد
وخوف الله للأحرار زاد
مضاعفاً حيث قد ضاع الرشاد
إذا لم يحفظ الارث اتحاد

أرى كفة قيسر وسرير كسرى
وانتم تطمحون إلى الريا
تضيقون الاخاء وهم أقاموا
طلبتم زهرة الدنيا وعدتم
وكان لديهم البستان محضاً

قد احتسبوا بملكهم العميم
بلا عزم ولا قلب سليم
صروح انماهم فوق النجوم
بلا زهر يذوق ولا شمع
وهم اصحاب جنات النعيم

أرى الكون قصتهم حديثاً
فكم نزحوا عن الاوكار شوقاً
فولأس شبابكم ادمى خطاهم
هي المدينة الجمعاء التقت

وينشئ من حديثهم الفنون
إلى التحليق فوق العالمينا
فطنوا فيه بالدين الظنون
هم حول المذاهب حائرينا

لقد صنعت لهم صنم الملاهي لنحجب عنهم الحرم الامينا « (٨)
 وكان اقبال في عهده السابق قد وقع تحت تأثير فكرة الشمول البرهمني،
 الهندوسي حين كاد يجعل منه متصوفاً شرقياً ، وقد تجلى ذلك في قوله :

« هي النار الجديدة ليس يلتقى لها حطب سوى المجد القديم
 خذوا ايمان ابراهيم تنبت لكم في النار روضات النعم
 وبزكو من دم الشهداء ورد سني العطر قلمي النسيم
 ويلمع في سماء الكون لون من العناب مخضوب الأديم
 فلا تفزع إذا المرجان اضحى عقوداً للبراعم والكروم » (٩)
 وهنا يأخذ اقبال في اظهار اهمية الدور الذي تلعبه حرية الارادة في حياة

الفرد فيقول :

« فكم زالت رياض من رباها ولكن نخلة الاسلام تنمو
 ومجلك في حسي الاسلام باق وذاك يوسف في اي مصر
 تسير بك القوافل مسرعات بلا جرس ولا ترجيع حادي
 وكم بادت نخيل في البوادي على مر العواصف والعوادي
 بقاء الشمس والسبع الشداد يرى كنعانه كل البلاد
 وكم بادت نخيل في البوادي على مر العواصف والعوادي

« ضياؤك مشرق في كل ارض بفت اسم التار فادركتها
 واصبح عابدين الاصنام قلماً فلا تجزع فهذا العصر ليل
 ولا تحش العواصف فيه وانفض لانك غير محدود المكان
 من الايمان عاقبة الامان حماة الحجر والركن اليمان
 وأنت النجم يشرق كل آن بشعلتك المضيئة في الزمان

« أعد من مشرق التوحيد نوراً وأنت العطر في روض المعالي
 وأنت نسيمه فاحمل شذاه فكيف يعيش محتبساً دفيناً ؟
 ولا تحمل غبار الخاملين»

وأرسل شعلة الايمان شمساً وصنع من ذرة جبلاً حصينا
وكن في قمة الطوفان موجاً ومزناً يطر الغيث المتونا « (١٠)

هكذا نجد العاطفة الإسلامية تنبهر في قوى الأسلام ودوافع انبعائه ،
فيتضح لنا من ثم ، لماذا افتتح اقبال مقلمة كتابه « تجديد الفكر الديني في
الاسلام » بهذه العبارة : « القرآن كتاب يولي العمل من الاهتمام اكثر مما
يولي الفكرة » .

غير أن اقبال كان اكثر من فيلسوف ممتحن تخرج في جامعة كامبردج وجامعة
مونينغ برتبة دكتور في الفلسفة . انه كان شاعراً عظيماً ، مما دعا رايندرانات
طاغور لان يكتب عنه على اثر وفاته في ٢١ نيسان سنة ١٩٣٨ : « ان الهند قد
فقدت بفقد اقبال شاعراً احرز شعره شهرة عالمية واسعة (١١) . ولم يكن اقبال
ذلك الفيلسوف والشاعر فحسب ، بل كان الى ذلك - محامياً درس المحاماة في
انكلترا ، وفي سنة ١٩٠٨ تخرج في مهنة « لنكولن إن » . وقد بلغ من سمو
المكانة في المحاماة والسياسة ان منحه ملك بريطانيا رتبة القروسية ، مع انه كان
احد زعماء الهند الإسلامية الذين قادوا الحركة الاستقلالية في وجه حاكم
الهند البريطاني .

وفي ١٥ آب (اغسطس) سنة ١٩٤٧ حققت الباكستان والهند كل منهما استقلالها
السياسي الخاص وكان اقبال هو الذي تزعم الحركة الاستقلالية منذ ١٩٣٠ ، وعين
لمجتمعته الإسلامي في الهند المبدأ الذي على أساسه يسوغ للمسلمين القبول بشروط
الاتفاق . وكان قبل ذلك قد امتلك قلوبهم ، وغدا من أجل مرشديهم وبرز
قادتهم . ولقد كان اقبال بين سنة ١٩٢٥ و ١٩٢٨ عضواً في مجلس البنجاب
التشريعي ، وفي ٢٩ كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٩٣٠ التقى خطبة الرئاسة في مؤتمر الرابطة
الإسلامية العام في الهند ، وذلك في مدينة حيدر اباد . وكانت هذه الرابطة
تسهدف تحقيق استقلال الهند شأن حزب المؤتمر الذي كان يتزعمه غاندي
ونهره ، ولكنه في الوقت الذي كان فيه حزب المؤتمر يسعى الى انشاء الاستقلال
على اساس سيادة سياسية موحدة ، تقوم على فلسفة ثقافية موحدة - اما على

غرار الديمقراطية الغربية العلمانية التي كان نهرو يدعو إليها ، او على نهج هندوسي ، اقرب إلى الصوفية الأسبوية منه إلى العقلانية الآرية ، كما في نظام المهاتما غاندي — لم يكن النظام السياسي المرجو قد تقرر شكله نهائياً عند المسلمين ولا الأصول المدنية التي ينبغي ان تقوم عليها الحياة في الهند الجديدة . وكان اقبال اسبق المفكرين الى تفهم حرجة الوضع الذي يواجه المجتمع الإسلامي وحضارته في الهند الإسلامية .

والذي بدا له ان قيام دولة علمانية في الهند المستقلة ، على غرار الديمقراطية الحديثة المتحررة في الغرب ، قد يؤدي إلى تدمير العرف الاجتماعي والعقيدة الدينية والايمان الصحيح في المجتمع الإسلامي جملة ، إذ أن الهندوس — وهم يبلغون ضعفي عدد سكان الهند في أقل تقدير — لا بد من ان يستولوا على الوضع متى قام استقلال الهند على أساس السيادة السياسية الموحدة . وقد تحقق اقبال كذلك أن الأساس الهندوسي الأهلي الذي وضعه غاندي للدولة الهندية الحديثة بالغ الأثر ، بحكم سلبيته ، في زحزحة الحكم البريطاني من الهند ، لكن هذه الفلسفة السياسية القائمة على المثالية الصوفية السلبية ، قد تكون غير ملائمة لبناء الدولة الهندية القومية الحديثة . والواقع أن اقبال ، إذ عاين ذلك المكان الفريد الذي يضم مختلف الأسر في مجتمع هندي هندوسي ، شك في أن تتمكن الهند متى قدر لها أن تستقل وتقوم على الأساس الغاندي الهندوسي ، من تحقيق صعيد مشترك للولاء الاجتماعي خارج الأسرة الأسبوية والمجتمع القروي ، الأمر الذي لا يتم بدونه بناء الأمة الحديثة . بل قد تجلى له ما هو أشد من ذلك وخطر ، وهو ان هذه النزعة الهندوسية لا تشمل على مثالية غاندي الصوفية الاسبوية الصرفة فحسب ، بل وعلى العامل الآري الذي يقوم على النظام الطبقي ، ونظام تعدد الإمارات المؤيد بالنفوذ السياسي الفردي ، كما يتجلى في سلطان الإمارات الهندية الغربية التي تبلغ الخمس مئة عدداً . وبناء عليه لم يتضح له كيف يستطيع بناء هند حديثة ، متجاوبة مع الحركات الديمقراطية الشعبية في العالم ، على أساس مدني مستقدم من الديمقراطية الغربية الحديثة . في حين يؤلف الهندوس فيها

الأكثوية الساحقة من السكان . لذلك بدا لاقبال أن الهند الحديثة سواء أتمدت النظام الثياني حسب حكومة البانديت نهرو العلمانية ، أم حسب حكومة غاندي الدينية الصوفية ، فإن الأمر مته حتماً إلى اخفاق الحضارة الاسلامية التي يمثلها مئة وعشرون مليوناً من الهنود المسلمين ، في الدور الذي يحق لها ان تلعبه في حياة الهند الجديدة .

وعليه فقد استنتج مما تقدم أن المجتمع الإسلامي في الهند يواجه قضية خطيرة لم يتحسها بعد افراد هذا المجتمع . يمكن لهم في حلها أما الحياة الكريمة او الموت الأكيد ، ولذلك قال في خطبة الرئاسة التي افتتح بها مؤتمر الرابطة الإسلامية سنة ١٩٣٠ ما ترجمته :

« إياكم أن تظنوا ان المعضلة التي اشير اليها معضلة خيالية وهمية ، وإنما هي معضلة حية واقعية قد دبرت من أجل ان تعصف بالاسلام من حيث هو نظام الحياة وللقيم الخلقية . وعلى الحل الصالح لهذه المعضلة وحده يتوقف مستقبلكم كوحدة حضارية اقليمية في الهند . فالاسلام لم يجد نفسه قبل الآن تجاه تجربة اعظم من هذه التي يواجهها اليوم . نعم ، ان للناس ان يفسروا المبادئ الاساسية التي يقوم عليها نظامهم الاجتماعي ، ولهم ان يعدلوه او يرفضوه ، لكن يتحتم عليهم ان يطيلوا التأمل في ما هم مقدمون عليه قبل ان يقدموا على مجاولة جديدة » (١٢)

وبعد ان يذكر انه « قد وقف الشطر الافضل من حياته على دراسة الاسلام دراسة دقيقة ، تناولت شريعته ونظامه وحضارته وثقافته ، وتاريخه وادبه » مبشيراً إلى أن « التماس المتواصل بروح الاسلام ، كما تجلى مع مرور الزمان ، قد اوضح اهميته كحقيقة عالمية » يضيف قائلاً : « وليس غرضي ان ارشدكم إلى ما يقررون ، بل أن اعرض امامكم الطابع العام الذي ينبغي ، في رأبي ، ان تنقسم به مقرراتكم » (١٣)

في علم القانون الاميركي المعاصر مبدأ اسامي هو ان القانون الوضعي ، في أي مجتمع من المجتمعات ، يكون باطل المفعول إن لم يراعِ العرف المعمول به

في ذلك المجتمع . ومعنى هذا ، بكلام أوضح وأدق ، ان نظام الحكم الدستوري . — كالذي يدرس الآن ليكون دستوراً للهند الحرة المستقلة المزمع انشاؤها — أياً كان مستنده الاساسي النظري الخاص ، لا يمكن ان يكون صالحاً او أن يأتي بالفاعلية المتوقعة إن لم يستمد من القانون المدني المعمول به ، ويأخذ بعين الاعتبار العقائد الروحية والقيم الانسانية التي توجه حياة اربع مئة مليون من الهنود .

ومنى عاجلتنا معضلة الشكل الدستوري المقترح للهند الجديدة بهذه الطريقة انكشف لنا للحال ، في ما يرى اقبال ، خطل التوصيات التي تقدم بها حزب المؤتمر على يد نهرو وغاندي . فكلا الاقتراحين يوصي باعتماد مبدأ يقوم على فكرة السيادة القومية الموحدة . وحرصاً منهما على تبرير نظامهما هذا ، وعلى دعمه وتأكيد ، يوجبان وضع قانون مدني موحد للهند بأسرها . لكن القانون المعمول به في الهند متعدد الوجوه ، مختلف باختلاف المجتمعات المتعددة ، وفي طبيعتها الهندوسية والاسلامية ونحوها . وفضلاً عن ذلك فان الحكم العلماني بعيد عن عقلية المجتمع الهندوسي والمجتمع الاسلامي على السواء ، فهو يقوم — في رأي اقبال — على ازدواجية زائفة في الذات الانسانية ابتدعها فلاسفة اليونان القدماء وفلاسفة الغرب الحديثون ، فجعلوها روحاً ومادة كما فعل افلاطون وارسطو ، او عناصر مادية وعناصر عقلية كما افترضها ديكارت ولوك ، أو علماً طبيعياً وعلماً اخلاقياً كما ارتأى كانت ومن تابعه من الفلاسفة الانسانيين و أما اقبال فيرى ، على ما في خطابه الافتتاحي :

« ان الاسلام لا يجعل من الوحدة الانسانية ازدواجية متنافرة بين الروح والمادة ، بل يقول ان بين الله والكون ، والروح والمادة ، والدين والدولة ، مشاركة كيانية . والاسلام لا يعتبر الانسان مواطناً في عالم دنس ينبغي عليه أن ينبله سعياً وراء علم روحاني قائم في موضع آخر . بل ان الاسلام يرى ان المادة هي الروح قد حققت نفسها في نطاق المكان والزمان » (١٤)

فالساسة الهندية العلمانية التي لا تتحدر من ديانات الهند ، هي في رأي اقبال ، كما في رأي غاندي ، سياسة غير صحيحة ولا واقعية ولا عملية و

وهذا يحمل اقبال على أن يطرح السؤال التالي :

« هل نستطيع أن نحفظ بالاسلام من حيث هو نظام مثالي للأخلاق ، وان نرفضه كنظام سياسي ، ونستعيز عنه بسياسة قومية لا تفسح فيه مجالاً للعامل الديني ؟ ان هذا السؤال لنو اهمية خاصة في بلد مثل الهند ، حيث يؤلف المسلمون اقلية من مجموع السكان . ان ما يتردد كثيراً على شفاه الغربيين ، من أن الدين إنما هو اعتبار فردي خاص ليس بالأمر المستغرب ... لكن طبيعة رسالة النبي الدينية كما تنكشف في القرآن الكريم ، تختلف عن ذلك اختلافاً كلياً . فليس الدين مجرد تجربة خاصة ... تجري داخل المرء دون ان تستيعب — حكماً — أثراً ما في محيطه الاجتماعي ، بل هو تجربة شخصية مفضية إلى قيام نظام اجتماعي تنحدر منه ، بصورة مباشرة ، الأصول اللازمة لنظام سياسي يتمشى على اعتبارات قانونية واضحة ، وهذه الاعتبارات ذات اهمية اجتماعية لا يجوز التقليل من قدرها ، لمجرد أنها متحللة من مصدر الهامي . فالمثل الدينية في الاسلام ، والحالة هذه ، متصلة اتصالاً وثيقاً بالنظام الاجتماعي الذي انبثقت منه ، ورفض الواحد يستتبع حتماً رفض الآخر . فاذا كان قيام نظام سياسي على اصول قومية من شأنه ان يزحزح مبادئ التضامن الاسلامي ، فهو أمر لا يمكن ان يتصوره المسلم » (١٥)

على أن اقبال لم يقصد من قوله هذا أنه ينبغي للمجتمع الاسلامي ان يستقل ، وأن يغدو امة مستقلة تنسحب من الهند ، على نحو ما فعلت الباكستان ، وإنما الذي قصده ان يقوم دستور الهند الجديدة على أساس من السيادة القومية المتعددة لا على سيادة قومية موحدة . أي أن الدستور الجديد ينبغي أن يكون فلرالياً منبثقاً من مبدأ تفاوت الأوضاع التقليدية المدنية ، وتعدد القوانين المرعية في الحياة الراحنة ، لا على مبدأ وحدة السيادة التي يقول بها حزب المؤتمر ، سواء اكانت بحسب نظام نهرو العلماني الغربي ، أم بحسب نظام غاندي الديني البوذي الهندوسي . والسبب في ذلك ان القوانين المرعية الاجراء في الهند ليست واحدة في مجتمع هندي منسجم ذى عرف ديني واجتماعي وسياسي واحد ، وإيمان

ديني وقانون مدني واحد ، بل هي تابعة لمجتمعين كبيرين — مجتمع اسلامي ومجتمع هندوسي — مختلفين اختلافاً اساسياً من حيث الاعتبارات الدينية والسياسية والقانونية . فضلاً من تباين القيم الحضارية الخاصة بعدد من المجتمعات الأخرى . على أن اقبال يشير في خطبته المذكورة إلى انه قد يتمكن اربع مئة مليون من الخلق ، إذا وطلوا العزم ، من أن يحدثوا مجتمعاً جديداً موحد العرف والعقائد والمبادئ ، لكن ذلك كما قال :

« يستتبع عملاً طويلاً مجهداً ، هو يواقع الأمر خلق جيل جديد من الناس ، وامدادهم باستعدادات وجدانية جديدة . ولكان تحقيق ذلك في الهند امراً ممكناً لو أن تعاليم « كبير » وشرعية « اكبر » الالهية استأثرت بتصورات الجماهير واستولت على ألبابهم في هذا البلد . لكن الاختبار ينبئ بأن الطبقات الاجتماعية المختلفة ، والمذاهب الدينية المتباينة في الهند ، لم تظهر اية رغبة في صهر كياناتها المتعددة في وحدة جامعة ، بل ان كل فئة كانت تحرص اشد الحرص على التماسك والصمود . فاحداث نوع من الوعي الوجداني الذي هو العامل الاساسي في تكوين الأمة (والمنبثق من مبدأ وحدة السيادة السياسية) ... انما يستتبع تضمحية لم يكن إبناء الهند مستعدين لتقديمها . فوحدة الأمة الهندية ، والحالة هذه ، ينبغي ألا ننشدها في القضاء على الوحدات الاجتماعية ، بل في تنسيقها وتوثيق التعاون المتبادل بينها » (١٦)

فدستور الهند الجديدة ينبغي ، بكلام آخر ، أن يقوم على أساس من الشرائع الدينية المتعددة ، وينبغي أن يكون دستوراً فدرالياً مشتملاً على بنود تصون للمجتمعات الدينية والمدنية المختلفة حقوقها الخاصة كما تريدها ان تكون . ويزيد اقبال على ذلك قوله :

« ان الحصافة السياسية الحق لا تستطيع ان تتغاضى عن الحقائق مهما كانت مؤلمة ، فالنهج العملي لا يقوم على افتراض وجود اوضاع لا وجود لها ، بل على الاقرار بالاوضاع كما هي فعلاً ... فعلى ادراك وحدة الهند ، عن هذا الطريق ، يتوقف حقاً مصير الهند ، بل ومصير آسيا برمتها » (١٧)

وبهذه النظرة النافذة يستجلى اقبال اهمية هذا الحكم بالنسبة إلى مصير آسيا في المستقبل ، وإلى صيانة وحدة الهند الإسلامية والهندوسية ، ذلك لأن :
« ... الهند إنما هي آسيا مصغرة . فبعض ابنائها تربطهم صلات ثقافية بآسيا شرقي آسيا ، وبعضهم بآسيا في اواسطها وغربيها . فإذا نحن اهتمدنا إلى نظام تعاوني فعال في الهند حققنا السلام والثقة المتبادلة في هذا البلد القديم ... ووضعنا في الوقت نفسه حلاً موفقاً للمشكلة السياسية في آسيا برمتها (١٨)
هكذا يقدر للهند في رأي اقبال ، ان تبقى على وحدتها ، ولكن بشرط ...
« أن نوافق على أن يكون لكل فئة حقها في النمو الطليق ، بحسب تقاليدها الحضارية الخاصة ... انني لشديد التعلق بالمجتمع الذي هو مصدر حياتي ومنبع تصرفي ، والذي جعلني ما أنا عليه بأن اعطاني دينه وأدبه وفكره وثقافته ، وجعل من ماضيه باكملة عاملاً حياً فعالاً في وعيي الحاضر » (١٩)

ومع ذلك

« ... فبمقدار ما استطعت أن اتفهم العقل الإسلامي ، لا اتردد في أن اصرح بأنه اذا تقرر قبول المبدأ الذي يتيح للهندي المسلم حرية النمو التامة في نطاق موطنه الهندي ، وضمن تقاليد ومقتضيات حضارته ، كأساس لمواطن جماعي دائم ، فيسكون مستعداً لأن يلقي بكل قواه في سبيل تحرير الهند » (٢٠)
هذه المعضلة — معضلة تعدد الانماط الحضارية في المجتمعات الهندوسية والإسلامية في الهند — ما زالت الهند المستقلة الجديدة في الوقت الحاضر تعانيها بعد حصول التقسيم . ذلك أن اربعين مليوناً من المسلمين لا يزالون داخل حدودها وثابعين لسيادتها . وفي ما عدا العدد القليل من الزعماء الذين استمروا في عضوية حزب المؤتمر ، فإن سائرهم ليسوا على جانب من الارتياح ، كما يعلم ذلك كل من قصد إلى الجامعة العثمانية في حيدر اباد ، وكما يعرف صراحة زعماء الحزب الاشتراكي الهندي الذين هم هنلوسيون يحكم مولدهم ، فلا يرتقي الشك إلى اخلاصهم من هذه الناحية . والواقع ان الحل الذي يراه الحزب الاشتراكي للمشكلة الهندوسية الإسلامية القومية في الهند المقسمة ، هو عينه الحل الذي اقترحه

اقبال سنة ١٩٣٠ للهند ككل . والواقع ان اسوكا مهتا ، وهو السكرتير العام للحزب الاشتراكي ، كان اول من لفت نظر المؤلف إلى اهمية مساعي اقبال في قيام دولة باكستان ، وفي تفهم معضلة كشمير ، ودواعي التوتر بين باكستان والهند ، واستمرار المعضلة القومية في الهند الحديثة المتحررة .

ولكن كيف السبيل إلى التوفيق بين مسؤولية اقبال في خلق باكستان ورغبته في بقاء المجتمع الإسلامي داخل الهند الموحدة المستقلة ؟ والجواب على ذلك يظهر ايضاً في خطبته الافتتاحية سنة ١٩٣٠ ، وهو انه إذا ما مضى زعماء حزب المؤتمر في المطالبة بلمستور للهند مبني على السيادة القومية الموحدة ، إما على مبدأ تهرو العلماني ، أو على مبدأ غاندي الهندوسي البوذي — عندها ، لا يبقى أمام المجتمع الإسلامي إلا أن ينسلخ عن الهند ويحعل من نفسه امة مستقلة تقوم على سياسة المبادئ العقائدية الاسلامية . وفضلاً عن ذلك ، فقد كشف اقبال لأخوانه المسلمين ، عما قاله في مؤتمر المائدة المستديرة الذي عقد في لندن لوضع الأساس الذي ينبغي للهند ان تنال استقلالها بموجبه ، والذي كان فيه هو والمهاثما غاندي يمثلان الهند ، وهو :

« إن المهاثما غاندي قد حمل الوفد الإسلامي على الاعتقاد بأنه شخصياً يوافق على مطالب المسلمين ، وانه سيحاول ان يقنع حزب المؤتمر وجماعة الهندوس وجماعة السيخ بان يوافقوا عليها ، بشرط أن يوافق المسلمون على ثلاثة أمور : أولها منح الحق الانتخابي للبالغين ، وثانيها : الا يكون لجماعة المنبوذين تمثيل ما ، وثالثها تأييد حزب المؤتمر في المطالبة بالاستقلال التام للهند . لكن المهاثما امتنع عن عرض الأمر على المؤتمر ، واخفق في دعوة الهندوس والسيخ الى الموافقة على التدبير المذكور » (٢١) فكان من ثم ان تحقق في العقد الخامس المصير الذي وضعه اقبال امام الهنود المسلمين سنة ١٩٣٠ ، وأصبحت باكستان بموجب ذلك دولة مستقلة في ١٥ آب سنة ١٩٤٧ . وتجدر الإشارة هنا إلى أن لياقت علي خان ، الذي تولى فيما بعد رئاسة وزارة باكستان ، وضع قراراً فص على استقلال باكستان سنة ١٩٣٧ ، وافقت عليه الرابطة الإسلامية في

الهند في السنة نفسها وهذا مؤداه :

« تقرر أن الهدف الذي تسعى اليه الرابطة الإسلامية في عموم الهند إنما هو إنشاء نظام استقلالي ناجز في الهند يضم ، على نحو فدرالي ، حكومات ديموقراطية مستقلة ، ويؤمن دستوره للمسلمين ولسائر الاقليات جميع حقوقهم ومصالحهم فعلياً كما ينبغي » (٢٢)

أما القيمة العملية لهذا الدستور القومي الهندي ، القائم على مبدأ سيادة النظم التقليدية المتعددة ، فإن اقبال قد أشار إليها أيضاً في خطابه الرئاسي سنة ١٩٣٠ ، حيث قال : « كم كنت أود ان أرى البنجاب ، والاقليم الشمالي الغربي القائم على الحدود ، والسند وبلوخستان ، تضمها دولة واحدة (٢٣) . وبكلام آخر ، فإن ما يعرف اليوم بباكستان الغربية وباكستان الشرقية ، كان المتوقع ان يكون دولتين مستقلتين ، لكل منهما استقلالها الذاتي الحضاري داخل دولة هندية اتحادية واحدة تشتمل ، في الوقت نفسه ، على دويلات هندوسية ماثلة ذات استقلال حضاري اقليمي ، وعلى سواها من الدويلات التي تؤثر ان تقوم على اساس علماني . وهذا النوع من النظام الفدرالي هو بالذات القائم اليوم في كندا . وهوذا ما قاله اقبال بهذا الصدد :

« ان المبدأ الديمقراطي الاوربي لا يمكن ان يطبق في الهند بلون الاقرار بواقع المجتمعات الطائفية العديدة . فمطالبات المسلمين بانشاء هند اسلامية داخل الهند مطلب له مبرراته ... وهو مستوحى من مبدأ مثالي نبيل هو خلق ككل متسجم ، بدلاً من خنق المواهب الفردية التي يتألف منها هذا الككل ، وذلك بان يتيح لها امكانيات النمو والعمل التي قد تكون كامنة فيها ... وفي رأيي انه لا مكان لحكم موحد في هند مستقلة ، اما ما يعرف « بالسلطات المتبقية » فينبغي ان يترك كلياً للحكومات الاقليمية المستقلة ؛ وان تقتصر الدولة المركزية الاتحادية (الفدرالية) على السلطات التي تقللها اياها كل من الدول الاتحادية (الفدرالية) بموافقتها التامة » (٢٤) . ثم يضيف إلى ذلك قوله : . واذا اقيمت حكومة فدرالية فان كل دولة من الدول الإسلامية الفدرالية ستوافق بمطلق الإرادة

على بناء قوة عسكرية محايدة مهمتها الدفاع عن الهند براً وبحراً (٢٥) .
وهذا المبدأ من الخطورة بحيث يتجلى ، ليس في انبعاث الاسلام كما يتمثل
في منهج اقبال ونظام الباكستان وتركيا فقط ، بل وفي مبدأ معالجة المجموعات
الحضارية كوسيلة لحل معضلات العالم المعاصر ، المحلية منها والدولية . وهو مبدأ
لا بد بالنتيجة من أن تزداد اهميته مع تعاقب الزمان .

ولكن ، أي شيء في الاسلام ، يجعل وحدته مع الهندوسية ، أو مع البوذية
او الطاوية او الكنفوشية الاسيوية ، امراً مستعصياً إلى هذا الحد ؟ ان المانع
الأساسي انما هو الفرق الجذري بين هاتين الحضارتين من حيث النظر الى طبيعة
الفرد الخلقية والسياسية والدينية . فقد اوضحنا سابقاً ان حقيقة الذات في الكنفوشية
والطاوية والبوذية ، وفي الجانب غير الآري من الهندوسية ، قد غمرتها العاطفة
الصوفية بفيض من الاتساع والاحاطة والشمول جعلها بمثابة المثالية الانسانية
كما وصفها تشاينغ مونلين في الكنفوشية ، وطاو في الطاوية ، والبوذيون في
الرفانا ، والهندوسيون في الفيدنتا . والى هذه الفكرة دعا غاندي عندما تزعم
الجماهير الهندية ، وهي هي التي دعمت الصوفية التي اعتصم بها اقبال في اول
امره ، ثم فارقتها بعد ان اكب على دراسة الاسلام وشؤون الغرب دراسة فلسفية
عميقة . وهذا التصور للرجل الفاضل الحق ، هو كذلك مصدر المنهج الوجداني
التأملي المقترح لتسوية الخلافات ، في مكان المنهج القانوني القائم على طبقية
الآرية الهندية ، وعلى الاسلام والغرب . فعلى أساس هذه النظرة الفلسفية
الآسيوية الخالصة إلى الذات الانسانية ، يمكن الوصول الى السلم ، والى التحقيق
الاكمل للذات الحقة ، وذلك عن طريق تلطيف الفروق داخل النفس ، او
افكار اي جانب من النفس من شأنه ان يباعد بين الشخص الواحد وأي شخص
او أمر آخر . وقد كتب غاندي عن صفة النذير الذي يريد الالتحاق بمنهج
جيتا الصوفي يقول :

« ومع ذلك فإذا كان للمرء ان يغدو صفرآ ، فهذا بالذات ما ينبغي أن يكونه
النذير اذا كان يطلب الكمال » (٢٦) . وهذا ما لا يوافق أي متدين سامي ،

يهودياً كان او نصرانياً او مسلماً ، على انه القول الحق عن طبيعة الانسان الأدبية والسياسية والدينية ، ولا اي غربي علماني من المفكرين الانسانيين ؛ ذلك لان الفرد العلماني والديني ، مسلماً كان او غريباً ، يعتبر شخصية الذات وكيانها الخاص واقعاً حقيقياً اخلاقياً سماوياً . أما القيم المعنوية والفضائل الخلقية والصفاء القلبي والأنسجام الروحي فتتجل في التعبير عما يختلف فيه الفرد عن سواء من الأفراد او الاشياء .

هذا هو الموضوع الذي تلور عليه تأملات اقبال في قصيدته الرائعة المثيرة « اسرار الذات » وفي « الأناشيد الفارسية » حيث يقول ما ترجمته :

« لو كان علي أن اضحي بخيوط واحد
من نسيج هذه الحياة التي احيانا
لكل الثمن الذي ابذله
لابتيع الخلود باهظاً جداً

« اعطني القلب الذي يتشهي حبوراً
من الحمر الذي يفيض من صميمه ،
ونخذ القلب الذي امحت معالمة ،
وزيفت خواجه التصورات النخيلة » (٢٧)

ثم قابل هذا بما قاله طاغور :

« أن اجعل من نفسي خير ما استطع
فاقلبها على جميع الوجوه ،
من أجل ان القي اظلالاً ملونة على اشعاعك ،
هذا هو معنى تجليك في .
(اي ان يخلق براهيم شيئاً على انه تجل عارض لذاته .)
« انك لتقيم حاجزاً داخل كيانك الخاص :

وتدعو ذاتك المنفصلة بالوف التعابير ؟
فانقسامك الذاتي هذا ،
قد تجسد في وجودي .

« ان الشيد الحزين يتردد صدهاء في جوانب الفضاء ،
تُرَدِّده سيول الدموع وبروق الابتسامات ؛
ووفود الآلام والآمال ، بالوانها الكثيرة :
امواج ترتفع وتهبط ، واحلام تتصور وتلاشى ،
وفي ذاتي يتجلى انخفاق ذاتك الخاصة .

« هذا الحجاب الذي رفعته ،
قد ظهرت فيه رسوم لا تحصى ولا تعد
قد ابدعتها ريشة الليل والنهار ،
ومن ورائه يقوم عرشك البهي
المنسوج من اسرار خطوط منحنية عجيبة
خالية من كل مستقيم عقيم .

« ان المشهد العظيم الذي نتمثل انت وأنا فيه
قد انتشر في رحاب الفضاء ،
وبتموجات ألحانك والحاني قد اهتز الهواء ،
وفي تفتيشي عنك وفي تخفيك عني خلت العصور في تعاقبها » (٢٨)

« انني لا غوص في اعماق محيط الأشكال .
راجياً ان احظى بتلك الولوة البامة التي لا شكل لها
وها أنا اتوق الى ان افنى .

في ذاك الذي لا يدركه الفناء » . (٢٩)

اما اقبال فاليك ما يقوله عن فكرة الذات في قصيدة « شقائق سيناء »

« قال البرهمي لربه يوم القيامة :

لم يكن بريق الحياة الا قبساً هائماً .

أما انا فان جاز لي القول . قلت مستغفراً :

ان حجر الاصنام لابقى من طين الانسان ...

« أيها المسلمون لكم في قلبي كلمة

أشد اشعاعاً من نفس جبريل ،

اكنها محجوبة عن ابناء النار

سراً عرفه من قبل سيدنا ابراهيم

« تسألني قلبك هذا ما هو ؟

هو قلب ولد يوم التهمت عقلي النار ،

فاذا هو سورة من حبور

لكنها خمدت ، فعاد ثانية إلى الطين

« وقفت مستعطياً على رمال سيناء

إذ لم تكن نفسك تعي ذاتها

تقدم ثابت القلم ، والبحث عن رجل اي رجل ،

فالقه نفسه شريكك في البحث عنه . » (٣٠)

ولبكي تقف تماماً على ما يعنيه اقبال « بالنفس » « والذات » لا بد لنا من

الرجوع إلى آثاره التي كان فيها أكثر إيماناً في التأمل الفلسفي . ففي المقدمة

الانكليزية للمحمته الشعرية « اسرار الذات » (٣١) التي « اثار عاصفة من

الحماسة في نفوس الأجيال الناشئة من مسلمي الهند ، ، يأتي على ذكر المعتقد الإسلامي والمعتقد الغربي فيقول :

« في رأيي أن هذا المحور للشعور الانساني ، الذي لا يحيط به الوصف ، هو حقيقة العالم الأساسية . فالحياة على اختلاف ظواهرها فردية ، وليس هنالك ما هو من قبيل الحياة الكلية . بل ان الله ذاته فرد احد ، ليس له في احديته من شبيه . وما العالم ، على ما ذكر الدكتور ماكتفرت الاجتماع مؤلف من افراد . انما ينبغي ان نزيد على ذلك أن ما نجده في هذا الاجتماع ، من الانتظام والانسجام ، لم يحقق لنفسه كمال التكون واستمرار البقاء ، لكنه ناتج عن نشاط عفوي وجهد متعمد . فنحن نسير أبدأ من الفوضى إلى النظام على نحو تدريجي ، ونساهم عملياً في بلوغ هذا الهدف . ثم ان اعضاء هذا المجتمع ليسوا افراداً معينين ثابتين ، بل هنالك اعضاء مستجلبون يولدون ويلتحقون بالقافلة تبعاً ، مساهمين في بلوغ هذه الغاية العظمى . وهكذا يظهر ان العالم ليس عملاً ناجزاً ، بل هو دائم السير في طريق التكون والاكتمال . لذلك يتعذر الوقوف على حقيقة العالم قبل ان يصبح « كلاً تاماً » . فعملية الخلق لا تزال في استمرار ، والانسان نفسه يساهم فيها بمقدار ما يساعد على تحقيق الاستقرار ، ولو في جانب من هذه الفوضى . » (٣٢)

وهنا نجد عند اقبال اثرأ من اراء هوبتهد وماكتفرت ، والتقاليد السامية المسيحية الدينية .

ولنقابل فكرة الكمال والالوهية هذه ، التي هي من قبيل المثال الذي لا يتحقق فعلاً على شكل تام ، مع تعريف ستيلكرامريش للفن الهندوسي الهندوسي . وهو : ان الفن الهندوسي الهندوسية سياق نموذجي غرضه ربط المجرد الذي لا يسمى ولا شكل له — وهو الالوهية الهندوسية — بالوجود المادي (٣٣) . ويشير اقبال الى « ان القرآن يذكر احتمال وجود خالقين آخرين غير الله » يستشهد على ذلك بآية من القرآن هي الرابعة عشرة من سورة « المؤمنون » : تبارك الله احسن الخالقين . ثم يستأنف قائلاً :

« ويبيّن أن هذه النظرة إلى الانسان والعالم مخالفة تماماً للنظرة الانكليزية في فلسفة هيجل المجددة ولكل صورة من صور الشمولية الصوفية ، التي تعتبر غناء النفس في الذات الكلية المطلقة هدف الانسان الاقصى وسبيل خلاصه الاوحد . فغاية الانسان الخلقية والدينية ليست انكار الذات ، بل تحقيقها وثباتها ، وبقلدر ما يقرب المرء من فرديته يوفق الى تحقيق هذا الهدف الاقصى . وقد اوصى النبي بوجوب الانصاف بالاولصاف الحسنى وهكذا فيمقدار ما ينشبه الانسان بالفرد الاوحد يغلو فرداً اوحد ، وعلى قدر بعده عن الله تتضائل فرديته ، واقترب الناس إلى الله اتهم شخصاً ، وليس معنى ذلك انه ينغمس اخيراً في الله ، ويغنى في ذاته » (٣٥) .

وفي مكان آخر من قصيدة « اسرار الذات » يستأنف اقبال قائلاً :
 « لقد اشرت الى اصول الأخلاق في الاسلام ، وحاولت ان اكشف عن حقيقة امرها من حيث علاقتها بفكرة الفردية ، « فالانا » في سيرها نحو التكامل الفردي يقتضي ان تمر في ثلاث مراحل : اولها الخضوع للشرعية ، وثانيها ضبط النفس — وهو اتم مظاهر الوعي الذاتي في « الانا » — وثالثها النياية الهية » (٣٦)
 وهنا ايضاً يتجلى لنا كيف يقاس النهج الخير والمستقيم والديني والسياسي بالنسبة إلى احكام الشرعية ، أما النياية الالهية فتتم بالمعرفة الحقة عندما ... تستحيل المناقضات في حياتنا العقلية الى تجانس وانسجام ... فيغلو من ثم مفهوم ملكوت الله على الأرض ، اشراك افراد ذوي حظوظ فريدة من التكامل في مجتمع ديمقراطي يرئسه اكملهم فردية . وقد تراعت لنيشئه صورة عن هذه السلالة المثالية ، لكن لإلحاده وتحيزه الارستقراطي ، افسدا عليه فكرته هذه . افساداً تاماً » (٣٧)

ثم ان اقبال قد وطد الاساس للديمقراطية عالمية : فقد كتب في مقال له موضوعه « الديمقراطية الإسلامية » نشر في مجلة « العصر الجديد » The New Era سنة ١٩١٦ يقول :

« ان ديمقراطية اوربا قد انبثقت اصلاً من تجدد الأوضاع الاقتصادية في

المجتمعات الاوربية ، لكن نيتشه يبغض هذا الذي سماه بـ « قانون القطيع » ...
فهل بلغت عامة الناس العاديين هذا المبلغ من البأس ؟ اما ديمقراطية الاسلام ،
فلم تتخلف عن اتساع الامكانيات الاقتصادية ، بل هي مبدأ روحي قائم على
ان كل كائن بشري هو مركز لقوة كامنة نستطيع اخراجها بان نعهد في كل منها
ضرباً من السجاياء الخلقية . او لم تكن ديمقراطية صدر الاسلام نقضاً اختبارياً
لاراء نيتشه ؟ « (٣٨)

ويلمح اقبال ، في رسائله إلى جناح بما يقصده بالديمقراطية الاسلامية من
حيث صلتها بطوائف الجماهير المعاصرة اذ يقول في ما يتعلق بهم :

« ان معضلة الخبز تردد حدة ... لكننا نجد ، لحسن الحظ ، حلاً موافقاً
لها بتطبيق شريعة الاسلام ، وبتوسيع احكامها على ضوء الفكر الحديث » (٣٩)
وجدير بالملاحظة ان الشريعة الاسلامية في نظر اقبال ليست دستوراً وافياً
بجميع الدقائق والتفاصيل ، ولا هي واردة كذلك منذ القدم ، بل لا بد من اجراء
التنقيح في نصوص مقرراتها ، مع تبديل الاحوال . اما الوارد فيها منذ القدم
فهو فلسفتها الأساسية وروحها الخلاقة ، وهذه الروح الباقية المستمرة ينبغي
بطبيعة الحال ان يعبر عنها بصيغ تتناسب مع المعرفة الحديثة ، وتفي بالاحوال
والحاجات الطارئة » . ثم يقول :

« لقد توصلت ، بعد دراستي للشريعة الاسلامية دراسة دقيقة طويلة ، إلى
أنه حيث يتيسر فهم هذه الشريعة فهماً جيداً ، ويتم تطبيقها كما ينبغي ، فإن
حق العيش يغدو مضموناً للجميع » (٤٠) ولكن اي شيء في فلسفة الشريعة وفي
روحها الواردة في القرآن ، يضمن هذه النتيجة ؟ واول ما يبدو من ذلك هو
المساواة المطلقة بين جميع الناس امام الله . ومن هنا يستنتج زعماء الاسلام
المعاصرون ان ظهور عدد من الخلافات ذات السلطات الاستبدادية ، وقيام
الفواصل بين الحكام والرعايا ، هو نقض صريح لروح الاسلام ، وكذلك صلة
الفرد المباشرة بربه ومسؤوليته تجاهه ، فانها تقتضي ضمناً رفض نظام الابوة
الاسيوي في الأسرة ، لانه يحصر حق الأثر في الابناء دون البنات . ويجعل

ملكية المقاربات من حق الابن الاكبر الحي وحده . في حين ان شرعية الاسلام تحول دون تراكم الثروات اذا طبقت للشرعية نصاً وروحاً . وقد ضرب لي سيادة علي خان ، قاضي العدل الاسلامي في ولاية حيدر اباد ، مثلاً على ذلك ، وكان قد فرغ من تسوية احدى القضايا العقارية ، فقد وزع بحكم تطبيقه الصحيح لاحكام الشريعة الاسلامية ملكاً قيمته حوالي ٥٣ الف ريال على سبعين وريثاً .

وقد اشار كذلك الى أن الديمقراطية الاسلامية تجمع الناس فعلاً من جميع أروقة الحياة لدى اداء فريضة الصلاة . حتى جامع القمامات يستطيع أن يجلس في حضرة اي مسلم ، ويشاركه في العبادة ويتصل به عن طريق الزواج . وليس في الاسلام ، الى ذلك كله ، تميز طبقي . وهو ايضاً اوسع من اية جامعة قومية : فهو تركي وفارسي وهندستاني ، هندي ، وليس عربياً فحسب . وكذلك الجمع في الدلالة بين الاسلام والفتوحات العسكرية العربية فانه ، في ما يرى مسلمو الباكستان والهند اليوم ، يعطي فكرة مشوهة عن الاسلام الصحيح .

وهم يؤكدون أن الاسلام الحي الفعال نظام خلاق ، لا يكتفي من التجديد بتكييف الأوضاع القديمة ، ففي غربي الهند واواسطها مثلاً ، قد عمل على خلق لغة جديدة هي اللغة الاوردية ، وهو يعمل الآن ، تمشياً مع روح المساواة الديمقراطية الاقتصادية ، على احداث ضريبة دخل في الباكستان ، على الصعيد القومي . لكنه بدلاً من ان يسميها بالاسم الغربي ، قد اطلق عليها الكلمة الاوردية « زكاة » . والسبب في ذلك ما فرضه القرآن على المؤمن من تأدية جانب من دخله الى المجتمع . واللفظة الاوردية لهذه الفريضة هي « زكاة » . هذه هي الطريقة التي يلقح بها الاسلام الناهض الأساليب الغربية ليحوّلها إلى حضارة هندية اسلامية أهلية .

وليس المقصود أن جميع المسلمين العصريين يشاطرون اقبال فكرة الدولة الاسلامية الدينية . فان مسلمي تركيا قد انشأوا دولة علمانية على الطراز الغربي الحديث ، ويجري مجراه عدد كبير من مسلمي الهند الذين آثروا البقاء في الهند

المستقلة نظير علي اصغر فيضي ، ومولانا ابو الكلام ازاد وزير الترية والموارد الطبيعية والابحاث العلمية في حكومة الهند حالياً . والخطب اهن بشأن الثاني منهما لانه مسلم صوفي متأثر بتعليم غاندي . واننا لرى كذلك كيف ان الاسلام المعاصر يبدد منظماته التقليدية التوسعية ذات الصفة العسكرية .

ولا ينبغي ان في العالم معتقدات سياسية وثقافية اخرى ، غير التي نجدها في الغرب الديمقراطي المتحرر ، تصلح—هي الاخرى—لان تكون اساساً للديمقراطية اقتصادية عالمية مسالة . فالبوذية والهندوسية والغاندية ، والطاوية والكنفوشية هي ، نظير الاسلام ، طرق اخرى الى الغاية نفسها . ولو ان الولايات المتحدة تنتهج بروحها الديمقراطية سياسة خارجية حكيمة سمحة لكانت ترحب بهذه الطرق الاخرى ، وتؤيدها بالتشجيع والتعاون . فقد صدق اقبال حيث قال : « ان مشعل الحياة لا يستعار من الغير ، بل ينبغي لكل فرد ان يوقده بنفسه في هيكل ذاته » . (٤١)

المراجع

- ٢ - Iqbal, Allama Sir Muhammad, The Complaint and the Answer, translated by Altaf Husain, Muhammad Ashraf, Lahor, 1948, p. ix.
والقصيدتين ترجمة شعرية بالعربية في كتاب فلسفة إقبال ، تأليف محمد حسن الأعظمي
والصاوي علي شعلان ، مصر ١٩٥٠ ، ص ٨٥-٩٢ ، و ١٠٩-١٠٩ (المترجم)
- ٣ - المرجع المذكور ص ٩ .
- ٣ - المرجع المذكور ص ٩-١٠ .
- ٤ - Iqbal, Sir Mohammad, The Reconstruction of Religions Thought in Islam, Oxford University Press, London, 1934, P. 170.
- ٥ - المرجع المذكور ص ١٥٥-١٧٧ .
- ٦ - إقبال ، قصيدة شكوى : ترجمة عربية في كتاب فلسفة إقبال لمحمد حسن الأعظمي والصاوي
علي شعلان ، مصر سنة ١٩٥٠ ، ص ٨٥-٨٩ ، المقاطع : ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٩ ، ٢١ ،
(المترجم) ١٥ .
- ٧ - إقبال ، قصيدة جواب شكوى ، المرجع السابق ، ص ١٠١-١٠٣ ، المقاطع : ٣ ،
(المترجم) ٤ ، ٥ ، ٦ .
- ٨ - المرجع السابق ، ص ١٠٣-١٠٧ ، المقاطع : ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٤ ،
(المترجم) ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ .
- ٩ - المرجع السابق ، ص ١٠٧-١٠٨ ، المقطع : ٢٢ .
- ١٠ - المرجع السابق ، ص ١٠٨-١٠٩ ، المقاطع : ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ .
- ١١ - Iqbal, Sir Muhammad, The Tulip of Sinai translated by A. J. Arberry, The Royal Indian Society, London, 1947, p. vii.
- ١٢ - Speeches and Statements of Iqbal, Compiled by « Shamloo », Almanar Academy, Lahore, 1948, P. 7.
- ١٣ - المرجع السابق ص ٣ .

- ١٤ - المرجع السابق ص ٥ .
- ١٥ - المرجع السابق ص ٨-٩ .
- ١٦ - المرجع السابق ص ٩ .
- ١٧ - المرجع السابق ص ٩-١٠ .
- ١٨ - المرجع السابق ص ١٠ .
- ١٩ - المرجع السابق ص ١٠-١١ .
- ٢٠ - المرجع السابق ص ١٠-١١ .
- ٢١ - المرجع السابق ص ٣٩-٤٠ .
- Syed, Dr. M. Hafiz, « Liaquet Ali Khan » The Modern Review, -٢٢
Calcutta, Vol. LXXX, No. 6, Dec. 1951, P. 462.
- Iqbal, Speeches, ect. op. cit., p. 12. -٢٣
- Ibid., pp. 12, 18. -٢٤
- Ibid., p. 25. -٢٥
- Gandhi's Letters to a Disciple, Harper's New York, 1950, P.135 -٢٦
- Iqbal, Persian Psalms, Pts. I and II, translated by Arthur J. -٢٧
Arberry, Muhammad Ashraf, Lahore, 1948, Poem 51, P. 45, and
Poem 41, P. 36.
- Tagore, Radindranath, «Gitanjali» in Collectid Poems and Play -٢٨
of Rabendrenath, Tagore, Macmillan, New York, 1937, Verse
LXXI, pp. 33-34.
- Ibid., VerseC. P. 46. -٢٩
- Iqbal, The Tulip of Sinai, op. cit., Verses, 16, 22, 38, and 46, -٣٠
pp. 4, 5, 8 & 10.
- Iqbal, Dr. Sir Muhammad The Secrets of the Self, translated -٣١
from the Original Persian with an introduction and notes by Rey-
nold A. Nicholson, Macmillan, 1920, revised edition, 1940, reprint-
ed by Muhammad Ashraf, Lahore, 1944, p. xxx.
- وقد ترجم هذه القصيدة الى العربية عن الفارسية الدكتور عبد الوهاب عزام ونشرها تحت
عنوان « ديوان الأسرار والرموز » ص ١٩٥٦ . (المرجع)
- ٣٢ - المرجع السابق ص xvii-xvii .
- Kramrisch, Stella, The Hindu Temple, Univ. of Colcutta., Vol. -٣٣
I, 1946, p. 12.
- Iqbal, Secrets of the Self. op. cit., p. xviii. -٣٤

- ۳۵۔ المرجع السابق ص . xviii-xix
- ۳۶۔ المرجع السابق ص . xxvi-xxvii
- ۳۷۔ المرجع السابق ص . xxvii-xxix
- ۳۸۔ المرجع السابق ص . xxix
- ۳۹۔ Iqbal, Letters of Iqbal to Ginnah, Shaikh Mubammad Ashraf, -۳۹
Lahore, 1944, pp. 15, 16.
- ۴۰۔ المرجع السابق ص ۱۶ .
- Iqbal, Speeches and Statements, op. cit, pp. 55-56 -۴۱.

الاسلام والتطور^(٥)

ولفورد كانتول سميث

لقد سلخ الاسلام حتى اليوم ثلاثة عشر قرناً ونيقاً من التاريخ . وليس من أحد يعرف المستقبل ، بيد ان المسلم يستطيع ان يتطلع ، مثلاً ، الى ثلاثة عشر قرناً آخر آتية . وما من حاجة في الوقت الحاضر للتفكير فيما ستكشف عنه الأيام . فنظرنا الى الاسلام كافية لتكوين رأينا ، ثم ان الأوضاع البخارية في العالم الاسلامي تكمن ضمن سياق طويل الأمد من تطور الأسلام — ذلك التطور الذي لم يبلغ كماله بعد .

ومع هذا الجريان المضطرب في تطور البشرية العالمي ، وخاصة الآن ، وسط ما نرى من تحول خطير قد أخذ طريقه في مناحي حياة الانسان الاجتماعية كلها ، لا ريب ان اي تنبؤ لن يكون مأمون الجوانب . لكننا نستطيع أن نتكهّن دون أن تقع في تهوّر ، بأن تاريخ الثلاثة عشر قرناً القادمة ، أو في الواقع تاريخ القرنين القادمين ، أو حتى القرن القادم ، انما سيكون تاريخاً جديداً مختلفاً بالنسبة إلى كل انسان . فالحياة على كوكبنا الأرضي مليئة بالتجدد السريع : المشاكل جديدة ، والامكانيات جديدة ، وكذلك الأحلام والأخطار :

(٥) الفصل الاول من كتاب Islam in modern History by Wilfrid Cantwell

Smith مطبعة جامعة برنستون ١٩٥٨ .

ان هذه الدراسة ليست في اية حالة من الأحوال محاولة — ومن العبث الواضح ان تكون — لأدراك وجه ذلك المستقبل ، فما من هم لنا الا لفت النظر الى الحقيقة الراهنة ، وهي ان مجرى الإسلام في الدنيا ، من الوضع الذي كان عليه منذ البدء ، انما هو في تطور عملي مستمر ، إلى ان يبلغ ما سيصبح عليه . والواحد منا لا يعرف ، او لا يحتاج الى عرفان ما سيؤول اليه الإسلام ، ولكننا في الواقع نستطيع ان نرى العملية المعاصرة التي يُستحضر بها شيء من ذلك الغد . فالإسلام يعيش اليوم فترة حاسمة خلاقة ، يتحول فيها تراث ماضيه الى بشائر مستقبله . هذا ، ويمكن للغرباء عنه ان يدرسوا ، ويحللوا ، ويوضحوا تلك العملية ، أما المسلمون أنفسهم فليس ذلك باستطاعتهم وحسب ، وانما الاسهام في ذلك واجب عليهم . على ان أهم وأمتع فصل من فصول التاريخ الإسلامي حتى اليوم ، بالنسبة للغرباء عن الإسلام والمسلمين معاً ، انما هو ذلك الفصل الذي هو الآن في طريق الخلق والتكوين .

وإذا ما كانت هذه النظرة صحيحة ، فهل هي جديدة بالملاحظة ؟ ربما قال قائل ان ذلك كلام هراء ، ثم احتج على ان مثل هذه الحقيقة انما تنطبق على شئ شئون الانسان ، مسلماً كان او غير مسلم ، كما تنطبق على سائر أدوار التاريخ . فالحياة ، بالنسبة إلى الانسان ومجتمعه ، كانت في جميع مراحلها ، وفي كل لحظة ، خلقاً او انبثاقاً لأمر جديد على أساس من تراكم الماضي . أولم يكن معنى التاريخ ، دائماً ، ضمن المعنى الشامل لكل « حاضر » مضى وانقضى ؟ أولم نجد دائماً كل شخصية ، وكل جماعة ومؤسسة ، وكل حضارة نفسها مضغوطة بين عبء ماضيهما واحتمالية مستقبل ليس بالأكيد الثابت ؟ ترى ما هو الشيء المميز في القرن العشرين الذي ينتقل بعصرنا مرحلة ذات خطورة . وما هو الشيء الخاص بالإسلام الذي يجعل انغماره في هذه الأزمة هذا الانغمار الدرامي ؟

في موضوعنا هنا ، سنرى ان في كلا الحالتين يوجد الكثير من الخاص المميز . ان هذه الناحية من ايمان المسلم وتطوره وعنفوانه لم تُبحث الا قليلاً .

ولهذا فإن عرضنا للموقف ، كما نراه ، سيتضمن الكثير من آرائنا في الوقت الحاضر . وجواباً على السؤال السابق من الناحية الأخرى — وهو السؤال المتعلق بتقلب العصرية — نقول ان الكثير المتنوع قد كتب في الموضوع ، وما علينا الا أن نتناول ذلك باختصار موجز .

لنعترف بأنه كان هنالك دائماً تغيير . فكل لغة من اللغات ، او سلسلة من الجبال ، او حتى المجرات لها ، على ما نعرف اليوم ، تاريخ خاص . اننا نستطيع ان نثبت اقتناع هيركليطوس ، بأن كل شيء نراه ، انما كان وما يزال في تطور . بيد أن عصرنا يتميز في ناحيتين : الأولى هي ان خطوة التغيير لم تتسارع كميةً فحسب ، وانما كيفية كذلك . والثانية هي أن التطور أصبح للمرة الأولى ، وعلى نطاق واسع ، واعياً لذاته .

ان التغيير في تاريخ الانسان ، أو تطوره ، لم يكن من قبل كما هو عليه اليوم من السرعة والشمول والوضوح . لقد كانت العصور الخوالي تعرف شيئاً من زوال الأوضاع . أو أنها كانت ، بين حين وحين ، تشع بأثر عميق للتغيرات غير أن عقدَ تراوج الأمور العلني الوثيق قد احتفظ به لزمنا هذا . أما من الآن فصاعداً ، فالإنسان يعلم أنه يجب ان يعيش مع التطور كشريك دائم ، في جميع نواحي نشاطه ، وسائر مؤسساته ، سواء أكان ذلك للأفضل أم للأسوأ .

هذه المعرفة ، في حد ذاتها ، هي التميز الثاني الكبير . فالتقدم منذ النهضة الصناعية ، ومنذ بدء الخطوات الأخيرة التي خطاها العلم ، لم يكن سريعاً فقط ، وإنما كان سريعاً بنسبة لم نرها من قبل . ومن ناحية لا تقل أهمية نجد ان هذا التقدم كان ، لأول مرة أمراً مسلماً به ، وكان يجري بعضه عن سابق عمد وتصميم . ان هذه المعرفة ، كثيرها ، تحمل معها القوة والمسؤولية . والانسان يمكنه ، من ناحية ، ويجب عليه من ناحية اخرى ، ان يكون مهندس التقنيّة . ففي قضية الاسلام مثلاً نجد انه في الوقت الذي اخلت فيه ديناميكية الماضي البطيئة الطريق لتطور الأحداث المعاصرة السريع ، يتشر الوعي بقوة

بين المسلمين (١) شأنه بين الغرباء ، ذلك الوعي المترك لمرونة حاضِر الإسلام ، ونرى في الوقت نفسه أيضاً أن الإدراك يعي كيف أن الإسلام كان دائماً مرناً (٢) ويتجلى مع هذه الأمور شعور فطري بفرصة الإنسان التي تتسع ، دون مفراً ، اليوم ، لتقبل التغير المباشر (٣) .

هذا يكفي فيما يتعلق بالقرن العشرين . بيد أنه بالإضافة إلى هذه الظروف الجديدة الذي يساهم الإسلام في مجراه بها مع بقية عالم اليوم ، وهي ظروف واضحة جلية ، نرى أن هنالك اعتبارات أخرى خاصة بالإسلام . وهذه الاعتبارات تساعد على تمييز التجربة الشديدة القاسية التي يجتازها المجتمع اليوم . أن هذه العوامل الإسلامية المهيمنة لم تحظ إلا بالقليل من عناية الكتاب شرقيين كانوا أم غربيين ، ولهذا يجب أن تعرض بدقة وعناية إذا ما أريد للأزمة الحاضرة أن تقدر حق قدرها . وإننا لفي حاجة إلى فهم أوضح ماهية الإسلام ، وإدراك عادل لمهية العصرية ، ذلك إذا ما رغبتنا في تبصر معقول بالوضع الحديث للعالم الإسلامي . لقد كان هنالك حديث عن « تأثير » الغرب ، أو القرن العشرين في الإسلام ، كما لو كان الأخير جامداً أو أنه يستجيب تلقائياً لذلك التأثير ، مع أن الإسلام قوة كذلك ، وقد مضى عليه ، وهو في حركة ، أكثر من ثلاثة عشر قرناً . ولا ريب أن المسلم العصري ومجتمعه يتلقيان تأثيرين اثنين هما تأثير الإسلام الشديد من وراء (ولما كان الإسلام ديناً فمن عل أيضاً) وتأثير العصرية من جانب . أما قوة الإسلام الدافعة في هذا الموقف ، وما هنالك من أعباء وجهود تتولد في العملية المتواصلة بالحرمان ، ومن قوى-لرد الفعل الذي يقوم به الإسلام — عنيفاً كان ذلك الرد أم ضعيفاً ، قانماً بما عنده أم بانياً خلافاً بالنسبة إلى العالم الحديث — كل ذلك يجب أن يُترك لا بالنسبة إلى مفاهيم البيئة الجديدة وحدها ، وإنما كذلك بالنسبة إلى مفاهيم الإسلام وطبيعته وانجماه وصفاته الذاتية .

لقد رأينا أن الحاضر الذي نعيش فيه عبارة عن فترة خاصة في التاريخ الإسلامي . انه ، دون ريب ، حقبة فريدة تتميز في بعض نواحيها عن كل

حقبة . وانا لنستطيع ان نقول أيضاً ان المجرى التاريخي ذو ميزة خاصة بالنسبة إلى الإسلام على وجه العموم ، فالنظرة الإسلامية للتاريخ نظرة فريدة ، كما أن التاريخ ، من بعض الوجوه ، ذو أهمية عند المسلمين اكبر منها عند غيرهم من الجماعات . على أن مثل هذا الرأي الجامح يتطلب ، دون ريب ، ايضاحاً شافياً . غير انه باستطاعتنا تأكيد هذا الرأي فوراً ، وذلك أن دور الاسلام العملي في التاريخ الحديث (او في اي تاريخ آخر) لا يمكن ان يدرك تمام الإدراك دون أنه يفهم دور التاريخ النظري في الإسلام . والأمر نفسه ينطبق على مسألة الروابط الاجتماعية . فالإنسان لا يستطيع ان يفهم دور الإسلام في المجتمع فهماً مناسباً إلا إذا كان في استطاعته ان يقدّر دور المجتمع في الإسلام . وقد يبدو من السخف مرة أخرى توكيدنا على ان المسلم العصري عضو في مجتمع ليس بالاسلامي كمجتمعه او تاريخه ، وفي كلا الحالين نرى أن ذلك أمر خاص . ولكي نعلم مدى الخاصة فيه علينا أن نبحث ونتحقق . ولهذا أقول مرة أخرى انه إذا أردنا ان نتمكن من فهم الموقف الحاضر في العالم الاسلامي ، وجب علينا ان نتفحص الاسلام . إذأ ما هو الاسلام ؟ لنبدأ ولنقل أن الاسلام دين .

وقولنا هذا يعني الشيء الكثير — انه في الواقع اكثر مما يستطيع اي منا أن يدرك . انها الحقيقة الجوهرية التي يجب ان يبدأ منها الإدراك في هذا الحقل : فالاديان جميعها ، ونخص بالذكر ديانات العالم الكبرى ، انما هي ديانات لانهاية ، أي انه ليس من حد لعقها او تشعبها او تنوعها . فكل ديانة هي نقطة يتمسك عندها المؤمن بها ، بوساطة التقاليد المراكمة ، بسرمدية الخالق (٤) . انها الوسيلة الرئيسية التي يتجلى بها الله الى المرء ، بقدر ما يسلّم المرء بذلك . ومهما كان الاسلام مثلاً أعلى منسقاً ، وكذلك مهما كانت تفاصيله الخارجية عمرانية ، فهو أيضاً ، من حيث انه تجرية ، الحياة الدينية الشخصية . عميقة كانت ام ضحلة ، بشعة أم رائحة الملامح ، خاطئة ام بريئة مقدسة ، لكل فرد من أفراد المسلمين .

هذا ، ويتراعى للمراقب الخارجي من وراء الديانة وطبيعتها الخاصة العميقة السامية أمران . أما الأمر الأول فهي اننا نفترى على أي دين اذا ما نظرنا الى شكله الخارجي وحسب . فالدين بالنسبة الى كل تبع من أتباعه ، هو النافذة الكبرى التي ينظر من خلالها ويرى ما يراه من معنى الحياة وغايتها ، ومغزى وجوده النهائي ووجود رفاقه ، وما بينهم من علاقات متبادلة . ولهذا فان طالب المعرفة يجب ان لا يلاحظ شكل النافذة وتركيبها فقط ، وانما يجب عليه أيضاً ان يتأكد من الرؤية التي تشرف عليها وتقدمها لاولئك الذين يتعبدون عندها . أما فيما يتعلق بالسلوك ، فطالب المعرفة او الباحث يجب ان لا يكتفي باستطلاع ما يفعل اهل التقى وإنما يجب ان يدرك ما يروونه جديراً بذلك الفعل ولماذا . ان معرفتنا للأسلام ، كمعرفتنا لأية ديانة اخرى ، ليست مجرد احاطة أو حتى "خبرة دقيقة بمؤسسته" ، ونماذج من طابعه وتاريخه وانما هي ، الى ذلك ، ادراك ما تعني هذه الأمور بالنسبة الى اولئك الذين يعتنقون هذا الدين .

وأما الأمر الثاني فهو ذلك الشعب الذي لا حد له في كل ديانة كبرى : فالدين ، الى حد ما ، هو كل شيء لجميع الناس ، وطبيعته المستمدة من خارجه ومن ذاته تختلف بالنسبة الى كل عضو من أتباعه حسب ما عنده من استيعاب ورد فعل . ونحن اذا ما نظرنا الى ما وراء الرموز من معان ، لا نستطيع الا ان ندرك ، في تحليلنا الأخير ، أن لكل ديانة عالمية أشكالاً بعدد أتباعها . وأنها الحقيقة تاريخية ، وجوهرية بالنسبة للادراك والتاريخ الديني ، تلك التي تقول انه حتى نفس المواد قد تعني أشياء متباينة لأشخاص مختلفين . والواقع ان الواحد منا يمكن ان يسلم باختلاف آرائهم لو ان النظام قد فقد حيويته ولم يعد له أهميته الدينية . ان الحقيقة التجريبية لكل دين إنما هي فعلاً ما تنقله الينا رموزه حالة إثر حالة (٥) . وليس هنالك من نهاية ، ولا يمكن ان يكون اي تحديد لما قد يضمنني استعداد الفرد الروحي وظرفه وشغفه أو هواه على النظام من تفاسير ، مهما كان التركيز في التفسير أسراً شديداً . وهذا الأمر ينطبق في الاسلام ، بصورة خاصة ، على الحركة الصوفية المتقلبة . بيد أنه ينطبق أيضاً على

أي نظام يعنيه الشرع ليس في القرون المتتالية فمحسب ، بل وفي الواقع بالنسبة إلى قلب كل مسلم .

وانه ليبين أن الإسلام ما كان ليصبح ، عبر القرون ، إحدى ديانات العالم الكبرى الأربع أو الخمس ، إلا لأنه ، كغيره من هذه الديانات ، قد تمتع بما هو عميق ومناسب وخاص لجميع الناس واصنافهم وحالاتهم ، ولكل مكانة ومستند وقدرة ومزاج ووحى .

إذاً ، فالإسلام دين . وهو ، كغيره من أديان العالم ، يطفى على كل تحديد لسبيين اثنين : لأنه من ناحية مفتوح على عظمة الخالق التي لا تحد ، ولأنه من الناحية الأخرى ، ذو صلة بشعب الإنسانية الذي لا يقاس .

ومع ذلك فالإسلام ليس مجرد ديانة . انه ديانة خاصة معينة . انه متميز عن غيره . وهو — شأن الديانات الأخرى — وان كان لا يمكن تحديده ، يمكن ان يتصف بصفات مرسومة . ولنا في حاجة الى الترام الموقف المحيّر الذي يسأل فيه عن أي الأديان أهم ، أو عن الأمور التي تشترك فيها الأديان الكبرى ، او عما بها من أشياء تميز الواحد عن الآخر . ومن الواضح ان فهم كل ناحية في الإسلام متمم لفهم اية ناحية اخرى . ومع توكيدنا على ذلك يمكننا ان نسمى الى ايجاد وصف تقريبي للإسلام . لكن علينا ان نتجنب سهولة الوقوع في خطأ العودة الى الأشكال الخارجية ، والى هيئة النافذة وتكوينها . فقد سبق ان أجرينا الكلام على أن هذه الأمور ليست هي الدين نفسه الذي يكمن في عالم المعاني . ان حقيقة لأسلام هي أنه إيمان خاص حي متجدد مع كل صباح في قلب كل فرد من أفراد المسلمين . وانها حقيقة مميزة أيضاً ، وذلك ما يجب أن نحاول تشخيصه ، وان كنا نذكر اننا في مثل هذا العمل لا نستطيع إلا ان نحذف الكثير من ظلال التنوع ، والكثير من المستنثات ، والكثير من دقائق الأمور ان كلمة « اسلام » المجردة ، التي يأمل الواحد منا في الوصول الى معناها ، هي عبارة عن جوهر مطلق ، والوجه الأصولي لذاتية الإسلام العامة : التي تقارب طبيعة الدين الداخلية فيما لو تجرد من معنى الأشكال الخارجية التي

يأخذ به المسلمون المؤمنون ، اكبر من مجردة من تلك الأشكال نفسها .
ومن المفهوم لدى الغريب أن الخوض في هذا الخضم مغامرة شديدة — ثم أن
الايماز لا بد وأن يكون شيئاً غير تام وغير مناسب ، ان لم يجز ، في الواقع ،
مشوهاً . على أننا ، اتباعاً لاقتناعنا الذي أوضحناه بأن فهم الوضع الحاضر
للمجتمع الإسلامي مستحيل دون فهم الإسلام ، إنما نشعر بوجود قيامنا
بالمحاولة ، مع الاعتذار الصادق للأخطاء التي لا بد من وقوعها ، وأملًا في
أن هذا التفسير غير الكامل قد يكون مساهمة في اتجاه نحو الغرض الصحيح .
هذا وتمشيًا مع رأينا السابق ، سنؤكد بوجه خاص على موضوع الإسلام والتاريخ .
بدهي ان الإسلام ، بالنسبة إلى المسلم ، إنما هو دين الله . وهذا يعني أشياء
جد كثيرة ، من بينها أنه لم يبدأ في القرن السابع للميلاد ، وإنما مع الخليقة على
الأقل ، ان لم يكن قبل ذلك . والله عندما خلق العالم ، أمر بأن تجري قوى
الطبيعة وفق نظام ارتضاه — بصورة مسيرة ممتازة واجبة . وليس لعالم
الطبيعة من خيار الا إطاعة أحكامه الخالدة ، والطبيعة في غضبون انصياعها
لاحكام الله ، تقوم في الوقت نفسه بإيضاحها والكشف عن ملكوته وعنايته
الالهية . وكذلك عن جلاله وعظمته ، لأولئك الذين يؤمنون به . كما وأن
جريان عالم الطبيعة المثالي هو آية من آيات خالقه .

هذا ، وللإنسان كذلك نظام مثالي يتوجب عليه ان يتبعه . فالله من ملكوته
الخالد قد أمر (٦) بالكيفية التي يجب ان يتصرف بها الناس فرادى وجماعة .
فهناك طابع شديد للمسلك الانساني ، وهو الاعتقاد بأن الله هو خالقنا (واليه
الرجوع) وخالق الناس أجمعين . وهناك طريق مستقيم للحياة . ثم ان الانسان
يختلف عن بقية المخلوقات بأنه خلق واعياً وحرراً . وليس ، فيما يتعلق به ،
من اجبار غريزي فطري ، فهو وحده الذي أعطي حق اختيار الموافقة او عنيها
وهناك أيضاً صلاح خالده ، الا أنه غير جبري .

وطبيعي ان هذه الحرية عبارة عن مسؤولية خطيرة هامة . ومن الأصح أن
نقول ان الانسان وحده هو الذي قبل بها . وفي القرآن الكريم آية (س ٣٣ : ٧٢)

يتمثل هذا الأمر بها في روعة وبيان ، حيث عرض الله تلك الأمانة على السموات (أي القوى الروحية) ، والأرض والجبال (أي العالم الطبيعي) فأبين ان يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان . وبذلك ألقى على عاتقه أعباء تسير مصيره بتحدد مدرك واع . وليس هو مجبراً على أن يعيش في كنف العدل كما تعيش الكواكب دائرة في افلاكها ، إلا أنه يحاول .

غير أنها محاولة تتقاعس دونها الاستطاعة والناس لا يستطيعون ان ينجسوا مجتمعهم الانحلال والفوضى إلا إذا عاشوا حياة مستقيمة . بيد أن للإنسان الحرية في ان يختار النهج الأعوج ، وتدمير النظام الاجتماعي كله ، وتحطيمه حين سمعه وبصره . والانسان ، علاوة على ذلك ، نفس خالدة ، ومصيره الفردي في الخلود ، وكذلك مجتمعه على الأرض يتوقفان على إرادته في تكيف حياته هنا ، وحالياً ، على القواعد الرفيعة السامية . وقد أقام الله نظاماً هائلاً للثواب يكافأ به أولئك الذين يقبلون بطابع « الجبرية » فيتمتعون بالنعيم السرمد وراء دنيا الفناء هذه . أما الذين يرفضونه ، ويزدرون بالأمر المعنوي فستقع عليهم كارثة العقاب الذي لا يُحمد ، ولا يردّ وليس له من علاج . إن الإنسان ذروة الخليقة ، وهو فريد المثال ، الآن وإلى الأبد .

هذا ، ولم يترك الله الجنس البشري دون هاد في هذه القضية ، ألا وهي قضية كيف يجب ان يعيش . الأمر عكس ذلك ، إذ ما كاد يخلق حتى قيل له ما هو القانون الخلقى . لقد كان آدم ، حسب التعاليم الإسلامية ، أول « نبي » (أو « رسول ») . ذلك أن الله برأ الإنسان في العالم وسلمه الرسالة فوراً : كذا وكيت يجب أن تفعل ، كذا وكيت يجب أن لا تفعل . هذا صواب ، وهذا خطأ . ان تاريخ البشرية قد بدأ بمعرفة الانسان ما يجب ان يعمل ، لكنه استمر باختراق الانسان في ذلك . والمعتقد ان آدم قد برهن على العصيان ، وأن أبنائه قد أهملوا الرسالة او نسوها أو أضاعوها او زيفوها ، إلى أن جاء يوم لم تعد فيه الانسانية لتعرف النهج . ان اخفاق الانسان في ان يعيش حياة عادلة ، لم يكن مجرد رفض للعدالة ، وانما كان تحبطاً في الظلام لمعرفة ما هي العدالة .

وتخليصاً للإنسان من هذا الشك والقلق ، حلت عليه رحمة الله ، وأنزل إليه الرسالة مرة ثانية . وهكذا كان وحي آخر ، او كشف للإنسانية عما هي المطالبه الخالدة ، وكذلك « بني » آخر اختير للمناداة بالحقائق القديمة من جديد . غير ان الحكاية أعادت نفسها . ومرة أخرى أهمل المجتمع ما جاء به الوحي أو نسيه أو شوهه . وهكذا دواليك — وليس من أحد يعلم كم مرة في التاريخ اختير أشخاص ليذكروا الجنس البشري بالقاعدة السماوية ، وينذرونا بأحوال الأخفاق في قبولها . وجل ما هو معلوم ان اولئك الأشخاص كانوا كثيرين ، ومن شتى الشعوب والأقطار . والواقع انه كان لكل أمة نذيرها ، بيد ان الشيء الجوهري هو ان الرسالة ، رغم تنوع الرسل ، كانت دائماً واحدة (٧) .

ومن بين الأشخاص العديدين الذين كان الله يختارهم بين حين وحين لتبليغ رسالته ، من حفظت لنا أسماؤهم ومنهم من ضاعت . أما من الذين حفظت اسماؤهم فاشهرهم وأهمهم (عند آدم) ابراهيم وموسى والمسيح . وهؤلاء ، كثيرهم من « الرسل » (« الانبياء ») كانوا هم أنفسهم « متقبلين » للأمر الإلهي ، كما أن أتباعهم قد دعوا للقبول . ومع ان دعوتهم لم تكن كاملة النجاح ، الا أنها كانت ذات تأثير إلى حد كبير ، وذات نتائج قد بقيت على الزمان أكثر من نتائج الدعوات السابقة . والواقع ان أتباعهم ما زالوا بيننا بأعداد ضخمة ، وهم يؤلفون اليوم الطوائف اليهودية والمسيحية .

لقد كان دعوة ابراهيم القوية هي التبشير بوجود الله وسلطانه الأوحد . ومنذ عهد ابراهيم لم يحدث ان نسيت الانسانية بالكلية ، ان الله وحده هو خالق الكون . وانه هو وحده الذي يستحق العبادة ، اما عقيدة التوحيد التي نادى بها ابراهيم ، فلم تنطفئ جذوتها ، وأما الآلهة المزيفة ، والأصنام التي يصنعها الانسان فقد ازدهرا ايمان ابراهيم الشديد ، وبقيت مزدهرة منذ ذلك الزمن ، ينكرها قسم من الجنس البشري على الأقل .

وهكذا تمت الخطوة الاولى في طريق بناء التاريخ ، وبقيت خطوات اخرى . أما فيما يتعلق بموسى ، فان أتباعه قد احتفظوا بالرسالة ، واتخذوا الخطوة

الثانية فتقدموا عبر القرون ليضعوا الرسالة موضع العمل . لقد اعترفوا بوحداية الله ، وكذلك قانون الله . لقد أدركوا ، على الأقل ، ان الله قانوناً يجب على الانسان التمسك به . ومع هذا فانهم ، على كل حال ، كانوا بعيدين عن كونهم مخلصين كل الاخلاص في تقبلهم للوحي . ومع توالي الأيام سمحوا (أو تسبوا) بافساد النسخ التي كانت تحفظ نص الرسالة المكتوب . ان « كتبهم » أصبحت غير صحيحة . أضف إلى ذلك أنهم ارتكبوا خطأ كبيراً ، اذ أخذوا يعتقدون أنهم شعب الله المختار - بدلاً من أن يدرکوا أن كلمة الله إن هي الا رسالة عالمية للجنس البشري أجمع .

وشاء الله أن يصلح هذا الخطأ الشنيع ، فبعث في الوقت المناسب برسول آخر هو المسيح . وقد قام أتباعه ، علاوة على ما يتمتعون به من صفات خاصة ، ومن منة حياهم بها الله ، بأدراك الطبيعة العالمية للدين ادراكاً جيداً ، وبتوسيع مجال الجماعة إلى أطراف الأرض بحماس وصدق . وكان المسيح ، بهذه النظرة الإسلامية ، بشراً كغيره من أفراد تلك السلسلة الطويلة الذين اختارهم الله لإعلان كلمته . على أنه كان ، كما يُعترف له بذلك ، انساناً من طراز آخر ، يشهد على ذلك معجزة ولادته من عذراء وصفاته الخلقية التي لا مثيل لها ، ومع هذا كله فهو بشر . ولكن أتباعه ما لبثوا ، لدهشة المسيح نفسه واحتجاجه الصارخ ، ان أخذوا يؤمنونه ، وينسبون إليه وإلى امه تهماً رهيبة ، حتى العلاقات الكفرية الفاحشة مع الله ذاته . هؤلاء الأتباع الذين يسمون أنفسهم « مسيحيين » ، قد ركزوا اهتمامهم طوال العصور وعبر القارات ، على المسيح ، اهمالاً منهم جزئياً لله الذي يحيطون بذلك من سموه وعلاه ، من ناحية ، واهمالاً من ناحية أخرى للنظام الخلقى الكامل . إذ أنهم أحاطوا أنفسهم بالاحترام الشخصي ولكنهم سمحوا بالعدالة الاجتماعية ان تتزلزل تاركين ادارة هذه الأمور الدينية لقوى « علمانية » ليس للمقاييس الأبدية سلطان عليها (٨) . وهكذا ، على الرغم من نهوضهم فرادى ، فقد تركوا التاريخ يسير على هواه ، دون انقاذ . ومرة أخرى أظهر الانسان ضلاله او اخفاقه وتخطئه في رفضه المتواصل أو

تشويهه للرشاد الأسمى الذي واصل الله تقديمه له ، والذي ليس من شيء ينقذه الآله . اننا ، نحن البشر ، لم نكن بجهودنا عاجزين وحسب عن ادراك ما هو الصواب وما هو الخطأ ، ولكننا حتى عندما يقول لنا الله ويرينا ذلك نرفضه ونأباه . وهكذا يترأى تاريخ البشرية ، حتى هذه النقطة ، قصة غير مشجعة . ولكن كان ثمة تقدم ، دون ريب . فبعد الأهمال الكامل الأول لأوامر الله ، أو بالأحرى بعد سلسلة الأهمالات المتكررة ، جاء بالتدريج دور ادراك عظمة الله ، بالمبدأ ، ومن ثم دور انبثاق طائفتين من الناس ، الأولى ، وان كانت محدودة ومنطوية على نفسها ، تعترف بالأوامر الألهية في مبدئها ، وتكرس نفسها لتنفيذها . وأما الثانية فقد أخذت تفهم أن رضوان الله يضم شمل العالم البشري في اسرة واحدة تخضع لحقيقته . ومع ذلك فان كلا هاتين الطائفتين قد أدركت ، كلا منهما حسب طريقتهما ، ادراكاً ناقصاً ، أو من ناحية اخرى قد أساءت فهم مطالب الله على حقيقتها اساءة بالغة . ترى هل سيعجز الناس ، أبداً ، عن استيعاب الرسالة الخالدة ؟ وهل سيعجزون عن العمل بها جدياً ، وعن العيش كما أمر الله الناس ان يعيشوا ، معدّين أنفسهم شخصياً لتلك البركة العظيمة — بركة الاتحاد الخالد مع الله نفسه ، ذلك الاتحاد الذي لم تكن عملية الخلق كلها الا مقدمة له ، والذي سيبقى بعد ان ينقضي امر هذا العالم الفاني — وبانين المجتمع الأمثل ، وعائشين فيه ما داموا على ظهر الأرض ، ومحوّلين التاريخ الانساني الى سجل خال من تكرار الأخفاق ، مليء ، اخيراً ، بالنجاح الرشيد المقدس ؟

ولو جارى هذا السؤال الانسان في حياته لكان الجواب القاطن الدائم وكلاً ، دون ريب . اننا ، نحن البشر ، مع الأسف ، منكبّون على العصيان والخطأ . لكن رحمة الله عظيمة ، ومبادرته دائمة . انه يتقد الموقف بإشارة من عنده ، ويمنح هديه السماوي للانسان . لقد أنزل رسالته متضمنة حقيقته وعدالته ، واختار رسولاً يؤدبها ويفسرها ، ويعيشها باحكام مستقيم ، وسُيّرت خلفه طائفة للمحافظة على الرسالة بصدق ، ولحملها منتصرة الى أطراف الأرض ،

والعمل بكل ما تضمنته من احكام عملية .

في هذه المرة لن يكون خطأ ولا تشويه ولا إهمال . إنها لآخر دعوة حاسمة لعمل الانسان الحق في العالم واحداً . ولم تكن دعوة منفصلة متعزلة ، لا ولا نصاً جامداً للحقيقة السامية . لقد وضحت الحقيقة ، كما قلنا ، قبلاً : فالشيء المهم العظيم البناء في هذه المرة ، إنما كان هو الحادثة مضافاً اليها نتيجتها ، وهي تطبيق الحقيقة ، وتضمينها الحي في التاريخ الانساني من هذا الحد . ولم يكن هنا تكرار لما يريد الله ان يقوله لنا فحسب ، وانما يوجد مجتمع يتطور حول ذلك التكرار ، مجتمع كرس نفسه ، وقد تمسك جيداً بالوصايا التي اوحيت ، لأن يعيش بموجب هذه الوصايا ، وبذلك يأخذ باعادة بناء الحياة البشرية على الأرض . هذا المجتمع ليس بالمقصود على نفسه ؛ انه عكس ذلك يرحب بالخلق كلهم ترحيماً حاراً . بل انه ملتح في دعوة الغير للاشتراك بهذا العمل الأجل الأسمى . وبذلك يكون آخر الأمر مقوماً لما سمح الانسان به أن يكون معوجاً . وهو مجتمع ليس بالمغامر لأنه يسير بتأييد الهي وبركات سماوية . انه مقود باليد الالهية . ثم ان الله نفسه قد وعد جازماً بأنه سوف يكون مع المجتمع لتأييده وارشاده . أضف الى ذلك ان الشرائع التي سلّمت اليه ، والتي سيسير وفقها ، انما هي شرائع سماوية خالدة صحيحة مناسبة . فاذا ما عمل بها في حياته فانه يكون قد عاش منتظماً مع كيان العالم .

إذن بهذه الطريقة جاء الإسلام ، الذي كان منذ الأزل ، الى التاريخ في القرن السابع الميلادي ، وبدأ مجراه النهائي الكامل بين الناس . أما سجل رسالته الوحيد ، الذي حفظ بدقة تامة فهو ذلك الكتاب العربي « القرآن » حيث تتلأأ الرسالة بتمامها ، وفي لغة من الوضوح الصافي والجمال الرائع الأخاذ . والمثال الوحيد لتطبيقه بقوة وجدوى ، كان ذلك الذي حققته تلك الجماعة ممن انضموا إلى بعضهم البعض بقيادة النبي ، وثابروا على السير نحو غايتهم بعد وفاته — أولاً في بلاد العرب ، ثم في اقطار الشرق الأوسط المجاورة ، وبعد ذلك ، تدريجياً ، في موجات متتابعة حيث مدّوا سلطانهم في أنحاء العالم واختلوا على أنفسهم

تنظيم حياتهم ونظامهم الاجتماعي وفق النموذج المقرر .

هذه الجماعة كانت تتألف ، اول الأمر ، من اهل مدينتين اثنتين في بلاد العرب . ثم ضمت عرباً آخرين ، وما لبثت ان انضم اليها اناس من كل أمة ولغة ، وكل جنس ولون ، وكل حذب وصوب - وكانت هذه الجماعة تتميز عن غيرها من الجماعات البشرية ، بأنها قبلت ، بينما غيرها لم يقبل ، الارشاد الذي أوضح وبَيَّن ، وسَلَّمَت بالمخطوط الألهي ، وأسلمت أمرها الى الله ، ولذلك عُرِفَ أفرادها بالمسلمين . وبظهور هذه الجماعة ظهر الإسلام كمحركة عالمية تترجم الفكرة الى عمل منظم متواصل . وهكذا بزغ فجر عهد جديد في تاريخ الإنسان أما السنة الأولى لهذا العهد الإسلامي - ١ هـ (٦٢٢ م) - فليست سنة ميلاد محمد (كما هو الحال عند المسيحيين) ، او حتى السنة التي بدأ يهبط فيها عليه الوحي ، وإنما هي السنة التي بلغت فيها تلك الجماعة الإسلامية الناشئة السلطة السياسية . فالنبي واتباعه القلة ، كونوا لأنفسهم بعد هجرتهم من مكة الى المدينة ، مجتمعاً مستقلاً (٩) ، وهكذا بدأ التاريخ الإسلامي .

ولو افترضنا ان العرض السالف قد نجح موضوعه في تقديم نظرة المسلمين (بإيجاز تفسيري) ، أمكننا ان نتقدم أيضاً بعرض آرائنا الخاصة . ولهذا سنضيف إلى ما تقدم من عرض آخر تحليلاً وتعليقاً ، ونحاول سبر أغوار ما تتضمنه تلك المعتقدات كما نراها . والآن نجد أنفسنا مستعدين لتسوية او ايضاح تأكيدنا السابق من أن المجتمع والتاريخ عبارة عن أمر « خاص » بالنسبة إلى المسلم : فهو ينظر إليهما ، على غير نظرة الآخرين ، كأمريين لهما أهميتهما الدينية . فالقرآن في عيني المسلم كتاب « مقدس » طبعاً . ولا يذهب الواحد منا شططاً إذا ما قال ان مجتمعه وتاريخ هذا المجتمع يشاركان أيضاً في صفة القداسة (١٠) : فهناك مجتمع أخذ على عاتقه ، بوضوح ، أن يعيش وفق مرسوم الله . ومنذ ان كان الإسلام فان معنى أن تصبح مسلماً هو ان تنخرط في هذا المجتمع ، وتشارك في العمل حسب ارادة الله ورضوانه (١١) على الأرض . وانه لمسعى لا يقل أهمية بكثير عن الوحي . ثم ان الحق في المشاركة بهذا المسعى وواجبه

القيام به ، والتجربة فيه عبارة عن امور جوهرية في عقيدة المسلم .
والانسان في هذا الاتجاه يقرب من الله (١٢) او أن مصير الانسان ، يكتمل
بقدر ما يكون عمله قريباً من الصلاح . والصلاح يجب ان يذكر هنا بأنه سبيل
الحياة التي تعتبر ان القرآن هو الوحي ، والمجتمع الإسلامي هو التعبير . ان
الانسان يقرب من الله اذا ساهم بالمغامرة الإسلامية ، وهي محاولة المجتمع
الإسلامي التاريخية لتحقيق مملكة الله على الأرض .

ان كل دين يعين له في هذا العالم عنصرأ يكون واسطة بينه وبين العالم الثاني .
وقد نذهب بعيداً عندما نقول ان التاريخ ، وحتى التاريخ الإسلامي ، هو
الواسطة للخلود بالنسبة للمسلم . ومهما كان الأمر فان ذلك يمكن ان يقال .
فالغريقي كان يرى أن الحلقة بين الانسان المحدود وموضوع الأشياء المطلق
هو العقل . فالرجل بواسطة نهاه يساهم في الحقيقة المطلقة طالما كانت أفكاره
صحيحة . وأما للمسيحي فإن الحلقة موجودة في شخص المسيح . وأما للمسلم
(وللتقليد الديني السامي عموماً) فان الواسطة بين الانسان وبين الله هي الفضيلة .
فالانسان لا يلتقي مع الله الا بالمسلك الخلقى الفاضل . وكلمة الله الخالدة هي
الآمرة الفاصلة :

قبل زمن النبي ، كان الإسلام — او بكلمة أدق مبادئه ، وهي الشرع ،
او دستور الإسلام الجوهرى ، او خلاصة كلمته الفاصلة — موجوداً كقاعدة
علوية سامية . وكانت الكلمة مع الله (١٣) . ومنذ ذلك الحين ، من الناحية
الأخرى ، قد لا يكون كفرأ ولا تضليلاً قولنا للمسلم ان تلك الكلمة قد
اتحدت (١٤) بالجسد في التاريخ ، وانها « سكنت بيننا » :

وحتى لو لم يذهب المراقبون الى هذا الحد ، فقد لاحظوا مكانة المجتمع
العظمى في الإسلام . أما أهمية التاريخ الإسلامي فقد حظيت باهتمام فكري
أقل ، والتاريخ الاسلامي هو ذلك المجتمع وهو في حالة الحركة . ومن المعروف
جيداً أن المجتمع الإسلامي يتمتع بتراس متين ، وان ولاء أفراده وتماسكهم
شديد . ولقد أدرك الكثيرون ان المجتمع ليس عبارة عن مجموعة اجتماعية

فحسب وإنما هو كذلك كتلة دينية ، أي ان « الكنيسة والدولة » شيء واحد ، ذلك اذا ما جاز لنا ان نستعمل التعبير الغربي غير المناسب في هذا المقام . قلنا باستطاعتنا ان نوغل أكثر في سبيل تفسير ذلك ، بيد أن التأكيد على هذه الحقائق وعلى مركزية المجتمع لا يعني انكار تأكيدنا الاولية على ان الدين أمر خاص ، وإنما يعني تفسيرنا لتلك التأكيدات . فالمجتمع يقوم على الايمان الفردي ، كما انه مكمل له .

إن المجتمع الإسلامي ليس متحداً وحسب (كغيره من المجتمعات) بالاخلاص المشترك والتقاليد ، وبنظام دقيق من القيم والمعتقدات ، وليس هو نتاج مثل رابعة . انه ينبض بحياة اعتقاد شخصي عميق ، اعتقاد ديني حار مليء بالمعاني بالنسبة الى العضو الفرد . ويمكننا ان نقول ان هذا المجتمع ، او هذه الطائفة ، هي عبارة عن مثل دينية ، مستخمين كلمة « دينية » بالمعنى الشخصي (١٥) الذي ارتأيناه سابقاً . وكما ان العقيدة او النظام اللاهوتي — كما هي الحال وخاصة عند المسيحيين — يمكن ان يكون تعبير الايمان الشخصي بشكل نظري ، كذلك النظام الاجتماعي واعماله عبارة عن ايمان المسلم الشخصي بشكل عملي . وكما ان كون انسان شيعياً (١٦) يعني انه منضم إلى الحزب ، كذلك اعتقاد المسلم الديني يشمل مساهمته في المجتمع . وثمة تشبيه آخر غير ذلك وهو كما ان كون انسان ما انجيلياً او لاتينياً يعني كونه عضواً في الكنيسة كذلك فان خبرة المسلم الدينية هي عبارة عن خبرته في المجتمع .

ان العضوية في المجتمع ليست أمراً يتميز عن الاسلام الشخصي او يزيد عليه ، لا وليست مجرد أمر ناشئ عنه ، وإنما هي وجه من وجوهه . هذا ، وطابع الايمان الإسلامي الاجتماعي العملي الفعال — وبكلمة اخرى تضمين هذا الايمان لعمليات التاريخ — يمكن ان يوضح في اماكن عدة . فالخلاص في الاسلام ، كما هو معترف به ، كائن بالايمان لا بالاعمال (١٧) ، بيد أن هنالك ايماناً في صلاح الأعمال . وهناك ايمان بالله وفي التزام ما أمرنا به (١٨) وليس نجاة المسلم ، في النهاية ، بما قام به من اعمال حسنة ، وإنما

بادراك أنها أعمال حسنة وجب عليه ان يقوم بها .

ولذلك نرى ان الاختلافات التي ظهرت في الإسلام قد عُنيت بما هو حسن أكثر من عنايتها بما هو صحيح (١٩) . لقد اختلفت الملل والنحل في الإسلام فيما بينها بالقضايا العملية أكثر من المسائل الفكرية اللاهوتية . ويرأى لنا أنه لا توجد في اللغة العربية او في أية لغة اسلامية كلمة تعني « ارثوذكس » - صحيح المعتقد - فالكلمة « صُنِّي » التي تُترجم عادة بكلمة « ارثوذكس » إنما تعني فعلاً « اورثو براكس Orthoprax » - صحيح العمل - اذا جاز لنا ان نستعمل هذا التعبير (٢٠) . ان المسلم الصحيح ليس هو ذلك الذي يحتاج ايمانه مع قاعدة معينة ، او ذلك الذي يمكن ان يوضح التزامه بتعابير عقلية موافقة لبيان مقبول (كما هو الحال في المسيحية البروتستانتية عموماً) ، ولكنه ذلك الذي يمكن ايضاح التزامه بامور عملية تتفق مع دستور مقبول . هذا ، ويقابل « المرطقة » الفكرية عند العقليين في المسيحية كلمة « البدعة » في الإسلام (وهي التي يمكن ان تترجم الى الانجليزية بكلمة deviation - اي انحراف او مروء أو ضلاله) .

وتمثل اختلافات الملل نقطتنا تمثيلاً جاهزاً في قضية المذاهب الشرعية . وهنا ، في هذا المستوى نرى التشعبات ضئيلة نسبياً ، الى ان نصل إلى صميم المسألة عند التصنيف الستى - الشيعي الكبير في الإسلام وهو الذي نشأ من الخلاف في كيفية وجوب تنظيم المجتمع ، وطراز القيادة فيه . أما المناظرات الدينية الرئيسية في الاسلام فقد عُنيت ، بصورة رئيسية ، بالاتجاه الذي يجب ان يسير فيه مجرى التاريخ (٢١) .

ولقد قلنا ان التاريخ عبارة عن المجتمع وهو في حالة الحركة . ويتصل بذلك ان الفرد يجب ان لا يخرج عن الركب ؛ يجب ان لا يتقلب مارقاً ، وقيادة المجتمع تكون مسؤولة عن ان ترى سائر الركب عارفاً بالاتجاه الصحيح ومتبعاً له . ولكي يكون عارفاً ، هنالك هيئة « العلماء » و « المفتي » (علماء الدين) أما لكي يكون متبعاً فهناك ، من وجهة مثالية ، الخلافة (الأمامة) . ان

المواضيع التي هي تحت البحث تكون عادة بسيطة لكن مبدئياً وفي التحليل الأخير ، يتجلى شعور بأن السؤال الاسلامي الاسامي هو ما هو الشكل الذي سيتخذه التاريخ الاسلامي ، ذلك بالرغم من ان القضية لم توضع قط بهذه التعابير . واخيراً يمكن أن نلقي ضوءاً على علاقة الإسلام بالتاريخ إذا ما وضعنا مقارنة بينه وبين ثلاث فلسفات عالمية كبرى : الهندوسية والمسيحية والماركسية . وطبيعي ان الأمر يحتاج في كل دراسة من هذه الدراسات الى احكام ودهاء ، فلن نحاول هنا الا تلميحاً مبسطاً جداً وبصورة عامة . ونحن باهمالنا التعقيدات يمكننا ان نرتب ممثلي هذه المذاهب الواحد بعد الآخر كما يلي : الهندوسي - الذي ينظر الى التاريخ ويعتبره غير ذي اهمية على الاطلاق . والمسيحي - الذي يعتبر التاريخ هاماً ، ولكن ليس حاسماً ، والمسلم - الذي يعتبر التاريخ حاسماً ولكن ليس بالأمر النهائي . والماركسي - الذي يعتبر التاريخ الكل بالكل .

ان التعاليم الهندوسية ، خاصة ، ذات مناح عديدة ، ولكننا في سبيل الايضاح ننفرد ببعض العقائد ذات الخصائص المعينة . هنالك في الفكرة التي تدعى « كرمًا » تعطى للتاريخ أهمية دينية ، أو على كل حال ، معنوية ، بيد ان النجاة تكمن في التخلص من ذلك . فالتاريخ (سامارا Samara) بالنسبة للهندوسي يجب ان يتخطى . والواقع أن هذا العالم وكل عمل فيه ، ما هو الا « maya » . وقد ثارت الاحتجاجات على ترجمة هذه الكلمة بمجرد كلمة « وهم » ، بيد ان العالم الملموس وتطوره الزائل يقيان حجاباً تخترقه البصيرة الدينية إلى ما وراءه من حقيقة جامدة .

ونظرة المسيحي للتاريخ فيها تناقض ، إذ انه يراه اساسياً وغير اسامي معاً . ان اهميته متواصلة ، لكنها ليست نهائية ولا حاسمة . وقد كان عمل الله في التاريخ باتاً ، أما عمل الانسان بعد ذلك فيوجب ان يكون نتيجة الايمان ، لا مقياسه ولا حتى مسرحه . ثم ان التفضيلة تفيض من الخلاص لا اليه . وعليه يكون التاريخ هو ميدان المحاولة المسيحية ، وله غاية مقدسة . وهو الى ذلك ميدان خطيئة البشر ، ولذلك فان تلك الغاية خائبة دون رحمة . ولهذا يأمل

المسيحي في محاولته التاريخية بالفران لا باليوتوبيا ، او مثوى الكمال :
وفي هذا الصدد يمكننا ان نلفت النظر إلى الحقيقة الهامة المثيرة وهي أن فكرة
« التاريخ الإسلامي » موجودة دائماً . وليس هنالك بالمعنى الكامل شيء اسمه
التاريخ المسيحي ، كما أنه لا يوجد بالتأكيد تاريخ هندوسي . هنالك تاريخ
الهندوس ، وتاريخ البلاد المسيحية ، ويوجد حتى تاريخ الكنيسة المسيحية ،
ولكن هذه الأسماء تختلف عن بعضها البعض . وذكروا رينهولد نيور وغيره
دائماً بقوة ، بأن التاريخ لا يمكن أن يكون مسيحياً بالكلية . وهم مستمرين
في القول بأن أوله الانسان إقامة مملكة لله على الأرض ، اي بناء نظام اجتماعي
عادل منسجم متواصل الازدهار ، آملاً ، في النهاية ، ان التاريخ نفسه يمكن
ان يصلح ، انما هي أوله جنون — كما أنها لا بد وان تكون فاشلة . وحتى
اولئك الذين يعتقدون بان مسحة التاريخ اقترح عملي وهدف معقول ، يعرفون
بأن ذلك لم يعمل بعد ، فهو شيء مثالي جدير بالجهاد في سبيله .. شيء صالح
للمستقبل اذ لم يبدأ بعد تاريخ مسيحي حتى بالنسبة للمقاتل .

ومع ذلك فالمسيحية ترى في التاريخ البشري الذي قد بدأ قبلها بزمان طويل
امراً جديداً ، ذلك التاريخ الذي ينغم فيه المسيحي ، كغيره ، ويجب ان ينغم .
ان الصليب يضيء أعالي الطبيعة الانسانية وأعماقها ، ويكشف فوراً عن المحبة
والشر اللذين يتألف التاريخ في حد ذاته منهما . وهو يمثل لنا الأبعاد المطلوب
الينا قطعها ، وكذلك الخيبة التي أنلرنا بتوقعها ، وذلك لفضائلنا الذي تعلمنا ان
نلوكه . وعليه فان أهمية العملية التاريخية لا تكمن في كمية ما نعمل وننجز ،
ولكن في كمية ما نكرس من محبة . أما واجب المسيحي ، لأنه مسيحي ، فهو
محاولة ان ينقل الحضارة ويحسنها ، وافقاً حياته ، او مضحياً بها عند الحاجة ،
في الجهاد المرير من اجل ان يقارب التاريخ العدالة ، ومن أجل حياة أفضل
واكمل تتوفر للجنس البشري كله . بيد أنه واجب من واجبات المسيحي أيضاً ،
لأنه مسيحي ، ان يفكر ويتبصر برصانه في امكانية الاخلاق . وليس التصرف
الأميركي العصبي ازاء التهديد الحالي للحضارة الغربية الا قياس مشوش للحد

الذي استبدل به المذهب المسيحي بمذهب آخر في طريقة الحياة الأميركية :
بدعي أن الإسلام لم يكن، حتى في أكثر اشكاله الشرعية تزمناً، من عباد
الشخصيات . والواقع ان الاهتمام لم يوجه الى هذه الظاهرة العالمية القيمة ،
فالانغماس في التاريخ ، بالنسبة للمسلمين ، وان كان انغماساً كلياً ، الا أنه
وجه واحد له كتقدم وجه آخر مصقول وضاء ابريزي ، وهو في العالم الثاني .
والإسلام يبتدئ بالله ، وهو يعرف تماماً أننا اليه راجعون . أما محاولته لاصلاح
التاريخ فهي ، وان كانت محاولة مجموعة ، الا أنها في نفس الوقت محاولة
متفرعة . انها محاولة لربط الفضيلة الموقنة في هذا العالم ، بالنجاة الأبدية في
العالم الثاني .

ونرى الأهمية العميقة في هذا الأمر تتجلى ، جزئياً ، بالتباين الشديد هنا
مع مثالننا الرابع : الماركسية . ويلو في نواح أخرى ان بين الاسلام والماركسية
في اتجاههما نحو التاريخ - وهما المحاولتان العالميتان الكبريان لانجاز مثل أعلى
اجتماعي - من المشاركة أكثر مما بين اية ديانة أخرى مع الماركسية ،
باستثناء ضريب الإسلام ، اليهودية . ومع ذلك فالتباين واضح كما ذكرنا .
والواقع اننا نستطيع ان نجد ضوءاً في هذه المقابلة نلقيه على مسألة الاختلاف
القاطع الذي وجد بالتاريخ لأمر خارج عن التاريخ .

ان الحركة الماركسية ، يمكننا ان نعتبرها حتى الآن أضخم وأعند وأنظم
وأوضح محاولة في تطور الانسان ، لبناء مجتمع خيّر ، ولضبط التطور التاريخي ،
مع تحقيق حلم عن حياة المجتمع الانساني وكيف يجب ان تكون (٢٢) :
والماركسية تتميز عن الديانات ، بطبيعة الحال ، باهتمامها الشامل بهذا العالم
الأرضي . وهي تتميز ، كذلك ، عن الحركة الانسانية الغربية ، وعن قوة الزخم
في حركة التحرير الدنيوية ، وفي الثورتين الفرنسية والأميركية ، بعملها الشديد
الشامل ، وتركيزها الكلي على تحقيق هذا الطموح . انها تضع كل بيضة اخيرة
في السلة التاريخية ، اذ ليس من شيء مهما كان امره ، يهجم الا نوع التاريخ
الذي سوف يتطور بل مرسوم له ان يتطور بعزم وتصميم . وبمفهومها ليس

للحياة الانسانية من معنى او قيمة او حقيقة غير معناها كأداة في العملية التاريخية المتواصلة ، او كمساعد لنوع التاريخ الذي يُحصل عليه غداً او كمقبة في سبيل هذا النوع . الأهمية الوحيدة للفرد في الماركسية هي أنها وسيلة لغاية أو لما لها من علاقة بتلك الغاية ، وعلى كل حال ، فهي غاية ضمن التاريخ ، يعرضها لنا التاريخ. هذه هي في الماركسية الأهمية الوحيدة للفرد نفسه وللآخرين. ويتبع هذا منطقياً ما تبع تاريخياً وايدته الحقائق المراثية ، ونعني أنه لا يوجد بالنسبة الى الماركسية سبب (نظرياً ليس هناك من سبب : فعالنا هو طراز من العوالم ، كما تدل الحركة ، لا يمكن ان يكون فيه سبب ظاهر) لعدم قتل انسان او تعذيبه او تسخير ه ، إذا كان القضاء عليه ، او تعذيبه او تسخير ه الجباري يدفع بالعملية التاريخية الى الأمام .

إن هذا ، في الواقع ، هو النتيجة المنطقية لكل انكار للسمو . ولقد تجنبت حركات الانكار غير الماركسية في الغرب حتى الآن ، تلك النتائج التاريخية المفزعة ، لأنها كانت أشفق منطقياً ، وأقل شمولاً . تلك الحركات لم تأخذ الأمور بصورة جدية خطيرة ، ولم تفرض نفسها بنوع خاص على الآخرين ؛ ان ديوي والعلماء الاجتماعيين ، ايضاً ، قد أنكروا الميتافيزيقيات والعالم الثاني ، بيد ان هناك « طرفاً ثقافياً » هاماً أنقذ الغرب ، لحسن الحظ ، من نتائج مذهب العملي (براجماتزم) التكنولوجي السيئة . أضف الى ذلك أن العلمانيين غير الماركسيين يؤكّدون على أهمية الفردية . وانه لتوكيد على الجزء لا على الكل من وجهة نظر التطور التاريخي . وكذلك لو كانت نظرتنا لطبيعة الفرد ، ولطبيعة العالم صحيحة أبداً ، لكان رغم انوفهم توكيداً على سمو . فالسبب الذي يردعنا عن قتل جيراننا او تعذيبهم او تسخيرهم ، حتى لو كان ذلك من أجل قضية مجدية ، ان هو ، كما يؤكد الماركسيون ، الـ "سبب قائم على حقيقة ميتافيزيقية او دينية او غير تاريخية . انهم مصيبون في هذا التأكيد . وتوكيدنا بأن للشخصية الانسانية صفة لازمنية ، وان لها قيمة ذاتية ، وان لا قيمة ذاتية لها ، انما هو من بعض الوجوه ، ومهما اختلفت الغايات ، ومهما يكن الغد ، وبالنسبة الى الظروف.

اليوم - انما يعني التأكيدنا هذا على ان معنى الوجود كله وطبيعته لا تتضمنه العملية التاريخية .

هذا ، وكنا قد شددنا على أن التاريخ مهم بالنسبة للمسلم . ولكن بالنسبة للماركسي فالتاريخ وحده المهم ، واليون بين هذا وذاك شاسع كبير . ثم ان ما يحدث هنا على ظهر الأرض بالنسبة للمسلم ، شأنه في ذلك شأن الماركسي ولكن ليس شأن الهندوسي ، لأنها هو ذو أهمية كبيرة لا مفر من اعتبارها . ولا ريب ان اقامة حياة مجتمع مناسب على الأرض ليس الاً أمراً سماوياً . وقد كان المسعى الإسلامي لذلك أهم وأخطر محاولة انطلقت الى الأمام لتحقيق العدالة بين الناس ، وكانت حتى ظهور الماركسية أضخم المحاولات وأشدّها طموحاً . بيد أنها تختلف عن المحاولة الماركسية في ان الإسلام يعتبر كل حادثة دنيوية انما لها مرجعان وتوجد في سجلين . فلكل حركة يقوم بها الانسان مصيران مصير خالد ومصير فان موقت . ثم ان زحف الشؤون الدنيوية عبارة عن دراما جماعية كبيرة لعمل المجموع ، وهو في نفس الوقت حلقات من مشاهد منفصلة يحاسب الانسان في يوم الدينونة على كل مساهمة شخصية فيها . ذلك ان لكل عمل نتائج من نوع ما في هذا العالم ، ونتائج من نوع آخر في العالم الثاني ، وبكلمة اخرى يجب ان يكون لكل عمل ثمن في حد ذاته ، وكذلك الأمر في علاقته مع التطور التاريخي .

ويستطيع مفكروما وراء الطبيعة ، الميتافيزيقيون ، ان يقولوا بأن هذا الطراز من الأحكام يقارب الحقيقة الموضوعية لهذا العالم الذي نعيش فيه ، وهذا الكائن الذي هو المخلوق البشري ، وهذه الحياة التي يتألف منها التاريخ في معيشتنا ، أكثر من اية نظرية ذات وجهة واحدة ، تنكر الفضيلة التي تسمو بالجران الموقت في هذه الدنيا . ان للتاريخ معنى ، معنى نهائياً ، لكن معناه لا ينتهي او يستنزف ضمن ذاته ، فهناك قواعد ومقاييس تهيمن على العملية التاريخية فلا تقدر هذه العملية وبحكم بشأنها الاً وفق تلك القواعد والمقاييس . ومهما كان موقف الميتافيزيقيين ، فان المؤرخ التجريبي يمكنه ان يعطي

النقيض التاريخي الديني لهذا الرأي المنطقي . ومعلوم ، نظرياً وعملياً ، ان الذين يبدأون بإنكار السمو ينتهون بإنكار القيم . فالعقيدة الماركسية سمحت لنفسها ، في الواقع ، ان تكون ضمن حركة ليست الواسطة فيها ، بالنسبة الى أي مقياس معروف ، غير اخلاقية فحسب ، وإنما الغاية نفسها قد ضاعت كذلك . ان « العدالة الاجتماعية » التي قام الماركسيون في البدء لتحقيقها ، قد أصبحت في ايدي المنظمة السوفيتية العملية ، مجرد فكرة تاريخية ، وملاح عقائدي لخدمة اهداف السلطة الدينية التهلستية (اللاشيتية ، او السلبية ، او التي تنكر شقى المذاهب والمعتقدات المعروفة) . لقد آلت الحركة الماركسية ، بإنكارها القواعد الخارجية التي يمكن ان يحكم بها عليها ، الى حركة او مسعى غير ذي قواعد بالمرة . وهكذا نرى ان هذه المغامرة العالمية ، سعياً وراء العدالة ، ما لبثت ان انقلبت الى محاولة حريفة مرة .

ان هدفنا هو ، ببساطة ، ايضاح نوع المسلك الاسلامي للتاريخ الذي ينبثق من تأكيد ذلك المسلك للمرجع السماوي في كل خطوة من خطوات العملية التاريخية . وقد كان ذلك ضماناً لكي لا تنقلب الحركة الى محاولة مرة طوالت استمرارها في التاريخ ، وضمناً لذلك الاستمرار نفسه الذي مضى عليه حتى الآن قرون عديدة . ان تأكيد الاسلام على المرجع السماوي قد تمثل بفكرة النعيم والجنيم في العالم الثاني « بعد » انتهاء التاريخ . وقد تسلطت هذه الفكرة الدرامية الزاهية ، بالحاحها المتأرجح بين الضعف والشدة ، على مجرى التطور التاريخي للمسلمين كله . ولقد سعى المسلمون ، جماعة وافراداً ، الى الفردوس وراء هذا العالم ، والى طراز من المجتمعات ضمن التاريخ ، صالح كما يعتقدون لاعداد الشخص لدخول ذلك الفردوس ، وفي الوقت نفسه يصلح المظهر الديني ذاته . وبكلمة اخرى يكون هذا الطراز صالحاً للفرد في العالم الثاني وللمجتمع في هذا العالم . وقد شارك المسلمون المسيحيين الاعتقاد بأن العالم الثاني ، هو في التحليل النهائي ، اقل أهمية ، ذلك أنهم اعتقدوا بان مجرى التاريخ في مجموعه ، اقل أهمية في النهاية من كنه الحياة الشخصية للانسان . بيد أنهم قاربوا الماركسيين في اعتقادهم

بأن مجرى التاريخ والشكل الاجتماعي الذي يمكن ان يتخذه لنفسه مناسبان لكنه الحياة الشخصية فيه ؛ وبأنه يوجد اتحاد فطري بين بنيان هذا العالم واتخاذ مجرى مناسباً وشكلاً اجتماعياً صحيحاً ، وبأن معنى التاريخ يكمن في الحد الذي تتحقق عنده هذه الأمور ؛ وأخيراً بأن اولئك الذين يدركون قوانين تلك الأمور الجوهرية ، ويرضون بتحمل المسؤولية في غمار هذا كله ، هم الذين يعهد اليهم بالقيام بالتنفيذ، وبالسير بالتاريخ الى غايته الزاهية البراقة الحتمية (٢٤) هذا يكفي فيما يتعلق بنظرية التاريخ الإسلامية (٢٥) . والآن لنلتفت لحظة الى النظر في الناحية العملية . أما الأمران ، ففي طبيعة الحال ، متداخلان . ان المجرى الحقيقي لتطور المسلمين التاريخي ، وخاصة في عصوره الأولى ، قد أثر تأثيراً كبيراً في الفكرة التي أحسوها عن هذا العالم ودور الإسلام فيه . أما أصل هذه الفكرة فموجود في القرآن ، وأما العقيدة بكاملها فتنتاج اولئك الرجال الذين درسوا القرآن من ناحية الوضع التاريخي الخاص الذي وجدوا أنفسهم فيه ، وبضوء كللك من التاريخ الإسلامي الذي تصرّم عليهم . ولا ريب ان فكرة التاريخ التي يتضمّنها الاسلام قد أثرت تأثيراً شديداً في مجرى حياتهم الدنيوية ، (وستواصل هذا التأثير) . ولا يقل عن ذلك تأكيداً أن مجرى حياتهم قد أثر أيضاً في فكرة التاريخ .

والواقع ان الحقيقة والعقيدة قد أثرا في بعضهما الى حد أننا يجب ان نوكد مرة ثانية ميوعة فكرة التاريخ هذه وشمولها ، وتنوعها من قرن الى قرن ، وحتى من شخص الى شخص . كذلك يجب علينا ان عرضنا او عرض اي انسان لهذه الفكرة ، ان هي على خير ما تكون ، الا خلاصة عامة ، او اقتراب من الطابع الكلاسيكي . ومع ذلك فان الفكر ، وان كانت تحمل علامات من المحيط الذي ولدت فيه ، وثمهم بصور تتصل بالمحيط الذي تفسر فيه ، الا ان لها حياتها وقوتها الخاصتين بها . وهذا ينطبق جيداً على الفكر الدينية التي تخرج باقتناعها ومثابرتها في الزمان والمكان عن البيئة الاجتماعية الأصلية التي ارتبطت وما تزال ، طبعياً ، مرتبطة بها . وعليه فان التاريخ الحديث لاي مجتمع ديني يجب ان يفسر

فقط بصورة تجمع بين وضعه المعاصر ، ومثله الموروثة .

وانه ليعنينا في موضوعنا هذا ان نبين في الوقت المناسب ، هذه النقطة فيما يتعلق بالمسلمين ، وهي ان كلا من حالتهم الدينية اليوم ، وامكانياتهم الدينية وغيرهما مما يعدّون للمستقبل ، انما له علاقة بقوة الشد بين ما يلي - ادراكهم لما هو التاريخ الاسلامي اساسياً ، من ناحية ، ووعيهم لما هو تاريخهم الحقيقي كما يبدو اليوم من ناحية اخرى .

وتعتبر قوة الشد هذه جديدة في درجتها الحاضرة . ففي الماضي ، وخاصة في الماضي الكلاسيكي ، كان المسلم يستطيع ان ينظر الى عالم كان فيه الجوهر ووجود الاسلام اقرب الى بعض . وكانت الحقيقة الدينية التي علمه مذهبه أن يعتقد بها ، والحقيقة التاريخية التي كان يرى نفسه محاطاً بها تراءيان له في تعادل معقول (٢٦) .

وكان لتاريخ صدر الاسلام على هذه البسيطة طابع بارز وهو النجاح بين الواضح . وهذا نقيض تام لطبيعة التاريخ المسيحي وللتاريخ الاسلامي المتأخر . فالعصور الاولى ، عصور التكوين للاسلام ، كانت عصور عمل زمني وروحي ، وكانت عهد فتح وتآلق ، حيث انطلق المسلمون منتصرين يفتنون الاقطار المجاورة ، فانهارت امامهم الامبراطوريتان الفارسية والرومية . وقد امتد المجتمع الجديد فانتشر وازدهر واصبح مجتمعا عظيماً وقوياً يؤثر في عمليات الاشراف على الملك الواسع . وهكذا ما لبث الاسلام ان ألقى على نفسه مسؤولية الاشراف على نظام جديد يمتد من جبال البرنس الى جبال هملايا ، وهو امبراطورية أضخم من الامبراطورية الرومانية في ابان اتساعها . وتلا ذلك السلطان السياسي غنى وتقدم ثقافي واجتماعي .

كان هذا النجاح شاملاً ومثيراً ، وكما قلنا سابقاً ، لم تربح هذه المحاولة القوة وحدها فحسب ، وانما ربحت العظمة كذلك . فبالأضافة الى السيادة الاقتصادية والسياسية التي حققها المجتمع الاسلامي بسرعة فائقة ، فقد حملوا الفنون والعلوم الى أجواء جديدة . والحقيقة ان جيوش هذا المجتمع كانت تربح

المعارك وكانت قوانينه تطاع ، وصكوكه المالية تقبل في اي مكان ، وكان فنه المعماري رائعاً أخذاً ، وشعره سحراً ، وعلمه ضخماً وعلومه الرياضية جريئة مقدامة ، وتكنولوجياه نافذة مؤثرة .

أضف إلى ذلك ان النجاح كان نجاح اسلام خلاق مسؤول . فهؤلاء الذين فتحوا القدس والشام ، ووادي النيل ، وارض الرافدين ، وشمال افريقية واسبانيا من ناحية ، والذين فتحوا أواسط آسية حتى وصلوا الهند من ناحية ثانية ، لم يبرهنوا على أنهم أصحاب ازدهار فحسب ، وانما برهنوا على أنهم أصيلون بناءون أيضاً . لقد أوجدوا للعالم حضارة جديدة . لقد نهض فيه مجتمع جديد عظيم على أسس لغوية وشرعية جديدة ، كما قام كذلك على أسس اقتصادية وإدارية حديثة . وكان ذلك كله بفضل جهدهم وإرشادهم اللذين يعتبران ثمرة من ثمار روحهم الوثابة القوية .

وكان النجاح الى ذلك كله دينياً . فالذي حققه المسلمون كان بالنسبة إلى إيمانهم جوهرياً . أنهم لم يكونوا متصربين في ميادين الحرب ، وذوي أثر فعال في حقول شتى من حقول الحياة فحسب ، بل أنهم نجحوا ، وفي فترة قصيرة نسبياً ، في جعل الحياة كلاً تتألف منه تلك الحضارة . وقد اشتركت عناصر عديدة في خلق الحضارة الإسلامية : عناصر من شبه الجزيرة العربية ، وعناصر هلمينية ، وعناصر من ثقافات الشرق الأدنى القديم السامية ، وأخرى من إيران الساسانية ، وأخرى من الهند . وقد صهر المسلمون ذلك كله في بوتقة واحدة ، ثم طوروه بعد ذلك الى حضارة جديدة . وكان الاسلام هو الذي ساعد في تجميع هذا الأمر ، وكان الدافع والقوة وراء صيانه والمحافظة عليه . ولقد أعطي الشكل الإسلامي لكل ناحية من نواحي الحياة مهما كان الشيء الذي تنطوي عليه . وكان الطابع الإسلامي هو الذي أعطى المجتمع صلابته وحيويته . أما مركز هذه القوة الموحدة فكان الدستور الديني الذي نظم ضمن تياره القوي المحكم كل شيء من شعائر الصلاة الى حقوق الملكية . وقد منح ذلك الدستور الوحدة للمجتمع الإسلامي من قرطبة الى الملتان ، كما منح الوحدة أيضاً الى المسلم

الفرد ، بمعنى ان نشاط حياته كله قد تنظم في كل معقول يهيمن عليه هذا الطابع الديني المقدس . وكان ، كذلك ، قد أعطى الوحدة في الوقت المناسب ، ومدّ المجتمع بقوة الاستمرار ، حيث كانت الأمر الحاكمة تنهض وتسقط ، فتعتبر حوادث هامة في مجرى المحاولة الإسلامية لبناء طراز من النظام الاجتماعي على الأرض ، ذلك النظام الذي يفرضه الأمر الإلهي .

والنجاح الباعث على الرضى الذي أصابه ذلك المسعى الإسلامي ، لا بل المسعى نفسه يتباين مع المسعى الدنيوي المقابل الخاص بالمسيحيين الأوائل . فقد انزل دينهم على عالم منظم . وقد مضت عصور تكوينهم تحت سلطان حاكم ليس من حكاهم . وكانت المسيحية تعمل ، لوقت معين ، وإلى حد كبير ، كدين للعصر الكادح (البروليتاريا) في الامبراطورية الرومانية ، بينما كان الإسلام الناشئ المتولد ، في الواقع ، دين الطبقة الحاكمة المباشرة ومبرر وجودها . ولقد ظهرت المسيحية في عالم قائم بالفعل له قوانينه ولغاته ، وله حكومته وكيانه الاقتصادي . وبينما كان المسيحيون يهتمون بحياتهم الأخلاقية الشخصية ، كان واجب تنسيق نظام اجتماعي أمراً مفروغاً منه منذ أمد طويل ، كما كان عبء القيام به ملقى على اكتاف اناس آخرين .

والواقع ان المسيحية في بدء عهدها كانت مضطهدة . وكانت اسمى فضيلة ، بالنسبة لها ، هي قدرة المرء المعنوية على تقبل الاستشهاد ، ومقدرته بدوافعه الداخلية على الوقوف في وجه مجرى التاريخ (٢٧) . فالمثل الأعلى كان بالنسبة حتى لحياة المجموع ، هو الوقوف بعيداً عن ذلك المجرى . والواقع ان جمهور الكنيسة الاجتماعي ، لم يتكلم خلال ثلاثة قرون الا القليل عن التاريخ وكيف يجب ان يسير . أما تسيير العملية التاريخية فلم يكن من اختصاص البرنامج المسيحي وانه لجدير بنا ان نتحول ، لفترة اخرى عن تقدم الإسلام التاريخي نفسه ، اذا كان ثمة فائدة من اتباع ما تلا من تطور في الوضع الغربي المسيحي . ان الطغيان الذي دفع بطابعه المراحل الاولى لتجربة المسيحيين التاريخية قد نجا مع الزمن وزاد . فالمسيحيون لم يظلوا دوماً أقلية مدافعة ، أو غير مهمة بما يجري

حولها من أمور . لا بل أنهم حتى عندما أدخلوا في تأسيس المجتمع بدلاً من أن يحموا أنفسهم منه ، وعندما بلغوا هم أنفسهم مرتبة المسؤولية والقوة في التدفق التاريخي ، اعتبروا النظام الاجتماعي عملية موجودة قائمة بوظيفتها فأبقوا على ذلك النظام ، إلا أنهم اعتبروه شيئاً خارجاً عن دينهم ، وقد يرون من واجبههم ، كمسيحيين ، أن يصلحوه ، لا أن يبدلوه بشيء جديد .

وعليه ، فإن الحضارة الغربية الحديثة (وحدها بين حضارات الإنسان الكبرى) حضارة مزدوجة . فمن الواضح أنها حضارة تتألف من تراثين اثنين ، ولم يعرف عنها أنها تمت أو اكتملت . أما التراث الأول فمن اليونان ورومه ، وأما الثاني فمن فلسطين . وقد عاش هذان التراثان وتطوراً جنباً إلى جنب ، في تناقض واختلاف مرّة ، وأخرى في توتر شديد ، وثالثة في اتفاق وانسجام ، لكنهما لم يمتزجا ببعضهما قط . وعلى الرغم من أن الواحد منهما قد أثر تأثير عميقاً بالآخر ، فقد ظلّا متميزين عن بعضهما البعض . وأنه لبدهي ، بالنسبة الى الغرب ، أن اموراً مثل قواعد اللغة والعلوم الصحية والسياسية (التي يستمدّها من مراجعها اليونانية - الرومانية) يجب أن تتميز عن أمور الحياة الروحية (وهي من تراث التوراة الفلسطيني) . والغرب ، في تراثيه ، مقتنع تمام الاقتناع بأن الفرق هام ويجب أن يبقى — وهذا الفرق هو التمييز بين الوجه العلماني (والعلماني ، في الأصل ، تعني « التاريخي ») والوجه الديني . ولذلك حتى بعد أن نجح المسيحيون على الصعيد الدنيوي ، لم يعتبروا ذلك نجاحاً لهم ، كمسيحيين ، أو نجاحاً لدينهم . إذ أن التاريخ إذا أصبح موافقاً فإن ذلك لا يعني انتصاراً روحياً معيّن (٢٨) . يقابل ذلك من ناحية أخرى أن التفكك في الشؤون الزمنية لا يعتبر ، بالنسبة للمسيحيين ، اخفاقاً دينياً .

والواقع أن المسيحية كانت ، من بعض النواحي ، ديانة للمصائب والضراء . ومن المعروف أنها ، كديانة عالمية كبرى كالإسلام وغيره من الأديان كانت ذات مغزى كبير ، في طرق شتى ، لأصناف عديدة من البشر في أوضاع عديدة متباينة . ومع ذلك فقد كانت دائماً ، في صميمها ، موضع تبصّر وتفكير :

ويمكن القول بأنها كانت تبلغ افضل ما تبلغ في أيام البؤس . فالصليب ، في جوهر الايمان به ، انما هو رمز الألم . والمسيحية هي دين الفوز على الأحرار ، ودين الخلاص في وسط الاندحار . والاسلام على الصعيد نفسه متعدد النواحي : فقد كان له ، في وجوده المادي ، ما يقوله من الأمور الهامة والشخصية والمباشرة الى مختلف الناس في ظروفهم المتباينة جداً ، كما أنه أكد ، عند الصوفيين ، على مفاهيم أخرى . ولقد زود الفرد بفضيلة ضبط النفس الرفيعة في وجه المصائب . بيد أن تأكيدات كانت على حق الاختيار المعنوي الخلقى (٢٩) ، كأن ترك للفرد الحرية في القيام بالعمل الأصلى الأجدى . نعم لقد كان من بعض نواحيه ، وعلى الأقل بالنسبة الى الجمهور ، متميزاً في كونه دين نصر في نجاحه ، ودين خلاص خلال ما حقق من فوز واعمال وسلطان . والآن لنعد الى موضوع التطور الحقيقي للمجتمع الاسلامي في هذه الدنيا : بعد ان اتضح لنا اهمية نجاحه الأول ونجاحه . وقد رأينا كيف ان المسلمين الأوائل قد حملوا على عاتقهم عبء الحكم وامكانيته ، كما انهم حملوا ما هو اكثر من ذلك وهو عبء الخلق الحضاري في أوسع معنى . ورأينا أيضاً كيف قاموا بهذا الواجب بامتياز مرموق ، مما يؤدي بهم في الوقت الحاضر الى التطلع لذلك المجتمع الذي بنوا مع شعورهم الأكيد بأنه قاد العالم . لقد علم الله البشر كيف يعيشون ، والذين قبلوا ذلك وراحوا يعيشون بموجبه تنعموا ببركات الله . ولقد وراحوا أيضاً يوضحون سلامة الخطوة . لقد نطق الله عن طريق الاسلام ، وبه عمل . ثم ان النجاح الباهر الذي أصابه مسعاهم ، أيد صحة الفكرة كلها : لقد أيد التاريخ الايمان .

ومهما كان الأمر فالتاريخ يسير :

ولذا كانت حقيقة واحدة من حقائق الاسلام الديني هي ان برناجه قد عمل جيداً لفترة من الزمن ، فان حقيقة ثانية هي ان ذلك كان فقط لفترة من الزمن . ان الحضارة العربية ، شأن ما جرى لحضارات الانسان عبر القرون ، ظهرت وازدهرت مدة من الزمن — ثم اضمحلت . لقد كان سقوط بغداد

عام ١٢٥٨ م نهاية الأبراطورية العربية التي نجحت من قبل نجاحاً عظيماً ،
فالفزوات المغولية التي أدت الى انهيار بغداد ، أنزلت بالعالم العربي ضربة مدمرة ،
فقد قضى على المسلمين ، وأصبحت مناطق بأسرها ثياباً ياباً ، وانتقل الحكم
في مركز العالم الاسلامي الى ايدي الكفرة البرابرة . ومع ذلك لم يكن ذلك التاريخ
الآ علامة رمزية للملك الحدث ، اذ نرى من ناحية ان الثقافة العربية قد استمرت
في ازدهارها لقرنين اثنين وثيف في المناطق التي لم يكتسحها المغول ،
واهمها القاهرة واسبانيا . ومن ناحية اخرى يمكننا ان نقول ان الغزو في القرن
الثالث عشر قد أنزل الضربة القاضية بمحضارة قد تجاوزت ربيعها . وكانت
التقلبات ، وخاصة في الميدان السياسي ، قد أخذت تشق طريقها . وليس من
أهدافنا هنا ، ان نتبع مجرى التفسخ الاسلامي من ناحيته العربية الأولى او
نبحث في اسبابه . اننا نكتفي بان نلاحظ ان الكارثة قد وقعت ، وانتهت بذلك
الفترة الكلاسيكية للتاريخ الاسلامي .

وهذا يكون لنا الأزمة الكبيرة الأولى في التاريخ الاسلامي (٣٠) . ان
التاريخ الاسلامي ، كما يظهر ، قد هبط ، كما يمكن للإنسان ان يشعر بأن
المحاولة الكبرى لادراك غاية الله قد وهنت ، ان لم يكن قد أخفقت في الواقع .
ولقد نجا الاسلام على الأرض من هذه الأزمة . نعم لقد نجا وعاش ، ولكن
دون جمود او سكون .. لا بل ان ردود الفعل عنده كانت خلاقة في وجه
التحدي . لقد نهض يعبر عن نفسه بطريقة جديدة أخرى ربما كانت أعم
وأكمل ، فبينما كانت « العصور الوسطى » الأوروبية في نهايتها ، كانت حقبة
الاسلام الوسطى (وهي الحقبة الواقعة بين العهد الكلاسيكي والعهد الحديث)
تسير في طريقها . ولم يهتم مؤرخو الاسلام ، مسلمين كانوا أم غربيين ، بهذا الوجه
من التطور الاسلامي في العصور الوسطى اهتمامهم بالفترة الكلاسيكية ، ومع
ذلك فقد كان فيه الكثير من الجدة والكثير من الأهمية . فقد أعطى الاسلام في
فترة هذا التطور أجوبة متنوعة بناءة عن المسائل القائمة المحيرة .
كان انتشار الصوفية هو البدعة الرئيسية ن الوجهة الدينية . ويعود التفسير

الصوفي للاسلام إلى الحقبة الكلاسيكية فيه ، بيد أن ذلك كان من تراث أقلية ضئيلة ، هي صفوة من المتدينين انسحبت من المجرى الرئيسي للتقدم الاسلامي . وبينما كانت الفترة العربية آخذة بالوهن ، كان عدد المنضمين من المجتمع الاسلامي إلى هذه الفرقة القيمة من الفرق الاسلامية ، يتزايد شيئاً فشيئاً . وقد اتسعت الصوفية في الحقبة الوسطى ، وتطور النظام الصوفي الذي انتشر تدريجياً في طول العالم الاسلامي وعرضه . وقد عمت الحركة وأصبحت لها مدارسها : وتطورت التفسيرات أيضاً ، فمثلاً نرى ان جلال الدين الرومي ، وهو أعظم الصوفيين ، قد نظم قصيدته المعروفة بالمتنوي بعلمسقوط بغداد بسنوات قليلة (او ليس من الاغراق في الخيال ان نقارن ذلك بظهور « مدينة الله » لأوغسطين بعيد سقوط رومه ؟) . ولقد انغمس الكثيرون من المسلمين غير العرب في الصوفية ، وحتى العرب أدخلوا الكثير من الصوفية في مفهومهم للدين (٣١) ، وذلك بعد العصور الكلاسيكية .

ومن الوجهة الثانية نرى ان الاسلام قد هدى الغزاة ، ففي غضون خمسين سنة ، كانت الأسرة الحاكمة المغوية التي أخضعت تلك الرقعة من العالم الاسلامي وأقامت فيها حكماً غريباً عنها ، قد أصبحت هي نفسها مسلمة ، وهي نفسها التي قامت بدور البطل في القضية الاسلامية . وهكذا تعهدت الحكام الجدد بعقيدة وقوة والمعية أن يدفعوا بالمسمى الذي سبق لهم أن استقطوه ثانية الى الامام .

وقد يتراعى ذلك انه مظهر من مظاهر التطور الثالث الكبير ، يعني ان الاسلام قد وجد لنفسه في هذه الحقبة الجديدة ، اناساً جديداً ، وثقافات جديدة للسير به الى الامام ، اذ ما كادت الروح العربية تنخبو ، حتى اخذ الاسلام التارخي فوراً بالازدهار من جديد بأشكال فارسية وتركية . وهي أشكال تختلف عما عرف سابقاً من أشكال — بطريقة الحكم والنظرية السياسية ، بالكيان الاقتصادي والنظام الاجتماعي ، بالقيم الثقافية وتلوق الجمال . وهكذا سار المسلمون بهذه الاختلافات ، وبدافع منها دون ريب ، قداماً إلى الغاية التاريخية :

وهكذا فقد تلا الحضيض الذي وصل اليه في القرن الثالث عشر ، تسلق كان لأوج جديد في القرن السادس عشر . ويمكن ان يعتبر هذا القرن ، من وجوه عدة ، أعظم قرن في تاريخ المسلمين منذ ذلك التاريخ حتى اليوم ، حيث كانت الامبراطورية العثمانية في أعظم وأزهى أيامها ، واوروبه ترتجف أمام اندفاعها الذي لا يرحم ، وكان الصفويون في ايران يجمعون إلى سلطتهم الملكية الروعة الفنية ، وكان المغول في الهند يمثلون بالقوة والثروة ، والجمال الفني أعظم حكم عرفته شبه القارة الهندية لعصور طويلة خلت .

على أن الأزهار الدنيوي الثاني للإسلام لم يكن وقفاً على تشييد الامبراطوريات فقد كان هناك توسع في المفاهيم الجغرافية والروحية ، حيث ان الموجة الثانية الكبرى لكل من الفتوحات العسكرية والحماسة التبشيرية قد اوصلت العالم الإسلامي شمالاً الى آسيه الصغرى وبلاد البلقان وأواسط آسيه ، وجنوباً إلى افريقيا السوداء ، وشرقاً الى اندونيسيه . فالاسلام في عصوره الوسطى زاد مرتين ، على الأقل ، عما كان عليه في الحقبة الكلاسيكية عدداً ومساحة . وهكذا يصبح المسعى التاريخي للمسلمين في ابان حركته مرة ثانية .

ومع ذلك فان هذا التضجر التاريخي الخلاق في العصور الإسلامية الوسطى — باستثناء حكم الامراك ، وهو حقبة هامة دون ريب — لم يكن يعتبره المسلمون ، بصورة عامة ، أمراً جوهرياً في حد ذاته ، بالنسبة للإسلام . انهم لم يكونوا ليروا هذه الفترة ذات أهمية كبرى للتاريخ « الإسلامي » رؤيتهم الفترة الكلاسيكية الأولى . والذي فعله المسلمون في تلك الفترة لم يعتبر كمثل آخر لعمل الاسلام في العالم ، ذلك العمل الذي كان يطبع جريان التطور التاريخي بالطابع السماوي . أما الأسباب العامة لاختلاف موقفهم من ذلك ، فليست واضحة تماماً ، على أننا نستطيع أن نقترح مؤقتاً ثلاثة أسباب ، وان كان هنالك ، دون ريب ، أسباب أخرى . والموضوع بكامله يحتاج الى بحث واستقراء .

اولاً أن الدور المبكر للتاريخ الإسلامي ، يتمتع بالأولوية بالنسبة إلى جميع الوجوه الاخرى لمجرد ظهوره قبلها . فالأصلي يصبح قياساً ، والحقبة

الكلاسيكية تصبح « كلاسيكية » بالمفهوم النموذجي قياساً أيضاً . والحقب التالية التي تختلف عنها (ومن طبيعة التاريخ ان تختلف كل حقبة ، بالضرورة ، عن الحقبة التي سبقتها) انما كان يُنظر اليها كحقب منحرفة عنها (٣٢) . ويعتبر التعبير التاريخي الاول عن الحركة هو التعبير « الصحيح » - لا بل لا ينظر اليه كتعبير اطلاقاً ، وإنما يعتبر كأنه الحركة نفسها في شكلها النقي . (ونضرب مثلاً الشرع ، الذي هو في الواقع ، كفكرة متطورة وكنظام عملي ، عبارة عن ثمرة تاريخية من ثمار القرنين الثاني والثالث للهجرة ، قد أصبح يُعتبر جزءاً من جوهر الإسلام المجرد . وقد جاء ذلك من اتخاذ التاريخ جدلاً ، ولكن ليس بصورة جدية كافية) .

ثانياً ان مسلمي العصور المتوسطة أنفسهم أحسوا أكثر من مسلمي العصور الكلاسيكية بضعف روابط الاتصال بين الآتي والخالد ، بين تاريخهم هم وبين الإسلام الصحيح . وقد أخذ كل من الزعماء الدنيويين والزعماء الدينيين يشعرون بأنهم يقودون او يفعلون شيئين مختلفين . فمن الوجهة السياسية أعطى الخليفة المجال للسلطان ، ومعنى ذلك ان القوة التنفيذية الدينية قد أبدلت بسلطة دنيوية مستقلة واضحة . وقد يكون من المبالغة اعتبار السلطان حاكماً « علمانياً » ، ومع ذلك فهو يقترب كثيراً من هذه الفكرة الغربية أكثر مما فعل سلفه نظرياً على الأقل . وقد أصبح ذلك مقبولاً بين مسلمي العصور المتوسطة من وجهة نظر الدولة والمجتمع . فقد أخذ الدين يجري مع النظريات الأخرى للحياة في هذا العالم بدلاً من ان يكون هو المسيّر او المحور لتلك النظريات . ان النظرية السياسية الإسلامية الكلاسيكية كانت ترى الدين ، من وجهة مثالية ، منظم الحياة والمجتمع ، واضعاً الأمور في مواضعها ، ومعيناً للحاكم الزماني عمله وهو تنفيذ مراسم الدين وشعائره . أما النظرية السياسية الإسلامية في العصور المتوسطة ، من الناحية الأخرى ، فقد كانت ترى ذلك العمل هو واجب الأماطور للمحافظة على ميزان المجتمع الدنيوي ، مبينة لكل مجموعة ضمن النظام الاجتماعي مكانتها وعملها . وبين هذه المجموعات الجيش والطبقة المتحكمة والفلاحون

وغيرهم ، وكذلك « العلماء » (٣٣) .

ثالثاً ان هذا المفهوم الأول من نوعه للتفرقة بين التاريخ الديني والحياة قد تجلّى في الناحيتين الروحية والسياسية . هذا ولم يكن الرعما الدينيون الأصليون قد قبلوا وحدهم بالنظرية السياسية الجديدة (٣٤) . فقد كانت ثمة نقطة أهم من ذلك ، وهي ظهور تفسيرات الصوفيين الدينية الجديدة التي راحت ، كما قلنا ، تأخذ مكانها — وان لم تقتصب لنفسها النظرة الكلاسيكية الرسمية قط . هذا ، والصوفية تختلف عن فلسفة الكون السنية الكلاسيكية اختلافاً جوهرياً ، وليس أقل ذلك في مسلكها نحو التاريخ او وجودها الديني الموقت . انها تؤكد على الفرد أكثر من تأكيدها على المجتمع ، وعلى امور الخلود أكثر من الأمور التاريخية ، وعلى حبة الله أكثر من جبروته ، وعلى حالة قلب الانسان أكثر من تصرفه . انها تهتم بأن تكون نفس المرء نقية أكثر من اهتمامها بأن تكون اعماله صالحة . وقد كان بعض الصوفية يرى ان الشرع نفسه امر غير مهم ، واعتبره معظمهم نظاماً خاصاً يرشد المرء الى انجاز الأمور السماوية ، دون أن يكثرثوا كثيراً بعمله في تنظيم المجتمع والسير بالتاريخ حسب قاعدة معينة .

فمن الواضح اذن ان الصوفي لم يهتم بالعملية التاريخية الا قليلاً (٣٥) . وهو باعتقاده بان الله لا يهتم كثيراً باعمالنا ، كان يعتنق ايماناً مناسباً لاحتمال ضوضاء العالم وضرائه ، ويمكّنه من الوقوف غير هباب ، ثابت الجأش في وجه الكارثة الخارجية . وكذلك كان مذهب الصوفي اقل ملائمة للارشاد السياسي ، فهو ، كأيمان المسيحيين قد احتاج الى براعة سياسية علمانية مما يتحلّى به رجل الحكم الذي كانت مسؤوليته ان يرشد المجتمع بدلاً من ان يرشد نفسه . وكان باستاعة الصوفي ان لا يلقي اي بال للنجاح التاريخي ، فكما ان كوارث العالم لا تستطيع ان ترهبه ، كذلك لا تستطيع انتصاراته ان تنفخه وتزدهيه . واننا لنقول في صراحة ان الاسلام المتشرب بالصوفية ، والذي عرف كيف ينجو ويحمل مصائب القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، لم يكن ليهتم كثيراً في وضع يده على أعجاد القرنين الخامس عشر والسادس عشر الدينيين .

ويجب علينا ان لا نشدد بالتأكيد على هذا الميل . فالقسم الكلاسيكي في الإسلام ظلّ كما هو القسم الرسمي ، كما ظلّ دائماً مهماً من الناحية الاجتماعية وكان هنالك الكثير من المسلمين في أنحاء العالم يرون في فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ مظهراً لقوة الله كما كان مظهراً لقوة السلطان محمد الفاتح .

ومهما كان الأمر ، فالواقع ان العالم الإسلامي في القرن السادس عشر قد أصبح مرة ثانية عالماً قوياً غنياً ذا زهو وجلال . ومهما كانت نظرة المسلم الى ذلك العالم آنذاك - في مراكش او الآستانة او اصفهان او أجرا أو آشه - فقد كان مساهماً في تاريخه الناجح المتسع .

ومن الحقائق الأخرى ان هذا النجاح لم يدم طويلاً ، فان الموجة الثانية للمد الإسلامي كانت أقصر عمراً من الموجة الأولى . وقد توقف المجتمع الإسلامي عن التقدم ، ولم يكدهل القرن الثامن عشر حتى كان في انهيار خطير .

نعم لقد كان انهياراً خطيراً حقاً . فهناك تفكك في القوتين العسكرية والسياسية ، ووهن في الحياة التجارية وغيرها من الشؤون الاقتصادية ، وركود في الجهود الفكرية . وقد أصاب الفنون انحطاط عقيم وشكمت الحيوية الدينية . ولم تعد أعمال كتابات امراء البيان العظام من شعراء وبلغاء تبعث في النفوس الحماسة ، وانما أصبحت تعالج بالشروح والتفسير . وراحت الأساليب الكلاسيكية تُستخدم لتحديد الطريق التي يجب ان تُسلك بدلاً من الترويد بالقوة الدافعة في الانطلاق . وأما من الناحية الصوفية ، فقد انحطت نظمها من البصيرة الصوفية الى الخرافة البلهاء ، ومن فراسة القديس الهادئة ، الى شعوة الدجال المضطربة القلقة .

والظاهر ان العالم الإسلامي قد فقد القدرة على ضبط حياته ضبطاً محكماً ، كما أضاع المجتمع الإسلامي قبضته الخازمة القوية التي كانت ، فيما مضى ، تمسك بالأرض امسكاً تاماً .

أضف الى ذلك ان هذا الانحطاط قد جرى مع ترايد القوة في اوروبة . ففي هذا الوقت تقريباً كانت الحضارة الغربية قد دفعت بأعظم موجة لأوسع طاقة

عرفها الانسان حتى ذلك الحين . فقد تجمعت الخيوية والمهارة والقوة على نطاق واسع . وبهذه الأمور كان الغرب يضع الشكل الجديد لحياته ، ومن ثم حياة العالم أجمع .

هذا المارد الجديد ، الذي يخطو الى الأمام جواباً مستكشفاً في نهم غير مستقر التقى بالعالم الإسلامي ، ووجد ان نموه وانطلاقه يقابلهما ضعف متزايد . فما كاد عام ١٨٠٠ يهل حتى كان الغرب يضغط بشدة على تلك المراكز التي بقيت فيها قوة وطنية ، ويفرض حكمه على مناطق عديدة . وازداد الضغط وفرض الحكم طوال معظم القرن التاسع عشر . فالهولنديون في اندونيسيه ، والبريطانيون في الهند وغيرها ، والروس في اواسط آسيه ، والفرنسيون في أفريقيا أخذوا يحكمون المجتمع الإسلامي . أما ايران والأمبراطورية العثمانية فقد احتفظتا بالسيادة السياسية ، ولكنهما كانتا مستقلتين دون ان تكونا حركتين . وبغض النظر عن السلطة السياسية فان المجتمع الإسلامي الذي كان في الماضي مهيباً قوياً متيقظاً قد انهار روحياً في كل مكان بحيث خضع في تصرفه ومضيقه لقوى عارضة عن الإسلام .

وعليه فان الحقبة الحديثة من التاريخ الإسلامي تبتدى باغلال في الداخل ، وتهجم ووعيد وتهديد من الخارج ، وبأن المجد العالمي الذي اشتهر بأنه كان يجري إطاعة لكلمة الله ، انما اصبح مجرد ذكرى بعيدة لماض سعيد .

والآن نحن على استعداد لتلخيص بحثنا الذي وصلنا به إلى هذا الحد . أما موضوعنا فقد كان يدور حول جوهرية الإسلام كدين ، وانه بالقدر نفسه شخصي بالإضافة الى كونه مجرد ، في النهاية ، خاصيات هذا العالم الدنيوي وحلوه ، وجميع شؤونه . ومع ذلك فقد تميز بطابع العمق في اهتمامه بهذه الشؤون . وهو يتميز باعتقاد اساسي بأن حياة المسلم تشتمل في هذا العالم على تنفيذ الوصية الالهية التي تبين كيف يجب على الجنس البشري ان يعيش جماعة وفرادى . وهو كذلك يتميز بالولاء الشديد نحو مجتمعه . وهذا الاعتقاد ، في أكمل وجوهه ، قد سما الى تخيل بناء المجتمع المثالي . وبكلمة اخرى لو نظر

المرء الى الشيء ذاته من وجهة نظر اخرى ، مؤكداً مبادرة الله اكثر من تأكيده
على رد الفعل الانساني ، لأمكنه القول بروية المجتمع المثالي مشيداً قائماً . لا بل
ان المرء يمكنه ان يقول ضمناً بان المسلم الحقيقي انما يعيش في مجتمع مثالي ،
ويدين بالولاء الكوني لحياة ذلك المجتمع المتضامنة .
والخلاصة ان التاريخ الاسلامي عبارة عن تحقيق الغاية من تاريخ الانسان.
بارشاد الهي . فهو مملكة الله على الأرض ، إذا ما استخدمنا التعبير المسيحي (٣٦) ،
وهو ، حسب التعبير اليوناني ، المجتمع الفاضل .
ولقد رأينا ، إلى ذلك ، أن التاريخ الاسلامي الواقعي ، انما كان
لبضعة قرون ، مقارنةً عملية مقبولة ، بشكل من الأشكال ، لهذا الشيء
المثالي . ورأينا أنه كان للتاريخ الحقيقي ، في ادواره المتلاحقة ، نهضات وعثرات .
يبد أنه كان له من « النهضات » المتعددة ما يكفي لتأييد النظرية السابقة ، كما
كان له من المرونة ما يكفي لمعالجة « العثرات » ، بل ولوقف مفعوها في بعض
الأحيان . ومهما كان الأمر فقد لاحظنا ان الحقبة الوسطى قد انتهت باختلال
النظام وهذا يضع بين ايدينا المرجع والنظرة النفاذة الامر بين اللذين نحتاج
اليهما كي نصل الى المشكلة الأساسية : وهو حالة الاسلام وديناميكيته في
العالم الحديث .

الهوامش

٢ - المراجع لهذا الموضوع كثيرة ، وعلى سبيل المثال نذكر إقبال (Sir Muhammad Iqbal) . فهو في كتابه :

« The Reconstruction of Religious Thought in Islam » .

— طبعة لاهور ١٩٤٤ ص ٧ ، يتحدث عن السرعة الشديدة التي يتحرك بها عالم الاسلام روحياً .

ويراجع أيضاً كتاب محمد أسد :

« Islam at the Crossroads » .

أي « الاسلام على مفترق الطرق » — ترجمة عمر فروخ — بيروت . (١٩٤٦ و ١٩٤٨ و ١٩٥١)

٣ - يراجع بصورة خاصة الفصل السادس من كتاب إقبال وهو :

« The Principle of Movement in the Structure of Islam » .

ويمكن أن نشير الى كتاب شبلي نعماني : « علم الكلام » سنة ١٩٠٢ والطبعة الثانية لاهور

١٩٤٥ . ومن الكتاب الذين عاينوا الشرح الاسلامي مظهرين تطوره التاريخي ا. ح. ا .

فيظي في الهند ، وصباحي محصاني في العالم العربي . أما ما يتعلق بتركيا فراجع مقالة م .

فؤاد كوبرولو عن الفقه في الموسوعة : « Islam Ansiklopedisi » استانبول

١٩٤٦ ، وهي إضافة وشرح وتعليق للمقالة الأصلية « الفقه » — FIKH — بقلم

غولنزيهر I. Goldziher في دائرة المعارف الاسلامية :

« The Encyclopaedia of Islam » — طبعة لندن ١٩١٤ . ويمكن ان يراجع

مقال Ebul'ula Mardin وعنوانه :

« Development of the Shari'a under the Ottoman Empire » .

وذلك في كتاب Majid Khadduri and H. J. Liebesny

« Law in the Middle East »

— طبعة واشنطن ج ١ ص ٢٧٩-٢٩١ .

٣ - عن الحركات الرامية الى التقريب بين المذاهب السنية الأربعة أو حتى مختلف الملل والنحل

ومن ضمنها السنة والشيعة ، يرجع إلى « نجاعة التقريب بين المذاهب الإسلامية » ومجلتهم الشهرية في القاهرة « رسالة الإسلام » . وعن الحركات الرامية إلى إمكانية إعادة النظر في تقدير أصل الحديث يرجع إلى البيان الذي وزعه (مجلس أكاديمية الدراسات الإسلامية) في حيدر أباد - الدكن ، بالهند ، وهو :

(Toward Reorientation of Islamic Thought: a Call for Introspection, 1954).

والى التقرير أقيم حول صلى هذا البيان :

Toward Reorientation of Islamic Thought (A Fresh Examination of The Hadith Literature), 1954.

وقد ظهر مرة ثانية ، مع تغييرات طفيفة في مجلة :

Islamic Review, London, 42/4: 3-3 (April 1954) and 43/1: 6-13 and 2: 7-11 (Jan. and Feb. 1955).

٤ - لقد أصبحت مادة في الأوساط الأكاديمية الغربية أن تؤكد على أن إرضاسات الظواهر ، ومن ضمنها الاجتماعية والانسانية ، يجب أن تكون موضوعية إيجابية لا يرجع بها إلى مرد ساوي . فالذين يأخذون هذا المأخذ قد يجهلون الجملة المشار إليها صراحة في متنها . هل اننا نعتقد أن أي تفسير لتلك الظواهر لا بد وأن يكون غير ملائم ، إذا لم يؤخذ الإيمان بين الاختيار كعامل من العوامل الأساسية الجديدة . وعليه فإن الذين ينكرون حقيقة الله إنما يحولون دون أنفسهم وفهم تاريخ الدين نهماً صحيحاً . وذلك لا يعني أن عناصر أخرى يجب أن لا تكون موجودة ، كالعناصر التي يتم بها علماء الأنثروبولوجيا (التاريخ الطبيعي للأجناس البشرية) والسيكولوجيا (علم النفس) وغيرها ... فالذين يمتنعون بالله لا يفهمون التاريخ الطبيعي ، إذا أنكروا أو كانوا على غير وعي من حقيقة تلك العناصر وسداها . واننا لنأمل في أن الذين لا يؤمنوننا ، قد يستطيعون مع ذلك متابعة حججنا بإدراكهم أن العناصر السايكولوجية وجودها كان تفسيرهم له .

٥ - اننا نعتقد أن هذه نقطة هامة ، ونحن نشدد على كلمة « محبودة » أو محبوبة . كما اننا ندرك أن موقفنا لا يقبل به بعض المراقبين من العلماء الاجتماعيين في أميركا الشمالية . غير أن ما يمالونه ليس بدين . ان البيانات هي ما تعني لأكتابها ، ودراسة البيانات ، كما تكون علمية ، يجب أن تنفي بالمعاني ، بالأشياء الشخصية كأشياء شخصية لا كإداة أو مجرد موضوع . تراجع في هذا الصدد محاضرة المؤلف ، وعنوانها :

« The Comparative Study of Religion: Reflection on the possibility and purpose of a religious science ».

ونك في جامعة ماك غيل ، وتبعها في :

McGill University, Faculty of Divinity, Inaugural Lectures, Montreal, 1950, pp. 39-60.

- ٦- قد يمثل لنا ذلك النقطة الجوهرية التي كانت المسترلة تحاول أن توضح وتدعم ، وهي أن العبادة هي ما يفرضه الله .
- ٧ - هذه الجملة ليست مرضية بكلّيها ، لكننا نعتقد أن الصعوبات تلازم عادة الموضوع لا التمييز ، ذلك أن العلاقة بين الإسلام والرسالات الوحى بها سابقاً ، كما يفهمها ، لم تفسر ، كما يلزم ، بعد . (مثال على ذلك قضية التاسع والمنسوخ) .
- ٨ - القسم الثاني من هذه الجملة استيعال عصري نسبياً ، إذ أن المسلمين لم تكن لهم صلة بالملك المسيحي في هذا الموضوع إلا أخيراً .
- ٩ - كان المجتمع « مستقلاً » بمعنى أنه كان حراً من سلطة غير المسلمين ، وليس بمعنى أنه يضع قوانينه بنفسه . لقد وجد واستمر في وجوده مقتبساً أحكام الله .
- ١٠ - لقد قيل ، في بعض الإحاطين ، أن المسلمين لا يقسمون ، نظرياً على الأقل ، حياتهم أو عالمهم إلى دنيوي وديني .
- ١١ - هناك من علماء الكلام المسلمين من يفرق بين رضوان الله ومشية الله . والرضوان إشارة إلى ما يجب أن يحدث ، والمشية إشارة إلى ما يحدث ، على أساس أن إرادة الله أو مشيئته لا يمكن أن يزدري بها ، حتى وإن كان أمره قد لا يطاع . (للتبثيل نذكر الأشعري : مقالات الاسلاميين ، نسخة ٨. رتر ، استانبول ١٩٢٩-١٩٣٠ ج ١ ص ٢٩٤ . أنظر الأمانة للأشعري ترجمة Walter C. Klein نيوهاغن ١٩٤٠ ، ص ٣٣ .
- ١٢ - تمييز قد لا يقيه ، كما هو ، إلا الصوفية ، بيد أن الآخرين يتكلمون عن رؤية الإنسان لله في الحياة الأخرى . والواقع أن فكرة الجنة تبرر تمييزنا . (أنظر حاشية رقم ١٧) .
- ١٣ - وهذا تمييز مسيحي (Gospel of St. John (John I: ١-14 استعملناه أملاً في أنه قد يساعد المسيحيين على إدراك الفرق الأساسي بينهم وبين المسلمين . وقد يساعد المسلمين في دراسة تلك الفقرة إلهالة للحجة القاطلة (باختصار) .
- ١٤ - قابل ذلك بما جاء في إنجيل يوحنا ١: ١٤ ، وبالتقيدة المسيحية المتأخرة : « والكنيسة هي جسد المسيح » . وقد يرى المسيحيون تمييزنا مفزاعاً ، ونحن قد استخدمناه للتنوير ، ثم أن دراسة الأدبيات المقارنة لا يمكن أن تجري دون إفراغ .
- ١٥ - ص ٦٤ .
- ١٦ - قارن ذلك بازدياد عضو الحزب الاشتراكي الجالس على كرسى المزاز ، أو « بالنتور » الذي يفكر وحسب دون أن يشارك بالعمل .
- ١٧ - إنراً من المقالات الفلسفية لأبي حفص عمر التليفي القسم المتعلق بالكبرية .
- ١٨ - تلك هي أهمية الكلمة . أن تقول « وأن محمداً رسول الله » تكون قد التزمته الإيمان لا بمحمد كشخص ، وإنما بصحة ما جاء به . ثم إن تتمتع بأن محمداً نبيي ، معناه إنك قبلت بالقرآن كتاباً منزلاً من عند الله . (وبذلك يكون المجتمع الذي يمشي بمرجبه منظوياً في هذا العالم على ما نزل مقتضاً من السياه) .

١٩- -- مراجع كتاب W. D. Ross وهو :

The Right and the Good, Oxford, 1930.

٢٠- حتى كلمة « سني » يمكن أن تكون تعبيراً عاماً . إن التعبير الفني هو « أهل السنة والجماعة »
٢١- نعمي أن الإسلام لم يعرف أبحاثاً كلامية . لقد كانت هناك مواضيع عقائدية أصلية ،
كالتجديد بين المعتزلة والأشعرية ، على أننا عندما نقول أن هذه المناظرات لم تكن
« أساسية » ، إنما نعني أنها لم تؤثر على المجتمع من ناحية أساسية كما هو الحال في التاريخ
المسيحي ، أو كما أثرت بعض المواضيع الأخرى في الإسلام .

٢٢- إن استعمال كلمتي « حسن » و « يجب » ليس لهما ما يبرهما ، وهما حتى الآن ليستا غير
صحيحتين تماماً . فالكرملين رفض مرات متتابعات الناحية المعنوية من هدف الشيوعية
في اتجاه بلغ أوجه في حركة التطهير الكبرى في منتصف العقد الرابع من هذا القرن . ومع
ذلك فقد كان هناك عنصر معنوي قوي في الدفاع الأصلي للحركة ، وقد بقي قوياً بالنسبة
لأنصار الحزب ، والمثقفين به تحت التجربة . ونحن نرى أن رفض المعنويات الأخرى
لم يكن غير ذي صلة بالموقف الميثاقيني الأصلي للقاتل بأن التاريخ ذو اكتفاء ذاتي ،
وأنه نظام منطقي . ولهذا نرى أن الحركة الماركسية بدأت ، وما زالت تدعم من الخارج ،
وخاصة في آسيا ، كحركة نحو المجتمع للفن ، وإن إغفالها في الوصول إلى هذه الغاية
داخلياً ، إنما يعود ، جزئياً على الأقل ، إلى ميثاقيني فنية فلسفتها الكاذبة .

٢٣- بيان الحزب الشيوعي : « الطبيعة الإنسانية ... إن المرء الذي لا ينتهي ، على العموم ،
إلى طبقة ، ليس له كنه حقيقي ، ... إنه موجود في عالم من شباب وهم فلسفي . » من
النسخة الهندية الموثوقة ،

People's Publishing House, Bombay, 1944, p. 52.

٢٤- إن الفكر العربي الكلاسيكي تعلم من التاريخ ، وأدخل ما تعلم في كتابه المقدس ،
والفكر الإسلامي تعلم من الكتاب المقدس وأدخل ما تعلم في التاريخ . فالتاريخ بالنسبة
للإسلام يجب أن يكون ، من ناحية مثالية ، لاحقاً بالرسالة (الوحي) النهائية ، أما
بالنسبة للمهد القديم فالرسالة (الوحي) هيارة عن عملية متواصلة . (بيليجاز)

٢٥- راجع مقالة H.A.R. Gibb : « تأريخ » في الموسوعة الإسلامية وكتاب Franz
Rosenthal ، وهو :

« A History of Muslim Historiography », Leiden, 1952.

وتقد لا نعني باستعمالنا كلمة History الإنجليزية مجرد كلمة تأريخ تماماً ، إذ ربما
تنطبق كلمة « الدنيا » أو « الدنيا المتطورة » بصورة أفضل على ما نريد . ولهذا نقترح
أن تكون ترجمة عنوان هذا الفصل ، وهو Islam and History هي « الإسلام
والتطور » . ومراجع لبشتنا هذا كتاب H. Buttefield وهو :
« Christianity and History », London, 1949.

٢٦ - هذه هي مادة الموقف النسبي الكلاسيكي . أما الحوارج والشيعية فكانوا تلك الأقليات التي لم تكن الحالة الراهنة بالنسبة إليها تمييزاً إجتماعياً ملائماً للمثل العليا الإسلامية . وهم لم يختلفوا اختلافاً جلياً في أن حركتهم كانتا تنبعان بيقينهم في أنهم يستطيعون أن يحققوا الإسلام الصحيح ، عملياً ، حال تسليمهم زمام الحكم .

٢٧ - يقابل ذلك « الشهيد » الذي جاد بنفسه وهو يحارب لأجل التاريخ ، ولكن معه . وقد كان استشهاده « في سبيل الله » هدفاً للقضية الإسلامية في العالم . استشهد في الحركة التي كان ينظر إليها كتوسيع لدار الإسلام ، أي توسيع المنطقة الدنيوية للسلطة الإسلامية . أما للكنيسة المسيحية ، من الطريق الآخر ، فلم تكن تفكر بالنجاح التاريخي الدنيوي . لقد نظرت إلى الشهيد نظرتها إلى إنسان سمح لنفسه أن يهزمه التاريخ لا أن يتغلب عليه . وكان الشهيد يكسب لنفسه نصراً روحياً مقابل انهياره دنيوي في هذا العالم .

٢٨ - نحن لا ننكر أن بعض المسيحيين اعتزوا ، حتى اعتزوا روحياً ، بالنجاح الدنيوي . لقد اعتبروا القوة والثنى والتكاثر دليلاً على معنوية مجتعمهم الممتازة . غير أن ذلك يناقض روح المسيحية . النجاح الدنيوي إغواء ، والاكتفاء به غطيئة . وكانت التقوى الإسلامية ، حتى قبل سقوط بغداد ، تحذر الفرد من التفاخر بالاستقامة الذاتية ، والتكبر بالثنى ، مع أنها رأت من الحق والصواب أن يزدهر المجتمع الإسلامي .

٢٩ - تراجع مقالة Marshall G. S. Hodgson وعنوانها :

« A Comparison of Islam and Christianity », a paper read before a seminar at the University of Chicago, 1955.

٣٠ - كانت أولى أزمنة التاريخ الكبرى موت النبي ، وكان الموضوع آنذاك ما إذا كان يجب أن يكون هناك تاريخ إسلامي . لقد شعر بعض ذلك المجتمع (ونعمي البر) أن كل شيء قد انتهى ... وكانت الردة . وفكر فريق بأن مجتمع أتباع محمد يجب أن لا يمض ، كوحدة إجتماعية سياسية اقتصادية . هذا المجتمع يجب أن يبقى وأن يختار لنفسه قائداً بهذا النبي ، وكانت أهمية هذا الأمر أعظم من أهمية أن يكون ذلك القائد . إلى أن انتهى من هذا الموضوع في سقفة بني ساعدة .

٣١ - لم يكن العرب الحفظ الحسن ، أو الإبداع الكافي لإظهار شعراء صوفيين كشعراء الفرس ميزة وعقداً ، ففهموا بما اتصروا من ثمر رائع أيضاً لنظرتهم التصوفية نحو الله والعالم . ولم يمان كما كان لذلك أثر في اقتباس الصوفية في العالم العربي بصورة أقل كمالاً من اقتباس الفرس لها . ويحق للمرء أن يتساءل عما إذا كان التمييز العقلي للفرازي أو ابن العربي قد وسبل في الكشف عن حقيقة الروح الصوفية إلى مستوى تمييز الرومي الفني .

٣٢ - تراجع صبحي محمدي في :

« Muslims: Decadence and Renaissance. Adaptation of Islamic Jurisprudence to Modern Social Needs », The Muslim World, Hartford, 44; 186 (1954).

٣٢ - راجع : K. S. Lambton, « The Theory of Kingship in the Nasihat ul-Muluk in the Islamic Quarterly, London, I: 47-55 (1954).

وكذلك راجع :

Leonard Binder, « Al-Ghazali's Theory of Islamic Government », in the Muslim World, Hartford, 45: 229-41 (1955).

٣٤ - ويعتبر أكبر مثل على ذلك ، شيخ الإسلام الشافعي أبو السعود افندي (١٤٩٠-١٥٧٤) .
راجع الموسوعة الإسلامية ، طبعة لندن الجديدة ١٩٥٤ .

« Abu 'I-Su'ud » (article by J. Schacht).

٣٥ - قد يكون من الواجب إبقاء بعض الخلق عديمة الوقوع بسهولة الفلوس في تقدير اهتمام الصوفيين بشؤون العالم . لا ريب أنهم تجنبوا الانغماس بالمطبات السياسية ، بحساب ، وعلى المصوم ترى ان موقفنا منهم لا يتغير ، ومع ذلك فقد كان هناك سببية صوفية عامة تقول بأن رفاهية الإنسان على الأرض إنما يتضمنها أفضل غفمة تأثير القناعة الروحي . (ولا تقول بأن رفاهية الإنسان على الأرض غير ذات أهمية) . وقد لا يجد كثيراً هذا الموقف ، في حالات عدة ، عن الموقف المسيحي القياسي .

٣٦ - كان Murray T. Titus قد لفت الانتباه ، في الغرب الى استعمال المسلمين الأولي لهذا التعبير بمقاله : « Islam and the Kingdom of God » كلكتا ١٩٣٢ . وقد

أعيد طبعه في : Macdonald Presentation Volume, Princeton and London, 1933; pp. 391-402.
وقد انتشر هذا الاستعمال كثيراً في السنوات

الآخيرة .

الاسلام في التاريخ الحديث^(٥)

- ان القلق الاساسي في الاسلام الحديث هو شعور بأن شيئاً ما قد اخطأ السير في التاريخ الاسلامي . وأما المشكلة الرئيسية بالنسبة لمسلمي العصر الحديث فهي كيفية اعادة الاعتبار لهذا التاريخ ، ورده مرة أخرى للجريان بعنفوان كامل ، ليستطيع المجتمع الاسلامي ان يزدهر ثانية ، كما يجب ان يزدهر مجتمع يرشده هدي سماوي . ثم ان أزمة الاسلام الروحية الأساسية في القرن العشرين تنبثق من الوعي بأن هنالك شيئاً من الخلاف بين الدين الذي فرضه الله والتطور التاريخي للعالم الذي يشرف الله عليه .

ونحن مهتمون بالدرجة الاولى بالمظهر المعاصر لهذه المشكلة وتلك الأزمة فهناك ، اولاً ، فائدة من القاء نظرة سريعة على مجمل تاريخ الاسلام في الفترة الحديثة المبكرة ، اي من انتهاء حقبة عصوره الوسطى الطويلة حتى أمس القريب . وذلك لا يمكن الا أن يكون في غاية الاختصار. (١) . ومع ذلك فاننا تأمل ان نكون قد خدعنا غايتين اثنتين : الأولى ابضاح الصفة الروحية للاسلام ، وتأثير طاقة هذه الصفة في التطورات التاريخية التي وقعت فعلاً ، والثانية تفسير ما لتلك الأحداث من تأثير في تطور الاسلام الروحي المعاصر .

شبه الجزيرة العربية - الوهابيون

كانت الحركات الاسلامية الأولى في الحقبة الحديثة احتجاجات على التدهور

(٥) الفصل الثاني من كتاب سيث السابق . وقد حلفت من هذا الفصل الاشارات الى نصول الكتاب التالية التي تعالج نواحي خاصة في العالم الاسلامي .

الداخلي ، رامية لاييقاف الانحلال ، ومهية بالمجتمع الإسلامي ان يعود إلى نقاوته الاولى ونظامه . وكانت الحركة الوهابية (٢) ، التي قامت في شبه الجزيرة العربية خلال القرن الثامن عشر ، في اول تلك الحركات وأعظمها ، وهي ما زالت تعكس لنا تأثيرها ونفوذها . ولقد كانت حركة تطهير قوية بسيطة . أما رسالتها فكانت مباشرة : هي الرجوع إلى الإسلام كما كان عليه في عصوره الكلاسيكية .

وقد أنكرت هذه الحركة ما في التدهور المعاصر من فساد وتخلل ، كما رفضت عناصر الترف والخصب الثقافي . ورفضت دفء الصوفية الانطاوي وورعها الاخروي . ورفضت التفكير الاجنبي لا فيما يتعلق بالفلسفة فحسب ولكن فيما يتعلق باللاهوت أيضاً . ورفضت كذلك جميع أنواع الخلافات حتى مذهب الشيعة الذي قد مضى على ظهوره زمن طويل . لقد آلمت على اتباع الشرع وحده . وقال الوهابيون أن الشرع الذي ساد في العصور الاولى ، إنما هو مادة الدين وجوهره — وهذا الشرع في شكله الحنبلي الصلب الأقوم المجرد من البدع التي تطورت عبر العصور . وهم يقولون أطلع هذا الشرع الأزلي وحده . اطاعة كاملة صارمة ، ثم أقم المجتمع الذي يتطلبه هذا القانون . وفضلاً عن التبشير بحركتهم ، فقد راحوا يبشرون هذا المجتمع — ليعيدوا الحياة الدنيوية مرة أخرى نحو غايات الله التي كانت سائدة في عصور الإسلام الأولى . أما مؤسس الحركة الوهابية (ابن عبد الوهاب : ١٧٠٣ — ١٧٨٧) فقد تحالف مع أمير محلي (ابن سعود : ؟ — ١٧٦٥) كي تجري الناحية النظرية والناحية العملية في الحركة جنباً إلى جنب . وقد كان تفسيره للإسلام تفسيراً حيواً وصارماً ويجب ان تنفذ تعاليمه بصورة جدية حازمة .

وقد استطاع الوهابيون ، لموقعهم الجغرافي البعيد في بطن الجزيرة العربية ان ينسلوا أنفسهم من المجتمع المتوسطي (الأميراطورية العثمانية) وتمكنوا بعقيدتهم من الارتداد عنها . وقد استطاعوا ان يكونوا لأنفسهم في ذلك الحين مجتمعاً في الصحراء ، آلى على نفسه ان ينفذ البرنامج السماوي ، بادئاً من الحد

الذي تركه المسلمون الأوائل الذين خضعوا للموقف الذي أصابه التشويه والتحريف . وقد سار نظامهم الاجتماعي الذي ارتد الى ما كان عليه المسلمون الأوائل دون أي تشويش حتى عام ١٩٣٠ حيث اكتشف الزيت على حلودهم . ولم يكن مرد هذا التشويش الى تدخل عالم العصور المتوسطة في شؤونهم مرة أخرى ، ولكن الى تدخل العالم الحديث نفسه هذه المرة . على أن هذا التدخل المفاجئ كان تدخلاً اقتصر على الحواشي وكان مقيداً بمنزلة تعرف نتائجه بعد . وفي غضون ذلك نرى ان المثل الوهابية قد أصبحت واسعة الشهرة ، وذلك أولاً لعنف الوهابيين في تحطيم المجسمات والشواهد الدينية ، واخيراً للطهارة الصارمة التي يتحل بها إيمانهم . ولقد مكنتهم عزلتهم من تحقيق تجربتهم ، دون أي انحراف تقريباً ، لكنها لم تحل دون ان يصبح نفوذهم قوياً ، واسع الانتشار . وقد وردت من المدينتين المقدستين تقارير مثيرة تفيد ان الناس قد عادوا الى التدين الزاهد المتشكك بجد ودأب .

وأشد ما يثير في هذه التقارير قولها ان الدعوة الوهابية كانت دعوة تجريدية شديدة . أما حكمهم على الحاضر فكان حكماً ضيقاً الا أنه حكم عميق . فالمقياس عندهم لم يكن التاريخ الماضي ، وانما المخاوف المعنوية المخططة . وقد كان رفضهم لكل ما أنكروا رفضاً حاداً عنيفاً ، ومع ذلك فان حركتهم لم تكن مجرد حركة سلبية ، وانما كان لباب إيمانهم البناء قوياً وفيه مدعاة للكبار . هذا ، ولم تكن مثاليتههم خالصة بالمعنى الذي يعرفه الغربيون اي انها لم تكن إيماناً بمبدأ مجرد يرى الأعمال الانسانية على صنوفها أعمالاً غير تامة ولا مناسبة . فمثال هذه المثالية التجريدية محض أفلاطونية او ايقال في المسيحية . فالأصلح الوهابي لا يعتبر القرآن وحده مرجعاً ومصدراً للأحكام ، وإنما يضع إلى جانبه أيضاً السنة المجردة . واننا نعتبر هذه النقطة هامة من ناحية ان الوهابيين كانوا يعززون عن ولائهم للقرآن ليس فقط كمجرد كتاب منزل ، وإنما كقرآن يفسر وتنفذ تعاليمه بطريقة أصيلة صحيحة - او ، كما قد يقول الغربيون ، مثالية . أما الفكرة الإسلامية التي حاربوها فقد كانت هي

السائدة ، وهي ان الاسلام هو الغايات الالهية التي قدمها الله للجنس البشري ، كما هي موضحة في القرآن وكما هي عاملة في المجتمع السائر . ان الاسلام بالنسبة للمسلمين ، ليس هو ، كما حاولنا ان نؤكد مراراً ، مجرد فكرة معنوية ، وإنما هو فكرة في حالة العمل الدائم . ولقد رفض الوهابيون طريقة العمل ، ولكنهم لم يرفضوا الفكرة القائلة بأن الاسلام عمل ، وأنه في جوهره قاعدة سماوية في هذه الحركة الدنيوية التاريخية . وكانت رسالتهم اسلوب دعوة تقول أن الشيء الصحيح الحتمي في النهاية ليس هو التضمين الواقعي للاسلام في التاريخ وإنما هو التضمين المثالي .

لقد قلنا أنهم دعوا الناس إلى التزام الشرع . أما تأويلهم لهذا الشرع فجامد ومحدود ، بيد أنه قد يكون من الأحكم ان نقول أنهم دعوا لأطاعة الله ذي الجلال الغامر والقدرة المطلقة ، واطاعة المجتمع الذي يعمل بأوامره ومراسيمه . ان نحوهم من فكرة الوجود الى فكرة الجوهر ، ومن الواقعي إلى المثالي ، وما صنع المسلمون بالاسلام الى ما يجب ان يصنعوا ، قد كان وما يزال أمراً قوياً ، وباعثاً على الحياة ، بل ومحوراً . ولقد امتدت موجات نفوذهم المتسع إلى أبعد من حدود مجتمعهم المباشر ، وسلطتهم الفعلية . وما دام هنالك محافظون أساسيون مقيمون بين أولئك الذين يستوحون اتجاههم ، فان دعوات من أمثال « عودوا إلى القرآن » ، « عودوا إلى السنة » إنما تكون قد عنت « عودوا إلى الله القرآن » وإلى « حاليمه ، عودوا إلى روح السنة وإلى سموها » .

ولقد برهن صوت الوهابيين الحماسي على أنه مجلجل نفاذ ، بالنسبة إلى الكثيرين من المسلمين المتعلقين بإيمانهم وهم في حيرة من جراء قصور مجتمعهم وتاريخه في العالم الحديث ، والمتشوقين للعمل وهم غير متأكدين مما يجب أن يعملوه . وعلى الرغم من أن برنامجهم الواقعي لم يرهن على أنه عملي إلا في الصحراء ، فقد كان هنالك تقبل رحب للروح التي تجلت في رفضهم الحاسم للماضي المباشر ، ومناذاتهم للشروع مرة ثانية بالعمل حسب تعاليم الاسلام من البداية . وقد فكر بعض الرجال ، شأن الوهابيين ، في ان يطرحوا تاريخ

المسلمين الراهن ، لكي ينوا مرة ثانية في هذا العالم ، ذلك النوع من التاريخ
الذي غلهم إياه الأسلام الأصيل وواحي به .

الهند - ولي الله

وَمِنْ أَلَك خَرَكَات مَطْهَرَة أُخْرَى أَتَكَرَّت خَالَات الْإِنْخَطَاط فِي إِسْلَام مَا بَعْدَ
الْعَصُورِ الْكَلَّاسِيكِيَّةِ ، وَلَكِنْ دُونَ أَنْ تَنْكَرَ مَا حَقَّقَهُ مِنْ غَيْرِ تَمْيِيزٍ . وَأَهَمُّ مِثْلٍ
عَلَى هَذِهِ الْحَرَكَاتِ ، تِلْكَ الْحَرَكَةُ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي الْهِنْدِ ، مُنْبَقَّةٌ عَنِ الْمَصْلُحِ شَاهِ
وَلِيَّ اللَّهِ ذَهْلَوِي (١٧٠٣ - ١٧٨١) (٣) . وَلَقَدْ نَشَأَ هَذَا الْمَصْلُحُ وَهُوَ يَرَى
الْإِمْبَرَاطُورِيَّةَ الْمَغُولِيَّةَ تَتَصَدَّعُ ، وَلِذَلِكَ ، فَهُوَ يَخْتَلِفُ عَنِ ابْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ فِي اللَّهِ
فَكَرَّ وَعَمِلَ دَاخِلَ إِمْبَرَاطُورِيَّةٍ مِنْ إِمْبَرَاطُورِيَّاتِ الْعَصُورِ الْوَسْطَى وَهِيَ فِي زَوَالٍ ،
بِدَلَالٍ مِنْ أَنْ يَكُونَ خَارِجَهَا ، فَكَانَ عَلَيْهِ ، إِذَا ، أَنْ يُغَيِّرَ فِي الشَّكْلِ ، وَيَنْعُشَ
بِدَلَالٍ مِنْ أَنْ يَرْفُضَ .

وَقَدْ حَافِظٌ تَطَلَّعَ وَلِيَّ اللَّهِ إِلَى إِسْلَامٍ نَقِيٍّ مَظْهَرٌ عَلَى مَسْحَةِ صُوفِيَّةٍ . وَأَتَكَرَّرَ
هَذَا الْمَصْلُحُ انْخِلَالُ أَعْمَالِ الصُّوفِيِّينَ الْفَاسِدَةِ فِي زَمَنِهِ ، وَضِلَالُ النُّظَرِيَّاتِ
الصُّوفِيَّةِ الْمُنْطَرِفَةِ . وَهَاجَمَ الْفُتُورُ الْمَتَسَاهِلُ الَّذِي تَسَامَحَ دِينِيًّا بِشَأْنِ الْمَجْتَمَعِ
الْمُتَفَكِّكِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كَانَ هُوَ نَفْسَهُ صُوفِيًّا (٤) . وَكَمْفَكَرَ ، لَمْ تَكُنْ أَهْمِيَّتُهُ ،
أُخِيرَ ، فِي نَضَالِهِ لِقَرَضِ تَفْسِيرِ الْإِسْلَامِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُوَحِّدَ بَيْنَ الصُّوفِيَّةِ وَالسُّنَّةِ
الْمُطَهَّرَةِ . وَلِذَلِكَ فَهُوَ فِي إِسْلَامِهِ أَشْمَلُ مِنْ ابْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ وَاعْتَمَدَ وَأَكْثَرَ
مَرُونَةً . فَهُوَ ، مِثْلًا ، يُوَدُّ أَنْ يَعْنَتِيَ جَمِيعَ الْمَذَاهِبِ الْفَقْهِيَّةِ ، وَيَنْعُشَهَا فِي
الشَّامِلِ الْإِخْلَاقِيَّةِ . ذَلِكَ أَنَّهُ قَبْلَ الْمَزِيدِ مِنَ التَّطَوُّرِ الْإِسْلَامِيِّ ، وَكَانَ فِي
أَصْلَاحِهِ تَائِبًا لِلْعَصُورِ الْمُتَوَسِّطَةِ أَكْثَرَ مِنَ الْعَصُورِ الْكَلَّاسِيكِيَّةِ .

يَبْدُو أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ عَنْ ذَلِكَ فِي التَّأَكِيدِ عَلَى أَنَّ الْمُسْلِمَ الصَّحِيحَ يَجِبُ أَنْ لَا يَقْبَلَ
بِالْأَخْبَارِ الْمَعَاوِرَ . وَكَانَ طَمُوحُهُ السِّيَاسِيَّ يَتَجَلَّى فِي دَعْوَتِهِ لِاسْتِعْمَادِ السَّاطَةِ
الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْهِنْدِ بِصُورَةٍ تَشَابَهَ ، كَثِيرًا أَوْ قَلِيلًا ، النَّمُودَجِ الْمَغُولِيِّ (٦) . وَكَانَ
يَرَى أَنَّ الْإِسْلَامَ النَّقِيَّ يَجِبُ أَنْ يَسُودَ ، كَمَا يَجِبُ أَنْ يَتَعَلَّى الْمَجْتَمَعُ الْإِسْلَامِيُّ

الجلديد بسابق عظمته وقوته .
 ' هذا ، ولم تنتظم بعض آرائه الإصلاحية في حركات سياسية اجتماعية إلا
 في القرن التالي ، وذلك في أيام ابنه عبد العزيز (١٧٤٦ - ١٨٢٤) ، وإلى
 حد تحت زعامته ، وأيام حفيده اسماعيل (١٧٨١ - ١٨٣١) . وكان المجتمع
 الإسلامي - الهندي في هذا الوقت قد تزايد اضمحلاله ، وبصورة واضحة
 للعيان في السلطة السياسية ، حيث كان الضعف يجتذب الدول العلوانية الخارجية ،
 وعلى وجه التعيين نقول ان حكماً واسعاً وقوياً اقامه الشيخ في شمال غربي الهند
 قد أراح ما تبقى من حكم المغول المضمحل ، وحل مكانه . واستقر
 البريطانيون في البنغال . وكانت سلطة هندوسية قد انتعشت في الهند الغربية .
 وعليه فافئنا نرى ان الحركة الرامية الى البعث الإسلامي انما تعبر عن
 نفسها في اتجاهين : ضد الانحلال الداخلي ، وضد الخطر الخارجي او السيطرة .
 أما الذين كانوا يستوحون التأكيد الجديد على ضرورة لإنعاش الإسلام وتطهيره
 من الشوائب ، فقد كتب مفكروهم ، وعملوا ضد الذين يسيئون معاملة المجتمع
 الإسلامي ، ودعا غيرهم ضد الحكام الكفرة الجدد وحاربهم . وقد اتخذت
 هذه الدعوة شكل الحياة القوية المنسقة ، وخاصة بزعامة ذلك المجاهد القدير
 سيد أحمد برلاوي (١٧٨٢ - ١٨٣١) (٧) . وكان الكثيرون من المسلمين
 قد استجابوا إلى دعوته للثورة على الشيخ في البنجاب ولفرض حكم «إسلامي» ،
 أو حكم للمسلمين على انفسهم (وغيرهم) في تلك الانحاء . وكانت الحملة على
 أي حال جد منظمة ، مما أدى إلى نجاح بعض المعارك . وقد نودي بسيد أحمد
 «خليفة» في بشاور إلى حين (١٨٣٠ - ٣١) . والذين قفوا عليهم من زعماء
 هذه الحركة في نهاية تلك الأعمال العسكرية الباهرة اكتسبوا لقب «الشهيد» ،
 بينما استمرت الحركة نفسها في شكل محاولة مرية لبعث سطوة المسلمين ونفوذهم .
 ويمكن للمرء ان يقارن هذه الحركة بالحركة الفرائضية (٨) في البنغال وقد جاءت
 أيضاً في مطلع ذلك القرن . وقد يكون لحركة بشاور اتصال ، فيما بعد ، بثورة
 عام ١٨٥٧ . وهي آخر جيشان في النضال الرامي إلى استرجاع الحكم
 الإسلامي القديم .

على أن أبعد وأوسع من هذا كله ذلك الثبات الذي تجلّى في مثل تلك الحركة
وقومها الدافعة . إذ إن المحاولات التي استهدفت ازاحة الكفرة ، يمكن أن
تُحمد ، وقد أُحمِلت ؛ أما المحاولات الرامية الى تجديد المجتمع الإسلامي
وتطهيره ، واستعادة عظمته ومجده ، فيجب ان تستمر ، وبالتالي يجب تذكيره
بأنه أهل في مصيره لتحقيق هذين الهدفين . وقد بقي الحلم ببلولة اسلامية -
هندية يراود ويثير الجمهور (٩) حتى القرن العشرين . وعلى الرغم من أن
الزعماء كانوا ، الى حين ، يتطلعون إلى شيء آخر ، فإن الجماهير قد حافظت
على فكرتها المثالية وهي إعادة بناء مجتمع اسلامي حقيقي عظيم في الهند .

هذا الاتجاه المزدوج يقودنا إلى النقطة الجوهرية الثانية في الإسلام الحديث .
فإلى جانب الاحتجاج على التدهور الداخلي ، كان هنالك الاحتجاج على التعديلات
الخارجية . ومهما كانت حركات القرن التاسع عشر الهندية محلية في تفاصيل
تطورها الخاص ، فهي في احتجاجها على التعديلات الخارجية تكاد تنفق وجميع
الحركات في العالم الإسلامي كله ، ادراكاً وسعياً لرفض التدهور من الداخل
والتعدي من الخارج . أما التعدي من الخارج فقد بقي طوال مائة وخمسين عاماً
يهدد المجتمع الإسلامي باستمرار : ضاغطاً على مناطق شتى ، بقوى مختلفة ،
وأشكال متنوعة ، ولكنه في جوهره كان تعدياً مستمراً . وقد تكون الحركات
الاسلامية جميعها ، في سائر أنحاء العالم الإسلامي ، خلال تلك الحقبة ، قد
أخذت في هذا النضال بسبيله .

ولم تكن تركيا مستثناء من ذلك في اوائل هذه الحقبة الحديثة . على أن الأتراك ،
إلى ذلك ، كانوا قد بدأوا يتجهون وجهات اخرى ، أدت بهم إلى معالجتهم
للمضية بصورة جد مختلفة ، ومع ذلك فقد حدث بينهم في ذلك الحين ، والواقع
منذ اوائل القرن الثامن عشر ، تطورات كبرى كانت ترمي الى إيقاف الانحلال
الذي يبعثه في مجتمعاتهم غير المسلمين ، وإلى مقاومة تعديلات الكافرين على
بلادهم . فمن ابراهيم موتفركه (١٦٧٤ - ١٧٤٥) الى فائق كمال (١٨٤٠ -
١٨٨٨) كان ثمة ممثلون للحركة يتنادون بأن الإسلام الصحيح إنما يتطلب
استرجاع المجد للامبراطورية (١٠) :

الأفغاني

هذان الاتجاهان - الإصلاح الداخلي ، والدفاع الخارجي - يتجلبان في رجل كانت شخصيته محوراً للعالم الإسلامي في القرن التاسع عشر ، ألا وهو جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩ - ٩٧) . وتنعكس لنا فيه أيضاً نواح أخرى في الوضع المتطور ، إذ أنه هو الذي يمثل الاتجاهات الجديدة ، وهو الذي دفع بها قُدماً بعنف وقوة . ولما كان مشهوراً بتعاليمه الإسلامية الكلاسيكية ، فباستطاعتنا ان نقول بأنه يمثل الإسلام التقليدي أيضاً . والواقع انه كان الجامع المانع ، أو المسلم الكامل في عصره .

وقد شمل ميدان عمله ، جغرافياً ، ايران والهند والعالم العربي وتركيا ، وكذلك الغرب الأوروبي . وكان صوفياً وسنياً معاً ، كما أنه نادى بالاتفاق مع الشيعة . ولقد جمع الى علمه الإسلامي التقليدي ، معرفته بالشؤون الأوروبية ، وتعرفه على افكارهم العصرية ، علاوة على ما قلنا من أنه كان نفسه عاملاً فعالاً في الإصلاح الداخلي والدفاع الخارجي . وكان الافغاني يثير الحمية في الثورويين السياسيين والعلماء الموقرين ، كما أنه كان ينافح عن الحركات الوطنية المحلية والحركة الإسلامية . لقد كانت شخصيته وسيرة حياته ترمزان الى الكثير من التطورات الإسلامية المتلاحقة . والواقع ان القليل القليل من الحركات الإسلامية في القرن العشرين لم يتأثر بالافغاني او يرمز اليه .

ومع ذلك فان شهرته لا تعود الى كونه مفكراً من وجهة ابداعية او تنظيمية ، ولا بكونه من ناحية عملية منظماً أو مخططاً . وليس الذي يضفي على الافغاني أهميته ما أدخله في تطور العالم الإسلامي بل بلورته الأمور الى حذب الأرهاف اللاهب . ان أهميته أو خطورته انما تعود الى أنه جمع في شخصيته شتات العالم الإسلامي وصعوباته التي يعانيتها في عصره ، وراح يعمل ضد هذه الصعوبات بطاقة هائلة . لقد كان جامعاً ومنشطاً في ذلك . ففيما يتعلق بمشاكل المجتمع الجديدة ، تصدى لشئ عناصره دون تمييز ، متخطياً كل ما بينها من تفرقة . قديمة تقليدية . لقد كان معرضاً لاهباً نارياً . وقد استوعب بمحم حاله الإسلام في

منه ، وادرك بكل ما فيه من احساس مصيبة اخوانه المسلمين ، ولذا راح يحضهم بحماسة وثابة على وعي دقيق لوضعهم ، وعلى التصميم والعزم على اصلاح هذا الوضع .

ان الحركات الآتفة الذكر ، التي تصدّ بنا لها ، باستثناء الحركات التي جرت في تركيا ، قد قدّرت انحلال المجتمع الإسلامي الداخلي بالمقياس الإسلامي . الكلاسيكي ، وقاومت حكام ذلك المجتمع غير المسلمين ، أو أعداءه بأساليب عملية مباشرة على غير إعداد لمثل ذلك . أما فيما يتعلق بالأفغاني فقد تعرضت كلا القضيتين لمزيد من الوعي الذاتي الحكيم . ففي هذا الوقت كان الحلل الداخلي قد زاد اتضاحاً ، كما زاد التطرق والضغط الأوروبيان ابغلاً وعبثاً . وكانت عبقرية الأفغاني هي التي ترى الوضع رؤية جامعة شاملة وفيها بعد نظر . لقد أدرك ان العالم الإسلامي كله ، وليس هذا الجزء أو ذاك ، هو المهدّد ، والذي يهدده هو الغرب بكلّيته القوية الديناميكية . وقد رأى ، بالنسبة الى تلك الكلية ، او على أساس المقياس الاوروبي ، ان العالم الإسلامي بكامله ضعيف . وأدرك من ناحية اخرى ان هذا العالم مهدد بضعفه ووهنه . ان المصلحين الأوائل قد نادوا بأن حالة المسلمين الاجتماعية كانت خاطئة ، أما الأفغاني فقد أكد على أنها ضعيفة .

ولسنا نستطيع ان نتبع التفاصيل ، غير أنه يجب علينا ان نذكر ما كان هنالك من وزن للتحرير السياسي المباشر العظيم ضد الاستعمار الأوروبي ، وخاصة البريطاني ، الذي كرّس الأفغاني نفسه لمحاربته في لندن وباريس وفي بلاده . لقد كان في الواقع تحريضاً حماسياً عنيفاً . أما الأفغاني ، فكان الى ذلك كله - أول مسلم مصلح يستخدم تعبير « الإسلام » و « الغرب » كظاهرتين تاريخيتين متلازمتين - وطبعاً متخاصمتين . وهذا التناقض ، كما هو معروف ، قد أصبح منذ ذلك الحين قياساً في التفكير الإسلامي كله . وانه لمن المجدي المثير ان نسبر غور الوحي الإسلامي (خارج تركيا) في ادراكه لشبح الغرب ، كقوة متهمّة مهددة . لقد أصبح ذلك واضحاً عند الأفغاني ، كما أصبح رد الفعل.

عنده قوياً فعلاً .

وكذلك يخرج عن نطاق دراستنا تفاصيل الأعمال المباشرة والمؤامرات التي قام فيها الأفغاني بدور في الشؤون السياسية الإسلامية الداخلية ، وخاصة في إيران . واننا لنستطيع ان نشير هنا الى علاقته بقضية احتكار التبغ في إيران وتحريضه ابتداء من عام ١٨٩١ حيث أوحى لزعماء الشيعة الدينيين بأن يقودوا مظاهرة احتجاج كبيرة ضد الشاه وزيادته الطين بلة في اضعاف المجتمع الإسلامي وذلك بتسليم المزيد من موارد الأمة الى « أعداء الإسلام » . اي إلى مصالح الاوروبيين المالية . وكان الأفغاني ، كذلك ، ذا علاقة بالأعمال التي أدت إلى اغتيال الشاه عام ١٨٩٦ . أضف إلى ذلك أنه لم يكن بعيداً عن ثورة عراقى المصرية التي قامت ضد الحكم الداخلى السيئ عام ١٨٨٢ . كما أن تأثيره القوي قد أثار السخط في غير ذلك من الأقطار الإسلامية ، وحوّله الى اصلاح عملي ، وان كان ذلك التأثير أقل مباشرة في تلك البلدان .

ومن الأهمية بمكان كبير ، بالنسبة الى التطور الذي نحاول ان نتبعه ، ايضاح نقطة اخرى تظهر لأول مرة عند الأفغاني ، وهي وجهة تطور جديدة في الوعي الإسلامي المعاصر ، ونعني بها ذلك الحنين الواضح لما زال من العظمة الدنيوية للإسلام الأزلي . وقد استطاع الأفغاني ، بخطبه البليغة الثائرة التي لم يكن ليكلّ من القاها أو يعلّ ، ان يلهب الجموع في الأقطار الإسلامية قطراً بعد قطر ، وان يوقظ فيهم الوعي لما كانوا عليه من قوة ، وما هم عليه الآن من ضعف ووهن . ان ذاكرتهم لم تكن ميتة ولكنها ناسية على كل حال ، وكانت خالية من القدرة على التصوير والتحديد . لقد كانت شعوراً أكثر منها صورة واضحة لعظمة ماضية . وقد استطاع الأفغاني بتحريضاته واثاراته ان يستخلص رد الفعل الحي الذي تشعب وتفرّع في المجتمع الإسلامي . والواقع أنه بالإضافة الى الإصلاح الداخلى والدفاع الخارجى ، قد أصبح نزعة استرجاع عظمة المسلمين السابقة انجهاً ثالثاً للإسلام الحديث . وقد تطورت هذه تطوراً واسماً طيما يعد .

وهناك عناصر أخرى نلاحظها في موقف الأفغاني ، تمثل وجوه الوضع البحاري الذي تطور فيما بعد تطوراً هاماً . وقد كنا لاحظنا قبل ذلك تشجيعه للأعمال الوطنية المحلية - الإيرانية والعربية والهندية الى غير ذلك - كما شجع الشعور نحو الوحدة الإسلامية .

وقد أظهر الأفغاني ، أيضاً ، شيئاً من التقدير للفكر وللقيم الغربية ، وخاصة تكتيك الغرب وعلمه . لقد رأى أن الغرب هو الشيء الذي يجب ان يقاوم أولاً ، ذلك لأنه يهدد الإسلام ومجتمعه . ولكن يجب ، ثانياً ، أن يقلد الى حد . ولا ريب ان الأفغاني كان قوياً في تحريضه مستمعيه المسلمين على تطوير العقل التكنولوجي تماماً كما يفعل الغرب ، حتى يصبحوا أقوياء .

وثمة عنصر بارز موثر آخر ، هو تأكيد الشديد على ان انبعاث الإسلام على الأرض ، انما هو مسؤولية المسلمين أنفسهم . فيجب ان ينهضوا ويعملوا ، إذ أن مستقبلهم لا يكون عظيماً الا إذا عملوه هم عظيماء . ولقد حضّتهم على ان يتخلوا عن التسليم بواقع الأمور ، وان ينفضوا ذهولهم ، حتى ينغمسوا بقوة في العمل والقيام بالواجب الضخم ، واجبههم هم أنفسهم في خلق طراز من العالم الإسلامي يجب ان يكون . فالآية الكريمة التي تقول : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (س ١٣ آية ١١) ، والتي كانت لبضعة قرون لا يؤكلون عليها ولا تنثر في نفوسهم شيئاً ، قد استفاد منها الأفغاني في حثه الحماسي . وقد أنشأ حول هذه الآية الكثير من الخطب ، بأسلوب اتسع مداه كثيراً منذ ذلك الحين . فتلاوة هذه الآية ، على الأخص ، وعزم المسلمين العام على ان يجددوا هم بأنفسهم التاريخ الديني لمجتمعهم ويملوه من جديد ، قد أصبحا قياساً لهم في الوقت الحاضر . والواقع أنه لا يقاس اي تحول اسلامي وقع خلال المائة سنة الماضية بالتحول الذي وقع منذ فترة القصور الذاتي الخالد - الذي ادعى بمراقبي القرن التاسع عشر الى ان يقولوا عن العالم الإسلامي (وحتى عن الإسلام) انه ساكن قلدي ، ان لم يكن في التزع الأخير - حتى غلبان الوقت الحاضر الشديد .

والواقع ان هذا التحريض على العمل ، والتحول من حالة خمود غير مسؤولة الى حالة التصميم الذاتي ، قد انتقل الى الأمام وانقلب الى حركة جياشة فوارة على تبة عليها . فالأفغاني نفسه لم يكن لديه برنامج واضح ، ولا فلسفة منظمة . الا أنه كان يتجلى بطاقة وافرة وبراعة ، مما حمل الآخرين على العمل بحماس . ثم ان النشاط الفعّال الذي تميّز به قد أصبح من صفات التطور الإسلامي منذ ذلك الحين . وقد صاغ ذلك بوضوح الشاعر اقبال (١٢) ، ويتجلى في اعمال الحركات العديدة (الأخوان في العالم العربي ، والحكسار في الهند ، والقاشاني في ايران ، ودار الإسلام في انلونيسية مثلاً) (١٣) . نعم ان ذلك النشاط قد سرى ، في الحقيقة ، باعمال الإسلام الحديث الذي كانت نهضته جياشة فوارة أكثر منها مفكرة ، كما استهدف استرجاع حيويته أكثر من استهدافه ، في الواقع ، تحديد محتويات الإيمان واساليه مرة أخرى .

لقد كان الأفغاني ، كما قلنا ، رجلاً مُهمّاً ، لأنه مثّل هذه الاتجاهات وابقظ فيها النشاط والحيوية . ولا ريب ان هذه الاتجاهات نفسها هي التي تتطلب الاهتمام ، اذ أن تطورها على ايدي رجال وجماعات اخرى طوال العقود المتلاحقة من السنين ، قد كوّن ، تقريباً ، القصة الأخيرة للدين . والأفغاني ، بصورة خاصة ، هو الرجل الذي يظهر جلياً منه انه اهتم اهتمام شغف وانفعال بالدفاع عن الناحية الدنيوية في الإسلام ، واعادة النشاط اليها . ورأيه وقراره قاما على أن التاريخ الإسلامي سيسير إلى الأمام ، مرة ثانية ، بالحقيقة الكاملة والعظمة الكاملة ، وقد أصبح الملهم للمسلمين في معظم أنحاء الحياة العصرية وحب التجديد .

التطورات الأخيرة

كانت التطورات الأخيرة لتلك الاتجاهات ، اي الدفاع والنشاط الداخلي ، تطورات قوية واسعة . وكان الكثير منها ، عن طريق مباشر او غير مباشر ، ذا صلة بحركات الوهابيين او ولي الله او الأفغاني . كما أن البعض كان

مجارياً ، نوعاً ما ، لتلك الحركات ومستقلاً عنها . على أن جميع تلك التطورات كانت ، في طبيعة الحال ، معقدة . ومن البعث أن نزيد من تبسيط الحركات الإسلامية الأخيرة ، قاصرئنها على طابع عام محصور . كذلك من التضييل ، في الوقت نفسه ، أن نحذف من تفاصيل كل حركة الشكل الإسلامي المشترك والدافع الإسلامي العام اللذين يربطان بين هذه الحركات والماضي الذي لا يزال حياً ، كما يربطان الحركات نفسها بعضها ببعض .

ومن المحاولات الجماعية الشيطة ، التي عبرت عن نفسها بوضوح ، نستطيع ان نذكر الحركة السنوسية في ليبيا (وقد بدأت عام ١٨٤٢) (١٤) ، وحركة المهدي في السودان (ابتداء من ١٨٨١) (١٥) ، وحركات عام ١٨٩٠ الايرانية (وقد سبق ان أشرنا إليها) ، والحركة الدستورية (التي بلغت اوجها عام ١٩٠٦) (١٦) ، وحركة ساركات اسلام ، والحركة المحمدية في اندونيسيه (ابتداء من ١٩١١) (١٧) الى غير ذلك . وكان لكل ظاهرة محلية من هذه الظواهر اسبابها المباشرة من اقتصادية وسياسية وغيرها من العوامل الخاصة بكل منطقة على افراد . ولا ريب ان لكل حركة مكانها في التاريخ المحلي ، ويمكن ان تدرس على هذا الأساس ، ومع ذلك فان لكل منها أيضاً ، مكاناً للدراسة شاملة ، كما فعلنا ، تعكس لنا التطلع نحو ازدهار جديد ، كما تعكس لنا ، بصورة أخص ، وجوه ذلك الاحتجاج الضخم على الانحلال الداخلي والتعدّي الخارجي .

هذا ، وتبين لنا حركة الخلافة في الهند (١٩١٨ - ١٩٢٤) (١٨) ، تلك الحركة التي أذهلت الأجانب ، مقدار التوتر الانفعالي الذي أدرك به المسلمون التفكك الديني الذي أصاب القوة الإسلامية التقليدية ، والذي جاء به رد الفعل ضد ممثلي هذا التفكك . وهي حركة تكشف عن الرغبة في النضال في سبيل استعادة القوة ، حتى لو لم يكن هنالك برنامج واضح . وان حادثة ، كحادثة حيدر آباد الفاشة التي وقعت في الهند عام ١٩٤٨ لمثل واضح اذا ما درس هذا المثل وفهم على ذلك . لأساس . فها هنا ، أيضاً ، محاولة ضارية جاءت لتقاوم ،

من التاحيتين السيكلوجية والعملية ، عوامل التفسخ في عظمة الإسلام الدنيوية.
التي تراءى لهم أنها في طريق الزوال (١٩) .

هذه حركات سياسية قامت بها المنظمات او الجماهير ، غير أن هنالك تعابير
فنية وخيالية لحالة المسلم الحديث . فقد لاحظنا كيف كان الأفغاني بخطبه الرائعة
يعبر عن الحنين التاريخي او حلم المجد الغابر . وقد تطور هذا الاتجاه كثيراً منذ
ذلك الحين في أنحاء العالم الإسلامي . ونجد في الهند أبلغ مثال على ذلك وهو مرثاة
الشاعر هالي الرائعة المسماة « مسدس » (١٨٨٦) (٢٠) فهي تستعيد
الآبئة الإسلامية الزائلة بأسلوب مشرق ، وتنفذ الى أعماق قلوب الجمهور .
ومن الأمثلة اللاحقة « شكوى » قصيدة شاعر اقبال النفيسة (١٩١٢)
(٢١) . وله أيضاً « مسجد قرطبة » (١٩٣٥) (٢٢) . وأشبه ذلك .
ونجد في النثر كتاب أمير علي « موجز التاريخ الإسلامي » (١٨٩٩) .
(٢٣) (Short History of the Saracens) . ومع انه قد وُضع ليقرأها
الغربي ، وليتوقف بها المسلم ايضاً ، الا أنه كتاب يبين وضاء للجميع .
أما في العالم العربي ، فيمكننا ان نذكر كتاب جورجى زيدان « تاريخ التمدن
الإسلامي » (١٩٠٢ - ١٩٠٦) (٢٤) . ولا ريب أننا نستطيع ان نصرب
مثلاً آخر ، كتاب شكيب ارسلان « لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم »
(١٩٣٠) (٢٥) . وقد نقل هذا الموضوع المثير مصلر انلونيسى ، مطلقاً
عليه (شأن الأفغاني باستخدام آيات القرآن) بالآية الكريمة : « والله العزّة
ولرسوله وللمؤمنين » (س ٦٣ آية ٨) ، ومتسائلاً : « واليوم ، تُرى اين
ذهبت تلك العزّة ؟ هذه امثلة مشهورة من كتب طبع كل منها مراراً وتكراراً ،
وترجمت ، وما زالت حتى الآن واسعة الانتشار ، واسعة التأثير . وثمة مئات
من الكتب تعبر عن الاتجاه المذكور والتي تعتبر دون ما ذكرنا ، والوفه
القضايا والمقالات والخطب .

وانه لعل في الطموح ان نحاول ، مهما أوجزنا ، تتبع المزيد من قصة تلك
التطورات الإسلامية ، منطقة اثر منطقة ، وحادثة بعد اخرى (٢٦) . فاذاً مله

قدر لهذه القصة الكاملة ان تكتب ، عندئذ يكون بالامكان مراجعة الملاحظات والتوسع فيما أوجزناه هنا ، مما له علاقة بالاتجاهات الرئيسية التي يتبناها . ولكي نفهم الموقف المعاصر ، يجدر بنا ان نشرح عناصر رئيسية اخرى ، اشتملت عليها مرحلة التطور الثانية . وأعظم هذه العناصر هنا عنصران ، وهما التحررية والقومية . والتحررية والقومية تستحقان شيئاً من الاستقصاء النسبي ، ذلك لاحتحامهما التطور التاريخي للإسلام الحديث من ناحية ، وقبولهما لأن يساء فهمهما بسبب المقارنات الغربية الخاطئة . وثمة مشاكل اخرى عولجت بعناية مؤخراً ستعرض لها وخاصة النتائج الاعتدالي والقوى الديناميكية ولكن هذه المعالجة ستكون موجزة بعيدة عن التفصيل .

التحررية (المبرالية)

هناك اتجاه ، في الناحية الاخرى من التطور الإسلامي ، ظهر في طليعة هذا القرن ، قد يصلح ان نسميه التحرر الفكري الإسلامي .

ويوجد في التراث الإسلامي الماضي عنصران رئيسيان كان لهما نصيب في بعث التحرر الفكري الإسلامي ، وهما الفلسفة والصوفية . أما الناحية الفكرية في الأولى والناحية الانسانية في الثانية فتوفران الأسس الهامة للتفسير الجديد . وكان ذلك ، بالتأكيد ، هو السبب في ارتباب المحافظين بهما ، وما يزالون يرتابون حتى اليوم . والحقيقة ان البعث الجديد للإسلام الكلاسيكي ليشتمل على رفض قوي مجدد للقوتين المنحدرتين هاتين . وقد سبق لنا ان أشرنا الى أن الحقبة الحديثة للتاريخ الإسلامي ، انما تبتدئ بمثل ذلك البعث .

لقد رفضت الحركة الوهابية الصوفية . وكان هذا الرفض واضح التأثير في العالم العربي (٢٧) . ومع ذلك فان مؤسس الحركة الوهابية ، ابن عبد الوهاب ، كان هو نفسه صوفياً عندما كان في الثلاثين من عمره (٢٨) . ذلك يعني انه — رغم حركته — غير مستثنى من القاعدة العامة ، وهي ان كل مصلح اسلامي كبير في العصر الحديث ، ييدي شيئاً من التأثير الصوفي العميق . ومن الأمثال

الأخرى على ذلك الأفغاني ، وعبد (٢٩) ، وغوكالب (٣٠) ، وأقبال . ففي العالم الذي يبدو فيه الشرع القائم ، وهو النظام الرسمي ، وكأنه أسلوب عاجز عن وضع الناس ، بصورة حيوية ، وجها لوجه أمام الخالق - في مثل هذا العالم يمكن للبعض ان يقولوا بأن الصوفية توفر عاملاً لا بد منه في اي صورة منشطة للدين . (ومهما كان الأمر ، فانه لمن الحقيقة بمكان ان مرونة الصوفية انما ادت الى انحطاط نظمها ابان فترة الانحلال التي تلت عصور الإسلام المتوسطة انحطاطاً شديداً يبرز تدهوراي من نواحي المجتمع الإسلامي . فالصوفية نفسها قد احتاجت الى تطهير خطير) .

هذا وقد رفض كل من الحركة الوهابية وحركة ولي الله المذهب العقلي . والواقع ان ذلك قد اعتبر تفسيراً رئيسياً للوهن المتواصل الذي أصاب الناحية الفكرية في الإسلام الحديث (٣١) . وفي الحقيقة ان مبدأ الرفض يرجع الى أبعد وأعظم من ذلك ، فاذا لم يتيح للصوفية ان تكون مقبولة قبولاً تاماً لدى الزعماء الروحيين ، فان المذهب العقلي لم يكن مقبولاً بالمرّة . وهناك من المسلمين من رأى ان ادخال الفكر اليوناني الى العالم الإسلامي يمثل خطراً أشد على الدين من خطر الصليبيين او الغز والمغولي . ولقد ارتاب بعضهم حتى بعلم الكلام . أما ضريب عالم اللاهوت المسيحي ، فهو كما قلنا سابقاً ، المتشرع المسلم ، الذي يقول بأن واجب المسلم الأسمى هو ان يعمل العمل الحق اكثر من ان يعرف الحقيقة . ونذهب الى أبعد من هذا فنقول ، ان الصوفية ، كما رأينا وفهمنا ، قد أصبحت مألوقة في الفترة التي سبقت العصر الحديث ولو انها على غير اساس . أما الفلسفة فقد كانت حتى في ريعان زهورها العربية مقصورة على قبضة من النخبة . ومع ذلك فقد استمر التراث . وقد بدا المذهب العقلي في الماضي القريب ضعيفاً مرة أخرى ، اذ طغى عليه الانعاش المعاصر للإسلام المحافظ . على أنه أصابه شيء من الأزدهار في طليعة هذا القرن ، بحيث ترك طابعه فيه ، وانه ليؤمل ان يصبح هذا الأزدهار من سمات الحياة العقلية مرة أخرى .

وثمة عامل ثالث في التحررية الإسلامية ، وهو تدخل الغرب . فالتحررية

الاوربية كانت في ذروتها ما بين اواخر القرن التاسع عشر حتى الحرب العالمية الأولى ، ومثل ذلك يقال عن التقدم الأوروبي . وكثير هم المسلمون الذين ذهبوا الى الغرب وتعرفوا على روحه وقيمه ، وأعجبوا بهما ، الى حد . وينطبق ذلك ، خاصة ، على اولئك الطلاب الذين طلبوا العلم والتدريب جامعاته باعداد متزايدة . لقد ورد الكثير من الغرب الى العالم الإسلامي - وفي طليعة ذلك تلك المؤسسات التعليمية التي تفتت جيلاً من الوطنيين ، وعرضتهم للحياة العصرية الغربية . وورد ، فيما ورد ، أفكار جديدة عديدة لا يقل عنها أهمية الافتراض السابق لتلك الأفكار ، وكذلك تقدير جديد للقيم ، واتجاهات جديدة كانت تنشرها تلك الأساليب التعليمية . أضف الى ذلك المزيد من دخول المدارس الغربية والعصرية من قانونية وسياسية واجتماعية وغيرها كثير : وكانت هذه المدارس في بعضها تفرض فرضاً ، وفي بعضها الآخر يُسعى خلفها . وقد قاومها بعض المسلمين ، ورحب بها البعض الآخر ، أو أعدوا للترحيب بها ، أو رحبوا بها تدريجياً ، وأخيراً راح الكثيرون من المسلمين ينظرون اليها على أنها شيء مسلم به . وهكذا استمرت العملية بخطى واسعة :

وكنا ذكرنا ان الغرب كان يُنظر اليه ، أولاً ، كخطر خارجي يهدد المجتمع الإسلامي . ويمكن ان يُعتبر هذا الدخول الجديد ، أي صبغ المجتمع الإسلامي بالصبغة الغربية داخلياً ، لونا أدهى وأمر للخطر ذاته : عاملاً كطابور خامس لتفسيخ روابط المجتمع من الداخل . ثم ان امكانيات تدميره للتاريخ وللمجتمع الإسلاميين يمكن ان تنلر اولئك الذين ينظرون الى هذين الامرين كتنفيذ وتضمين لفروض الله كما عرفت في الحقبة الكلاسيكية . وسرى ان هذا الموقف من الاصطباغ بالصبغة الغربية قد برهن في عقود السنوات الأخيرة على عنفه وشدته . أما الآن فاهتمامنا يتوقف على الإشارة الى ان سلوكاً مختلفاً قد أخذ يعبر عن نفسه الى جانب السلوك الأول لفترة من الزمن ، وهو ذلك السلوك الذي يرحب بالتحورية الغربية ، فعلاً ان لم يكن اسماً ، والذي يسعى الى دمجها في الإسلام او التأليف بينها .

ولقد كان الانسجام ، في حالات كثيرة ، مسموحاً به أكثر من كونه انسجاماً خلاقاً . وكان يتاح للمرء ان يكون مسلماً ومفكراً متحرراً على الطريقة الغربية ممّا دون تناقض ، ولكن دون توليد أي اسلوب جديد يمكن ان يؤدي إلى احلام جديدة بناءة ، ومغامرات جديدة . وينطبق ذلك أيضاً على الحركات الأكثر وطنية والتي يمكن ان تعتق في سبيل الإسلام السبيل العقلي الساري في التراث التاريخي . وهذا يقدم البرهان على ان الإسلام الموحى به والعقل متناسبان متلائمان ، وهو برهان لم تكن الحاجة اليه طاغية بهذا الشكل لقرون عديدة خلت . بيد ان هذه الحركات قلّما توقفت من العقل ان يولّد حقيقة دينية جديدة ، ولا نظرت الى مثل هذه الحقيقة على أنّها ، في جوهرها ، مقدسة ، ومع ذلك فقد تمت بعض الأعمال الأصلية الخطيرة ، ذات القيمة البناءة التي لم تستهلك حتى اليوم .

التحررية — ونحن نستخدم هذا التعبير بمعناه الواسع — ليست نظاماً قائماً بالفطرة ، وليست بذات فحوى معينة ، او حتى اتجاه مقصود . كذلك نرى ان التحررية الإسلامية قد أوضحت أشكالاً عديدة ، مُصنّفة على نفسها ، كما يجب ان تُصنّف ، الصفة الفردية لأشخاص مختلفين ، منحوها التعبير ، وتقبلوا اخلاصها ووفاءها . ومن هؤلاء حاجي آغس سليم (١٨٨٤-١٩٥٥) وغيره في اندونيسيه ، والسير سيد احمد خان (١٨١٧ - ١٨٩٨) وحركة عليكره في الهند ، والداعي الشهير الى الحياة العصرية أمير علي (١٨٤٩ - ١٩٢٨) من جهة ، وغيره من المفكرين امثال شبلي (١٨٥٧ - ١٩١٤) وأبي الكلام آزاد (١٨٨٨ - ١٩٥٨) من جهة اخرى : والشيخ محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥) في العالم العربي . ويلحق بهم من رجال العقل نفر آخر كطه حسين (١٨٩١ -) ، وستغولاجي (١٨٩٠ - ١٩٤٣) وغيره في ايران (٣٢) وشناصي (١٨٢٤ - ١٨٧١) وثامق كمال (١٨٤٠ - ١٨٨٨) وعبد الحق (١٨٥١ - ١٩٣٧) وتوفيق فكري (١٨٧٠ - ١٩١٥) من بين الكثيرين في تركيا . وقد أوضح هؤلاء بعض نواحي هذه

التطور الواسع الانتشار (٣٣) لا جميعها .

ولا ريب ان المسلم الذي ينشأ اليوم في عالم كان اولئك الرجال قد فكروا
بكتبا فيه ، إنما هو في وضع يختلف ، دينياً ، عن وضع أسلافه قبل مائة عام ،
فلهذه من وسائل تفسير الأسلام ومعرفة الله والعالم ونفسه ما يختلف كثيراً عن
الوسائل التي يمكن ان يراها محيطة به ، لو ان الدين كان مجرداً من عملهم
ونشاطهم ، ومثلهم كما كان عليه من قبل . لقد كان ما حققه كل واحد
بمفرده من اولئك الرجال شيئاً عظيماً فكيف باعمالهم الأخاذة المثيرة الضرورية
التي تعتبر خطوة هامة في المغامرة الروحية والعقلية للإسلام .

وقد يكون من الخير ان ينظر الى أعمالهم على أنها أعمال لم تظهر أهميتها
كاملة بعد . فالخطوة الثانية في التطور الأسلامي قد تكون قضية تأثر على نطاق
أوسع واستيراد من الخارج أكبر وأعمق . وقد يؤثر ذلك في الجماعات
المركزية والمؤسسات الخاصة بالمجتمع الديني ؛ بينما التحررية والسيغ قد
كانت على ما لها من فعالية أمراً خارجياً من وجهة دينية . ونوع هذا التطور
بمتوقف اصلاً على الموقف الذي سيتخذه المجتمع أو بعض اجزائه من حيث
أخذ به بعين الاعتبار الجلي أعمال المفكرين المتحررين ونشرها أو الانقلاب
عليها وإهمالها . وفي الحالة الاولى يتوقف نوع التطور على مدى السيرة على خطى
اولئك المفكرين في الاستقصاء ثم جمع هذه النتائج جمعاً قوياً مخلصاً في
اطار الايمان .

ومهما كان الأمر ، فهذه قضية تتعلق بالمستقبل وبالمسلمين . واننا لا نضع
ذلك جانباً وحسب ، وإنما لن نخصص ، في مجالتنا هذه ، ما نتج عن ذلك في
الماضي بدقة . فهذا شيء يستغرق ميداناً رحباً جداً ، حتى لو قصرنا دراستنا على
بعض الأمثال الايضاحية لأعمال الحركة التحررية الأسلامية ، أو تتبعنا
تطورها العام كحركة من الحركات . ولقد جئنا ، في الواقع ، على شيء من
ذلك . فقد سبق لنا في احدى المناسبات ان عالجتنا الناحية الهندية (٣٤) من
الموضوع ، وان كانت معالجة غير وافية . أما ما فعله البروفسور غيب فقد كان

أهم من ذلك ، حيث أعطى للمسلمين وللأجانب تحليلاً تصويرياً للحركة
العصرية على نطاق واسع ، مع التأكيد على المجال العربي (٣٥) . أما التطورات
الایرانية (٣٦) ، والأندونيسية (٣٧) فقد بقيت في حاجة الى الدراسة . وكذلك
التطورات التركية التي كانت ، من بعض الوجوه ، أكثر التطورات نجاحاً (٣٨) .
هذا ، ويجب علينا ان نترك لغيرنا من الباحثين دراسة التاريخ الشامل للحركة
التحررية الشاملة ، او نتركها لوقت آخر . وعلينا هنا ان نقتنع بملاحظات
معينة على علاقة تلك الحركة بالمجرى الرئيسي للانبعاث الإسلامي . ثم
نحاول ان نعالج المشكلة الأساسية الخاصة بالتحررية ، والتي لا بد ان
تقابل الباحث في شؤون العالم الإسلامي المعاصر ، ونعني تأخرها الأخير . أما ما
يتعلق بالاسلام اليوم ، فالذي يحتاج الى شرح وايضاح ، هو ان التحررية
الفكرية ، التي تجلت في فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى ، آخذة في الضعف
والوهن مع مرور الأيام . الا في تركيا ، وربما في اندونيسية .

وواجب علينا ان نميز بين الأشخاص ، والقيم الرئيسية (والأفكار والنظم)
والقيم الدينية الشكلية (من افكار ونظم) . ونحن نرى ان التداخل بين اهل
التحررية والحركة نفسها والاسلام كانت علاقات دقيقة ، وفي بعض
الأحيان وثيقة ولكن ليس دائماً . وقد كان ، ولا يزال ثمة عدد كبير من أحرار
الفكر المسلمين . وكان هنالك قدر وافر من التفسير التحرري للاسلام ولكن
شرح الاسلام او المسلمين للتحررية قليل نسبياً .

ولنتقص ذلك بشئ من الأسهاب .

لقد مضت حتى اليوم بضعة أجيال على عدد كبير جداً من المسلمين ، قد
يكون مترايداً ، وهم يعيشون حياتهم كأفراد ، ويرعون الطموح لأنفسهم
ولمجتمعاتهم ، ويعملون الفكر على اسس تحررية مفهومة . وقد كانوا يلتقون ،
كأفراد ، ويندمجون مع ذوي التحرر الفكري في الديانات الاخرى على أسس
من المساواة الشخصية والاطمئنان والفهم المتبادل .

مثل هؤلاء الرجال لم يكونوا عديدين فحسب ، وإنما كانوا ذوي أهمية

عظيمة . فقد كان منهم الأكفاء لتبؤ مكان الزعامة في مجتمعاتهم في كل حقل من الحقول (باستثناء الحقل الديني) . وهم لم يملأوا معظم الفراغ في المعاهد التعليمية فحسب ، وإنما شغلوا في الواقع كبريات الوظائف ، وألفوا الكتب الكثيرة العدد ، وحرروا الصحف الرئيسية . وهم كذلك في الوقت الحاضر يشغلون المراكز الحكومية في كل دولة من دول المسلمين .

وملاحظتنا انه كلما ارتفعت مكانة المسلم في الزعامة في القرن الحالي ، كلما ازداد حرية في الفكر عموماً . هذه الملاحظة فيها خطأ قليل . فالأحرار ، وإن كانوا أقلية ، كادوا يصبحون أقلية مهيمنة قليلاً أو كثيراً في أنحاء العالم الإسلامي الحديث .

هنا نقول اذا كان ذوو التحرر الفكري أقوياء الى هذا الحد ، فلماذا تكون حركة التحرر ضعيفة إذن ؟ من أين جاء الضعف التدريجي في المجتمع الإسلامي للأفكار والتصرفات والمعتقدات والولاءات التي أوضحت المظهر المميز لهذه الجماعة المتحررة وايدته ؟ ربما حصلنا على تفسير ذلك اذا ما عدنا الى النظرة الإسلامية . إذ ان ظهور هذه العقيدة وانحلالها الحاضريه وان لنا بشكل واضح ، حديثين هامين في الانبعث التدريجي للإسلام في العصور الحديثة ، كقوة وكمجتمع . وعلى الأقل يجب علينا ان نستقصي مدى استقلال عقيدة التحرر الجديدة عن الإسلام ومدى اتصالها به . وسنلاحظ انه مهما كثر وتوثق ارتباطها به ، فالظاهر أنها لم تندمج به ولم تكن متممة له .

وقبل ان نتابع دراستنا ، هنالك تمييز آخر بين الآراء التي هي على مستوى نظري محض ، وبين الآراء العاملة المشحونة بالقوة والولاء الشخصي المسير . وسنرى ان هذا التمييز ليس هو تماماً نفس التمييز بين الحركة التحررية الدخيلة وتلك التي لها علاقة بالإسلام ، ومع ذلك فالحركتان متقاربتان .

ولقد قامت في السابق حركة تحررية طارئة قام بها احرار مسلمون وان كانت الحركة غريبة . وقد استمر وجودها الى حد انها شخصت وضماً كان اعداده من عمل الغربيين . وهكذا يقول أمير علي (٣٩) الذي يعتبر من بعض النواحي

أعظم هؤلاء ، ان غبون قد « استرقه » قبل ان يبلغ الثانية عشرة ، وانه ما كاد يبلغ العشرين من عمره حتى كان قد قرأ معظم ما وضعه شكسبير وملتون وكيكس وبيرون ولونغفلو وغيرهم من الشعراء ، بالإضافة الى روايات ثكاري وسكوت و« حفظ شلي عن ظهر قلب تقريباً » (٤٠) . وشيهاً بذلك نرى ان روايات توفيق الحكيم تقرأ كأنها مترجمة عن الفرنسية . ولهذا نرى ان لا أعداء الحركة التحررية في الإسلام ولا اصدقاءها يمكنهم التفكير في ان ينكروا أنها في الستين سنة الأخيرة تدن بالكثير للتحررية الأوروبية .

أما القيم التي استوعبت فكانت في كثير من الحالات قيماً حقيقية ثمرة ، ففسد المهتم تحرراً صحيحاً خلافاً في طبع الأفراد وفكرهم وعملهم . وفي حالات معينة أخرى نرى ان هذه العقائدية المستمدة من الغرب قد قبّلت دون ان تصبح ملكاً خاصاً . فهي لم تبعث اي حماس ، وانما حملت أتباعها المسلمين في تيار تدفق حول الشخصية ، دون ان ينفذ الى أعماقها . وفي كلا الحالتين بقي الأشخاص مسلمين بصورة واضحة . أما في الحالة الثانية فلا ريب ان الولاء الديني قد كان الى حين ، شأنه شأن الولاء للتحررية فائراً ، وان استطاع اخيراً ان يتحرك مرة ثانية . وأما في الحالة الأولى فان الذين ساهموا فيها بمنف قد أضفوا على حركتهم تعبيراً فكرياً في اسلام متحرر . وأفضل مثال نصرته ثانية أمير علي ، الذي قد يعتبر كتابه النفس « روح الاسلام » Spirit of Islam (٤١) أعظم عمل فردي في هذا الاتجاه كله . ومن الكتب المشرقة بهذا الصدد في العالم العربي سير النبي الكثيرة التي ظهرت في العقد الرابع من هذا القرن بأقلام طه حسين وهيكال والعقاد وغيرهم (٤٢) . وهكذا اكتسبت النظرة الجديدة الخاصة بهذه الجماعة تفسيراً اسلامياً اصيلاً منظماً فربط بين تحررها الفكري وبين اسلاميتها ليس بوضع الأمرين الواحد قبالة الآخر فحسب ، وانما من حيث الفحوى والشكل . ولا شك أننا نرى هنا قلاماً خلافاً .

يبد ان هذه العقائدية رغم ما لها من تأثير لم تبرهن على أنها ناقلة لعلوى

او ملهمة ، أو حتى مؤيدة . لقد أثارت الإعجاب والتقدير (٤٣) ، لكنها لم تكن مقنعة . ولو تفحصها المرء عن قرب لاكتشف أنها ليست تحرراً فكرياً سلامياً . وقد يصعب على الانسان ان يفكر بعمل رئيسي او كتاب مهم يعرض فيه مؤلف مسلم التحررية كمسلك مستقل او ملهم ذي قيم جوهرية قوية دافعة (٤٤) . ولكنه يستطيع ان يشير الى الكثيرين ممن أوضحوا الاسلام كقوة محررة ، فينالون بذلك الثناء والاستحسان لا للولاء . ان شرح التراث اشتمل على نتائج لا على مقدمات التحرر الفكري . وقد كان ذلك الشرح كافياً بالنسبة الى اولئك الذين كانوا قد اقتبسوا القيم الفكرية التحررية من مصادر اخرى ، الا أنه لم يكن الوسيلة لتلقي تلك القيم الى القارئ منذ البداية . فالحركة لم تحدم في مجال الحفز على بحث اصلاح خلاق ، أو على إنعاش الولاء المضمون للقيم الإسلامية .

وكان هنالك حركة تحرورية اسلامية اخرى مست مركز الزخم في الدوافع الإسلامية ، ونفذت الى أعماق قلوب المسلمين . ولدينا تعميم يظهر تاريخياً أنه صحيح ، وهو ان اولئك الذين استلهموا وحيهم في حركة التحرر الفكري من الغرب ، انما حققوا نتائج كانت اكثر تحرراً ، بينما اولئك الذين استلهموا وحيهم من الماضي الإسلامي ، انما حققوا نتائج كانت أطول عمراً ، وأبعد نفاداً ، وأعمق بلوراً . فقد كان محمد عبده مثلاً أقل كياسة ، وأقل انفتاحاً ، وأقل طلاوة وسحرآ في «عصريته» (٤٥) من امير علي أو خليفة عبدالحكيم (١٨٩٤ — ١٩٥٩) (٤٦) ، ولكنه كان أبعث منهما كثيراً على النشاط والحركة . وكذلك نرى ان عبيد الله سندي ، وأبو الكلام آزاد في الهند ، ورشيد في طهران ورشيد رضا في القاهرة كانوا أقل إنتاجاً للكتب القيمة من خودا بخش او يوسف علي أو عباس إقبال أو أحمد أمين ، ولكنهم كانوا أشد إثارة وأبعث إلى العمل (٤٧) . ولرب سائل يسأل عن فائدة الجمع بين هذه التطورات المختلفة تحت عنوان واحد . ترى أليس من الأفضل التفريق على الأقل بين التحررية ذات الصبغة الغربية ، وحركة الاصلاح الحديث الوطنية ؟ ومع ذلك فللمرء

مبررات ، ان لم يكن مجبراً على ذلك ، في معالجة الحركتين معاً على اساس اعتبارين اثنين على الأقل . الأول له علاقة بطبيعة القيم التحررية نفسها ، كاهتمام كل انسان بشخصيته كفرد ، وقدرتها المتميزة على النمو ، وحريتها الفائقة ، ومسؤوليتها الداخلية ، واهتمام المرء بان يرضي عقله المفكر بكل الأنظمة ، والسلطة العامة : ونحن نعتقد ان هذه القيم ان هي ، في الواقع ، الـ قيم عالمية ، مهما كان شأن بعض « الحركات » التحررية المعنية مما يعود الى العصر الفكتوري وغيرها . ان النماذج الشكلية للاراء التحررية لها توارىخ محدودة ، أما مواقف التحرر الفكري فيجب ان يعترف بها كما هي أيا ن تقع وتحدث .

ثانياً ان الاتجاهين في التاريخ الإسلامي قد تداخلا بعضهما ببعض في الواقع لا في النتائج المتشعبة في الجماعة وحسب ، وانما كذلك في الحالات الفردية . وكان تأثير كلا الطائعين في الأجيال الطالعة تأثيراً واسعاً ، وغير مختلف على وجه الأجمال . والحقيقة ان الزعماء أنفسهم لم يجعلهما متباينين . ان طه حسين المفكر تفكيراً حراً على الطريقة الغربية كان ، قبل دراسته في باريس ، من تلاميذ العقلي الإسلامي محمد عبده . وخلاف ذلك كان العقلي الإسلامي الهندي شبلي ، بادئ ذي بدء ، تلميذاً للسير سيد وهو غربي الفكر ، وفي كلا الحالتين كان التأثير الأول يبنناً واضحاً .

والواقع ان الباحث لو قسم اولئك الى فريقين لصعب عليه ان يقرر الى أي الفريقين يتوجب عليه ان يضم زعيماً كبيراً مثل السير سيد (٤٨) . وفي بعض الحالات ، نجد ان مسلماً ما ، من رجال المدرسة القديمة ، يكاد لا يعرف شيئاً من اللغة الانجليزية ، وهو يقبل راضياً بان يوسم بالوهابية ، ومع ذلك فقد يكون عمله الكبير نقله الملحّ للأساليب الغربية الحرة الى الجماعة بصورة واضحة يبنّة . وعلاوة على ذلك فلكي نصل الى أهدافنا يجب ان يقارن الاتجاه العملي للاصلاح الإسلامي المتحرر الوطني ، بالاتجاه الفكري ذي الصبغة الغربية . وهذه نقطة سلبية الا أنها نقطة مهمة قصرت أيضاً عن ان تؤدي الى أساليب فعّالة قابلة للتحويل في الولاء للقيم الاسلامية والولاء للتحررية . ففي الحالة

الأولى حقن الزعماء ، كأفراد ، نظاماً تركيبياً فكرياً لأنفسهم ، إلا أنهم لم يستطيعوا ان يضيفوا عليها التعبير الذي يمكن ان يحفز الآخرين على الاستمرار في أعمالهم الخلاقة .

لقد مثل السير سيد الإسلام المتحرر بقوة أشد من قهرته على صياغته . وكان مسلماً يعمل على تحقيق قيم التحرر بنشاط و إخلاص ، ومع ذلك لم ينجح في اعطاء جيله او من جاء بعده ايضاحاً للإسلام يشمل تلك القيم بصورة متممة .. وهذا الكلام ينطبق ، كذلك ، على محمد عبده . لقد كانت الروح في تعاليمه . روحاً تحررية بعق و شدة ، ومع ذلك فان المحصول المنجز من عمله الذي نقله الى الآخرين ، لا يشمل إلا على القليل من تلك الناحية . وقد رأينا ان العرض الفكري الذي قام به اولئك الذين اصطبغوا بالصبغة الغربية ، إنما كان ينقصه القوة والاندفاع ؛ وأما عمل المصلحين القوي العنيف فقد كان ينقصه العرض المنظم الفعال .

وبالايجاز فاننا نغزو انحطاط التحررية في الإسلام الحديث ، لحد كبير ، الى ان مثل هذه الحركة ، كما تم تحقيقها سواء أكان ذلك اساسياً من مصدر خارجي او مصدر داخلي ، وسواء كان اساسياً أيضاً فكرياً أم عملاً ، لم توضع في اسلوب منظم بعد بطريقة تصور حقيقتها الدافعة المحركة كما لو كانت منبعثة من الدين الإسلامي (٤٩) .

وبيعني هذا أنها لم تنسق بطريقة تجعلها من الناحية النظرية آمرة للمسلم مسيرة له ولا هي متحدة من الناحية العملية — وخاصة تلك المتعلقة بالمبادئ — بطريقة تعطي بها قوة دينية الى اولئك المقتنعين بها عقلياً . لقد كان زعماء المجتمع المتحررون فكرياً غير مزودين إلا بالقليل من الأسس الدينية الملائمة لحياتهم وافكارهم ، فالجهاز الإسلامي لم يسر معهم جنباً إلى جنب ، بينما نجدهم قد واكبوا موكب الحياة العصرية . أما النتيجة فلم تكن عجزهم عن نقل رؤاهم الى الآخرين فحسب ، ولكنهم كذلك في اوقات الشدة لم يجنوا الشجاعة والسلامة اللزمتين للمحاربة في سبيل رؤاهم هذه .

لقد كان تحليلنا حتى الآن يدور حول المبادئ ، وبمعالجة العلاقة بين العقائدية التي تفصلت وبين الإسلام من حيث أنه كنظام . ونعتقد أن ذلك أمر هام بالنسبة إلى إدراكنا الأمور . بيد أن التطور يستوفي شرحاً ، ويتضح عندما ينقلب البحث لمعالجة القواعد الجديدة بالنسبة إلى حركة الإسلام الحقيقية في التاريخ الحديث - وهي الاندفاع نحو الانبعاث الديني . وفي الحقيقة فإن استخدام المجتمع للأفكار والاتجاهات التي أدخلت ، إنما كان تعبيراً عن الصفات الملزمة للثورية ، أكثر منه تعبيراً عن الحاجات والغايات التي يشعر بها المجتمع . وما كان أحده بهذه الناحية أو تلك من الحياة العصرية ، إلا أن الأمر يتعلق إلى حد كبير بتطوره الحقيقي .

هنا ، ولو عدنا إلى موضوعنا الرئيسي ، ونحن نرى أن المسألة الحديثة الجوهريّة للإسلام ، إنما هي رد الاعتبار الذاتي الديني له ، لاعتبرنا تطور التحررية نشاطاً مصحوباً بغاية عملية . وهذا ينطبق ، جزئياً ، على القادة الأحرار . فهؤلاء ، كما رأينا ، قد تعهدوا القيم الجديدة والتزموا التزاماً أصيلاً وفياً في بعض الحالات . أما الذين لحقوا بهم فقد رأوا عموماً أن التحررية أو ناحية معينة منها . إنما هو على الأقل أداة نافعة في صفح المجتمع الإسلامي صقلاً جديداً . وكنا قد لاحظنا سابقاً أن بعض المسلمين يعتبرون المذهب العقلي ، أو نزعة أحياء الثقافات القديمة ، أو الاصطباغ بالصبغة الغربية ، وأشباه ذلك ، انقطاعاً ممزقة للعملية السائرة الرامية إلى تحقيق المثالية الإسلامية على الأرض . أما البعض الآخر فلا يوافقون على ذلك . أنهم يشعرون أو يرون ، أما بإدراك واع أو بقبول ، أن استخدام واحدة من تلك النزعات قد يكون وسيلة فعالة للقيام بالواجب . وكان هناك من يؤكد أن تبني تلك النزعات والعمل بموجبها ضروري حتى يستطيع المجتمع الإسلامي أن يعود إلى سابق قوته .

وكان شيئاً من هذا يشبه في بعض وجوه صفات التحررية الإسلامية في تركيا (٥٠) . ولا ريب أن هذه الحركة التحررية قلما أظلمت في معظم العالم الإسلامي ، بل أنها في بعض الأحيان أنارت الباعث الجوهري للمحاولات الرامية إلى النفخ في المجتمع الإسلامي الوقوف في وجه التعدي

الخارجي ولاستعادة العظمة السابقة .

هذا ، ويتجلى مسلك الجماعة فيما انتقت ومارست ، وفي التطور الذي أضفته على العمل الذي أنجز . وللتمثيل على ذلك فان الجماعة الإسلامية الهندية قبلت (على مضض) لإدخال السير سيد للتعليم الانكليزي . ولكنها أصرت على ان درس الإسلام (٥١) في كلية سير سيد لا يتم باللغة الانكليزية ولا يخضع لآراء سير سيد وافكاره . وقد أضفت الجماعة لدعوته الرامية الى اجراء اصلاح اجتماعي حر (٥٢) ، لكنها رفضت محاولته تفسير القرآن تفسيراً حراً (٥٣) . أما دعوة محمد عبده المخلصة المثيرة لتخليص الإسلام من أصفاد التقليد ، فقد أدت إلى خطوات فردية مرموقة في عالم الفكر . بيد أنه كان لها تأثير أشد في (السلفية) او حركة (المنار) التي قبلت راضية بالتأثير الوهابي ، حيث أدت الى انعاش نشاط الأصوليين .

والواقع ان المرء يستطيع ان يزد في تعميم هذه الأمور . ان التحررية التي ظهرت في العالم الإسلامي ، وبصورة رئيسية قبل الحرب العالمية الأولى ، انما كانت في الحالة التي لا تتعلق بالإسلام ، تميل إلى الضعف واللاخلق والجمود . وأما في الحالة التي كان لها علاقة بالإسلام ، والتي تشربتها الجماعة وانضمت بها ، فقد كانت تميل الى أن تصبح ثانوية بالنسبة للأهداف الإسلامية . والواقع ان تكييف التحررية للإسلام كان أقل بكثير من تكييف الإسلام لها . وقد خدمت الحركة ، وخاصة في نزعتها الرامية الى احياء الثقافة القديمة ، في تقوية هذا الاهتمام الكبير بهذا العالم في النظرة الإسلامية . وساعدت في تركيز الالهام الديني على البرامج الدنيوية - كالحركات القومية التي هي عنوان بحثنا القادم . ولكن في عملية التبعية هذه نجد أنها تكيفت لا بل تحولت . أما العقل الذي اصر المفكرون الاحرار على اللجوء اليه ، فقد استخدم في الدفاع عن الدين - وتحولت الحرية التي كان مضغوطاً عليها ، والتي أخذوا بتمجيدها وتعليقها ، إلى تنشيط التصميم الذاتي في المجتمع دون نظام او ترتيب . وبكلمة مختصرة نقول ان الناحية العقلية في التحررية قد تبلورت في الانتاج الفكري

الاعتقادي ، كما تحولت الناحية العملية الى قوى حيوية ديناميكية .
فالحركات الوطنية والانتاج الفكري الاعتقادي والقوى المحركة الدافعة
هي ، كما قلنا ، الاتجاهات الجديدة الشهيرة الثلاثة للأسلام الحديث ، وسنعالج
هذه الاتجاهات الثلاثة بعد قليل . والآن ، وقبل ان ننهي الحديث
عن المخطاط التحررية ، يجب علينا ان نشير الى عامل كبير نهائي :
الغرب . فقد قلنا ان نهوض اوروبا ، مع حركة الغرب التحررية ،
إنما كان في نهاية القرن التاسع عشر ووضح الأهمية والأثر في ظهور التحررية
الاسلامية . وفي المخطاط هذه الحركة الثانية المتأخر ليس من الصعب ان نتبين
النفوذ الغربي كذلك .

فمن ناحية نرى انه كان في الغرب نفسه بعد الحرب العالمية الاولى ضعف
كبير في التقاليد التحررية . أما أسباب ذلك فدقيقة ومعقدة ، ولا نستطيع ان
نتطرق اليها هنا . بيد ان من الجدير بالملاحظة ان الكثيرين في شتى أنحاء العالم
قد رأوا ان التحررية قد برهنت على أنها أعجز في الأزمات الشديدة من ان
تكبح عواطف الناس او تتحمل أعباء كربهم وغمهم .

ومن ناحية ثانية كان هنالك ، كذلك ، المخطاط واضح في هيئة الغرب على
العموم . فقد تحدى اليابانيون التفوق الغربي في انتصارهم على روسيا الامبراطورية
عام ١٩٠٥ . أما سلطة اوروبا المعنوية فقد أنزلت بها ضربة خطيرة خلال الحرب
العالمية الأولى ، وما لبثت ان تصدعت تلك السلطة في الحرب العالمية الثانية (٥٤)
وكان هنالك ، بطبيعة الحال ، كثير من الخطأ في تفسير الأمور وكثير من سوء
عرضها ، أضف الى ذلك ان الحضارات الاخرى لم تكن أكثر نجاحاً في فهم
القيم الحقيقية او الدوافع الداخلية للغرب ، من الغرب في فهمه للقيم الحقيقية لتلك
الحضارات ودوافعها الداخلية . ومهما كان الأمر ، فان القليلين من الغربيين:
هم الذين يلمحون ما لتقاقتهم من احترام ضئيل في الشرق اليوم :

والواقع ، اننا بلغنا الموقف الذي تعتبر فيه صلة الغرب بالتحررية — او
بأي اتجاه منها — هي نفسها حجة عليه : فقد قووم الغرب من أجل تسلطه

الاقتصادي والسياسي وبسبب خطره المكشوف للمجتمع الاسلامي ، وهو
خطر اساسه القوة ، وغيره من المجتمعات الشرقية . أما الميزة الثانية لنوع
حياته ، وخاصة تحرريته ، فقد كانت موضع اعجاب كبير وتقدير . وكان هنالك
اعتقاد عام ان التحررية في تناقض مع الاستعمار الغربي ، كما أنه كان
حليفاً وصديقاً للشعوب الشرقية ، والشعوب الخاضعة للحكم الغربي .
أما اليوم فقد تغير ذلك تغير أكبر . ان الغرب في الوقت الحاضر ليس مخيفاً
فحسب ، وانما هو مكروه أيضاً . والنفور ليس من أسلحته فقط ، وإنما من
روحه كذلك . وقد أثار هذا الشعور وهيجته انتقال الرغامة الغربية من أناس
الى آخرين بعد الحرب العالمية الثانية . ففي القوة والتعاطف والخشونة بدت
أميركا للكثيرين من الشرقيين أنها شالت بالأخطار والنقص ، وقللت من منزلة
الفضائل التي عرفها التقليد الأوروبي .

ولذا كان المظهر السائد اليوم في شؤون الكرة الأرضية هو قضية التوسع
الشيوعي فان حركة مناهضة الغرب العميقة المبررة المتزايدة في معظم أنحاء العالم
ستكون في الغد منافساً بعيد الأثر .

ثالثاً ، كان هنالك خيبة أمل في العلاقات الخاصة بين الإسلام والتحررية
الغربية نفسها . وقد رأينا ان الكثيرين من المسلمين أخذوا بحركة التحرر
الفكري بروح من الأمل او الاعتقاد بان الغرب ، أو العقل ، أو حركة التحرر
الفكري الغربية ، ستبرهن على مساعدتها في المسعى الرئيسي الرامي الى اعادة
بناء المجتمع الاسلامي ، وفي تنسيق التاريخ الاسلامي ، مرة ثانية ، ووضعه
على طريق التحقيق والانجاز . لقد كانت هذه امالا خادعة . ففي العقد الأخير
من القرن التاسع عشر ، كان احرار الفكر للمسلمين ، على قلوبهم في مجتمعاتهم ،
يرون أن التعاون مع احرار الفكر (الأكثر تفاؤلاً) في اوروبا ، يمكن ان
يؤدي سريعاً الى خلق عالم جديد جري . ان هذا التعاون او العون لا يبدو أنه
على وشك الظهور . ثم ان تقدم حركة التحرر الفكري في ديار الإسلام لم يبد
أنها انعكست في تحقيق ما قلدتم من وعود للعالم الخارجي ، وخاصة للإسلام

في هذه الحالة .

وكان الغرب يبدو كأنه ، باستثناء أفراد قلائل ، يواصل وقفة غير المكثرت ، او حتى وقفة المناهض للشعوب الإسلامية ، او لشخصيتهم الجماعية على الأقل . أما من الناحية السياسية فقد كان الغرب مصمماً على المحافظة على السيطرة الاستعمارية ، وأما من الناحية الاقتصادية فقد بقي ضغطه ثقيلاً شديداً الوطأة (٥٥) . وكذلك استمر اعجابه بنفسه من الناحية الثقافية . وفي الوقت الذي راح فيه بعض العلماء والشارحين يسعون على مهل ، وبكد شديد ، جاهدين في سبيل ادراك أدق للتراث الإسلامي وشرح أكثر تقديرأ له فانهم لم يستطيعوا ان يجاروا الاحتكاك المتزايد . كما وان ما اكتشفه المسلمون في الغرب إنما كان في معظمه اكتشافاً مريباً للنفور الروحي الغربي من الإسلام . ولقد كان الشعور المريب بهذا النفور جاداً مرهقاً في العالم العربي . وقد تجلأ أخيراً بكرهم للصهيونية . وعلى العموم أصبح حتى المسلمون المصطبغون بالصبغة الغربية يعتقدون ، تدريجياً ، بأن أي بناء جديد لمجتمعهم الإسلامي ، إنما يجب ان يقوموا به أنفسهم ، دون مساعدة ، لا بل ضد ضغط المسيحية .

ويستشف من هذا نزعة تنظر الى التحررية كقوة يمكن ان تكون عوناً للمسلمين اكثر من كونها موقفاً قد يساعدون أنفسهم بوساطته . ولعلّ الاول احق بأن يسبق . وعلى كل حال فان ذلك الاعتقاد لم يؤد الى كتبه فقط عدم المبالاة السائد في الحركة التحررية نحو الاسلام . فحيثما كان الطلب واضحاً ، تزايد الشعور في العالم الإسلامي بأن القليل الذي قُدِّمَ انما كان ذا قيمة حقيقية قليلة في مجال ايقاف التفنت او النخر الذي يهدد المجتمع الإسلامي بصورة متزايدة . وكان قادة الغرب العلمانيون يزعمون (وهم لا يزالون يؤكدون زعمهم) ان احرار الفكر المسلمين يجب ان يكونوا علمانيين ويقللون من اهمية العنصر الإسلامي في مجتمعهم . أما أصحاب التحرر الفكري من الدينين . الغربيين ، حتى ولو لم يكونوا مسيحيين تماماً ، يرون ان المسلمين يجب ان يكونوا فرديين بحيث يقللون من شأن العنصر الاجتماعي في دينهم (٥٦)

(أكثر المشرّين يميلون بعد الى مثل هذا الرأي . فالتحرورية المسيحية لم تصل بعد الى حد ادراك قيمة دينية في خدمة الاسلام مثل هذه القيمة) والتحرورية الغربية لا يبدو أنها تتجه بنفسها الى الاسلام بطريقة يمكن ان تساهم في حل القضية الحديثة الأساسية للاسلام .

وثمة شيء مماثل ينطبق على الاستشراق ، او بمعنى آخر تطبيق العقل على حقائق او مدلولات الاسلام . وقد أدرك بعضهم ان هنالك ديناً كبيراً تدين به المعرفة الإسلامية الى المعرفة الغربية في هذا الحقل كما ان الكثيرين وجدوا أن بعضاً مختاراً من نتائجها ينفعهم في اهداف انتاجهم الفكري ، وخاصة في تمجيد الماضي الإسلامي . وقد حظي بعض الكتب في هذا الميدان بتقدير عميق . ولكن أعمال أصحاب الدراسات الإسلامية من الغربيين ، التي لم تكن دائماً بناءة وتدعو الى الاحترام ، قد ظهرت للكثيرين من المسلمين انها في اتجاهها الرئيسي محطمة للاسلام ، وأنها تهجم وخطر يهدد الدين (٥٧) .

واخيراً بقيت حقيقة أساسية ، وهي اللامبالاة الظاهرة في البلدان الإسلامية ازاء استيراد النظم المتحررة ، من الديمقراطية البرلمانية الى السباحة المختلطة . لا بل ان عمل الانظمة التعليمية « المتحررة » كان عرضة للاتهام الخطير . ويعزو المراقبون الغربيون هذا الاخفاق الى عجز المجتمعات في فهم والتزام المبادئ التي تقوم عليها تلك النظم . وانه لاختفاق لا بد منه في وضع أشكال خارجية موضع العمل دون توفر الاخلاص الداخلي في النفس . ويستدل من ذلك على الحاجة الى حركة تحرر فكري أعمق وأكثر لا أضحل وأقل . غير ان الكثيرين في المجتمعات الإسلامية نفسها قد انتهوا الى نتيجة معاكسة بشعورهم ان هذه الأساليب غير الإسلامية قد جُربت ووجدت أنها غير وافية بالمرام . وليس صعباً على أصحاب الملموسة القائلة بوجوب الرجوع الى الاسلام ان تجادل وتدعم رأيها بأن التاريخ الحديث للمجتمعات الإسلامية قد أظهر عدم جدوى حركة التحرر الفكري وعجزها عن قيادة المسلمين عملياً الى العدالة الاجتماعية او الى الحياة الفاضلة . والذين ينكرون ان الحاجة ماسة الى شيء جديد لحركة التوليد

التي يحتاجها المجتمع الإسلامي ، كما نحتاج لها جميعاً هم قلة سواء أكان هؤلاء شيوعيين أم غربيين ، دينيين أم متحررين فكرياً الى غير ذلك . ومهما كان التفسير فإن الحقيقة العامة هي ان التحررية في الإسلام قد تضاءلت تضالاً كبيراً خلال ربع القرن الماضي او نحو ذلك . أما في بعض المناطق فهناك ما يدعو المرء الى القول بأنها قد تلاشت .

على ان للاتجاه العام استثنائات ، او استثنائات ظاهرة . وفي طليعة هذه كما هي الحال دائماً ، تركيا . ونحن لا نستطيع ان نتتبع تاريخياً الحالة التركية الفريدة في الأهمية والنوعية التي لا يمكن تفصيلها هنا ... وكذلك في الهند، بعد تقسيمها، نجد شيئاً هاماً يتطور . فالجماعة الإسلامية في الهند قد وجدت نفسها عام ١٩٤٧ مجردة من الخيار بصورة مفاجئة ومدمرة . أعني من الخيار في امور كانت الى وقت قصير قبل ذلك تقبل عليها بحماس . وقد ظهرت مؤخرأ بوادر في بعض الفئات تدل على أنها قد تعود ولو بشيء من التردد الى مجرى التحررية أما في اندونيسية فالظاهر ان لا ظهور التحررية الإسلامية ولا انحطاطها قد ذهب بعيداً كما ذهب في البلاد الإسلامية الاخرى . فالصفة الخاصة هناك هي ان قيم تلك الحركة - وعلى الأخص التسامح ومكانة المرأة كشخص كامل - قيم وطنية ، وعلى التعيين عند أهل جاوا (اي من قبل انتشار الإسلام هناك) . والسؤال الكبير هنا هو هل سيؤدي نهوض الإسلام الحالي في اندونيسية الى وثام ام الى خصام مع العرف المحلي .

ويأتي مع هذه الأمثال ان قوة الحركة التحررية ومثابرتها وربما فحواها أيضاً انما تعود ، بوضوح ، الى عوامل غير اسلامية ، لم ترتبط بالإسلام ولم تنجز اية محاولة لذلك . وقد نعدّل هذا الرأي ونقول انه ربما كان هنالك استثنائات ظاهرة فقط ، وبقي ان يتضح ما اذا كانت تلك المجتمعات ستطور حركة التحرر الفكري كقوة داخل الإسلام . وعلى أي حال نجد ان الحالات الاستثنائية تلك قد أكدت على أشياء اخرى . ويمكننا ان نقول بملء فمنا ان التفسيرات والايضاحات المتحررة في أنحاء العالم الإسلامي قد أدخلت الطريق في

مجال التطور الإسلامي الى أساليب اخرى للبناء الجديد ، ستصدي لها الآن ، وهي تنقسم الى اقسام رئيسية ثلاثة : الحركات القومية ، وأعمال التآليف الاعتباري ، والقوى الديناميكية .

القومية

واضح ان الحركات القومية في شتى الأقطار الإسلامية قد أصبحت حركات عنيفة داهمة ، كما ان قسماً كبيراً من طاقة العالم الإسلامي كله قد كرس للنضال الطويل في سبيل دحر التسيطر الأجنبي أو زحزحته والقذف به خارجاً . وطبيعي ان هذه الحركات القومية ، هنا وهناك ، إنما هي حركات كثيرة التعقيد . وهي تمت بصلة الى الحركات القومية في اورويه ، اذ ان آراء الغرب ومدارسه الفكرية في هذا المجال قد أثرت تأثيراً عميقاً بالقللة التي تأثرت بالغرب ، والتي قادت الحركة . كما أنها تمت بصلة الى الحركات الوطنية في سائر آسيه : فمن الواضح ان هناك شيئاً كبيراً مشتركاً بين الحركات القومية الإسلامية ، والحركات القومية في الهند والصين وغرهما . وهي الى ذلك تمت بصلة الى الحركات القومية في التاريخ الإسلامي القديم . وللتمثيل نقول ان لايران تقليداً قومياً مستمراً يرجع ثقافياً الى أيام الفردوسي ، على الأقل ، في القرن الحادي عشر ، ويعود سياسياً الى أيام الصفويين الذين أقاموا عام ١٥٠٠ دولة تعتبر من اولى دول العالم القومية . وهكذا . ومن الواضح أنه ليس من هدفنا ان نعالج الحركات القومية الإسلامية بأي ضرب من ضروب التحليل التام ، او الإيجاز الشافي . سننظر اليها من ناحية واحدة فقط ، وهي علاقتها بالدين الإسلامي . وهنا ، في حد ذاته ، أمر معقد تعقيداً كافياً . وهو ليس معقداً فقط بالمعنى المهم الواضح الذي يبدو فيه ان كل قومية ، او طنية تتميز ، بالطبع ، عن غيرها جغرافياً وتاريخياً واقتصادياً الى غير ذلك ، وإنما بالصفات الفردية التي تؤكدها طبيعة كل حركة . فالقومية في اندونيسيه هي اندونيسية ، بصورة لا يستطيع العرب ان يساهموا فيها ، او يفهموها فهماً تاماً . ثم ان دور الإسلام في الحركات

القومية التركية، ودوره في الحركات القومية الايرانية انما هما دوران منفصلان أصلاً وضرورة .

والتعقيد يكمن أيضاً في حقيقة اخرى وهي انه قد تطور انفرادياً وعامة ميل لاستغلال المظهرين الديني والقومي ، وان لم يتضح هذا التطور بعد .

وأول اعتبار أساسي هنا هو النظر الى الحركات القومية من ناحيتها السلبية الداهمة في اندفاعها للقذف بالسيطرة الأجنبية : وهذا الأمر لا يجاري الأسلام في نواحيه العرفية والدينية والاجتماعية الى غير ذلك فحسب ، وإنما يعتبر ، بالإضافة إلى ذلك ، من عمل نهوض الأسلام الحديث جملة وتفصيلاً . فالمحاولات التي قام بها المسلمون الأندونيسيون للتخلص من الهولنديين ، والتي قام بها المسلمون المغاربة والسوريون للتخلص من الفرنسيين ، والتي قام بها المسلمون الهنود للتخلص من البريطانيين ، انما كانت في الحقيقة عنصراً أساسياً أصيلاً في كل محاولات المسلمين ، عموماً ، لتوطيد اقدام الجماعة الإسلامية في العالم المعاصر . وبشابه ذلك ، الاندفاع التركي للقذف باليونان خارج بلادهم (١٩٢٢) او الاندفاع الايراني لاحباط « مجالات النفوذ » الانكليزية - الروسية (في العقد الأخير من القرن التاسع عشر ، والعقد الخامس من هذا القرن) . وقد كان هذان الاندفاعان أيضاً خطوة مباشرة في انعاش الأسلام الديني من جديد .

وليس صحيحاً قط القول بأن العنصر الأسلامي الديني هو العنصر الوحيد في هذه الحركات . فمن الواضح ان هنالك عناصر اخرى من الاقتصاديات حتى اللغة وأكثر . وليس صحيحاً أيضاً الادعاء بأن النعمة الإسلامية كانت غائبة عن المجال او متافرة معه او غير مطابقة له .

فالمعمل على رد الاعتبار للتاريخ الأسلامي ، وانتشاله من الوهدة التي انحدر اليها اقتضى حتماً القيام بوضع حد لحضوع المجتمع الاسلامي لسلطة الكافرين على انه حاجة ملحة حادة . وعلى العموم ، فان اولئك الذين رغبوا في ان يروا الأسلام مسمى أو « تازيخاً قائماً » من جديد ، قد ابدوا المحاولات العديدة لتحرير

شعوبه تأييداً طبيعياً مؤكداً. وقيادة مثل هذه الحركات ، وخاصة في مراحلها الأولى ، كان للشخصيات الدينية الكبيرة في بعض الحالات المقام الأول والقول الفصل . وقد كنا أشرنا الى اثاره جمال الدين الأفغاني للحركات القومية المحلية . ومن الأمثال الأخرى محمد عبده في مصر (٥٨) ، والديوبنديون وأبو الكلام آزاد في الهند (٥٩) ، وأحمد دخلان في اندونيسيه (٦٠) .

وكذلك نرى انه كلما كانت القوة الدافعة في الحركات القومية دينية ، كلما زاد نفاذ الحركة الى الجماهير . وحتى حين كانت القيادة والشكل والآراء في الحركة القومية على طراز غربي ، قد يكون كثيراً أو قليلاً ، فان الانبعاث والمادة والانفعالات انما كانت اسلامية بصورة واضحة . (وكثيراً ما كان القادة المتأثرون بالحياة الغربية يدهشون لاكتشافهم مدى اطلاقهم للقورات الاسلامية)؛ ففي مجال مناهضة الأجانب لم يكن هنالك اختلاف بين الطرازين من القادة . بل كانوا على العكس ذوي عون متبادل يقدم كل للآخر العنصر المهم ، بل الجوهري في نجاحه . وكما قلنا من قبل ، هذه هي الحقيقة الأساسية فيما يتعلق بالحركات القومية في العلم الاسلامي الحديث .

ومع ذلك فهناك مسلمون (٦١) وغريون قد اقتنعوا بأن ليس ، بالأصل ، الا القليل من الروابط بين الاسلام والقومية كفكرتين اساسيتين ، وهم يعنون القومية في وجهها الايجابي لا السلبي ، بصفتها ولاء بناء لاحدى الجماعات القومية . ذلك شيء آخر ، فمن الصحيح ان القومية في هذا الشكل قد تظهر أقل ذوباناً في الاسلام من الناحية النظرية . وصحيح أيضاً من الناحية العملية ان هذا الشكل من القومية قد كان قليل الظهور جداً في العالم الاسلامي .

ومن المهم ان نتميز بين أمرين : ان تقاوم الأجانب، وان تعمل ضد هيبتهم ، حتى وان تكرههم وتزدرهم شيء ، وان تحترم جميع أفراد الأمة ، وتتصور رفاهيتها ، وتولد اخلاصاً وولاء يؤديان فعلاً الى هذه الرفاهية ، وتعمل بصورة بناءة لتحقيق هذه الرفاهية شيء آخر . ثم أن ترى ضد ماذا يحارب الانسان او يجب ان يحارب ، أسهل من ان تتصور ما الذي يحاربه او يجب ان

يجارِبُ في سبيله . والمقاومة ، كذلك بالنسبة للدين ، أسهل من البناء . فكانت المقاومة في بعض الأحيان لا تقدر سليبتها حتى قدرها ، حتى أصبحت اليوم هي الحركات القومية هنا وهناك في العالم الإسلامي . وهنا تُستثنى تركيا ، كما استُثِنَت دائماً . فالأتراك هم الشعب المسلم الوحيد في العصور الحديثة ، الذي خلق فكرة إيجابية لما يريد ، وولاء فعّالاً يعمل نحو تحقيقها . أما الشعوب المسلمة الأخرى ، فكانت البرامج القومية بالنسبة لها حتى الآن ، أما سلبية محضة تهدف إلى التخلص من شيء معين ، أو أنها ثبتت عجزها عن تخصيص ما يكفي لإنجازها ؛ وقد ولدت الحركة القومية في الهند ، شأن القومية التركية ، طموحاً إيجابياً ، وهو أن تصبح دولة علمانية مرفهة . ولكن المسلمين آثروا الانسحاب منها ، والذين لم يستطيعوا في النهاية أن يفعلوا ذلك ، فانهم تجنبوا تحديد علاقتهم أو علاقة دينهم بهذا الموضوع . ومن الأمثال على هذه الحركات الباكستان وسوريا ، وإلى حد معين اندونيسيه ، حيث تعرضت هذه البلدان بعد أن نجحت حديثاً في اطاحتها بالحكم الخارجي ، لثرفضال مستمرطويل ، إلى قلق واسع خطير فيما يجب أن تكون عليه الخطوة التالية . وكان هنالك عجز مرتبطك مبلبل في اظهار ذلك الأخلاص البناء الذي تحتاج إليه الأمة على نطاق واسع ، كي تنجو من أزمة عميقة ، وتبني لنفسها حياة نشيطة فعالة في العالم الحديث . وتعتبر إيران ومصر مثلين آخرين على الأقطار الإسلامية التي لم تر القومية فيها ، مع سنوح فرص أطول لايجاد البرنامج الايجابي وتمهده باخلاص ، بدءاً من أن تستخدم القوة والعنف ، مرةً أخرى ، على النطاق السلبي المقاوم للأجانب . أما فيما اذا: كان حكم الرئيس عبد الناصر العسكري سينجح حيث أخفق الوفد فذلك أمر ستكشف عنه الأيام .

والنا لنأمل ذلك صادقين ، كما نود ، بل في الواقع يجب أن نأمل أيضاً في أن أقطاراً أخرى ستكشف سريعاً محتوى إيجابياً لوجودها القومي أو تخلقه (٦٢) . . . وهما الآن هو ، ببساطة ، التوكيد على أن العلاقة بين هذه القومية الإيجابية

• نشر الكتاب المأخوذ هذا الفصل عنه في سنة ١٩٥٧ .

فالإسلام قد ظلت مسألة نظرية محضه ، حيث ان قبول المسلمين بها قد استمر على بقاءه قبولاً ضئيلاً . ويبدو ان ذلك صحيح في الظاهر على الأقل ، اذ أن بعض الكتاب قد تعجلوا جداً في ادعائهم او استنتاجهم ان القومية ذات الطراز الغربي في معناها الايجابي يمكن ان تقتبس او كانت قد اقتبست بسهولة في العالم العربي بصورة فعالة . فالظاهر أنهم بالغوا في تقدير استعداد هذا العالم ، بما فيه من تقاليد ، وولاء للقيم الإسلامية ، وانفعالات مختلفة ، لضم هذه الظاهرة الأجنبية . أما القومية السلبية فلا بأس : أنها الرغبة والتصميم على ان يكون الانسان غير تابع الا لنفسه . ولكن أن تتحرر جماعته ، ويكون النظام فيها ان ينهض باكراً في الصباح ، وان يعمل ساعات طويلة ، وان يرفض الرشوة ، وان تكون له حوافز للإحلام ، وطاقة لتحقيق احلامه ، كل ذلك في سبيل رفاهية الأمة ، ومكافأة لها ، فأمور لم تكن جد واضحة . وفي الماضي لم تعرف هذه الشعوب هذا الطراز من النظام والالهام والطاقة الا في ظل الإسلام .

وثمة نقطة ثالثة أساسية في هذا الصدد وهي أنه أينما اقتبست القومية في العالم الإسلامي ، وفي أي شكل كان فان « الأمة » المعنية إنما كانت جماعة مسلمة . فليس من شعب مسلم ولّد شعوراً قومياً يحمل الولاء للمجتمع ، او يوليهِ الاهتمام ، وكان في شعوره هذا متخبطاً حلود الإسلام (٦٣) .

كانت التجربة الواضحة في الهند . فالقومية الهندية — من هندوس ومسلمين وسيخ — التي كرس بعض المسلمين أنفسهم لها في حماس قد أنهارت سريعاً وتمزقت من ناحية عامة ، فيما يتعلق بالجماعة المسلمة . والواقع ان هذه الجماعة قد انقلبت على تلك القومية بعنف خفيف . وطبيعي انه كان هنالك ، كما هو الحال دائماً ، أسباب أخرى لتلك الانهيار : اقتصادية وسياسية وهندوسية الى غير ذلك (٦٤) . على ان الحقيقة الأساسية هنا ، هي ان تلك الأسباب الأخرى هي التي سادت . ان قومية غير اسلامية ، لا يمكن ، بالنسبة للمسلمين ، ان تقف ضدهم . وهكذا نرى ان الرجاء بأن تكون جماعة المسلمين مخلصه لمجتمع غير مجتمعهما الديني قد أخفق .

وتختلف جماعات المسلمين ، في اماكن اخرى ، بالدرجة التي يتضح معها الدور الاسلامي المشترك مع القومية . ولا تختلف في الحقيقة الراهنة وهي أن قوميات هذه الجماعات في كل مكان انما هي اندفاعات حماسية للأهم الإسلامية . وهنا تقدم لنا اندونيسيه أوضح مثال للحركات القومية والإسلامية وهي تعمل لا جنباً إلى جنب فحسب ، وإنما متشابكة بعضها ببعض الآخر في فترة النضال ضد الأجانب ولكنها انفصلت بعد الحصول على الاستقلال . وانقسمت الجماعات الإسلامية أيضاً الى قسمين آخرين ، قسم يهدف الى انشاء الدولة الإسلامية ، وقسم قوميته مسلمة بصورة واضحة ، الا أنها مسلمة بالمحتوى لا بالشكل . وقد يكون تبسيطاً مبالغاً فيه ان نتعرف على هذه الاتجاهات الكبرى لمجرد ذكرنا لاحزاب ثلاثة كبرى هي الحزب القومي ، وحزب نهضة العلماء ، وحزب مسهومي . أما وجود هذه الاحزاب الثلاثة فيلتي ضوءاً على التطور نفسه اكثر من ايضاحه للشيء الذي يتطور هناك . والواقع ان معظم القوميين هناك ، شأنهم في الأماكن الاخرى ، مسلمون ، والعكس بالعكس . ان معظم المسلمين مسلمون اجتماعياً وسياسياً . فمع التشعبات الإسلامية : وبين جماعات المسلمين والقوميين ، يقوم اختلاف لا خصام -- ويرى كثرة الأنونيسييين انه خلاف يمكن ان يسوى اكثر منه خصاماً يؤدي الى قتال . أما حقيقة كون الأحزاب عملت ضد بعضها البعض في الانتخابات الاولى (عام ١٩٥٥) ، ومع بعضها البعض في الحكومة الاولى (عام ١٩٥٦) فهي حقيقة هامة جداً .

وتقوم في أقطار أخرى الاختلافات من غير نوع واحد تتباين درجة ولكنها تتشابه مادة . فالقومية الايرانية طائفية شيعية بصورة واضحة ، وفي القومية العربية عنصر هام وهو التطابق بين العروبة والإسلام ، وهكذا دواليك . ان القومية في كل مكان هي ، بالنسبة للمسلمين ، قومية اسلامية . ففي اندونيسيه ، وكذلك في طول العالم الاسلامي وعرضه ، يمكن ان ترتب الجماعات في سلسلة وفق درجة من الشكلية والمحافظة لتترك بهما هذه العلاقة وتؤكد . ان الجماعة في اوضح مظهرها ، ليست مسلمة في تركيبها وحسب ، وإنما تنتهي دوماً الى

ان تكون اسلامية في الشكل أيضاً ، او على الأقل بالاسم : فالأمة تعرف بافرادها المسلمين كما تعرف بأنها هي ذاتها جماعة دينية . وهذه هي الحالة في جمهورية باكستان . حتى أنه عندما لا تكون الأمة جماعة تمثل الدين ، فإنها تبقى وطن المؤمنين . ولا يثنى في هذه الحالة حتى تركيا . انها تقف في الطرف الآخر غير أنها لا تخرج عن السلسلة .

ان القومية التركية علمانية بصورة واضحة ، ومع ذلك فإنها لا تشمل إلا الجماعة المسلمة ، فالمسيحيون ، أو اليهود القلائل في البلاد لا يعتبرون أتركا . والولاء للجماعة ، انما لا يزال ولاء للجماعة الإسلامية الشاملة ، كما كان دائماً وفي غيرها من الأماكن . وقد اتضح بسبب الأحداث التي وقعت عام ١٩٥٥ حقيقة واقعة وهي ان الأتراك أيضاً يمكن ان ينكروا العناصر غير الإسلامية انكاراً فيه شيء من المروءة (٦٥) .

صحيح ان الحزب القومي في اندونيسيه ، شأن وطنية حزب اللواء المصري وأشكاله ، قد انطوى على ما يشمل المسيحيين ، كما ان خطب العديدين من الزعماء السياسيين قد أحرقت بنور الأقليات . لكن ذلك ضرب من القومية قد تضاعف في كل مكان ان لم يكن قد أخفق . فالمسلمون في العالم الإسلامي (وقد تُستثنى اندونيسيه ؟) لم يشعروا بأن الفرد غير المسلم في امتهم انما هو « واحد منا » ، كما ان الأقليات في كل مكان لم تشعر أنها مقبولة .

والواقع انه يوجد في كثير من الحالات فرع كبير . وعدد كبير جداً من المسلمين لا يعون أصلاً ، مخاوف الأقليات غير الإسلامية التي تعيش فيما بينهم . والكثيرون لا يرون في الأمر مشكلة قط : فالأمر عندهم بسيط ذلك انه لم يخطر لهم ان غير المسلمين ينتظرون ان ينضموا الى الجماعة معهم (٦٦) . وثمة آخرون يقنعون أنفسهم واثقين هادئين وان لم يقنعوا الأقليات « بأن الإسلام يعامل الأقليات معاملة حسنة » (٦٧) . وعلى كل ليس هنالك من جماعة اسلامية تتجاوز المجتمع الإسلامي الى مجتمع قومي ، او تستبدل الإسلام بالقومية . وقد يقرب الأتراك ، بالظاهر ، من القيام بذلك ، ومع ذلك فان حالتهم المتطرفة هذه

توضح هذا الرأي أكثر مما تناقضه ، ذلك بأنهم في تحليهم عن قسم كبير من ولائهم الإسلامي في سبيل ولائهم التركي ، لم يستعصوا عن الإسلام بتجمع جديد . بل إنهم أخذوا « بجزء » بدل « كل » — وهو ما كاد يفعله ، ولو بوضوح أقل ، الباكستانيون والعرب وال إيرانيون والأندونيسيون .

والاعتبار الرابع المتعلق بالقوميات الإسلامية هو علاقتها بالوحدة الإسلامية . ان شعور المسلم بمجتمعه الكلي معروف ومشهور . وقد أشرنا من قبل الى الأساس الديني العميق الذي يقوم عليه ذلك الشعور ، وكيف ان الفكر الإسلامية المجردة الرئيسية تعطي الميزة الروحية للجماعة ، وتقوّي الميل الانسانية للتأكيد على المجتمع المغلق وانطباق شخصيته مع المجتمع الديني (٦٨) . وهناك نظرة مخالفة لهذه النظرة أشرنا اليها سابقاً ، وهي عدم وجود الشعور القائل بفكرة « واحد منا » بين المسلمين ، ذلك الشعور الذي يقبل بالخارجين عن الدين فيشملهم كما يشمل الجميع . هذه النظرة الثانية لها من ناهيتها الإيجابية تعبيران : الأول اعطاء المزيد من القوة والشدة الى أي تجمع اسلامي ، وقد كان ذلك فعالاً بصورة مدهشة في خلق الباكستان ، والثاني حمل المسلمين على ان يطمحوا الى التجمع الإسلامي لكل المسلمين . ومن شأن الأول ان يقوّي كل قومية اسلامية ، والثاني ان يقوّي الوحدة الإسلامية .

والتعبيران مختلفان . لكنهما في الجوهر غير متضارين وبأماكنهما أحياناً ان يحل الواحد منهما عملياً محل الآخر وذلك عندما يجد المسلم او جماعة من المسلمين انه يجب الاختيار بين الولاء لقسم معين من اقسام العالم الإسلامي أو الولاء للعالم الإسلامي كله . انهما يستطيعان أيضاً ان يعارض الواحد منهما الآخر مؤقتاً ، إذ كانت مصالح الجزء ، او مصالحه الظاهرية ، تتعارض مع مصالح الكل . انهما يستطيعان ، او يبدو انه باستطاعتهم ، ان يكون الواحد منهما مكملاً للآخر ، أو ان يكونا طوراً في عملية واحدة كبيرة ، او مظهرين لكل واحد : ان أن تجديد نشاط الإسلام في أنحاء العالم قد يبدو شيئاً يمكن تحقيقه عملياً في اقسام صغيرة يسهل الاشراف عليها . فالعمل الرئيسي ، او العمل الأول الذي تستطيع

ان تفعله اندونيسيه ، في سبيل نهضة المجتمع الاسلامي الدنيويه على ما يفهمونه هناك ، هو تقوية المجتمع في اندونيسية ، اي تقوية اندونيسية . وكذلك يمكن للمسلمين الآخرين ان يساعدوا اندونيسية في هذا الموضوع واقعياً حيث نجحوا هم قبلاً في انعاش مجتمعاتهم نفسها وتقويتها . وقليل هم المسلمون ، هنا وهناك ، الذين لا يقبلون بالرأي الحديث القائم على أن رد اعتبار الإسلام في جميع أنحاء العالم إنما يتم ويجب ان يتم جزءاً عملياً . ثم ان حلم الوحدة الإسلامية اليوم ، إنما هو في جوهره تصور كل أمة او جماعة اسلامية - العالم العربي وتركيا وإيران وباكستان الى غير ذلك - أنها تنتعش ثانية على انفراد ، وتدب فيها الحياة ، وتردهر ، وتقوى . ومثل هذا الحلم لا يضيف الى قومية كل منطقة الا الأمل - او الافتراض المسبق - على أنها ستتحده جميعها في تبادل نفعي ودني مشترك (٧٠) .

ان اوروبه ، التي تتألف من قوميات عديدة عملت على تمزيق وحدة المسيحية التي كانت سائدة في وقت ما ، قد تكون اليوم في سبيل السمو بتلك القوميات الى لون جديد من الولاء الأكبر ، وذلك لما تشعر به من ضغط التهديد الروسي الخارجي ، ومن وعي آسيه وأفريقيه المتنامي (وربما أميركا ؟) ومن ناحية مماثلة يمكن للعالم الإسلامي ان يسمو بمحيوية دولية متعددة الى اخوة دولية عليا ، لا ان يكفر بها . هذا هو الحلم - على الأقل .

ان الوحدة الإسلامية لا تزال أصلاً كما كانت دوماً ، شعوراً بالتماسك والاتحاد . انها ليست اتحاداً بالذات ، او تعبيراً نظرياً او عملياً له . ان وحدة العالم الإسلامي هي وحدة عاطفة . أما المحاولات التي جرت لتحويلها الى شكل ملموس ، ولايضاح الوحدة على صعيد سياسي او غير سياسي ، فقد تحطمت في التاريخ الحديث ، وما قبله على صخور الواقع الحرون . ولقد أكد جمال الدين الأفغاني امر الوحدة مرة اخرى ، غير ان التعبير السياسي الذي صيغ لها في خطط عبد الحميد العثمانية كان ، على أقل ما يقال فيه ، امراً منكود الطالع ، وكان الاخفاق شديداً . هذا ، وقد برهنت حركة الخلافة في الهند على أنها

رومانطيقية الى درجة خطيرة . ومع ذلك كله فالشعور مستمر ، الا في تركيبة .
ومع ان هذا الشعور في حالة ركود الا أنه شعور قوي (٧١) .

وجدير بالملاحظة ان مثالية الأخوة الإسلامية الكاملة ، التي تضم جميع المؤمنين في حشد اجتماعي متحد ، انما كانت منذ البدء حلماً جذاباً الا أنه لم يتحقق . وكانت هذه المثالية متأصلة في الوعي الديني للإسلام الدنيوي ، وبقيت محافظة على قوتها ، ولكنها كانت اول مثالية اسلامية كبرى يمزقها التاريخ بالفعل . لقد انفصمت وحدة الجماعة في خلال سنوات من وفاة الرسول واحتربت الأحزاب الإسلامية فيما بينها . وقد هزّت هذه الحقيقة وعي المسلمين الديني ، والجرح الذي انفتح في معركة الجمل (سنة ٣٦ للهجرة) لم يلتئم حتى اليوم . والحقيقة التي لا تنكر هي ان التماسك الديني قد انكسر تصرف المؤمنين المتوالي ، والمشكلة العقلية المنبثقة من هذه الحقيقة أدت الى ظهور علم الكلام (٧٢) . وما تلا ذلك من تاريخ طويل لم يقدم لهذا الانقسام علاجاً ، بل انه أحكمه وشعبه . وقد مرت في العصور الكلاسيكية فترة قصيرة نظر اليها فيما بعد على أنها شيء يقترب من المثالية عملياً دون ان يكون بعيداً جداً عن المعقول ، لكن هذا الأمر ما لبث ان تمزّق أيضاً . ان المجتمع الإسلامي ، خلال معظم عصوره كان منقسماً ، في الواقع ، الى أقسام . ومع ذلك فالمثالية بقيت واحتفظت بمجاذبتها الحارة حتى اليوم .

لقد تخلى الأتراك في أيامنا عن الناحية العاطفية في الموضوع لأنه يتبين أنها وهمية : شعور لا يستطيعون ان يعملوا بموجبه ، والواقع أنه تعارض مع واجبه العملي في جعل جزئهم من المجتمع الإسلامي جزءاً قوياً .

وليست مشكلة الوحدة الإسلامية ، بالنسبة للمسلمين ، في أنها تعارض مع القومية . فهي كشعور لا تعارض عملياً مع الشعور بالقومية ، كما رأينا . ثم ان الولاءين يمكن ان يعزز الواحد منهما الآخر . ان الذي تعارض معه هو الواقع الملموس . فهي مثل آخر على التباين بين النظري والعملي في الإسلام الجديد . وعلى كل حال ، فهي ليست المشكلة التي نالت الكثير من الاهتمام ، الا

اهتمام الأتراك الذين رفضوها بدلاً من ان يحلّوها . وقد هزّ رفضهم العالم الإسلامي ذلك بان الرفض الواضح لنظرية الوحدة والشعور نحوها ، كان أعنف بكثير من الرفض الواقعي العملي في كثير من الحالات ، كالثورة العربية السابقة على العثمانيين ، وكالاتكاف الأفغاني — الباكستاني الحالي الى غير ذلك . أما المسلمون الآخرون ، الذين لا يميلون الى قبول القرار التركي او الى استصوابه ، لم يعنوا بالمسائل التي اثارها عناية جدية ، ولم يحاولوا وضع نظرية تفي بالوقائع حقها ولكنها تجعل للعاطفة حقاً أكبر .

وانه لمثال آخر على جرأة الأتراك لاستعدادهم ان يعدّوا حتى من اعتقاداتهم ومشاعرهم المتعلقة بالاسلام المألوف في تكيفهم الصارم مع حقائق التاريخ الحديث ، وفي تمسكهم العملي بالواجب الذي يجعل من مجتمعهم مجتمعاً قوياً . أما صدقهم في تصرفهم فابعد بكثير مما أدرك المسلمون الآخرون ، مع أنه قد يكون حلم اولئك الآخرين باخوة اوسع ، بكل ما فيها من خيال ، أبعد بكثير أيضاً مما أدرك الأتراك . ان القضية بينهما لم تتبلور بعد فكيف بوضع الحل . ومن الموصف انه لم يتم اي بحث ديني بين الأتراك وغيرهم من المسلمين منذ ان تباعدا .

إن هذه الحقيقة في حد ذاتها ، ومسألة اتجاهات الاسلام الجديدة بكاملها عند الأتراك ، تثير اسئلة دينية وغير دينية فيما يختص بالوحدة الإسلامية ، لم تواجه حتى اليوم .

وهنا نجمل فنقول ان العالم الإسلامي الحديث قد قبل واستصوب بحماس ووجهات النظر القومية التي تناسب او تسهم في رد الاعتبار التاريخي للمجتمع الإسلامي ، وتلائم فروض الاسلام الأساسية . أما تلك الوجهات التي تعارض مع رد الاعتبار ذلك أو تصرف النظر عن واجبه العملي . فان العالم الإسلامي الحديث لم يقبل بها الا بصورة يسيرة ، ولم يقبل بها بالمرّة . وباستثناء الأتراك إلى درجة محدودة ، فان العالم الإسلامي لم يقبل بوجهات النظر التي تعارض مع الولاء التقليدي للقيم الإسلامية .

التأليف الاعتذاري

والنقطة التالية التي سنبحثها هي أعمال التأليف ، او الإنتاج الفكري الاعتذاري ، أو المبررات ، ويفني بذلك كله المحاولات التي تبرهن للكاتب او لغيره ان الاسلام راسخ متين . وتقدير هذا الأمر شيء اسامي في فهم الايضاحات الاسلامية الحديثة ، ذلك بأن قلراً غامراً من التفكير الديني الاسلامي الحالي ، انما يدخل تحت هذا العنوان . ثم ان معظم الكتب والمحاضرات في الدين ، والتي ينطوي أصحابها تحت هذا الموضوع اليوم ، تعتبر كتباً ومحاضرات اعتذارية .

إنها تحاول أن تمدح أكثر من أن تفهم وتشدد العزائم أكثر من أن تشرح . وهذه الحقيقة في تشعبها الواسع ذات مكانة اساسية في عدم التفاهم بين الغرب والمسلمين ، وكذلك في التطور الداخلي (او انعدامه) للتفكير الاسلامي الحديث . والظاهر ان لا المسلمين أنفسهم ولا مراقبي العالم الاسلامي من الغربيين قد فهموا الوضع كل الفهم . فالعديد العديد من المسلمين يعتبرون تلك المبررات مجرد أمر مسلم به ، ولا يدركون ما يمكن ان يستبدل بها بله الحاجة الى هذا البديل . والعديد العديد من الغربيين يعتبرون التحليل العقلي مجرد أمر مسلم به ولا يفهمون المبررات ، بله حاجة المسلمين الى هذه المبررات . وتجد الكثير من الأدب الاعتذاري موجهاً ، من حيث الشكل على الأقل ، إلى الغرب ، كما يبدو الكثير منه ، في ظاهره على الأقل ، انه يعالج علاقة الاسلام بالقضايا العصرية . لكن الصفة الاعتذارية بالذات لذلك النتاج هي ما يحول دون تفهم الغربي للاسلام الحديث ، واطخر من ذلك انه يقف سداً منيعاً في طريق الصراع الاصيل للمسلم مع الصعوبات الدينية الحديثة . أما فحوى نتاج الاعتذار عند المتحررين ، بالنسبة الى المجال الهندي فقد فحصها مؤلف هذا الفصل من حيث دفاعها عن الاسلام بالنسبة الى صلته بالعلم والحضارة والتقدم وامور المرأة والسلام والقيم التحررية عموماً (٧٣) . والموقف في البلاد الأخرى مشابه لهذا اجمالاً .

هذا ، ويمكن ان يحلل « الدفاع » عن الإسلام في اتجاه ذي ثلاثة وجوه :
دفاع ضد الهجوم ، وضد الكفر ، وضد الاصطباغ بالصيغة الغربية (٧٤) .
والثلاثة ، طبعاً ، تتداخل بعضها في بعض ، والفرق بينها تأويلي محض . ولقد
أقام الاعتذاريون أنفسهم للرد على الهجمات المباشرة التي شنّها النقاد الغربيون
على الإسلام : تلك الهجمات التي كانت ، خاصة قبل الحرب العالمية الاولى ،
كثيرة متعددة ، وطالما كانت سليطة حادة ، يشنونها باسم المسيحية والمذهب العقلي
والتطور التحرري وغير ذلك . والغرب اليوم لا يعي الا قليلاً مدى افتراءه
السابق على الإسلام ، وكيف كان ذلك الافتراء حاداً مدعوماً . ثانياً حاول
الاعتذاريون كبح اتجاه سلبي في مجتمعهم هم أنفسهم ، وخاصة بين الشبيبة
المتغلبة . فقد تراءى هؤلاء الشباب ، كثيرهم من الشباب المتعلمين في شتى أنحاء
العالم ، ان لديهم امكانية التخلي عن دينهم تحت ضغط الحياة العصرية ، والفكر
العصري ، وامكانية الاندفاع المجرّد مع التيار . ثالثاً شعر الاعتذاريون بالحاجة
لرد اتجاه عند اولئك المسلمين أنفسهم لاقتباس أساليب او قيم حديثة غير
اسلامية ، (أو حتى قيم « غربية » بالدرجة الاولى او « عصرية » كما يجب
المرء ان يعتبرها واخيراً شيوعية أيضاً ولكن إلى حد أقل) .

وبعد ان تعلق الفكر التحرري بالأمل الكبير عاد فتحوّل لا نحو إعادة التفكير
بالإسلام وانما للتفكير بسبل الدفاع عنه . وهذه الملاحظة الدفاعية واضحة حتى
فيما يتعلق بأمير علي الذي صلب عن اشد الايضاحات تأثيراً وفعالية في
ميدان التحريرية الاسلامية . لقد كان ، بالدرجة الأولى ، المحامي الذي
دافع عن قضية الإسلام امام محكمة الرأي الغربي . وكانت اعماله ، واعمال
رجال « أقل شهرة منه ، تدافع بمثل هذا القدر عن قضية الإسلام في اذهان المسلمين
المصطبغين بالصيغة الغربية ، والذين بدر منهم ما يدل على انهم كادوا ان يفقدوا
إيمانهم الديني .

ولم يكن انتاج الاعتذاريين خلافاً او ديناميكياً ، ولكنه كان مما يبعث الرضى
في النفس . فقد عمل على تلطيف ضماير تلك الآلاف العديدة من الذين

يعيشون ، او وجعلوا أنفسهم يعيشون حياة مصطنعة بالصيغة الغربية ، ومع ذلك يشعرون بأنهم تعساء عند «تخليهم عن الإسلام» أو ان التفكير بالتخلي عنه يؤدي الى تعاستهم . وقام ذلك بعمل ثانوي ، حيث استعاد الى الإسلام ذلك الفريق المصطنع بالصيغة الغربية ، الذي لولا هذا لتخلى عن مذهبه .

وقد سبق لنا أن أشرنا الى أن التحررية الإسلامية انما كانت حركة «مُسَوَّعة» اي أنها تسمح للمسلم بأن يكون متحرراً فكرياً ، كما سمحت للمتحرر بأن يكون مسلماً وان ينضم الى حظيرة الإسلام .

والواقع ان ذلك قد أصبح ، بتزايد مستمر ، الهدف الرئيسي للنتاج الفكري والأدبي المتحرر . وهو لم يسمح فقط للمتحرر بأن يكون مسلماً ، وانما ألح في دعوته لذلك وشدد . وهناك عدد متزايد من المسلمين الذين أخذوا بالنظرة الجديدة بصورة أقل من الزعماء المتحررين ، وفي حالات بصورة سطحية فقط ، والذين لم يتبعوا كثيراً عن العرف الموروث ، أطلقوا أيضاً من الأنتاج الكتابي للمحافظة على الولاء لذلك العرف في عالم سريع الأخذ بالحياة العصرية . وراح الأنتاج يظهر اثر الأنتاج في مجهود كبير لاقناع أنصاف المرتابين بان ولاءهم للإسلام انما يجب ان يبقى صحيحاً لا يحسه شيء .

وكان لذلك كله أهمية كبيرة مباشرة من الناحيتين الاجتماعية والتاريخية . أما من الناحية العقلية فكان الثمن الذي دفع ضخماً جداً ، والنتائج التاريخية والاجتماعية غير المباشرة عظيمة واسعة . وقد سبق لنا في مكان آخر ان نظرنا في بعض القضايا المادية والميتافيزيقية التي انبثقت من موضوع الحركة العقلية في الإسلام الحديث (٧٥) . أما التشكك الأساسي في حركة الننتاج الفكري فهو يعود إلى أنها قد حولت اهتمام مفكري الإسلام المعاصرين عن واجبهم الأساسي — الواجب الأساسي لسائر المفكرين : ألا وهو تقصي الحقيقة وحل المسائل . ان الحاجة الى التكامل تؤدي دائماً الى التفسخ ، واي اخفاق في التكامل الفكري في مجتمع ما يؤدي الى خطر التفسخ الفكري الرهيب . والواقع ان العالم الإسلامي ، بما في ذلك طبقته المتنورة ، لا يكاد يدرك الدور الحاسم المسؤول الذي تقوم به

طبقة المتنوّرة في الأزمة الحالية ، ومدى اعتماد مستقبل الإسلام والمجتمع الإسلامي على قدرة هذه الطبقة في مواجهتها القضايا الجديدة وفهمها إياها وتحليلها لها .

ويقدر ما يقبل المفكرون والكتاب بالتسليم للاتجاه الاعتذاري ، بنجم خطر شديد ، اذ أن عمل العقل لا يعتبر عندها أنه عمل للتبث من حقيقة جديدة او لحل قضايا جديدة - وخاصة لن يكون ذلك في الميدان الديني . لقد مال المفكرون والكتاب الى تفسير الإسلام، اما ظاهراً او خفياً ، تفسيراً يظهره وكأنه يرى ان حل القضايا الروحية والخلقية والاجتماعية انما هو عمل الوحي . ولقد كان الرجل المتنور في عصور الإسلام الكلاسيكية وسيلة لأيضاح الوحي ، أما في العصور الحديثة فيبدو هذا النظام العقلي للبعض نظاماً قديماً ، كما يبدو ان واجب المتنورين الوحيد انما هو البرهنة على ثبات الدين (دون ايضاح حتى ولا تعريف) ومثاقته . وانه لمسلوك قد يكون أقل ضرراً للجماعة في عصور أقل نشاطاً وعنفاً ، وفي حين تكون القضايا الجديدة الاضطرابية التي تنتظر الحلول بفارغ صبر أقل مما هي الآن .

بيد أن هنالك خطراً ، في اي وقت ، في الميل نحو اظهار الإسلام - او اي دين - ليس كدين حتمي يلقي على الرجل مسؤولية النضال ، وانما كنظام يحمله من هذه المسؤولية . والكثير من عرض الاعتذارين للإسلام يهدف إلى استئثار الثناء والتهليل لا الى الانجاز والاتقان .

وسرعان ما تحول هذا النتاج الاعتذاري فأصبح خيالياً منغمساً في التحدث عن ذاته . الدفاع يصبح زعماً وادعاء ، والتصنّع احتراماً متشابكاً مع خدمة الإسلام . أما بالنسبة الى اولئك الذين فقدوا الصلة بالسمو أو رد الأمور الدينية وغيرها الى مرجع سماوي ، فقد اقتصر النتاج الاعتذاري على وصف الفضيلة العقلية الذاتية للجماعة الاعتذارين وصلاحيه ماضيها واعتقاداتها واستحساناتها . وحتى على صعيد أعلى نراه يعتبر العقل ثانوياً ، والحقيقة مطابقة في النهاية للوحي ، ومؤيدة له . وقد نسي ان الحقيقة مطابقة للواقع ، وانها مع الوحي

تذكر الانسان بقيمتها الطاغية المقدسة حقاً ، وتؤدي بكل ما يعث بها من آراء البشر او ارادتهم الى نتائج رهيبة وعواقب وخيمة .

هذه ملاحظات خطيرة ، بل جارفة . اننا نعتقد ان القضية ، كما قلنا ، ذات تشعب كبير ، وانها برمتها قضية أساسية في الفكر الإسلامي الحديث . ولهذا فان ادراك ما هو جار يجب ان يكون ذا أهمية رئيسية بالنسبة للمسلمين وللأجانب . ان انتشار المبررات او الاعتذارات واسع جداً ، فقد كان لحسين سنة خلت ، أو ما يزيد ، في تدفق مستمر ، من دربان الى لاهور ، ومن طهران الى جاكرتا ، كتاباً اثر كتاب ، وكراساً اثر كراس ، وخطاباً اثر خطاب ، وكلها حول الإسلام عموماً ، وحول كل ناحية من نواحيه ، وحول تاريخه وما حقق من أمجاد . وعلى كل حال فقد كان هذا الانتاج على أشده في العالم العربي ، وخاصة في القاهرة . وقد يكون أكمل أدواره ذلك الذي قام به في « التجديد » العربي . ولا ريب ان اي تبصّر بالوضع العربي الحديث للإسلام إنما يتوقف على معرفة وثيقة بذلك النتائج .

وهنا يجب ان نقنع أنفسنا بالتعميم السائد ، وهو ان كمية كبرى من طاقة المسلمين المفكرين في أنحاء العالم الإسلامي قد خصصت للدفاع الفكري عن دينهم المألوف في العالم الحديث . وقد فهم الواجب عملاً ونظراً على انه في جوهره واجب درء الهجوم . وقد بدا الإسلام انه دخل الحقبة الحديثة من التاريخ وهو ضعيف مهدد ، كما فهم عمل العقل على أنه عمل دعم وسند للإسلام .

القوى الديناميكية

والعنصر الجديد الثالث في الإسلام الحديث ، وقد أشرنا اليه ، هو القوى الديناميكية : وهو عنصر يقدر النشاط من حيث انه نشاط كما انه يقلده على الصعيد الشعوري من حيث انه مثير للعواطف الشديدة ، وحتى العنيفة منها . أما قيمة هذا النوع من القوى ، والحاجة اليه في العالم الإسلامي الذي أصبح ساكناً غير عامل ، فأمر ظاهر . ولا ريب ان تحوّل المجتمع الإسلامي من رقدته في

اوائل القرن التاسع عشر الى فواته في القرن العشرين انما هو في حد ذاته عمل كبير . لقد شوهه التغيير في كل مكان . وقد تناول الشاعر المسلم الهندي اقبال هذا التغير بتعبير شعري بليغ ، والهام لاهب ، مما يعتبر عملاً فنياً رائعاً .

على أن الوضع الحديث لا يمكن ان يفهم تماماً الا إذا أدرك المرء مدى ما كانت عليه هذه الصفة الديناميكية من عدم اتصالها بقاعدة ضابطة او تحليل عقلي مسير . ولهذا فانها كانت لا تستطيع ان تصبح أكثر من زبد نشوة محتملة ، أو ثوران غير تعقلي للغوغاء . ان إقبال نفسه مجد العشق كثي نفيس في حد ذاته ، وهاجم العقل الذي قد لا يكبح العاطفة فحسب ، وإنما يسيرها كذلك . وانها تجربة عميقة ان يعيد المرء قراءة أشعاره النابضة بمشاعر الأندفاع الإسلامي المطلق في ضوء اختبار مذابح عام ١٩٤٧ اللاحقة (٧٦) .

نحت زخم هذا الطراز من الحماسة الجياشة لا يصبح النشاط فواراً فحسب ، وإنما قد يصبح أعمالاً عمية أيضاً ، وذلك لا يصبح الدين مغالياً فقط ، وإنما يصبح غير قانع بشي (٧٧) . ولقد نجحت أعمال الاعتذاريين ، الذين ذكرنا ، في جعل الكثيرين مخلصين « للأسلام » كفكرة غير واضحة لهم الى حد ، ولولا تلك الأعمال لتخلى اولئك عن الدين بل مرة . على أنها لم تكن أعمالاً بناءة بصورة كافية الى حد اعطائها الإسلام هيكلًا لعلم كلام متين او علم أخلاق ، بدلا من العقائد القديمة والشرع الذي تخلوا عنه . لقد كان إيمانهم مبهجاً الا أنه خفيف وقابل للانفجار .

وفي بعض الحالات ، كان هذا الولاء المفرط ، غير المحدد ، قد أعطي الى القوميات الإسلامية المحلية ، وكان معنى ذلك ان التوجه الى الله ، ذلك التوجه الذي أوحى به الإسلام فيما سبق ، والذي حوله « العصريون » الى ولاء للإسلام ، اصبح يقدم الى الجماعة الإسلامية الإقليمية يرافقه الحماس الشديد ولكن لا برنامج له .

وقد اتخذت هذه الديناميكية مؤخرًا بعناصر أخرى في الموقف الإسلامي الحديث . وعلى الرغم من أنها انجذبت ، في بعض الأحيان ، الى قومية اسلامية ،

الآل أنها استطاعت الاتحاد بالجماسة للدفاع عن الإسلام». وأقوى من ذلك كله أنها اتحدت مع الحلم والاندفاع الراميين الى إنعاش المجد الإسلامي ، واقامة المجتمع العظيم الذي انطوت عليه تعاليم الإسلام السماوية ، من جديد على الأرض . ولقد استفادت تلك الديناميكية من انسحاب السلطة الاوروية الذي تحقق بعد جهاد طويل . والاستقلال السياسي أتاح الفرصة لهذا الارتفاع الحماسي في نهوض الإسلام ، كما أنه اعتبر مجرد خطوة نحو ذلك . وقد رافق تلك الديناميكية شيء من الخيبة ، وهي الانكشاف المتزايد المرير لعجز التحررية والحركة العلمانية ، الآ في تركيا ، في المجال العملي لوضع برنامج ما وتنفيذه — وكذلك في ميدان الفكر بدا العجز عن النخول في نزال عنيف مع عالم يتزايد حيرة وارتباكاً .

وكانت النتيجة تحول عدد كبير من المسلمين مؤخراً الى سلسلة من الحركات واسعة الانتشار في العالم الإسلامي ، يتخللها في بعض الأحيان انفجار تعصبي . وحتى في تركيا ظهر ذلك على نطاق ضيق ، وبصورة غير هامة ، في حركة تيكانلي . ولم يكن ذلك في البلدان الأخرى مما يمكن التفاوضي عنه : كحزب القاشاني في ايران ، وفورة جماعة ختم النبوة في باكستان ، وحركة دار الإسلام في اندونيسية . وقد نضيف الريزاكار في حيدر أباد ، والى حد ما ، جماعة الأخوان المسلمين في العالم العربي ، و « جماعتي إسلامي » في باكستان (٧٨) . واذا لم تكن هذه الحركات نفسها ، فعلى الأقل الجو الجديد الذي شجعه اصرارها على ذاتها . وكان يظهر بين هذه العناصر الديناميكية ، بين حين وحين ، عنف أو سورة مريبة في معارضة الغرب ، ومعارضة غير المسلمين المحليين ، والمسلمين الذين لا يوافقون بالرأي ، وجميع الأجانب ، وزيج مثير من الاستقامة الذاتية وشهوة الحكم ، والطموح للحصول على السلطة . وبدهي أن هذه الحركات ، وهي في أفضل نظامها ، لا تخلو من قيم ايجابية ومع ذلك فقد اضطرت الحكومات المسلمة ان تضع حداً لهذه الحركات بسبب ما فيها من عنف وهياج ، وبسبب امكاناتها غير المحدودة للتدمير .

ويمكن اعتبار هذه الحركات ، من نواح هامة ، تمثيلاً مؤسفاً للدين . وما انبثاقها الا عرض لوعكة اساسية ألمت بالاسلام في العالم الحديث ، تلك الوعكة التي دللنا عليها في مفتتح هذا الفصل . وانه لمظهر عرضي أيضاً ان هذه الوعكة لم تنته بعد ، وانها تزداد نمواً في الواقع . وهذه الحركات تنبعث عنها ردود فعل ضد اخفاق احرار الفكر المسلمين في ارضاء الاحساسات الروحية او الحاجات العملية للعالم الاسلامي الحديث . بيد أنها في مثل هذا العمل انما تمثل بصورة أوضح اخفاق المحافظين المسلمين . انها تؤكد على ان الاسلام يجب ان يحدد موقفه من العصرية بل ان يقوم بدوره وهذا التأكيد تقوم عليه بدل محاولتها التغلب عليه

ولقد ازدادت الأزمة الروحية حرجية . فالتطور خلال القرن الماضي كان جديداً ، والتغيرات عميقة ، بيد انه على الرغم من ان بعض المسائل قد حُلّت فقد ظهرت قضايا اخرى جديدة هي أشد تحييراً وإعياء .

وقد حان الوقت لانهاء هذه الدراسة التمهيدية . فقد رأينا الاسلام وهو يدخل الحقبة الحديثة من تاريخه الديني ، وقدره في الخارج ، وتطوره في الداخل في جزر ، وهو مهدد بالهجوم من الخارج . ورأينا قومه يحاولون علاج حالة التدهور هذه بتطهير وسائل الاسلام ، وصد الأعداء الخارجيين ، وشحذ أنفسهم بالتذكر الحي لمجده السالف . رأيناهم قد أدخلوا على عاقبتهم تجديد مجتمعاتهم بأساليب حديثة ، مستعيرين من الغرب أو أدخلين من الحياة العصرية طرقاً جديدة وأفكاراً جديدة ، ومن ماضيتهم هم الالهام والعزم على النجاح . ورأيناهم يرحبون من هذه الأمور الجديدة بالقدر الذي يكفي لخدمة مطلبهم ، كما رأيناهم ينجحون في تثبيت استقلالهم ، بحركاتهم القومية ، ويدافعون بقوة عن ايمانهم بالجهد العقلي . ولقد قطعوا شوطاً بعيداً نحو الحصول على الحرية ، ليس سياسياً فحسب ، وإنما داخلياً أيضاً وذلك باستبدالهم الجحود بالحركة حتى أصبح مصيرهم الآن ، الى حد عظيم ، بأيديهم هم دون غيرهم .

بيد أن هذا هو مقياس ما هم فيه من مأزق . فالمسلمون العصريون ، في

سعيهم لتثبيت الإسلام نظرياً وعلى الأنصص عملياً ، قد نجحوا نجاحاً كافياً
جعلهم يواجهون ، بصورة أعمق وأعم ، مشكلة حاجتهم الدينية الصميمة ،
وهي علاقة الإسلام بالمشاكل الواقعية ، في العالم الحديث وبوجهات نظره .

إن السؤال الذي يواجهه المسلم اليوم لم يعد مجرد التساؤل عن سبب وجود
فجوة بين اعتقاداته وبين العالم الذي وجد نفسه فيه . انه أكثر ففاذاً من ذلك ،
ألا وهو : كيف يملأ تلك الفجوة (أو يقيم فوقها جسراً) بين إيمانه وبين
العالم الذي يتوجب عليه الآن أن يبني . ليس ذلك فقط ولكن هل ترى في الواقع
يريد هو نفسه ان يفعل ذلك ، او هل يستطيعه او هل يتوجب ذلك عليه ؟

الهوامش

١ - من المصادر التي تراجع هنا :

H.A.R. Gibb, *Modern Trends in Islam*, Chicago, 1947, (١)
reprinted 1950.

F. Rahman, « Internal Religious Developments in the Pre- (ب)
cent Century Islam », *Calviers d'histoire mondiale / Journal*
of World History, Paris, 2: 862-79.

ويراجع أيضاً :

G.E. von Grunebaum, « Attempts at Self-Interpretation in Con-
temporary Islam, » in his *Islam: essays in the nature and growth*
of a cultural tradition, 1955, pp. 185-236.

٢ - اقرأ عن الحركة الوهابية الليبولوجرافية التي اعتمدها شام. انشأها في معهد الدراسات الإسلامية بجامعة
ماك شيل في مونتريال ، وموضوعها :

« Islam and Nationalism in the Arab World: a selected and
annotated bibliography », 1955, pp. 7-26. (Not Published).

وتراجع كتابات محمد بن عبد الوهاب الأصلية التي نشرتها مكتبة النهضة الإسلامية
المعتمدة بمكة .

ولرب سائل يقول ، وهل هذه الحركة تمت بصلة الى العصر الحديث ام الى العصر
المتوسط ، كالحركة العثمانية المعروفة بحركة برجيني (راجع اسلام انيكلوبيديسي ،
القرعة ١٩٤٣) . أما دفاعنا عن افتتاحنا دواستنا لفترة الحديثة بالحركة الوهابية ، فهو
انه مهما تكن غاية باحثها (الذين لم يكونوا قد وصروا القضايا المصرية بعد) فان عدداً كبيراً ،
قد يكون ما زال في تزايد ، من المسلمين في العالم ، من يواجهون تلك القضايا ، إنما
يمرودون الى الوهابية ليترددوا بالإلغام وحتى بالخلول .

٣ - اقرأ عن هذه الشخصية للفقه البيروغرافي معين الدين أحمد خان في معهد الدراسات الإسلامية
بجامعة ماك شيل في مونتريال وموضوعها :

« A Bibliographical Introduction to Modern Islamic Develop-

ments in India and Pakistan,» 1955; pp. 133-50. (Not Published).

وهناك قائمة مشيت فيها ٢٨ موضوعاً من كتابات شاه ولي الله مع وصف لكل موضوع . راجع لذلك مقدمة مولانا جعفر حسن لرجته الى الأوردية أعظم عمل من أعمال شاه ولي الله وهو مؤلف الشهير « حجة الله البالغة » في جزأين - لاهور ١٩٥٣ . الجزء الاول ، ص ٧٦-٨٣ (وهذه القائمة لا تشمل الرسائل التي اكتشفت فيها بعد) . وكان ولي الله ماصراً لابن عبد الوهاب . وقد طلب العلم في مكة ، غير انه لا يوجد دليل على اي تأثير متبادل بينهما .

٤ - كان في عام ١٧١٩ قد خلف والده كزيم علي للطريقة النقشبندية . اما شرحه النظرية الصوفية فقد كان واضحاً في الكثير من كتاباته .

٥ - عن نظريته الإيجابية للإجتihad ، راجع رسالته المسماة : « عقد البليدي في أحكام الاجتهاد والتقليد » - دلي ١٣٤٤ (١٩٢٥ - ٢٦) وقد ترجمها الى الانجليزية م. د. راهبار تحت عنوان : « Shah Wali Ullah and Ijtihad »

وقد نشرت في : The Muslim World, Hartford, 44: 346-58 (1955)

٦ - راجع Khalig Ahmad Nizami, ed., Shah Waliyullah Ke Siyasi Makhtubat, Aligarh (1951).

وعن هذه الرسائل راجع لنفس للكاتب :

« Shah Waliullah Dihlavi and Indian Politics in the 18th Century », Islamic Culture, Hyderabad, 25: 133-45 (1951).

٧ - راجع كتاب غلام رسول مهر ، من سيد احمد شهيد في مجلدين ، لاهور (١٩٥٣-٥٤) . وهو كتاب فله يهدر أنه ميز عهداً جديداً في علم تدوين التواريخ بالاوردية .

٨ - اقرأ هنا في الموسوعة الإسلامية : الفرائضية بقلم م. هدايت حسين . ولقد كرست هذه الجماعة معظم نشاطها لحماية المجتمع الإسلامي من الاجتباب . اما إصلاح المجتمع السلمي الداخلي ، وحايته من الفساد في بهار والبنغال ، فقد ترك حركة ولي الله البرلوي التي كان يقودها كرامات علي . اقرأ عن هذه الحركة مقالة يوسف علي في الموسوعة الإسلامية .

٩ - مثال على ذلك الاحتفال بيوم شاه اساميل شهيد الذي نظمه عام ١٩٤١ في لاهور اتحاد الطلاب المسلمين لسائر البنجاب . راجع

Abdullah Butt, Aspect of Shah Ismail Shaheed: essays on his literary, political and religious activities, Lahore, 1943.

١٠ - راجع في الحواشي رقم ٣٨ .

١١ - ما زال عالم الكتب بالنظر دراسة ملزمة للأفغاني . راجع في الحواشي رقم ٢ ، وراجع رسالة شريف المجاهد في معهد الدراسات الإسلامية بجامعة ماك غيل في مونتريال ، وعنوانها :

« Sayyid Jamal al-Din al-Afghani: His Role in the Nineteenth Century Muslim Awakening », 1954. (Not Published).

١٣ - محمد إقبال ١٨٧٦-١٩٣٨ . راجع كتاب عبد الفتني وخواجه نور إلملي ، وعنوانه :
Bibliography of Iqbal, Lahore 1954.

١٣ - من الإخوان راجع :

Ishaq Musa Husayni, The Muslim Bretheren, Beirut, 1956.

Wilfred Cantwell Smith, Islam in Modern History, pp.156-160.

وهو المكتسار كتاباً آخر المؤلف وهو :

Modern Islam in India, Lahore, 1943, pp. 270-83 and bibliography; London, 1946, pp. 235-45.

١٤ - راجع : (١)
B. E. Evans-Pritchard, The Sanusi of Cyrenaica, Oxford, 1949.

ب (محمد نواد شكري : السنوسية دين ودولة - القاهرة ١٩٤٨ وكذلك
راجع رسالة نشابه المذكورة في الحواشي تحت رقم ٢ (ص ٢٧ - ٤٣) .

ج (أحدث كتاب من السنوسية هو :

Sanusiyyah by Nicola A. Ziadeh, Brill, Leiden, 1958.

١٥ - أحدث ما كتب من المهديّة في الإنجليزىة هو :

أ A. B. Theobald, The Mahdiya : a history of the Anglo-Egyptian Sudan, 1881-1899, London, 1951, with bibliography.

ب - Mekki Shibeika, British Policy in the Sudan 1882-1902, London, and New York 1952.

ج - The Mahdist State in the Sudan 1881 - 1898 by P. M. Holt, Oxford University Press, London 1958

د (توفيق أحمد البكري : « محمد أحمد المهدي » في سلسلة كتب « اعلام الإسلام » ،
القاهرة ١٩٤٤ .

هـ (سعد محمد حسن : « المهديّة في الإسلام » .

و (حسين مؤنس : « وثائق من مهدي السودان » - القاهرة ١٩٥٣ .

١٦ - راجع (١)
E. G. Browne, The Persian Revolution of 1905-1909, Cambridge, 1910.

ب (L. P. Elwell-Sutton, A Guide to Iranian Area Study, Ann Arbor, 1952, esp. p. 52.

وهناك كتب بالفارسية لمهدي مالك زاده، و أحمد كمروني تيريزي، وذلك أشهرها

١٧ - راجع (١)
Hedwig Schlieffer, Islam in Indonesia, Section VI of « Selective Bibliography on the Economic and Political Development of Indonesia », Cambridge, Mass., Centre for International Studies, Massachusetts Institute of Technology, 1955.

ب (Harry J. Benda, « Indonesian Islam under the Japa-

nese Occupation, 1942-1945 », *Pacific Affairs*, 28: 350-62 (1955).

G.W.J. Drewes, «Indonesia: mysticism and activism», (ج
in Gustave E. von Grunchebaum, ed., *Unity and Variety
in Muslim Civilization*, Chicago, 1955, pp. 284-307.

١٨ - راجع رسالة W.J. Watson في معهد الدراسات الإسلامية بجامعة ماك غيل في مونتريال ،
وعنوانها : « Muhammad 'Ali and the Khilafat Movement », 1955 ،
١٩ - إقرأ مقالة المؤلف في *The Middle East Journal*, Washington, 4: 27-51
« Hyderabad: Muslim Tragedy » (Jan. 1950).
وراجع كتابه : *Modern Islam in India*, Lahore, 1943, London,
1946.

٢٠ - أو « مد وجزر الإسلام » . نشر أول ما نشر في دلهي .
٢١ - موجودة في مجموعة « Bang-i Dara » ، ١٩٢٤ . وقد ترجمها الطاف حسين ، ووضع
لها العنوان : « The Complaint and the Answer », Lahore 1940
٢٢ - موجودة في مجموعة « Bal-i Jibril » ، ١٩٣٥ وقد ترجمها إلى الإنجليزية
V. G. Kiernan في مجموعته : *Poems from Iqbal*, Bombay, 1947, pp. 68-71: London, 1955, pp. 37-42.

٢٣ - نشر أولاً في لندن ، ثم في نيويورك ، وتمددت النشرات فيما بعد .
٢٤ - جورجي زيدان ١٨٦١-١٩١٤
٢٥ - ولماذا تأخر المسلمون ولماذا تقلم غيرهم » للامير شكيب أرسلان. ظهر أولاً كسلسلة
مقالات في القاهرة بمجلة المنار ، ومن ثم جمعت في كتاب ترجم إلى لغات أخرى غير
العربية . والطريف أن الترجمة الإنجليزية التي نشرت في الهند (عام ١٩٤٤) ، ثم أعيد
طبعتها في باكستان عام ١٩٥٢ قد نقلت عن اللغة المالايالومية. راجع مقدمة الطبعة الانكليزية
(لاهور ١٩٤٤) ص ١٠

٢٦ - يعمل معهد الدراسات الإسلامية في جامعة ماك غيل على إصدار مشروع طووال السنوات
الخميس أو العشر القادمة لإصدار كتب تنطوي على موضوع : « الإسلام الحديث في تركيا »
و « الإسلام الحديث في النرويجية » ... وهكذا .

٢٧ - راجع « التصوف في الإسلام » لعمر فروخ
٢٨ - كان ابن عبد الوهاب قد ذهب إلى أصغهان في أوائل حكم نادر شاه (١١٤٨-١١٣٦) .
ويقال أنه درس هناك ، لمدة أربعة أعوام ، الفلسفة الروائية ، والنظم الاثرية والصوفية .
وقد اجتلب لمدة عام كامل عسداً من التلازمة كموضح للصوفية ، ثم انتقل إلى قم ،
وبعدها أصبح من متشرعي مدرسة ابن حنبل . راجع الموسوعة الإسلامية الموجزة :
« الوهابية » لمارغوليث .

- ٢٩ - راجع : (١) تالويخ الأستاذ الاسلام ، اوشيد وضا .
 (ب) Charles C. Adams, Islam and Modernism in Egypt
 (ج) محمد عبيد ، بقلم S. Schacht في الموسوعة الاسلامية الموجزة .
 (د) محمد عبيد ، ليمان أمين ، بالفرنسية وهي ارجب من مقالة محمد عبيد ،
 ليمان أمين في سلسلة اعلام الاسلام باللغة العربية (القاهرة ١٩٤٤)
 (التي ترجمت الى الانكليزية وقد نشرت في نيويورك ١٩٥٣) .
 (هـ) محمد عبيد ، محمد البيبي ، بالالمانية .
- ٣٠ - عن زيا غوكالب يراجع : (١) Uriel Heyd, The Foundations of
 Turkish Nationalism, London 1950
 Niazî Berkes, « Ziya Gökalp :
 his Contribution to Turkish Nation-
 alism, » The Middle East Journal,
 Washington, 8; 375- 98 (1954).
- وستنشر قريباً مجموعة لكتاباته باللغة الانجليزية . تنشرها المجلة المذكورة في واشنطن .
- ٣١ - راجع ف. رحمن نفس المكان ص ٨٦٤
- ٣٢ - اقرأ رسالة امير عباس سيدي في معهد الدراسات الاسلامية بجامعة ماكغيل في مونتريال ،
 وموضوعها : « Some Aspects of Islam in Modern Iran » .
 مع اشارة خاصة الى اعمال سننولاجي وراشد ، ١٩٥٤ .
- ٣٣ - راجع في الحواشي الارقسام (٢٢) ، (١٧) ، (٢٩) ، (٣٤) ، (٣٦) ، (٣٨) ،
 (٣٩) ، (٤٧) ، (٤٨) . وذلك فيما يختص بالاباء المذكورة في هذه الفقرة ، وبحركاتهم .
- ٣٤ - اقرأ كتاب « Modern Islam in India » وخاصة الفصل الثاني .
- ٣٥ - راجع H.A.R. Gibb يراجع في الحواشي عن مصادر الاسلام الحديث في ايران .
 رقم ١٦ ، ٣٢ . ومن كتاب الاسلام في التاريخ الحديث لوفريد كانتول سميث ،
 الفصل السابع ، والحاشية رقم ٦ منه .
- ٣٦ - راجع في الحواشي رقم ١٧ ، ومن كتاب سميث المذكور الفصل السابع والحاشية رقم ٧ منه .
- ٣٨ - يشرح كتاب Niyazi Berkes, The Development of Secularism in
 Modern Turkey. وهو مل وشك الظهور ، دراسة اساسية للموضوع (ظهرها)
 الكتاب في لندن ١٩٥٩ (المحرر) . راجع الفصل :
 « Historical Background of Turkish Secularism »
 للمؤلف نفسه في كتاب Richard N. Frye تحت عنوان :
 Islam and the West, 's - Gravenhago. 1957.
 وقرأ أيضاً مقالة Abdulhak Adnan - Adivar تحت عنوان :
 « Interaction of Islamic and Western Thought in Turkey »
 Near Eastern Culture : T. Cuyler Young واسمه : وذلك في كتاب :

and Society: a symposium on the meeting of the East West, Princeton, 1951.

ويشأن الفترة الأخيرة راجع ما ورد من مصادر في المأش رقم ٣٠ ، وهوامش الفصل الرابع من كتاب الإسلام في التاريخ الحديث ، رقم ١٦ ، ٢٠ ، ٢٥ .

٣٩ - اقرأ المقالة عن « سيد امير علي » الهندسي في الموسوعة الإسلامية ، ألبه الهندسة ، لندن ١٩٥٦

٤٠ - « Memoirs of the late Rt. Hon'ble Syed Amcar Ali » , Islamic Culture, Hyderabad, 5:520, 526 (1931).

٤١ - طبع عدة طباعت ، وترجم إلى التركية ترجمة موجزة كما ترجمت أقدام منه إلى العربية ، كما قيل لسميث صاحب كتاب الإسلام في التاريخ الحديث . وله ترجمة مختصرة بالتركية بقلم عمر رضا (استاينول ١٩٤١) .

٤٢ - راجع حل هامش السيرة لعه حنين ، وسيرة محمد لمحمد حسين هيكل ، وعقوبة محمد لباس محمود العقاد .

٤٣ - لنفس المؤلف اقرأ من امير علي :

Modern Islam in India, Lahore, p. 56 (London ed., p. 55).

٤٤ - ترى هل يعتبر أقبال ، وخاصة في أعماله الأولى ، مستثنى ؟ وكذلك لك . ج. سيدين

1. Iqbal: Educational Philosophy, Lahore, 1938. في كتابه :

2. Iqbal; The Man and the Message, London, 1949.

ومع ذلك فإن أقبال من المتناقض وغير التنسيق . إمكانية يصعب فيها الحكم عليه . أنه الصوفي الذي هاجم الصوفية : وربما انتحى الفكر الذي هاجم التحررية وقد كانت النتيجة التاريخية لتأثيره ، على العموم ، إسهامه في إضفاء التحرر الفكري بين المسلمين المتنود ، وإيداعها بدنياميكية وطنية متعصبة اعتلادية .

٤٥ - شب ، ص ٣

٤٦ - مؤلف كتاب : Islamic Ideology; the fundamental beliefs and principles of Islam and their application to practical life, Lahore, 1951.

ومحرر مجلة Saqafat الشهرية ببلهور (١٩٥٥-١٩٥٩) ومدير معهد

الثقافة الإسلامية ببلهور (١٩٥٠-١٩٥٩)

٤٧ - المؤلفات الرئيسية من عبيد الله سندي باللغة الأردية ، مثل كتاب محمد سرور ،

وكتاب أحمد أكبر إلهادي . وبالإنجليزية انظر مقالة م . مظهر الدين صديقي وعنوانها

« عبيد الله سندي » في (The Islaic Literature, Lahore, 8:379-89 (1950)

أما أبو الكلام آزاد (١٨٨٨-١٩٥٨) فقام ديني وفور ، وكان يشغل منصب

وزير التعليم في حكومة الهند . وهو زعيم سياسي وثقافي إسلامي خطير في القومية الهندية

منذ زمن طويل ، وكاتب كبير في اللغة الأردية . ويمكن أن تذكر جريدة الهلال التي

كان يجرها في كلكتا (١٩١٢-١٤) ، وهداً من الكتب ، ومنها ترجمان القرآن ،
(وقد ظهرته جز مان ١٩٣١ -) وديار الخمار (وقد طبع عدة طبعات منها واحدة في
لاهور ١٩٤٦) . راجع يلهوغرافية سين المشار إليها في المامش ٣ . واما حسين علي راشد
(١٩٠٢ -) فليس بمؤلف كتب ولكنه مبشر . وهو مشهور في اذاعة طهران ، حتى
ان من احاديثه ما ملا مجموعة من تحفه اجزاء . (طهران ١٣٢٢ - ١٣٤٠ هـ) من رشيد رضا
(١٨٦٥-١٩٢٥) اقرأ :

- (١) Adams وقد مر ذكره
- (٢) السيد رشيد رضا اوعاه اربعين سنة ، الامير شكيب ارسلان .
(دمشق ١٣٥٦ / ١٩٢٧)
- (٣) Henri Laoust في مقدمته لترجمته كتاب :

Le Califat dans la doctrine de Rashid Rida,
Beyrouth, 1938.

راجع W. C. Smith . عن غودايشر (١٨٧٧-١٩٢١) ، يوسف علي (١٨٧٢-١٩٥٣) .
وقد كان عباس اقبال (١٨٩٩-١٩٥٦) ملأ في تاريخ الادب الايراني . وعن احمد امين
(١٨٨٦-١٩٥٤) راجع كتابه : « حياتي » (القاهرة ١٩٥٠) بمقالة M. Perlmann
وعنوانها : The Autobiography of Ahmad Amin في مجلة Middle
Eastern Affairs, N. Y. 5; 17-24, (1945). ومقالة Kenneth Cragg
وعنوانها «Then and Now in Egypt. The Reflections of Ahmad Amin» في
The Middle East Journal, Washington, 9; 28-40, 1955. وذلك في مجلة
واحد امين مشهور بالترجمة الاولى كمؤرخ ، واما كاديب فراجع لذلك مقالة هـ . ا .
ر . شب في الموسوعة الاسلامية ، طعة ليند الحديثة ١٩٥٦ .

٤٨ - اقرأ عن سيرسيد احمد خان (١٨١٧ - ٩٨) مقالة « احمد خان » بقلم ج . م . من ..
يلجون في الموسوعة الاسلامية ، طعة ليند الحديثة ١٩٥٦

1. The Special Aligarh Number ('Aligadh Nambar) ويراجع ايضاً :
of the Aligadh Maygazin, Aligarh, 1955.

2. Nuru-r-Rahman, Hayat-i Sar Sayyid, Aligarh. (لا تاريخ)

٤٩ - القضايا الاساسية في الدين لم يتعرض لها بعد احمد باعادة النظر فيها بصورة واضحة ،
وذلك ما يشهد عليه المسلمون انفسهم وطلاب المعرفة الاسلامية من الاجانب . راجع
مقالة محمد حسن الزيات في :

« Islam Confronted by Western Secularism: Evolutionary
Reaction »

المشور في كتاب D. S. Franck واسمه :
Islam in the Modern World, Washington 1951.
(نقله الى العربية اسمعق موسى الحسيني ، بيروت ١٩٥٣ باسم الاسلام في نظر الغرب) .

سبحان يقول وان الاسس الرئيسية للثقلية في الاسلام لم تخضع لأي انقلاب او تطور خطير ناتج عن تأثير علماني حديث اوي تأثير غربي آخر - ص ٣٢ . وقال Cragg : وثقلية، هذا إذا كانت ، هي تلك العقائد الاسلامية الرئيسية التي تنازلتها المناظرات العقلية بين المسلمين العرب في القرن العشرين - : Kenneth Cragg

« The Modernist Movement in Egypt », in Richard N. Frye, ed., Islam and the West, 's-Gravenhage, 1957, p. 151.

- ٥٠٠ - ان التطور عند الاتراك جرى ، كما يظهر ، على اسس وطنية قومية أكثر منها اسساً دينية . هذا صحيح . يراجع كتاب سميت : الاسلام في التاريخ الحديث - الفصل الرابع .
٥١٠ - يراجع : J. M. S. Baljon Jr. The Reforms and Religious Ideas of Sir Sayyid Ahmad Khan, Leiden, 1949, p. 41.

كما يراجع كاتب هذا الفصل في مقاله :

« Ek Sawal », 'Aligadh Maygazin, Aligarh, 1955, pp. 81-83.

- ٥٢٠ - ذلك واضح في مجلة « تهنيت الاخلاق » ١٨٧٠-٨٦ التي كان يحررها ، وفي مؤتمري التعليم الاسلامي (١٨٨٦ -) الذي اسسه .
٥٣٠ - « تفسير القرآن وهو الهدى والفرقان » - لاهور في ستة مجلدات (١٨٨٠-٩٥ ؟) لغة مطلقة ، إذ يقول البعض ان « السلطة الادبية » الغرب لم توجد إلا بين اقلية ضئيلة ، ثم تميزت ، وهي كما هي عليه قبل منتصف القرن الحالي بزمان طويل ، اي حوالي الحرب العالمية الاولى لا الثانية .
٥٤٠ - في النصف الثاني من القرن العشرين شرع الغرب في سياسة جديدة ، وهي المساعدة الاقتصادية للاقطار « المتطورة » . ولم يمن الوقت لتقدير النتائج الروحية والسيكولوجية لهذه السياسة . على ان هناك امراً اكدت : وهي ان هذه المساعدة لا تكون اقل جدوى للفهم الانساني والحواد والصداف المتبادلة ، منها فيما لو انها لم تكن ذات صلة واضحة بما وراءها من افراض سياسية . لقد كان هناك ، على وجه الاجمال ، شيء مؤلم في تقديم هذه المساعدة .
٥٦٠ - مثال ذلك : كتب لنا صديق مسلم من كراتشي (في شهر مايو ١٩٤٩) يقول : « لقد دخلت كلية لاهى الاوساليات في الجنوب . كنت سعيداً هناك ، فقد كان المعلمون ياملوننا على صعيد شخصي ، وكانوا طيبين للغاية معنا . لقد اهتموا اهتماماً شخصياً بمستقبلنا ، وكانوا على اتم استعداد لمساعدتنا كأفراد ، لكنه لم يضر على بالهم ، ابداً ، ان يساعدونا كمجتمع ، ويمينونا في تحقيقنا الذاتي ثقافتنا » .
٥٧٠ - كانت دراسات الفريزين ... اسلامية ، حتى في احداث انبعاثاتها واكثرها عطفاً ، يسه فهمها وتستذكر في نواح عديدة . والمجاولات بلبلها تحليلية تعتبر مجالات هدامة . وكثيراً ما كانت كتب الفريزين عن الاسلام تقرأ لا يرى مسلم ما فيها من تنوير ، وإنما معنى ما فيها من ملح وثناء . اما الهجوم على الموسوعة الاسلامية فيعرف بما

اشاره من رد فعل انفعالي في اوساط اسلامية واسعة . ولقد اتبعت لنا فرصة الاطلاع على ذلك في مجلة : (1955) 83-581 The Islamic Literature, Lahore, 7: وملكه مجلة : (1955/1375) 52:4 Yaqeen, Karachi, وغيرها .

٥٨ - اقرأ عن محمد عبده كزعيم وطني في . Adams, pp. 52-57

٥٩ - لعب المنتسبون الى دار العلوم (١٨٧٦ -) في ديوبند في شمال الهند دوراً هاماً في الحياة الدينية والسياسية المجتمع الاسلامي الهندي . ولا تتوفر حتى اليوم دراسة قيمة لذلك ، على اننا نجد معلومات قليلة عن هذا الموضوع في كتاب لصاحب هذا الفصل وهو : Modern Islam in India, London ed. pp. 295-96

٦٠ - راجع من « كياي حاجي احمد دخلان » ، (١٨٦٨-١٩٢٣) مقالة : Dachlan في الموسوعة الاندونيسية Ensiklopedia Indonesia, Bandung's Gravenhage

٦١ - « ان الاسلام ، والقومية في اي شكل ، امران غير مؤتلفين في الفكر والحياة » - مظهر الدين صديقي ، محرر مجلة : (1956) 435:8 Islamic Literature, Lahore, 8: « ان الاسلام والقومية في روحها ، وغاياتها متعارضان على خط مستقيم » - سيد ابو العلا المودودي :

Nationalism and India (trans.),

Pathankot, 1947, 2nd ed., Karachi, 1947, p. 10.

ونشير كذلك الى اشارة اقبال :

« Wataniyat, » Bang-i Dara, Lahore, 1944; 12th imp., 1948, p. 173.

٦٢ - راجع من الخواشي رقم ٦٩ ولساطع الحصري آراء في القومية العربية في الكثير من كتبه وكراساته ، راجع منها بصفة خاصة كتابه : « آراء واحاديث في القومية العربية » - القاهرة ١٩٥١ ، و « المحاضرات الافتتاحية » في معهد الجامعة العربية الجديدة للدراسات العربية العليا ، القاهرة ١٩٥٤ .

٦٣ - وعلى هذا الاساس لا تكاد تمتثل القوميات العربية . فمن ناحية نظرية ترى ان القومية في الغرب قد اجتبرت الدولة وحدة ولاء ، مهمة الفوارق الدينية . هذه النظرية كانت ناجحة عملياً ، حيث كانت الفوارق مليانية بصورة رئيسية . حتى الولايات المتحدة التي تفاخر بانها هضمت العديد من انواع الشعوب المختلفة ، لم تشتمل على عدد يذكر من الهندوس او البوذيين او الطاوسيين (اتباع الفيلسوف الصيني لائ - تشي - الذين يدينون بعقيدته الدينية) . والواقع ان ليس هناك من أمة عربية انطوت على مجموعة كبيرة غير مسيحية - باستثناء اليهود . والحقيقة ان الاقليات غير المسلمة في العالم الاسلامي لا تشر بالطمانينة ، وفي بعض الحالات يدب فيها الغزع . ولكن قد يكون من الواقع ايضاً ، في درجات متفاوتة ، ان الاقلية الدينية في جميع انحاء العالم (الا في الصين قبل ان تصبح شيوعية ؟) لا تكاد تشر بالها أمنة .

٦٤ - ليس هناك دراسة خاصة بالنور التي قام المسلمون في القومية الهندية . هناك مصادر

تتناول الموضوع من نواح مختلفة راجع منها :

- أ - B. R. Ambedkar, « Pakistan », Bombay, 1947. —
ب - شوكة الله انصاري. Pakistan: the problem of India, Lahore, 1944. —
ج - W. Norman Brown, « Hindu - Muslim Communalism » and « The Creation of Pakistan », Chapp. VII and VIII of The United States and India and Pakistan, Cambridge, Mass., 1953, pp. 112 - 43. —
د - Sir Reginald Coupland, « Hindu - Muslim Antagonism » and « The Moslem Reaction », Part 1, Chap. III and Part 2, Chap. XVIII of his (Report on) the Constitutional Problem in India, London, 3 Vols., 1942-44. —
هـ - Jawaharlal Nehru, « The Question of Minorities. The Moslem League. Mr. M. A. Jinnah », Chap. VIII of his The Discovery of India, New York, 1946, pp. 384-99. —
و - محمد نيمان : Muslim India: rise and growth of the all India Muslim League, Allahabad, 1942. —
ز - Richard Symonds, « The Moslems and Indian Nationalism », Chap. III of his « The Making of Pakistan », London, 1950, pp. 38-48. —
ح - ويراجع أيضاً كتاب : Modern Islam in India لصاحب هذا المقال .
١٥ - من المبالغ ضد اليونان الذي حصل في ايلول (٦-٧) ١٩٥٥ ، راجع مقالة : « Riots in Turkey » في مجلة :
The Middle East Journal, Washington 4: 435 (1955).

٦٦ - راجع مقالة :

- Pierre Rondot, « Islam, Christianity and the Modern State », Middle Eastern Affairs, New York, 5: 341-45 (1954), esp. p. 342.
٦٧ - في الجلسة السنوية التي عقدتها الجمعية الاسلامية لكافة الهند في دلهي خلال شهر نيسان ١٩٤٣ ، وفي الوقت الذي كان التبايل الشديد والتنازل عما سيكون وضع غير المسلمين في حالة تأسيس الباكستان ، راح جناح يؤكد لم بهيمنة ان قراراً قد اتخذ لتأمينهم وان تبني الاسلام وتاريخه قد ضربها « اوضح برهان على ان غير المسلمين لم يعاملوا بالعدل والحنس فحسب ، وانما بكرم واريحية » .
يراجع كتاب سيث : الاسلام الحديث في الهند ، ص ٢٨٧ .

٦٨ - راجع الفصل السابق وكل من :

Emil Durkheim

— أ —

Henri Bergson
Joachim Wach

ب -
ج -

في كتبهم الثلاثة الآتية على الترتيب :

- ١ - Les Formes elementaires de la vie religieuse, Paris, 1912
ب - Les Deux sources de la morale et de la religion, Paris, 1932.
ج - The Sociology of Religion, London, 1947.

٦٩- يعتبر شواذري خليف الزمان من المسلمين القلائل الذين كانوا يدعوون الى وحدة العالم الاسلامي السياسية . وكان خليف الزمان لمدة ما (١٩٤٩-٥٠) رئيساً للعصبة الاسلامية في باكستان . وقد قام في ذلك الحين برحلة الى بعض الاقطار الاسلامية لنشر وجهة نظره ، إلا ان الترحيب به لم يكن مشجعاً ، فاضطر الى التخلي عنها الى حين . كان يرى ان « الدولة الاسلامية » لا يمكن ان تأسس في الباكستان التي تعتبر جزءاً واحداً من العالم الاسلامي . فالدولة الاسلامية يجب أن تتحدد على اساس الوحدة الاسلامية . اقرأ كرامته الموجزة :

Conception of a Quranic or Islamic State , Karachi, 1950.

٧٠- لقد أوضح اقبال هذه الفكرة ايضاً ككلاسيكياً نموذجياً عندما قال :
« ان كل امة اسلامية ، في الوقت الحاضر ، يجب ان تفرص الى احماق نفسها ، وتسلط رؤيتها على نفسها وحدها ، موقتاً ، حتى تصبح جميع الدول الاسلامية قوية العزم متينة الجانب ، فتؤلف امرة حيوية من الجمهوريات » -

Sir Mohammad Iqbal, The Reconstruction of Religious Thought in Islam, 1944 ed., Lahore, p. 139.

وهناك شيء يشبه ذلك بلجال الدين الانفاي على الرغم من ان نظريته السائدة التي كان يهتم بها كانت الوحدة السياسية . اقرأ له : « الوحدة الاسلامية » في « المروة الوثقى » -
جميع محمد جبال ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٣٥١-١٩٣٣ ، ص ١٤٦-٥٨ .

٧١- لقد عبر ذلك الشعور عن نفسه ، مثلاً ، في دستور الباكستان لعام ١٩٥٦ ، حيث نرى البند ٢٤ من مبادئ سياسة الدولة التوجيهية يقول ، وتستعمل الدولة على تقوية روابط الوحدة بين البلدان الاسلامية (وكذلك تستعمل على انجذاب السلام والمحبة ، وغيرهما « بين جميع الدول ») . ثم ان حكومة الباكستان دعت موقراً اقتصادياً إسلامياً دولياً التمام في كراتشي عام ١٩٤٩ وبقي مؤسساً هناك ، كما تسمى حكومة بصر المؤتمر الاسلامي ، القاهرة ، (١٩٥٣ -)

ويللاحظ المرء حركات اخرى كتخطيط المؤتمر الاسلامي العالمي في كراتشي ، (١٩٤٩ -) . إما سكرتيره اللشيطي أنام الله خان ، فهو ايضاً المنظم الرئيسي لمؤتمر الشبيبة الاسلامية الدولي في كراتشي (١٩٥٥ -) .

٧٢ - كان المؤتمر هم أول من افتتح علم الكلام . راجع مقالة المؤتمر بقلم H.S. Nyberg في الموسوعة الإسلامية .

٧٣ - سميت - الإسلام الحديث في الهند ، القسم الأول من الفصل الثاني .

٧٤ - في الفقرة التي تلي آراء ندين ببعضها فضل الرحمن ، المشار إليه في الهامش رقم ١

« The Intellectuals in the Modern Development of the Islamic World », in Sydney Nettleton Fisher, ed., Social Forces in the Middle East, Ithaca, 1955, pp. 190-204.

٧٥ - عن موضوع أن المسلمين في مذابح عام ١٩٤٧ لم يكونوا وحدهم الضحايا ، اقرأ الفصل السادس من كتاب سميت : « الإسلام في التاريخ الحديث » . وطبعاً لم يكن غير المسلمين أقل عنفاً في تلك المذابح .

٧٦ - اقرأ مقالة فضل الرحمن : « Modern Muslim Thought » في مجلة : The Muslim World, Hartford, 45: 16-25 (1955) .

وكذلك كتابه المشار إليه في الهامش رقم ١ ، وخصوصاً الصفحة ٨٦٧ منه .

٧٨ - اقرأ لمسمت ، في كتابه : الإسلام في التاريخ الحديث الصفحات ١٥٦-١٦٠ من الفصل الثالث ، والصفحات ٢٢٣-٢٤٦ من الفصل الخامس .

فهرس ابجـدي

ملاحظة : في ترتيبنا هذا الفهرس الابجدي تركنا جانباً
« ال » التعريف وابن وابو ، واعتمدنا اول حرف في
الاسم او الكلمة الاصلية . فالأتابك تنظر في أتابك وابو
بكر في بكر وابن خلدون في خلدون .

الأترالك ١٠١٣٩، ٣٤٥، ٢٣٠، ٣٨١	أ—
ابن الاثير ٢٣٠	ابرهيم ٣٠٤، ٢٢٠، ٣٤، ١٧
الاحساء ١٨	ابرهيم موفركه ٣٤٥
احمد امين ٣٦١	ابرهارد غوطين ٢١٤
احمد دخلان ٣٦٣	أبرهة ١٦
الاششيدون ٤٠، ٥٩، ٦٢، ٦٧، ٦٨ ،	ابلين ١٣١، ١٢١
٧٢،	ابوليا ٣٠، ٣٤، ٣٥، ٥٠، ٥٦
الأخوان المسلمون ٢٥٤، ٣٥٠، وما بعد	ايلوس ٧٥
الأخوة الإسلامية ٣٨٠	الأيض المتوسط (البحر) ٢٦، ٢٥ ،
الادارة ٤٨، ٤٩، ٥٩	٤١، ٤٣، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣ ،
الادرياتيک (بحر) ٢٥، ٢٩، ٣٠، ٣٢ ،	٦٤، ٦٧، ٦٨، ٧٤، ٧٦
٨٢، ٨٠، ٧٩، ٦١، ٦٠	الأتابك ١٥٦
آدم ٢٢٠، ٢٦٨، ٢٦٩، ٣٠٣، ٣٠٤	أتاتورك ٢٦٤

الطنبغا ١٨٢	٦٥،٦٤،٦٣،٦٢،٥٤
القونس ١٥٣، ١٥٧، ١٦٦	اغناطيوس ١٥٥
القونس الثاني ١٥٣، ١٦٨	اغناطيوس ليولا ١٤٤
القونس امير قشتالة ١٣٧	اغويير ١٠٩
الف ليلة وليلة ٢٣	الافرنج ١٠٦، ١١٠، ١٢٠، ١٢١،
الكسيوس ٣٩	١٢٢، ١٢٦، ١٢٧، ١٣٠، ١٣١،
المانيا ٥٨، ٨١، ٨٢، ٨٣، ١٥٠، ١٤٢	١٣٢، ١٣٥، ١٣٨
المرية ٤٩، ٥٤، ٧٩	افريقية ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٥، ٤٠،
ألموت ١٣٥	٤٢، ٤٧، ٤٩، ٥١، ٧٢، ٧٧، ٢٦٨
الونزو لويز بنتشيانو ١٥١	٢٣٠
الهة العقل ١٤٥	الافغاني ٣٤٦ - ٣٥٠ ،
اليكانت ٥٣	٣٥٢، ٣٥٤
الاماكن المقدسة ١٠١، ١٩٢	افلاطون (والافلاطونية) ١٥٦، ٢٧٦
امالفي (املف) ٢٩، ٣٣، ٣٥، ٤٧،	٣٤١
٧٥، ٦٠	افير'ا ٥٣
الامبراطورية الرومانية المقدسة ١٢٧	اقبال ٢٦٢، ٢٦٤، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٦،
الامبراطورية العثمانية ٢٤، ٣٢٦، ٤٠	٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٦،
الامبراطورية المغولية ٣٤٣	٢٨٨، ٣٥٠، ٣٥٢
امرويز ٣٠٩	اقسنقر البرسقي ١١١
امبيدوكليس ١٦٣	ابو الكلام ازاد ٢٩٠ ؟
اموري ١١٦، ١١٧، ١٢٠	اكهارد ٨١ =
بنو امية (والامويون) ١٦، ٢٠، ٢١،	الالب (جبال) ٨١، ٨٢
٤١، ٤٣، ٤٤، ٤٩، ٥١، ٥٧، ٦٥،	الب ارسلان ١٠٤
٧٢، ٦٦	الالبسة المطرزة ٦٨
اميركا ٢٥٥	الطف حسين ٢٦٢، ٢٦٣

امير علي ٢٥٦، ٣٦٠، ٣٦١	اوغسطين ٣٢٥
الاناضول ٥٥، ٣٨	ايريا ١٥٨
الانبعاث الديني ٢٤٩	ايحور ١٥٨
الانتاج الفكري الاعتدالي ٣٦٦ وما بعد	ايجيه (وايجيون) ٣٩، ٣٨، ٣٦، ٢٦
انتشار الاسلام ٩	٥٠، ٤٦
انجلترا ١٧٠، ٨٤، ٥٣	ايران ١٠، ١٣٤، ٢٦٤، ٣٣٠، ٣٤٦
اندروا ١٢٧	٣٧٨، ٣٥٨، ٣٥٦، ٣٥٠، ٣٤٨
الاندلس ١١، ١٩، ٤٩، ١٩١، ٢٦٢	ايرين ٥٨
الانتيمون ٦٣	ايزابلا دي بريين ١٢٨
اندنوسية (والاندنوسيون) ٥٠، ٣٣٠	ايطاليا في اماكن كثيرة من الكتاب
٣٧٠، ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٦	ايلغازي ١١١
٣٧٧، ٣٧٨، ٣٧٩	ايوب ٢٢٠
أثر ١١٣، ١١٤	الاوييون ١٢٣، ١٣٤، ١٣٧
انطاكية ٣٨، ٧٣، ١٠٥، ١٠٦، ١١١	الاولية ٢٨
١١٤، ١١٦، ١١٧، ١١٩، ١٣١	ايونيه ٢٦، ٦٠
١٣٣، ١٣٦، ١٣٧	الايلخانيون ١٣٧
انكونا ٢٩	اينشتين ٢٦٤
اوتو الاول ٨١	(ب)
اوربانوس ١٠١، ١٠٢	البابا (والبابوية) ٣٠، ١٢٥، ١٢٩
اورجلا ٦٥	١٢٥، ١٣٩
الاوردية ٢٨٩	باجه ٧٠
اوروبا في اماكن كثيرة من الكتاب	بارثولك ٢١٨
اوريو ٤٦	باري ٢٩، ٣٢، ٣٥، ٤٢، ٤٣، ٤٦، ٤٧
اوستا ٣٠، ٨١	٥٢، ٦٠، ٦٢، ٨٣، ٨٥، ٨٦
اوريفا ٣٧	

باريس ٣٦٢،٣٤٧	براغ ٨٣
باسكال ١٤٥	البربر ١٣٧،٦٥
باسيل ٥٦،٣٩،٣٧،٣٥،٣٤،٣٢	البرتغال (والبرتغاليون) ٧٣،٢٤
٧٩،٥٩	برثولومي دي ارجترولا ١٦٦،١٤٩
باغاس النوية (البجة) ٦٦	برسباي ١٣٩
باڤيا ٨١،٨٠	برستول ٥٣
باكستان ٢٨٠،٢٧٧،٢٦٤،٢٦٢	برشلونة ٤٢، ٧٨
٣٨٨،٣٧٩،٢٧٧،٣٧٧	برقوق ١٩٥،١٧٨
بانغلور يا ٥٩،٢٧	بركيارق ١٠٥، ١٠٦
بانيفانتوم ٣٤،٢٨،٢٧	البرناسيون ٢٦٢
البثرون ١٣١	برنديزي ١٢٩،٢٨
بجاية ١٩١،٦٤	البروتستانتية ٢٦٣
البجة (باغاس) ٦٦	بروفانس ٤٧،٤٣
البحر الأبيض المتوسط (راجع الأبيض المتوسط)	البروفنسال ١٣١
بحر ايجيه ٦٠،٥٥،٥١،٥٠،٤١،٣٧	بروكسل ١٦٢
البحر الأحمر ٨٤،٦٧،٦٦،٢٤	برونو ٨١
البحر الأسود ٧٧،٥٩،٤١،٤٠،٢٥	بريطانيا (والبريطانيون) ٥٦،٢٥،٢٤
٨٤	٣٣٠،٢٧٣،٢٦٥
بحر ترهانيا ٨٣،٦٠،٥٤،٤٧،٣٤،٢٧	بسكرة ١٩١
بحر الظلمات ٩	البشانقه ٥٨
بحر قزوين ٤١	البشبيشي ١٨٤
بلدرو ١٩٣	البشكير ٢٣١
البرابرة ١٣٥،٥٨	البصرة (والبصريون) ٦٧،٢٢،١٩
البرانس ٢٦٧،٥٥	٧٣،٧٢
	بطرس ١٣٩

بلك ١١١	بطرس الناسك ١٠٢
بلنسية ٤٢	بغداد ٧٠٦٢، ٥٩، ٢٩، ٢٤، ٢٢، ٢١
البيمار ٥٩، ٥١، ٥٠، ٤٥، ٤٤، ٤٠	١٣٤، ١٢٠، ١١٨، ١١١، ٧٩
٧٩، ٦٢، ٦٠	٢١٣، ١٦٢، ١٥٩، ١٥٧، ١٣٤
بلوخستان ٢٨١	٢٥٥، ٢٣١
بمبلونية ٥٦	ابو بكر ٢٢٠، ٢١٣، ١٨، ١٧
البنجاب ٢٨١، ٢٧٣، ٢٦٤	ابن بكران ٢٣٠
بندار ١٦٠	بكتينا ٥٤، ٥٣
البنديقية ٦٨، ٦١، ٥٦، ٥٠، ٣٥، ٢٦	بلاد العرب ٣٠٧، ٥٩
١٣١، ٨٤	بلاد التوبة ٧١
بنسجلي ٣٦	بلاكبرد ٥٣
بنغال ٣٤٤، ٢٦٧، ٢٦٥، ٢٦٣	بلايموث ٥٣
بو ٨٠، ٤٣، ٣٢	بلجيكا ١٥٩، ١٥٨
البوذية ٢٩٠، ٢٨٢، ٢٦١	البلدان الإسلامية ٣٦٩
بورت رويال ٥٢	بلدوين ١١٦، ١١٥
البورغنديون ١٥٩	بلدوين دي بورغ ١١١، ١١٠
بوكرانت ٧٠	بلدوين صاحب الرها ١١٠
بولونيا ١٥٣	بلدوين صاحب القدس ١١١
بونه (عنابة) ٤٣، ٢٦	بلرم (بلرمو) ٣١، ٣٠، ٢٩، ٢٨، ٢٧
بونزا ٣٠	٧٢، ٥٢، ٤٩، ٤٨، ٣٥، ٣٤، ٣٣
بونيفاس ٢٦	٨٠
بوهيمند لوف تورنتو ١٠٣	البلطيق (بحر) ٨٢
البيبرسية ١٨٣، ١٣٨، ١٣٧، ١٣٦	البغار ٧٧، ٧٥، ٧٤، ٥٩، ٥٨
١٨٤	البلقان ٧٤
بيت المقدس ١٩١، ١٠١، ٦٩	بل ١٥١

بيت لحم ١٩٢	التار (الططر) وتيمور ١٩٦
البيرة ٦٩	تنش ١٠٥
بيروت ٣٦٠، ١٣٩، ١٣٦، ٧٣، ٦٨	التجارة ٦٩
بيزا ١٣١، ٧٩، ٤٤	التجار الأجانب ٧٢
بيزانسون ١٦٢	التجارة الصحراوية ٨٣
بيزنطية (والبيزنطيون) ٢٥، ١٥، ١٠	تجديد الفكر الديني ٢٧٣
٢١٦، ٨٧، ٨٥، ٨٤	التحررية الإسلامية ٣٥٣-٣٧١، ٣٨٤
بيكر ١٥٩	التحررية المسيحية ٣٦٩
بيلاجيوس ١٢٧	تراقونه ٤٢
بيلوبونيز ٥٦	تراقيا ٣٦
بين القصيرين ١٨٤، ١٨٣	تركستان ٢١٣، ٧٢
	تركيا ٣٥٦، ٣٤٧، ٣٤٦، ٢٨٩، ١٠٤
(ت)	٣٧٩، ٣٧٧، ٣٧٤، ٣٥٨
تاج محال ٢٦٩، ٢٦٥	ترهانيا (راجع بحر ترهانيا)
تاجوس ٧١	القديسة تريزا ١٥١
تارنتو ٦٠، ٤٧، ٣٥، ٣٢، ٢٩، ٢٨	تسارجراد ٧٤، ٤١
التاريخ (اهميته للمسلم) ٣١٦	تسونغ ١٨
التاريخ الإسلامي ٣٢٤، ٣١٣، ١٦٤	تشارلز الخامس ١٧٠
٣٦٧	تشالسيليك ٣٧
تاريخ التمدن الاسلامي ٣٥٢	تشر ٢١٣، ٢١٤، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧
التاريخ الحديث ٣٦٤	٢٣٣، ٢٣٢، ٢٢٧
تاريخ فتح المكسيك ١٧١	تشيرسون ٧٤
التأليف الاحتذاري ٣٨٢-٣٨٦	التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً

وشرقاً (كتاب) ١٧٩ وما بعدها

تفري بردي ١٨٦

تلمسان ١٩١

تمر (راجع تيمور)

تنكريد ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢

تنيس ٦٧

التوابل ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٨٢

تورمينا (راجع طبرمين)

تورننخ ٢١٤

توسكانيا ٢٦، ٣٦

توفيق فكرت ٢٥٦

تونس ٣٥، ٥٤، ٦١، ٦٣، ٦٦، ١٣٤

١٧٧، ١٨١، ١٨٣، ١٨٦، ١٨٩

١٩٠، ١٩١، ١٩٥

التير ٧٨

تيرسودي ملونيا ١٧٠

التيرول ٦١

تيلتش ٢٤٨

تيمور ١٨٨، ١٧٩، ١٩٢، ١٩٤

التيتوتون ١٣١

تيوفيلوس ٤٢

(ث)

ثاسوس ٣٦

ثرمة (ترمين) ٣٣

الثغور الإسلامية ٥٢

ثيوكستوس ٣٦

ثيبو اوف شامبانيه ١٣٢

(ج)

جاريجليانو ٣٣، ٣٥، ٤٢، ٤٣، ٤٥

٨٠، ٥١

جالك دي فيري ١٠٩

الجامعات العربية ٢٦٢

الجامعة العثمانية ٢٧٩

جان دابلين ١٢٦

جايمس الثاني ١٦٥

جايتا ٢٩، ٣٣، ٣٥، ٣٦، ٤٧، ٦٠

جبال الألب ٥٨، ٨١

جبال سيارا ١٦٥

الجبر ٢٢

جبل طارق ٤٩، ١٠٣

جبل آئوس ٣٧

ابن جبير ٢٢٩

جليل ١٣١، ١٣٦

جدة ٧٣

الجرامقة ٤٠، ٥٧

الجرف ٧٠

الجريد ٦٥

حيراردى ريد فورت ٦٢١
الجيش الاسلامي ٣٦
جيمس أوف اراغون ١٣٧
جيان ٦٩

(ح)

حاجي خليفه ٢٣٢
الحيشة ١٧، ١٦
الحبوب ٣
الحج ١٧، ١٨
الحجاز ٦٧
الحجر الأسود ١٦
الحديث الشريف ٢١٧
الحديد ٦١، ٦٣، ٧٩
الحراقات ٢٨، ٥٤، ٨٥
حران ١١٢
الحرب العالمية الثانية ٢٤٦، ٢٥٨
الحركات القومية ٣٦٥، ٣٧٦ وما بعدها
الحركة الاصلاحية ٢٦٦
الحركة المحمدية ٣٥١
الحرير ٦٩، ٧٠، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧
حزب المؤتمر ٢٧٣، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٩
٢٨٠
حزب الوفد ٢٥٤
ابن حزم ١٦٩

الجزائر ٤٩
الجزيرة ٥٣، ١١٤، ١٢١، ١٢٨، ١٣٦
الجزيرة الخضراء ٤٤
الجزيرة العربية ١٥، ١٦، ١٨، ٢١، ٢٩
١٥٦، ١٥٩، ٢٤٩، ٣٢٠، ٣٣٩

٣٤٠

جفلوز ٢٨، ٣٠
الجماعة الاسلامية ٣٦٥
جماعتي اسلامي ٣٨٨
جمال عبد الناصر ٢٥٤، ٢٥٧، ٢٧٤
جناح ٢٦٤، ٢٨٨
جنكين خان ٢٣
جنوة ٤٧، ٧٩، ١٣١
الجهاد والحروب الصليبية ٩٩ - ١٤٠
جوانفيل ١٣٤
جوان مانويل ١٥٧، ١٥٨، ١٦٥
جورجي زيدان ٣٥٢
ابن الجوزي ٢٣١
جوسلين دي كورتيناى ١١٠، ١٢١
جوليان ١٣٦
جون ١٣٦
جون اوف بيانو كاريني ١٣٥
جون دى ابلين ١٣٦
جون زغير ينس ٥٨
جوهر ١٩، ٤٩، ٦٦

الحسبة ٦٤	الخاتقاء ١٨٣
ابو الحسن محمد بن محمد النعمي ٢٢٤	ختم النبوه ٣٨٨
الحسين ٢١٠٢٠	خديجة ١٧٠١٦
الخشاشون ١٣٧٠١٣٥٠١٢١٠١٢٠	خراسان ٢١٩٠٢١٨٠٢١٧٠١٩٥
حصن الاكراد ١٣٨	٢٢١
الحضارة الإسلامية ٣٢٠٠١٠	الخزيرتي ٢٢٨٠٢٢٣
الحضارة الفارسية ١٥٧	الخز ٧٤
الحضارة الهلينية ١٥٦	الخشب ٧٩
حطين ١٢٢	الحكسار ٣٥٠
الحكم الثاني ١٦١	الخليج العربي ٦٧٠٢٤
الحكومة المصرية ٢٥٨	خليج كورنث ٥٥
حلب ١١٠٠٠١٠٦٠١٠٥٠٦٩٠٦٨	خليج ليونز ٦٠
١٢٦٠١٢١٠١٢٠٠١١٢٠١١١	خليفة عبد الحكيم ٣٦١
١٣٦٠١٣٥	الخليلية ٢٢٩
الحلة ١١١	خمارويه ٦٧
حماة ١١٢	الخوارج ٢٠
الحمرء ٢٦٩	خوارزم ١٣٣٠١٢٧
حمص ٣٨٠١٣٢٠١٢٠٠١١٢٠١١١	خوداغش ٣٦١
حنا الثامن ٣٣	خلاط ١١٣
ابن حوقل ٧٣٠٧٠٠٥٢	الخلافة (حركة) ٣٥١
الحياكه ٧٠	الخلافة ٢٢٨٠٢٠
حيدر اباد ٢٨٩٠٢٧٩٠٢٧٣٠٢٦٥	ابن خلدون ١٢٠١١٠١٢٠ (في مصر) ١٧٧-
٣٨٨	٢٧٣٠٢١٢
(خ)	خير ٢٦٨
خالد بن الوليد ١٨	

الدنانير المغربية ٦٦	(د)
دوريلي ١٠٦	دار الاسلام ٢١٨، ٢٥٠
دوق ألبا ١٤٧	دار الاسلام (حركة) ٣٨٨
ديار بكر ١٠٦	دار السلام ٦١
دياغو هورتادو دي مندوزا ١٧٠	الدانشمنديون ١٠٦
دي جوافيل ١٦٧	الدانوب ٥٨
ديكارت ٢٧٦، ١٥٥	داود ٢٢٠
الديمقراطية ١٠١ وما بعدها	الدولية ١٠٨، ١٢٩، ١٣١، ١٣٢، ٣٣
الديمقراطية الاسلامية ٢٨٩	١٣٦، ١٣٨،
الدين الاسلامي ٢٣	ديكو ٦٨
الدينار الذهب ٧١	ديس بن صدقة ١١١، ١١٢
الديوبنديون ٣٧٣	الردنيل ٤٤، ٤٥، ٥٠، ٥٥
(ذ)	درية شفيق ٢٥٧
الذهب ٧٠، ٦٦	دريك ٥٣
	دقاق ١٠٥، ١٠٦
(ر)	الدلتا المصرية ٣٧
	دلمي ٢٦٥
رابليه ١٥٣	دمشق ٢١، ٢٢، ٦٨، ٦٩، ١٠٤، ١٠٥
راد يلخس ٢٩، ٢٨	١٠٦، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٤،
راشد ٣٦١	١١٥، ١١٩، ١٢٠، ١٢٦، ١٢٧،
راغوصه (راجوزا) ٣٢	١٢٨، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٥،
رامون اكليريا ١٧١	١٣٦، ١٦٢، ١٨٨، ١٩١، ١٩٢،
الرحبة ١١١	١٩٧
الرحلة ١٧٩	دمياط ٣٧، ٤٠، ٤١، ٦١، ٦٧، ١٢٧، ١٣٤،

الرومانسيه ١٤٨	بينو رسم (والرستميون) ٤٩٠٤٨٠١٩
الرون ٨٢٠٤٤٠٤٣	٦٦٠٦٥٠٥٩
ريشنيق ١٢٥	الرسول ٩
ريشارد ١٢٦٠١٢٣	رشيد رضا ٣٦١
ريشارد اوف كورنول ١٣٢	الرصاص ٨١٠٧٠٠٦٣
الريزاكار ٣٨٨	رضا شاه ٢٤٧
ريغوند ١٢٢	رضوان ١٠٦٠١٠٥
ريغوند الثالث ١٢١	رقادة ٦٤
ريغوند اوف سنت جيلز ١١٠٠١٠٣	الريقق ٨٢٠٨٠٠٧٥٠٦٤
رينو ١٢٢	الركراكي ١٨٣
رينو دي شاتيون ١٢١	الرها ١١٣٠١١٢٠١١١٠١٠٦٠١٠٥
ريو (ريجيو) ٤٦٠٣٤٠٣١	١١٥
	الرهاصية ٢٢٩
(ز)	روبرت اوف فلاندرس ١٠٣
الزئبق ٧٠	روبرت اوف نورماندي ١٠٣
الزعفران ٧٣٠٦٥	روجرز ١١١
زنكي (والزئكيون) ١٢٤٠١١٣٠١١٢	الروس (وروسيا) ٥٨٠٥٠٠٤١٠٤٠
الزيتون (وزيته) ٨٠٠٦٤٠٦٣	١٣٥٠٨٤٠٧٧٠٧٥٠٧٤٠٧١
	٣٣٠٠٢٥٠٠٢٣١
(س)	روح الاسلام ٣٦٠
سابا (القديس) ١٣١	الروم ١١٦٠١٠٦٠١٩٠١٨٠١٥
الساسانية ٢١٦٠١٥٠١٠	١٢٨٠١٢٦٠١١٨
ابن الساعي ٢٣٢	رومه (والرومان) ٣٠٠٢٢٠١٥٠١٠
ابن سعود ٣٤٠٠٢٥٦	٣٢٢٠٣٢١٠١٠٠٧١٠٦٤

سليمان بن قنلمش	ابن السمك ١٦٩
السنة - في اكثر فصول الكتاب	سالمونو ١٥٣، ٤٧، ٣٣، ٣٠
ستياغو ١٥٢	سالونيك ٣٧، ٤٠، ٤١، ٥١، ٥٤، ٧٤
السند ٢٨١	ساموس ٥٥
سنغولاجي ٣٥٦	سانت برنار ٨١
السوسية ٣٥١	سانت جول ٨١
السينغال ٦٥	سايكليد ٣٦، ٣٧
السودان ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٧٠، ٧١، ٧٣،	سبته ٤٩
٢٥٣، ٨٤	سبتيمر ٨١
سورنتو ٢٩	ستراتيجوس ٣٦
سورية (والسوريون) ٢٥، ٨٤، ١٠١،	ستيفنسون ١١٢
١٣٩، ١٥٦، ١٦٢، ١٩٠، ١٩٢،	سجلماسه ٤٩، ٦٥، ٧٠، ٧٣
٢٢٣، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٥٥،	السخاوي ١٨٦
٣٧٢، ٣٧٤	سرجيوس ٢٩
سوسة ٦١، ٦٤	سردينيا ٤٥، ٤٧، ٥٠، ٥٩، ٧٩، ٨٣،
سوفوكليس ١٦٠	٩١، ٨٤
السويديون ٤٠	سرفانتس ١٥١، ١٦٨، ١٧٠
السلاجقة ١٠٥، ٢٢٧	سرقسطه ٤٢، ٥٢، ٥٣، ٦٢، ٧٠
السلاجقة الأتراك ٢٣، ١٠٤	سرقوسة ٢٦، ٣١، ٥٦
سلاجقة قونية ١١٩	ساركات اسلام ٣٥١
سلامنكا ١٥٣	السرو ٦١
السيادة الاسلامية ٢٥-٩٨	سعدالدين التفتازاني ١٩٥
سيبيريا ١٣٥	سفاقس ٦٤
مسييل ١٢١	سقمّان بن أرتق ١٠٥
الشيخ ٣٧٥	سكوت ٣٦٠
سيد احمد برلاوي ٣٤٤	

الشرق الاوسط ٢٣:٢٤، ٢٤٦:٢٤٩
 ٣٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣
 شركة الضغط الانكليزية - الايرانية ٢٥٣
 الشريعة الاسلامية ٢٥٦، ٢٨٨، ٣٠٩
 الثغور الاسلامية ٢٥
 شكسير ٣٦٠
 شكيب ارسلان ٣٥٢
 شمال افريقيا ١٩:٤٥، ٨٤:٨٥، ١٣٧،
 ١٨٠، ١٩٠، ١٩١، ٢٥٢، ٣٢٠
 شناسي ٣٥٦
 شنشلة ٧٠
 شيرسو ٢٩
 شيركوه ١٧٧، ١١٨
 شيزر ١١١
 الشيعة (والشيعة) ٢٠، ١١٨، ٢٢٧،
 ٢٣١
 شين ٢٤٨
 الشيوعية ٢٥٥

(ص)

«صاحب الحمار» ٤٨
 الصالح (اسماعيل) ١٢٠
 صرغتمش ١٨٣
 صفاقس ٣٥
 صفد ١٣٢

سيد احمد خان ٣٥٦، ٣٦٣
 سيرونا ٧٠
 سيف الدين غازي ١١٤، ١٢٦
 سيقالو ٣٠، ٣١
 سيفالونيا ٥٦
 سيقيتا ٣٠
 سيكاتولف ٢٩
 سيمون ٥٨

(ض)

شارل الاصلح ٣٣، ٤٣
 شارل اوف انجو ١٣١، ١٣٧، ١٣٨
 شارلمان ٥٨، ٧٨
 شاله ٦٧
 الشام (والشاميون) ١٣٣، ٣٢٠
 الشاه ٣٤٨
 شاور ١١٨، ١١٨
 شالانلون ١١٦
 شباب محمد ٢٥٤
 شيلي ٣٥٦، ٣٦٢
 شجر الساج ٦٧
 الشحنية ٢٢٩
 شدونه ٤٩
 الشربين ٦١
 الشرق الأقصى ٦٧

صناعة الزجاج ٦٣	صفين ٢٠
صناعة السجاجيد ٦٤، ٦٨، ٧٠	صقلية ٢٥، ٨٤، ١٢٧، ١٣٩
صناعة السيوف ٧٠	صكوك الغفران ١٢٦
صناعة العطور ٧٤، ٧٥، ٧٦	صلاح الدين ١١٨، ١٢٦، ١٣٧، ٢٢٦
صناعة الملح ٧٧	٢٣٤
صناعة المنسوجات ٦٤	الصليب ١٠٣
صناعة الورق ٧٢، ٦٨، ٧٠، ٧٣	الصلبية والجهاد ١١
صور ٤٠، ٤٤، ٥٤، ٦٨، ١٠٨، ١٢٢، ٢٣	الصلبيين ١٠٢، ١٠٥، ١٠٨، ١٢١
١٣١، ١٣٣	١٢٦، ١٢٧، ٢٣٦، ٢٢٥، ٢٢٦
الصوفية (والتصوف) ١٠، ١٣٩	= (الأمراء) ١٠٢، ١٠٧، ١٢٣
١٤٥، ٢١٣، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٦١	= (الجيوش) ١٣٨
٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٨، ٣٥٣	= (الحروب) ١١، ٢٣، ٩٩
صيد الاسماك ٦٤	١٠١، ١٠٤، ١١٢، ١٢٥، ١٤٠
صيدا ١٣٦، ١٣٩	٢٣٤
صيلونيا ٤٩	= (الحملات) ١٠٢، ١٠٣
الصين (والصينيون) ٩، ١٨، ١٩	١٠٦، ١٠٩، ١١٠، ١٢٤، ١٢٥
٢٢، ١٨٣	١٣٠، ١٣٢، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٩
(ض)	= (الحملة الثالثة) ١٢٣، ١٢٤
ضرغام ١١٧	١٢٥، ١٢٦، ١٢٨
(ط)	= (الحملة الثانية) ١١٣، ١١٤
طاغور ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٧٣	١١٥
الطاوية ٢٩٠	= (الحملة الرابعة) ١٢٥
الطب ٢٢	= (الحملة الخامسة) ١٢٧
طبريه ١٩	= (ملكة) ١٣٩
	الصناعة ٦٩
	صناعة الجلود ٧٠

العالم المسيحي ١١، ١٣٠	طبرمين ٣١، ٣٤، ٤١
عام القيل ١٦	طرابلس ٣٥، ٣٩، ٥٢، ٥٤، ٦٤، ٦٥
عباس اقبال ٣٦١	٦٨، ٧٣، ١٢١، ١٢٢، ١٣٦، ١٣٨
عباس (والعباسية والعباسيون) ٧١،	طربزون ٧٤، ٧٦
١٩٥، ٦٨، ٥٨، ٥٧، ٤١، ٣٩، ٣٨	طرشوس ٣٨، ٤٠، ٥٥، ٥٧، ٥٩، ٦٠
العباس (الخليفة) ١١٨، ١٢٠، ١٣٤	٦٢، ٦٧، ٦٨، ٧٣، ١٨٠، ٢١٩
١٣٧، ١٦٠، ٢٢٥، ٢٢٧	طرطوس ٢٥، ١٣٩
عبد الجبار بن صالح ٢٢٤، ٢٢٩، ٣٢٧	طرطوشه ٢٦، ٤٢، ٤٤، ٥٤، ٦١، ٥٣
عبد الحق ٣٥٦	طريق الحرير ٧٤٣
عبد الرحمن الثاني ٤٢	طفتكين ١١١
عبد الرحمن الثالث ٤٩، ٥٠، ٧٠، ٧١	طليطلة ٧٠، ١٥٣
عبد العزيز ٣٤٤	طه حسين ٣٥٦، ٣٦٢
عبدالله الاقضي ١٨٩	طوروس ٥٢، ١٠٥، ١٠٦
عبد الملك بن مروان ٩	ابن طولون (الطولونيون الخ) ٣٩،
ابن عبد الوهاب ٣٤٠، ٣٤٣، ٣٥٣	٥٩، ٦٢، ٦٧، ٦٨، ٧٠، ٧٢، ٧٦
عثمان ٢٠، ٢٢	(ظ)
العثمانية ٢١، ٣٣٠	الظاهر ١٩٠
عدن ٦٧	
عرايبي ٣٤٨	(ع)
العراق ١٩، ٢٠، ٢٤، ٦٧، ٦٨، ٧١،	العاخذ ١١٨
٧٤، ١٣٤، ١٣٥، ١٦٢، ٢٢٥،	العالم الاسلامي ١٠، ١١، ٨٤، ١٢٢،
٢٥٣	١٣٠، ٢٢٨، ٣٢٤، ٣٢٩، ٣٤٧،
العرب ٩، ١٦، ٢٢، ٧٧، ١٠٦، ١٤٣،	٣٧٠
١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٩،	العالم العربي ٣٤٦، ٣٧٩
١٦٠، ١٦٥، ١٦٧، ١٧١، ٢١٦،	

(غ)

غلاهاد ١٣٣، ١٣٤
غاليسيه ٤٥
غاندي ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧
٢٨٠، ٢٨٢، ٢٩٠
غيون ١٧٨
غدامس ٦٥
الغرب ٧٥، ٢٥١، ٢٥٢، ٣٤٧
غرفاطة ١٩١
غزة ١٣٢، ١٣٣
غزنه ٢٢٣، ٢٢٥
غروسيه ١٣٥، ١٣٧
غريغوريوس ١٢٩
غودفري ١٠٣
الخطيه ١٠٨
غوكالب ٣٥٤
غي دي لوسينيان ١٢١، ١٢٣

(ف)

الفاخر العلوي ٢٢٤
فارانجيا ٤٠ (راجع ايضاً الروس)
فارس (راجع ايران ايضاً) ١٨، ٢٢،
٧١، ٧٣، ٧٤، ١٥٦، ١٥٩، ١٦٠،
١٦١، ١٦٢، ٢٨٩، ٣١٧، ٣١٩
فاس ٤٩

٣٧٨

عسقلان ١٠٦، ١١٥، ١١٦، ١٣٢
العصية ١٧٧
العصر الجاهلي ٢٠
عصر النهضة ٢٣
العصور المظلمة ٢٣
العقلانيه ١٤٤، ١٤٦، ١٤٧
العقيدة المسيحيه ١٠١
العقيليون ١٠٥
عكا ١٠٥، ١٣١، ١٣٦، ١٣٨، ١٣٩
علم التاريخ ١٧٧
العلماني ٣٢٢
علي ٢٠، ٢١، ٢٢ وما بعدها
علي خان ٢٨٩
عمر ١٩، ٢٠
عماد الدين ١١٢، ١١٩
ابن العمار ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٨
العملية التاريخيه ٣٢٨
عمورية ٥٧
ابن العميد ٢٢٠
عنابه (راجع بونه)
عيسى بن مريم ١٧
عين جالوت ١٣٦

١٣٨، ١٣٥	فاطمة ٢٠
فريس ٦٩	القاسميون ٨٣، ٣٤، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦
القسطاط ١٩، ٦٧،	٢٣٠، ١١٨
الفضة ٦٣، ٧٠	فاكشيا ٣٠
الفقه المالكي ١٨٢، ١٨٣، ١٨٧	فايكنج ٤٤، ٤٩
فلسطين ٦٨، ٧٣، ٧٩، ٨٣، ١٠١	فتك ٢١٤، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٣٣
٢٢٢، ٢٥٦، ٢٢٦، ١٠٥	الفتوة ١٢، ٢١٣-٢٤٤
فلسفة التاريخ ١١	كتاب الفتوه ٢٢٣
الفلسفة الاغريقية ١٦١	القضائيات ٦٣
الفلسفة الرواقية المسيحية ١٤٥	القرائضيه ٣٤٤
فوتينوس ٣٦	القرات ١١٣
فوسلر ١٥١	فرج ١٨٨، ١٨٩، ١٩٢
القووس ٨١	فردون ٨٢
فلاسكيز اوغويا ١٦٨	فركسيتوم ٤٣، ٤٤، ٤٧، ٥٠، ٥٢،
فيكو ١٧٨	٦٠، ٦٢، ٧٩، ٨٣
فيلكاز ١٥١	فرماء ٦٨
فيليب اغسطس ١٢٣	فرنسا ١٩، ٤٣، ٤٥، ٤٨، ٥٠، ٨١، -
فيليب الثاني ١٧٠	٨٢، ٨٣، ٨٤، ١٠١، ١٣٢، ١٤٥
فيليب دي نورفارا ١٠٩، ١٣٠	١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٦٠، ١٦٦،
فرنال دياز دل كاستيليو ١٧١	١٦٧، ١٧٠، ٣٣٠، ٣٧٢
الغيوم ١٨٨	فرنسيس ١٥٥
(ق)	القرو ٧٥
قابس ٦٤	القروسية ١٢٣، ١٣٤، ١٣٩، ٢١٤، -
القادسية ١٩	٢٢١، ٢٢٣، ٣٣٠
	فريدريك ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠،

القشاشية ١٣٧	قائدش ٤٩
قشتاله (راجع طروش) ؟	القاشاني ٣٥٠
قصب السكر ٧٣، ٦٩، ٦٥	القالي ٢١٩
القصيدير ٨١، ٧٠	القاهرة ١٩، ٢٢، ٧٦، ١١٨، ١٢٧، ١٧٧
قصر دوسول ٥٣	١٩٦، ١٧٧
قصر يانه ٣١	القبائل البربرية ١٧٨، ١٥
قصيدة السيد ١٥١	قبليقيه ١٠٦
قصيدير ٦٦	قبرص ٣٩، ٤٥، ٥٠، ٥٤، ٥٩، ٦٠، ١٣٩، ١٣٨، ١٣١، ١٢٦، ١٢٣
قضاء المالكية ١٨٨	القبر المقدس ١٣٤، ١٠١
قطر ١٣٦	قبط ٦٦
قطونيه ١٣١	القدس ١٩، ١٠٤، ١٣٩، ٣٢٠
القطن ٣، ٦٥	القرآن - في أكثر اجزاء الكتب
قنصه ٦٤	القرامطة ٥٩
قلاوون ١٣٨، ١٣٩	القرصنة ٢٥، ٨٥، ١٣٩
قلج ارسلان ١٠٥	قرطاجنة ١٠٠
قلوبه ٢٨، ٣٤، ٣٥، ٤٦، ٤٨، ٥٦، ٩١	قرطبة ٤١، ٤٩، ٦٢، ٦٩، ٧٠، ٧٣، -
القتال ٦٦	٧٩، ١٥٨، ١٥٩، ١٦١، ١٦٥،
القوى الديناميكية ٣٨٦ وما بعدها	٣٥٢، ٢٦٦
القوط الغربيون ٦٩	القرم ٧٤
القومان ٥٨	القرن الذهبي ٧٧
القومية ٣٧١-٣٨١	قرش ١٦، ١٧
القوميات الاسلاميه ٣٧٨	قسطنطين ٦٩، ١٠٠
القومية الايرانيه ٣٧٦	قسطنطين الخامس ٥٨
القومية التركيه ٣٧٧	قسطنطين بورفيروجانيثوس ٧٨
القومية الجرمانيه ١٠٠	
قونه ١٠٥، ١٠٦	

كاندليا ٣٧، ٣٨، ٤٦، ٥٥	القيروان ٣٥، ٦٣، ٦٤، ٧٢
كالابريا ٢٨، ٣٣، ٣٤، ٤٨	قيساريه ١٣٧
الكباد ٧٣	قيصر ٢٧١
كبرياتوس ٥٥	قيليقيا ٥٨، ٦١، ١٠٦
كتاب العبر ١٨١، ١٩٥، ٢٣٣	(ك)
كتاب الرالي ٧٧	
الكتان ٦٩، ٧٦	
الكتانية ٧٠	كابرا ١٤٤، ٧٠
كتيوغا ١٣٥، ١٣٦	كابوا ٣٥
الكتلكة ٢٦٦	كارمايا ٤٤
الكلل او الاثمد ٦٣	الكارولنجيون ٢٦، ٣١، ٣٣، ٤٢، ٥٠
كراتيراس ٣٦	٨٢
كربوفا ١٠٥، ١٠٦	كارولينيا ٥٣
كربلاء ٢٠، ٢١	كاريسي ٥٢
الكرخ ٢٣٠	الكاس المقدس ١٣٣
الكرك ١٣٣	كاسترو جيوفاني ٣١
ابو الكرم ٢٣٠	كاستللو دل هييرو ٧٠
كروتون ٢٨	الكاشاني ٢٤٧
الكروم ٦٣	كالابريا (راجع قلورية)
كريت (والكريتيون) ٢٥، ٦٦	كاله ٢١٤، ٢٣٢
٨٦، ٨٥	كامارغ ٤٣
كسرى ١٨، ٢٧١	كامبانيا ٢٧، ٣٠، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٥٦
كشمير ٢٨٠	٨٠
الكمة ١٦، ١٨	
كمال الدين ١١٢	كامبردج ٢٧٣
كمبراي ٨١	الكامل ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠

١٣٩، ١٣٦، ١٣٣	الكنفوشية ٢٩٠، ٢٨٢، ٢٦٢
البرالية (راجع التحررية)	كنيسة القيامة ١٩٢
لاريوس ٦٤	الكنيسة والدولة ٣١٠
لامونت ٩٩	كوارييرو ٢٩
لايجنوك ٨٢	كورسيكا ٨٤، ٨٣، ٧٩، ٤٧
لاتي ٣٥	كورنثوس (كورنث) ٣٧
لاهور ٢٦٩، ٢٦٧، ٢٦٦، ٣٦٥	كورنيليوس جانسن ١٤٥
لبنان ١٣٧، ٢٥٠، ٢٥٥	كوسترا ٣٤
لشونه ٤٤	كولبوس ٢٤
لبارديا ٨١، ٨٢، ١٥٤	كوماشيو ٨٠، ٣٢
لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم	كومنتي ٧٨
٣٥٢	كوندة ١٤٤
لندن ٣٤٧	كونراد مونتفيرات ١٢٣
الثواء المصري ٣٧٧	كونراد الاول ٨١
لوب دي فيفا ١٦٨، ١٧٠	كلارمونت ١٠١
لوسيفر ١٤٩	ابو الكلام آزاد ٣٧٣، ٣٦١، ٣٥٦
لوثر ٢٦٦	كيتس ٣٦٠
لوثير ٨٠	كيفادو ١٧٠
لوك ٢٧٦	الكيمياء ١٧١، ١٦٤، ١٥٦، ٢٢
لؤلؤ ١١١	كينف ٧٥، ٤٦، ٤١، ٤٠
لوفي ٤٤، ٨٩	
لوتفرد ٨١	(لا)
لويس ١٢٥، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٨، ١٦٧	اللاتين ١٠٧، ١١٠، ١١٤، ١١٧
لويس الثاني ٧٨، ٤٢	١١٨، ١١٩، ١٢١، ١٢٢، ١٢٤
لويس الثاني ٣١، ٣٢، ٥٨	

ياقت علي خان ٢٨٠	ما وراء النهر ٢١٧
سببا ٣٥٠	مايتز ٨١
ليكاينوس رومانوس ٥١، ٤٥، ٣٧	مايودكا ٤٤
٥٨، ٥٦	متر ٢١٧، ٧١
ليمنوس ٣٨	مئتين ٥٥، ٣٧
الليمون ٧٣	مجانة ٦٣
ليون ٥٧	المجتمع الاسلامي ٣١٠، ٣٠٢، ١٢
ليو امير طرابلس ٤٠، ٣٩، ٣٨، ٣٧	٣٦٧، ٣٦٤، ٣٢٩، ٣٢٣، ١٣٩
٥٤، ٥٢، ٥١، ٤٧، ٤١	المجتمع التركي ٢٤٧
ليو الحكيم ٥١، ٤٦، ٣٩	المجريون ٨١
ليون الايزوري ٦٢	المحتسب ٦٤
(م)	محمد ٢٢٠، ١٠١، ٢٠، ١٨، ١٧، ١٦
الأمون ١٦١، ١٦٠، ٩	٣٠٨، ٢٦٩، ٢٢٨، ٢٢٠
ماجلون ٤٣	محمد عليه ٣٧٣، ٣٦٢، ٣٦١، ٣٥٤
الماركسية ٣١٦، ٣١٥، ٣١٤	محمد بن عرفة ١٨٦
ماردين ١١١	محمود ١٩٥
ماري اميرة انطاكية ١٣٨	محمود الغزنوي ٢٢٠
مارية ١٦٥	محمود بن ملكشاه ١١١
مازره ٢٦	المحيط الهندى ٧١، ٦٧، ٦١
ماسينيون ٢٣١، ٢٣٠	مخلد بن كيداد ٤٨
ماكتفوت ٢٨٦	المدرسة الاسكندرانية ١٥٩٦
مالطه ٥٩، ٣١	المدرسة الصلاحية ١٨٤
مالقه ٦٩	المدرسة الظاهرية ١٨٣
مانزكوت ١٠٤	المدرسة القممحية ١٨٢ وما بعدها
	ملريد ١٦٢

الكتاب	مدغشقر ٧١
المطرزات ٨٢، ٧٧	مذكورة ٦٤
معاوية بن ابي سفيان ٢١٦، ٢٠	المدينة ١٧، ١٩، ٢١، ٤٩، ٦٧، ٧٢،
معركة الجمل ٣٨٠	١٢٢، ١٦٢، ٢٦٨
المعظم ١٢٧، ١٢٨	مدينة الله ٣٢٥
المعدن ٧٠	مراكش (والمراكشية) ٤٨، ٤٩، ٧٠
المغرب (والمغاربة) ١١، ٦١، ٦٣،	٧٣
٦٨، ٧١، ٧٢، ٧٣، ١٧٨، ١٩٦،	مرتدة ٤٠، ٥٧
٣٧٢	مرسيليا ٤٢، ٧٩، ١٣١
القول ٢١، ٢٣، ٢٤، ٤٠، ١٣٣،	مرسية ٧٠
١٣٨، ٢٦٥، ٣٤٣، ٣٤٤	مرمرة ٣٧
المقنعي ٦٧	المسترشد ١١٢
المقدمة ١٧٧، ١٨١، ١٩٣، ١٩٥،	المستعصم بالله ٢٤
المقرزي ٥٢، ١٨٤	المسجد الاقصى ١٩٢
مكة ٩، ١٦، ١٧، ١٨، ٢١، ٦٧، ٧٢،	مسدس (كتاب) ٣٥٢
١١٦، ١٢٢، ١٦٢، ١٦٤،	ابن مسرة ١٦٥
١٩٢	مسعود صاحب قونيه ١١٥
مكس وبر ٢١٤	المسلك الاسلامي للتاريخ ٣١٧
مكيافلي ١٧٨	المسلم (والمسلمون) في جميع اجزاء الكتاب
ملبار ٧١	المسيح (والمسيحية) في اماكن كثيرة
الملة الاسلامية ١٦	من الكتاب
ملتون ٣٦٠	مسينا ٢٨، ٣١
الملح ٨١	مشيئة الله ١٦٧، ١٦٨
ملكشاه ١٠٥	مصطفى باشا ١٧٩
	مصر (والمصريون) في جميع اجزاء

مليزنده ١١٥	مينو رقه ٤٤
الممالك ١٣٩، ١٣٦، ١٣٤، ١٣٣، ٢١	مينيو ٢٦
٢٢٣، ١٨٩، ١٨٣	ميلازو (راجع ميلاط)
الممالك الاسبانية ١٦٢	ميلاط (ميلازو) ٥٠، ٣٤
مملكة الاسلام ٢١٨	ميلان ١٦٢
مملكة القنس ١٣٨	نابولي ٢٧، ٢٨، ٣٠، ٣١، ٣٣، ٣٥، -
المنصورة ١٣٤، ١٢٧	٣٦، ٤٧، ٤٨، ٥٣، ٦٠، ٨٠، ١٦٢
المهدي (في السودان) ٣٥١	ناريون ٧٨
المهدية ٦٥، ٦٢، ٤٩، ٣٥	النار الاغريقية. (اليونانية) ٢٨، ٥٤
الموارنة ١٠٦	■ ■ ■
مونت جاريجليانو ٦٠، ٥٢، ٣٥	النازية ١٠١
مونت سني ٨١، ٤٣	ناصر بن مهدي ٢٢٤
موتمر الرابطة الاسلامية ٢٧٥، ٢٧٣	الناصر لدين الله ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤،
موجز التاريخ الاسلامي ٣٥٢	٢٢٥، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٢،
مودود ١١١، ١١٠	٢٣٣
موسى ٣٠٤، ٢٢٠	نافار ١٣٢، ٥٧
الموصل ١١٩، ١١٤، ١١١، ١٠٦	نامق كمال ٣٤٥
٢١٥٥، ١٢٢، ١٢١	النبوية ٢٣٠، ٢٢١
المولدية ٢٢٩	النبي. ١٨، ٢٨٨، ٣٠٧
مونتسكيو ١٧٨	التخفت ٢١
مونديللو ٣٠	النحاس ٨١
مونينخ ٢٧٣	الترعة التوحيدية ١٥٤، ١٦٥
ميخائيل باليولوغس ١٣٧	النساطرة ١٠٦، ١٣٥
ميخائيل الثالث ٥٨، ٥٥، ٥٠	النصارى (والنصرانية) ١٠، ١١، ١٦،
ميكال دي اونامونو ١٤٧	١٩، ٢٣، ١٠٦، ١١٠، ١٤٠، ٢٢٢،

ياغي سيان ١٠٦	هويتهد ٢٨٦، ٢٦٤
يافا ١١٦، ١٣٢، ١٣٧	هيتا ١٤٩
يئرب ١٧	هيفل ١٥٥
اليسوعيون ١٤٤	الهيككل (فرسان) ١٢١
اليرموك ١٩	هيلاس ٥٦
يزيد الخارجي ٤٨	هيو ١٣٨
يسوع المسيح ٢٠	(و)
اليسوعيون ١٤٥	واشنطن ١٥٨
اليعاقبة ١٠٦	والدي طوغان ٢٣١
اليمن ١٦	الوحدة الإسلامية ٣٧٨
اليهود ١٦، ١٧، ١٩، ٧١، ٧٢، ٨٢، -	وليام أوف ريريكييس ١٣٥
٨٢، ٢٠، ١٦٧، ٢٢٢، ٢٦٥، -	وليم أوف مالميسبري ١٠٢
٣٧٧، ٣١٤، ٣٠٤	وليم السوري ١٩٠
يوديسس ١٣٨	ولي الله ٣٤٣-٣٤٥، ٣٥٠، ٣٥٤
يوستينانوس ٦٢، ٧٣	الوهابية (الوهابيون الخ) ٣٣٩-٣٤٣
يوسف (الشيخ) ١٩٠	٣٦٢، ٣٥٤، ٣٥٣، ٣٥٠
يوسف علي ٣٦١	(ي)
انثونان ١٠، ٢٢، ٧١، ٧٦، ٩١، ٢٥، -	اليابانيون ١٠١
٣٧٢، ٣٢٢، ٢٧٦، ٢٦٤	

المصادر الوارد ذكرها في هذا الكتاب

١- الكتب العربية

- الاثير ، ابن - كتاب الكامل في التواريخ - لندن - ١٨٥١-١٨٧٦
الادريسي ، - نزهة المشتاق في اختراق الآفاق -
اسد ، محمد - ترجمة عمر فروخ - « الاسلام على مفترق الطرق » -
بيروت ١٩٤٦ ، ٤٨ ، ٥١
الاصطخري - مسالك الممالك - لندن ، ١٨٧٠
الاعظمي ، محمد حسن والصابوي علي شعلان - كتاب فلسفة اقبال -
مصر سنة ١٩٥٠ .
اباس ، ابن - بدائع الزهور - ثلاث مجلدات - بولاق - ١٣١١-١٢ .
البكري - ترجمة دي سلين - معجم ما استعجم - الجزائر ١٩٣١ .
البلاذري - فتوح البلدان .
تغري بردي ، ابن - المنهل الصافي - نسخة باريس رقم ٢٠٦٨ .
تغري بردي ، ابن - النجوم الزاهرة - المجلد الخامس (١٩٣٢-١٩٣٦)
المجلد السادس (١٩١٥-١٩٢٣) - طبعة وليم بوير ، بركلي .
جبر ، ابن - الرحلة ، - لندن - ، ١٩٠٧ .
حاجي ، خليفة - كشف الظنون - سبعة مجلدات - طبعة فلوغل - لينزغ
١٨٣٥ - ١٨٥٨ .
حجر ، ابن ، العسقلاني - انباء الغمر - نسخة باريس رقم ١٦٠٣ .

حجر ، ابن رفع الاصر عن قضاة مصر - نسخة باريس رقم ١٤٩ .
خلدون ، ابن - التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً - طبعة محمد
ابن تاويت الطنجي ، القاهرة ١٩٥١ .
خلدون ، ابن التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ، نسخة مصطفى
باشا رقم ١٠٩ القاهرة .

خلدون ، ابن - كتاب العبر - بولاق ، ١٢٧٤-١٨٦٦ .
خلدون ، ابن - المقدمة - المطبعة الادبية - بيروت ١٨٩٧ .
خلكان ، ابن - وفیات - الاعيان - غوطا - لينخ - ١٨٣٥-١٨٥٠ .
الساعي ، ابن - الجامع المختصر - حرره مصطفى جواد - بغداد ، ١٩٣٤ .
السخاوي - الضوء اللامع - المجلد الرابع - القاهرة ، ١٣٥٣ .
السيوطي - حسن المحاضرة - مجلدان - القاهرة ١٣٢١ . هـ .
الطبري - تاريخ الرسل والملوك - لندن - بريل - ١٨٧٩-١٩٠١ .
عرب شاه ، ابن - عجائب المقدور في نوائب تيمور - كلبكتيا - ١٨١٦
عذارى ، ابن - البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب - لندن - بريل
- ١٩٤٨-١٩٥١ .

الطار ، فريد الدين - تاريخ الاولياء - حرره ر. ا. نيكلسون - طبعة
لوزاك - لندن ، ١٩٠٦-١٩٠٧ .
العماد ، ابن - شذرات الذهب - القاهرة ، ١٣٥١ . هـ .
العيني ، بدر الدين - عقد الجمان - نسخة باريس رقم ١٥٤٤ -
الفرات ، ابن - تاريخ ابن الفران - الجزء التاسع - طبعة قسطنطين زريق
- بيروت ١٩٣٦-١٩٣٨ .

قاضي شهبة ، ابن - الاعلام بتاريخ الاسلام - نسخة باريس رقم ١٥٩٩ :
التلفشندي - صبح الاعشى - القاهرة ، ١٩١٣-١٩١٩ .
الكندي - الولاة وكتاب القضاة - بيروت - مطبعة الاباء اليسوعيين - ١٩٠٨ .
لين ، قاموس لين العربي - الانكليزي .

المالكي - رياض النفوس

متر ، ادم - الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري - ترجمة عبد
الهادي ابوريده ، القاهرة مطبعة لجنة التأليف والنشر - سنة ١٩٤٧-١٩٤٨
المسعودي - مروج الذهب ومعادن الجوهر - باويس ١٨٦٢ .
المغربي ، ابن سعيد - رايات المبرزين - اميليو غارسيا - جوميه مدريل -
٢٩٥٢ .

المقدسي - احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم - ليندن - بريل - ١٨٧٧

المقري - نفح الطيب - المجلد الرابع - بولاق ، ١٢٧٩ .

المقريزي - الخطوط - مجلدان - بولاق ، ١٢٧٠ هـ .

المقريزي - كتاب السلوك - نسخة باريس رقم ١٧٢٨ .

منقذ ، أسامة بن - كتاب الاعتبار حرره فيليب حتي ، نيويورك ١٩٣٠ .

مهر ، غلام رسول - سيد احمد شهيد - في مجلدين (بالغة الاردية)

- لاهور ١٩٥٣-١٩٥٤ .

الناصرى - الاستقصا في تاريخ المغرب الاقصى - الدار البيضاء ١٩٥٥ .

نعماني ، شبلي - « علم الكلام » ١٩٠٣ - الطبعة الثانية لاهور ١٩٤٥ .

النويري - نهاية الارب - القاهرة - دار الكتب المصرية - ١٩٢٣-١٩٥٥

ياقوت - معجم البلدان - ليزنغ ١٨٦٦ - ٧٠ .

اليعقوبي - تاريخ اليعقوبي - النجف - المكتبة المرتضوية - ١٣٥٨

٢ - الكتب الأجنبية

- Abu l'Arob, *Classes des Savantes de Ifriqiya*. Trans. Ben Cheneb.
Acta Sanctorum, 17 August.
Agob. Lugdun. Archiepis. *Epistolae* in MGH.
Algunas, caracteres de la civilizacion espanola, 1942.
Amari, *Storia* II.
Anan, M.A. Ibn Khaldun, *His Life and Work* (Lahore, 1941).
Annales Bertiniani, in MGH Script. I.
Asin, M. Abenmassarra y su escuela, 1914.
——. Los Caracters y la Conducta. Tr. Madrid, 1916.
Aspectos del vivir hispanico, 1949.
Astrana, ed. Quevedo, *Obras en verso*, 1932.
Ayad, Kamil. *Die Geschichts - und Gesellschaftslehre Ibn Halduns*,
Stuttgart, 1930.
Azurara, Gomes Fannes de. *Chronica do descobrimento e conquista de*
Guinea.
Barthold, W. *Turkestan down to the Mongol Invasion*, 2d. ed. London,
Luzac, 1928.
Bartold, W. *Mussulman Culture*, Calcutta, 1934.
Becker, Carl Heinrich. *Islamstudien*. Erster Band. Leipzig, Quelle und
Meyer, 1924.
Bell, C.H. Idris. *Egypt from Alexander the Great to the Arab Conquest*,
Oxford 1948.
Besson. *Memoires du Diocese de Geneve*.
Besta, La Sardegna Medioevale, Palerm 1908.
Biblioteca de Autores Espanoles, Li.
Biblioteca de Autores Espanoles, XIII.
Bjoerkman, W. *Beitrage zur geschichte der Staatskanzlei im islamischen*
Aegypten, Hamburg, 1928.
Blecua, J.M. ed. *Libro infinito*.

- Block, M. *Le Probleme de l'Or au Moyen-Age. Annales d'histoire economique et sociale*, Paris, Librairie Armand Colin, 1933.
- Boer, J. de. *Geschichte der Philosophie im Islam*, Stuttgart, 1901.
- Bonn, ed. *Theophanes Continuator, Const. Porphy. De Thematibus*, II, XI. *Book of the Prefect*, English Trans. by Hatfield, Cambridge, 1945; French Trans. by Nicole, Geneva, 1893.
- Brehier, L. *L'Eglise et L'Orient au Moyen Age: Les Croisades*, 5th ed., Paris, 1928.
- Brockelmann, Carl. *Geschichte der Arabischen Literatur*.
 —, *Geschichte der islamischen Volker und Staaten*. Munich and Berlin, R. Oldenbourg, 1739.
 —, *History of the Islamic Peoples*, tr. Carmichael and Perlmann, N.Y. Putman, 1947.
- Brunschvig, R. *La Berberie orientale sous les Hafside*, Vol. I, Paris, 1940; Vol. II, Paris, 1947.
- , Bury, J. B. *A History of the Eastern Roman Empire*, London, Macmillan, 1912.
 —, *The Imperial Administrative System in the Ninth Century* London, 1911.
- Butt, Abdullah. *Aspect of Shah Ismail Shabeed: essays on his literary, political and religious activities*, Lahore, 1943.
- Butterfield, H. *Christianity and History*, London, 1949.
- Castro, Americo. *The Structure of Spanish History*, Princeton, University Press, 1954.
- Camenjati, John. *De Excidio Thessalonicensi in Corp. Script. Hist. ed.* Bonn.
- Cesari-Rocca & Villat, *Histoire de la Corse*, Paris, 1916.
- Cessi, Venezia, I.
 —, Charanis, *The Social Structure of Byzantium*.
 Chron. Casinensis in MGH Script. III.
 Chron. of Mora Rases in Mem. Acad. Madrid, XIII.
 Chron. Salem, in MGH Script. III.
 Cronica di Cambridge in Amari Biblio Arabo - Sicula I.
 The Chronography of Bar Hebraeus, Tr. E.A. Wallis Budge, Oxford, 1932.
- Conde, *Historia de la Dominacion de los Arabes en Espana*, {Barcelona, 1884, I.
- Conder, C.R. *The Latin Kingdom of Jerusalem*, London, 1897.
- Const. Porphy. *De Admin. Imper.*

- Croce, B. *Storia del regno di napoli*, 1944.
- Cross, S.H. *The Russian Primary Chronicle*, Cambridge, 1930.
- Dandolo Chron. in *Mur. Rer. Ital. Script*, XII.
- Diehl, Charles. *Byzance Grandeur et Decadence*, Paris, Flammarion, 1919.
- Diehl, Charles. *Venise*, XX.
- Dozy, ed. *Calender of Cordova*.
- Dozy, R. *Dictionnaire des noms des vetements chez les arabes*, Amsterdam, 1845.
- Dozy, R. *Recherches sur l'histoire et la literature de l'Espagne*, II.
- Duchesne, ed. *Vita Sergius II*, in *Liber Pont.* II.
- Dupot, A. *Les relations commerciaux entre les cites maritimes de Languedoc et les cites d'Espagne et d'Italie*, Nimes, 1942.
- Ebul'ula, Mardin. *Development of the Shari'a under the Ottoman Empire*.
- Edwards ed. *Lib. Moarch de Hyde*, in *Roll Series*.
- Erbemperti *Hist. Lang. in MGH, Script III*.
- Fares, Edouard. *L'honneur chez les Arabes avant l'Islam*. Paris, G. P. Maisonneuve, 1932.
- Faris, N.A. ed. *Arab Heritage*, Princeton, 1944.
- Fichel, Walter J. *Ibn Khaldun and Tamerlane*, Berkley, 1952.
- Gandhi's *Letters to a Disciple*, Harper New York, 1950.
- Ganshof, *Les Porpts de Provence*.
- Ganshof, F.L. *Q'est-ce-que la feodalite?* 2d. ed. Neuchatel, Editions des la Baconniere, 1947.
- Garcia Gomez, E. *Ibn Zamrak, el poeta de la Al hambra*, Madrid, 1943.
- Gasquet, *Byzantine Empire*,
- Gasset, Y, Ortega J. Cf. *Vitalidad, Alma, Espiritu in Obras Completas*, 1936.
- Gelzer, ed. *Codex Carol. epis LXXV*.
- Ghali, Wacyf Boutros, *La tradition chevaleresque des Arabes*, Paris, Plon-Nourrit, 1919.
- Gibb, H.A.R. *The Damascus Chronicle of the Crusade*, London, Luzac, 1932.
- , *The Islamic Background of Ibn Khaldun's Political Theory*, *Bulletin School of Oriental Studies*, London, 1933.
- , *Modern Trends in Islam*, Chicago, 1947; reprinted 1950.
- Grousset, Rene. *Histoire des Croisades*, 3 vols., Paris, 1934-36.

- Orunbaum, G.E. von. Islam: essays in the nature and growth of a cultural tradition, 1955.
- , Medieval Islam, Chicago, 1945.
- Hammer-Purgstall, J. Ueber den Verfall des Islams nach den ersten 3 Jahrhunderten der Hidschra, (1812.)
- Hartmann, Richard. Al-Kuschairis Darstellung des Sufitums, Berlin, Mayer und Muller, 1914.
- Hitti, P.K. History of the Arabs, (2nd. ed.) London, 1940.
- Horten, Max. Monchtum und Monchsleben im Islam nach Scharani. Beitrage zur Kenntnis des Orientus 12; 1915.
- al-Hujwiri, The Kashf al-mahjub. Tr. by R.A. Nicholson, Leiden, Brill, 1911.
- Hussain, Taha. Etude analytique et critique de la philosophie sociale d'Ibn Khaldoun, Paris, 1917.
- Ibn Khaldon, Hist. de l'Afrique et de Sicile.
- , Les Prolegomenes d'Ibn Khaldon, tr. en francais par M. de Slanue, (Notices et Extraits, vols. 19-21), Paris, 1863-1868.
- Ibn Sa'id al-Maghribi, El libro de las banderas de los campeones, tr. by E. Garcia Gomez, Madrid, 1942.
- Iqbal Allama Sir Muhammad, tr. by Altaf Hussain, The complaint and the Answer, Lahore, 1948.
- , Letters of Iqbal to Ginnah, Shaikh Muh. Ashraf, Lahore, 1944.
- , tr. by Arthur J. Arberry, Persian Psalms, Muh. Ashraf, Lahore, 1948.
- , The Reconstruction of Religious Thought in Islam, Oxford University Press, London, 1934.
- , tr. Reynold A. Nicholson, The Secrets of the Self, Muh. Ashraf, Lahore, 1944, Macmillan, 1920, revised ed. 1940.
- , Speeches and Statements of Iqbal, compiled by Shamloo, Almanar Academy, Lahore, 1948.
- , tr. by A.J. Arberry, The Tulip of Sinai, The Royal Indian Society, London, 1947.
- John Chron. Veneta, MGH Script. VII, 16.
- John Deac., Gaetani Vita, Sanct. Sic. II.
- , Gesta Episcop. Meapol.
- Jus Graeco-Romanum ed. von Lingenthal III.
- Kahle, Paul. Ein Futuwwa - Erlass des Kalifen en - Nasir aus dem Jahre 604 (1207); 1933.

- Khadduri, Majid and Liebesny, H.J. *Law in the Middle East*, Vol. I
Washington, D.C., Middle East Institute, 1955.
- King, E.G. *Knights Hospitallers in the Holy Land*, London, 1931.
- Koprulu, Mehmet Fuat. *Les origines de l'Empire Ottoman*, Paris, E. de
Coccard, 1937.
- Kramrisch, Stella. *The Hindu Temple*, University of Calcutta, Vol. I,
1946.
- Kremer, A. von. *Ibn Khaldun und seine Kultur - Geschichte der islami-
schen Reiche*, Vienne, 1879.
- , *Ueber das Einnahmebudget des Abbasider Reiches*, Vienna, 1887.
- Labbe Sacrosancta Concilia II.
- Lane-Poole, Stanley. *A History of Egypt in the Middle Ages*, London,
1901.
- , *Saladin*, New York, 1898.
- Leo of Ostia, *Mur. Rer. Ital. Script* IV.
- Levi-Provençal, L'Espagne Mussulmane au Xe Siecle.
- , *Hist. de L'Espagne Mussulmane*.
- Levy, Reuben. *A Baghdad Chronicle*, Cambridge, University Press, 1929.
- Lopez, *Silk Industry*.
- Luidprand: *Antapodesis* trans. Wright.
- Lupus Propoturios in MGH, *Script* V.
- Lully, Raymond. *Evast y Blanquerna*, Barcelona, 1935.
- al-Makkari *Annalectes*, I.
- Manforni, *Storia della Marino Italiana*, Livourni, 1899.
- Marabecek, *Mitteilungen. aus den Papyrus Rainer* III.
- , *Marçais, Berberie*.
- Massignon, Louis. *Recueil de testes medits concernant l'histoire de la
mystique en pays d'Islam*, Paris, Paul Ceuthner, 1929.
- , *Salman Pak et les premices spirituelles de L'Islam iranien*, Paris
G.P. Maisonneuve, 1934.
- Masson, P. *De Massiliensibus Mercatoribus*.
- Masudi, *Prairies d'or*.
- Melchor de Santa Crus, *Floresta General*, 1574.
- Mez, Adam. *Renaissance of Islam*, London, Luzac, 1937.
- Michael the Syrian, *Chron.* III.
- Mitteis, Heinrich. *Der Staat des hohen Mittelalters*. 2d ed. Weimar. H.
Bohlaus Nachfolger, 1944.

- Muller, A. *Der Islam im Morgen-und Abendlaender*, Berlin, 1878, Vol. II.
 Muratori, *Annali d'Italia*.
- Neumann, C. *Die Weitstellung des Byzantinischen Reiches aus den Kreuzzuge*, Leipzig, 1895.
- Nizami, Khalig Ahmad. ed. *Shah Waliullah Dihlavi and Indian Politics in the 18th Century*, Islamic Culture, Huderabad, 1951.
- , *Shah Waliyullah Ke Siyasi Maktubat*, Aligarh, 1951.
- Nicholson, R. *A Literary History of the Arabs*, London, 1923.
- Nykl' A.R. *Hispano-Arabic Poetry*. Baltimore, 1946.
- Ochlan, *Die Alpenpasse im Mittelalter*, in *Jahrbuch fur Schweiz geschichte* III.
- O'Leary, De Lacy. *How Greek Sciencce passed to the Arabs*, London, 1948.
- Pacta Veneta*, in *Arch. Ven.* n.s. V-VI. 1928-.
- Palencia, A. Conzalez and E. Mele, *Vida y obras de Don Diego Hurtado de Mendoza*, Madrid, 1943, III.
- Pirenne, H. *Hist. de Belgique*, V. 1926,
- Pocock, ed. *Eutrychtus Annals*, II.
- Poesie de Voltaire*, IV, 1821.
- Poliak, A. N. *Feudalism in Egypt, Syria, Palestine, and the Lebanon.* 1250-1900. London, Royal Asiatic Soc. 1939.
- Poupardin, *Le Royaume de Bourgone*, Paris.
- Poupardid, *Le Royaume de Provence sous les Carolingiens*, Paris, 1901.
- Quatremere, Etienne. *Histoire des Sultans Mamlouks par Makrizi*, Paris, 1837.
- La realidad historica de Espana*, 1954.
- Regii Neapolitani Monumenta*, Naples, 1845.
- Ribera, Julian. *Le eusenanza entre les musulmanes espanoles*.
- Romero, Francaiseo. *Filosofia de la persona*, Buenos Aires, 1944.
- Rosenthal Franz. *A History of Muslim Historiography*, Leiden, 1952.
- , *Ibn Khalduns Gedanken uber den Staat*, Munich, 1932.
- Ross, W.D. *The Right and the Good*, Oxford, 1930.
- Rousseau, *Regne de Charles III d'Espan*, I; II.
- Runciman, *The Emperor Romanus Lecapenus and his Reigh*, London., 1919.
- , *The First Bulgarian Empire*, London, 1930.

- Silvestre de Sacy, *Chrestomathie arabe*, Paris, 1826, Vol. I.
- Sanders, J.H. *Tamerlane or Timur*, The Great Amir, London, 1936.
- Santa Teresa y otros ensayos, 1929.
- Santone, Vidas de. translated by M. Asin.
- Sarton, G. *Introduction to the History of Science*, Baltimore, 1948, Vol. III, Pt. 2.
- Sau Nicola, M. *Aegyptisches Vereinswesen zur Zeit der Ptolemäer und Römer* 1, 1913; 2, 1915. Munich, C.H. Beck.
- Sauvaget, Jean. *Alep. Essai sur le developpement d'une grande ville syrienne, des origines au XIXe siecle*, Taxte, Paris, Paul Geuthner, 1941.
- Schaube, *Handelsgeschichte der Romanischer Voelker, de Mittelmeergebeite bis zum der Kreuzzuge*, Munich and Berlin 1910.
- Schlumberger, *Empereur Byzantin an Dixieme Siecle*, Nicephore Rhocas, Paris, 1933.
- Schmidt, Nathaniel. *Ibn Khaldun, Historian. Sociologist and Philosopher* New York, 1930.
- Al-Shaqundi, *Elgogio del Islam espanol*, tr. by E. Garcia Gomez, 1934.
- Solmi, *L'amministrazione finanziaria del Regno Italico*.
- Le Strange, G. *Bagdad under the Caliphs*, Oxford, 1900, 2nd ed. 1924.
- , *Palestine under the Moslems*, London, 1890.
- Taeschner, Franz. *Der anatolische Dichter Nasiri (um 1308) und sein Futuvvetname*. Mit Beiträgen von Wilhelm Schumacher. Leipzig, F.A. Brockhaus. 1944.
- , *Der Anteil des Sufismus an der Formung des Futuhwaideals*. *Der Islam* 24, 1937.
- , *Das Futuwwa - Rittertum des islamischen Mittelalters*. Leipzig, Otto Harrassowitz. 1944.
- , *Das Futuvvetnam des persischen Dichters Hâtifi Festschrift Georg Jacob, Leibzig, Otto Harrassowitz. 1932.*
- , *Islamisches Ordenrittertum zug Zeit der Kreuzzuge*. *Die Welt als Geschichte* 4; Stuttgart, W. Kohlhammer. 1938.
- , *Legendenbildung um Achi Evran, den Heilige von für Friedrich Giese*, Berlin, 1941.
- , *Das Zunftwesen in der der Türkei, Leipziger Vierteljahrsschrift für Südostenropa* 5; Leipzig, Otto Harrassowitz, 1941.
- Tagore, Rabindranath. *Gitanjab*, in *Collected Poems and Play of Rabendrenath*, Tagore, Macmillan, N.Y. 1937.

- Thorning, Hermann. Beiträge zur Kenntnis des islamischen Vereinswesens auf Grund von Bast. Madad et Taufiq; Berlin, Mayer und Müller, 1913.
- Toynbee, Arnold J. A Study of History, Vol. 6, Oxford University Press, London, Humphrey Milford.
- Tschudi, R. Das Chalifat, Tübingen, Mohr. 1925.
- Tyan, Emile. Histoire de l'organisation judiciaire en pays d'Islam, Lyon; Vol. I, 1938; Vol. II, 1943.
- Tyler, J.F. Alpine Passes, Oxford, 1930.
- Vasiliev, A. Byzance et les Arabes, I. Bruxelles, Institut de philologie; 1935.
- , The Russian Attack on Constantinople, Cambridge, Mass. 1745.
- , Vizantiya i Arabiya.
- Versadsky, Ancient Russia.
- Verdale, Arnaud de. Cat. Epis. Mag.
- Vinsauf, Geoffroi de. Documentum de Arte Versificandi, in E. Faral, Les Arts poetiques.
- Vita Leonis IV, in Liber Pont. II.
- Vita Joh. Abb. Gor. in MGH Script. IV.
- Vossler, Realismus in der Spanischen Dichtung der Blütezeit, 1926.
- Waillys, N. de. ed. Histoire de Saint Louis.
- Weil, G. Geschichte des Abbasidenchalifats in Egypten, Vols. I and II, Stuttgart, 1860; 1862.
- Wiel, Althea. The Navy of Venice, London, 1910.
- Wiet, G. Les Biographies, du Manhal Safi (memoires de L'Institut d'Egypte) Cairo, 1932.
- Wiet, G. L'Egypte arabe, de la conquete arabe a la conquete ottomane, Paris, 1938.
- Wipstek, Paul. The rise of the Ottoman empire, London, Royal Asiatic Society. 1938.

٣ - المقالات

- Andreades, Byzance, Paradis de Monopole, in Byzantion IX.
- Becker, Carl Heinrich. Barthold's Studien über Kalif und Sultan, Der Islam VI, (1915).
- Bell, Aubrey F.G. Revue Hispanique, LXXX, (1930).
- Binder, Leonard. Al-Ghazali's Theory of Islamic Government, the Muslim World, Hartford. XLV, (1955).
- Blachere, R. Le Vizir - Poete Ibn Zamruk et son oeuvre, Annales de l'Institut d'Etudes Orientales d'Alger, II, (1936).
- Bloch, M. Le Probleme d'or au moyen age, in Ann. d'Hist. Econ. et Soc. 1933.
- Bouthol, Gaston. L'Esprit de corps selon Ibn Khaldoun, Revue de Sociologie, Paris, 1932.
- Brooks, The Arab Conquest of Crete, in Eng. Hist. Rev., XXVIII, (1913).
- Bury, The Naval Policy of the Roman Empire in relation to the Western provinces from the 7th to the 9th century, in Centenario della nascita di Michele Amari, Palermo, II, (1910).
- Canard, M. Le Relations entre les merinides et les mamelouks au XIVe siecle, Annales de l'Institut d'Etudes Orientales d'Alger, V. (1938-1941).
- Castero, Americo. Poesia y realidad en el poema del eid, in Tierra firme, Madrid, I, (1934).
- Deny, Jean. Futuwwet - name et romans de chevalerie turcs, Jour. Asiatique, Ser. II, XVI; (1920).
- Duprat La Provence dans le haut moyen age, in Bouches du Rhone, Encyclopedie Departementale, Marseilles, II, (1923).
- Engreen, Pope John VII and the Arabs, in Speculum, XX, (1945).
- Fischel, W.J. Ibn Khalun and Tamerlane, I. Goldziher memorial Volume, Budapest 1951.

- Gabrieli, Fr. Il concetto dell' asabiya nel pensiero storico di Ibn Khaldun, Atti della Reale Accademia della Scienze di Torino, LXV, 1930.
- Gabrieli, G. Saggio di bibliografia e concordanza della Storia d'Ibn Khaldun, Rivista degli Studi Orientali, Rome, 1924.
- Ganshof, Note sur les Ports de Provence.
- Gaudefray - Demombynes. Revue des Etudes Islamique, 1937.
- Gautier, E.F. L'or du Sudan dans l'histoire, in Ann. d'hist. Econ. et Soc. 1935, VII.
- Giese, Friedrich. Das Problem der Entstehung des osmanischen Reiches, Ztschr. für Semitistik 2; 1924.
- De Goeij, Internationale Handelsverkeer in de Middelleeuwi, Verslagen in Mededeeling der K. Akad. Van Wetenschappen, 1909.
- Goldziher, Ignaz. Eine Fetwa gegen die Futuwwa. Ztschr. der Deutschen morgenlandischen Gesellschaft 73; 1918.
- Grunebaum, G. E. Vow. Growth and Structure of Arabic Poetry, in the Arab Heritage, ed. by N. A. Faris.
- , As-Sakkaki on Milieu and Thought, J A O S, LXV, 1945.
- Gumplowicz, L. Ibn Khaldun, ein arabischer Soziologe des 14. Jahrhunderts, in Soziologische Essays, Innsbruck, 1899.
- Hammer-Purgstall, J. von. Sur la chevalerie des Arabes anterieure a celle de l'Europe et sur l'influence de la premiere sur la seconde. Jour. Asiatique 5: 1849.
- Hammer-Purgstall, J. von. Sur les passages relatifs a la chevalerie dans les historiens arabes. Jour. Asiatique, Aug.-Sept. 1855.
- Hartmann, Richard. Futuwwa und Malama. Ztschr. der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft 72; 1918.
- , As-Sulami's Risalat al Malamatiya. Der Islam 8; 1918.
- , Zur Frage nach der Herkunft und den Anfangen des Sufismus. Der Islam 6; 1916.
- Hodgson, Marshall G.S. A comparison of Islam and Christianity, a paper read before a seminar at the University of Chicago, 1955.
- Junker, Heinrich, Zeremonien der Bruderschaften im Islam. Leipzig, 1930. Extract from Jahrbuch 1928/1929 des Vereins deutscher Freimaurer, Leipzig.
- Kahle, Paul. Die Futuwwa - Bünde des Kalifen en - Nasir (c. 622/1225) Festschrift Georg Jacob. Leipzig, Otto Harrassowitz, 1932.
- , Zur Organisation der Derwischorden in Egypten, Der Islam 6; 1916.

- Khemiri, T. Der 'Asabya Begriff', in der Mukaddima des Ibn Khaldun, Der Islam, XXI, 1936.
- Lambton, K.S. The Theory of Kingship in the Nasihat ul-Muluk in the Islamic Quarterly, London, I, 1954.
- Levi-Provencal E. Journal Asiatique, 1923.
- Lewis, Bernard. The Islamic Guilds. Econ. Hist. Rev. 8: London, A & C Black. 1937.
- Lombard, M. L'or Musulman du VIIe au XIe Siecle, in Annales, 1947, II.
- Louillet, G. de Costa. Y eut-il des invasions Russes dans l'Empire Byzantin avant 860, in Byzantion XV.
- Mahmassani, Subhi. Muslims: decadence and renaissance. Adaptation of Islamic Jurisprudence to Modern Social Needs, The Muslim World, Hartford, 44; 1954.
- Massignon, Louis. Cadis et naqibs baghdadiens. Wiener. Ztschr. fur die Kunde des Morgenlandes 51, Vienna, 1948.
- , Les corps de metiers et La cite islamique. Revue Internationale de Sociologie, 28eme annee, Paris, Marcel Girard, 1950.
- Meloni, G. Aleuni Studi sul tempo presso i semiti, in Saggi di filologia Semitica, Rome, 1913.
- The Muslim World, Shah Wali Ullah and Ijtihad, Hartford, 44, 1955.
- Michwitz, G. Byzance et l'economie de l'occident, in Ann. d'Hist. Econ. et Soc. IX, 1936.
- Patrucco, I Saraceni Piemonte et nelle Alpi Orientale, in Biblioteca della Societa Storica Subalpina, Pinerola, 1908, XXXII.
- Petit, L. Vie et Office de Sainte Euthyme le Jeune, in Revue de l'Orient Chretien, VIII, 1903.
- Plessner, M. Islamica, 1931, p. 451.
- Rahman, F. Internal Religious Developments in the Present Century Islam, Cahiers d'histoire mondiale / Journal of World History, Paris, 2: 862-79.
- Ritter, H. Zur Futuwwa, Der Islam 10, 1920.
- Rosenthal, Franz. Die arabische Autobiographie, in Studia Arabica. Vol. I, Analecta Orientalia, Rome, Vol. XIV.
- Sabbe, Importation des Tissus, in Revue Belge, 1935, XII.
- , Quelques Types de Marchands des IXe et Xe siecles, in Revue Belge, 1934. XIII.
- Schacht, Joseph. Einige Kairiner Handschriften ueber futuwa. Der Islam, 19; 1931.

- , Zwei neue Quellen zur Kenntnis der Futuwwa, Festschrift Georg Jacob, Leipzig, Otto Harrassowitz, 1932.
- , in *Orientalia*, Rome, 1948, vol. XVII.
- Schimmel, Anemarie. Kalif und Kadi im Spätmittelalterlichen Aegypten, in *Die Welt des Islams*, Berlin, 1942, Bd. 24.
- Schmidt, Nathaniel. The Manuscripts of Ibn Khaldun, *J A O S*, XLVI, 1926.
- de Slane, *Journal Asiatique*, Paris 1844; *Notices et Extraits*, Paris, 1863-1868, Vol. XIX.
- Syed, Dr. M. Hafiz. Liaquat Ali Khan, *The Modern Review*, Calcutta, Vol. LXXX, No. 6, December 1951.
- Taeschner, Franz. Aufnahme in eine Zunft, dargestellt auf einer türkischen Miniatur. *Der Islam* 6, 1916.
- , Beiträge zur Geschichte der Achis in Anatolien (14.-15. Jht.) Auf Grund neuer Quellen. *Islamica* 4, 1929.
- , Futuwwa - Studien, die Futuwwabunde in der Türkei und ihre Literature. *Islamica* 5; 1932.
- , Das Futuwvetname des Jahja b. Halil. *Orientalistische Literaturzeitung*, J. C. Hinrichs, 1928.
- Taeschner, Franz. Das Futuwvetkapitel in Gulshris altosmanischer Bearbeitung von 'Attars *Mantiq ut-tayr*. Sitzber. de Preuss. Akad. der Wissenschaften. Philos. Hist. Kl. Berlin, 1932.
- , Die islamischen Futuwwabunde. *Ztsch. der Deuts. morgenländischen Gesell.* 87. Resume, Entstehung und Frühgeschichte de Futuwwa, in *Z D M G* 86, 1933.
- Vida, G. Levi Della. Pre-Islamic Arabia, in the *Arab Heritage*, ed. N. A. Faris.
- Villard, Monneret de. La Moneta in Italia durant l'alto medio eva, in *Rev. Ital. di Num.* XXXIII-XXXIII, 1919-20.
- Wittke, Paul. Deux chapitres de l'histoire des Turcs de Roum. I and II, *Byzantion* 6; 1936.
- , Zur Geschichte Augoras im Mittelalter. Festschrift Georg Jacob, Leipzig, Otto Harrassowitz, 1932.

٤ - الموسوعات

Encyclopaedia of Islam, Leiden, 1914:

Djihad
Fikh
Futuwa
Futuwa (Suppl. Volume).
al-Kuds
Au-Nasir li-din-Allah
Ribat
Shadd
Sinf
Sirwal
Ta'rikh

Encyclopaedia of Social Sciences, New York, Macmillan, 1942:

Chivalry (Arabic)
Guilds (Islamic)

صمم الغلاف
الفنان إسماعيل شموط

ف.ب. ۳۳ (۱۹۶۰)

هذا الكتاب ..

وقد كتب الباحثون - من مسلمين وغير مسلمين - آلاف المجلدات عن الاسلام والحضارة الاسلامية ، فكان منهم الواصف والتحليل والداعية والهدام . وسيظل الباحثون على ذلك ما دام الاسلام اسلاماً ، والتاريخ تاريخاً ، والتاسع تاسعاً . ويمكن القول اجمالاً ان التاريخ الدينامي نال النصيب الاوفر من هذه البحوث . ولكن مع تطور الزمن وتبدل وجهات النظر في البحث التاريخي ودراسته اتخذت نواحي اخرى من تطور الحضارة الاسلامية تتأثر ببنية الباحثين . فظهرت دراسات اقتصادية وعقائدية واجتماعية وفلسفية وادبية جليلة المقدر عظيمة النفع . ومع ان الكثير مما كتب قد لازمته غلايات سخامة في نفوس الذين وضعوا المؤلفات ، فانه من الحق ان مثل هذه البواعث والدوافع اتخذت في التناقض ، وان الابحاث المبينة على المعرفة او محاولة الوصول الى المعرفة ، والرامية الى الحقيقة هي في تزايد مستمر .

ليس في نيتنا ان نقول هنا ما كتب حول التاريخ الاسلامي بالتقد والتحليل . فقل هذا العمل حري بكتاب ان لم يكن بكتاب . ولكننا اردنا من هذه المقدمة المختصرة ان ننقل الى امر هام وهو ان الكتابة في نواحي الحياة الاجتماعية في العالم الاسلامي لا تزال في اولها ، ولا تزال نزرة بالنسبة الى ما كتب حول النواحي الاخرى . ومن هنا كان الاهتمام بهذه النواحي التي جمعت بين دفتي الكتاب الذي نقدمه اليوم الى القارئ العربي .

(من تصدر الدكتور نقولا زياده)

كتاب يدير بالفراة

Bibliotheca Alexandrina



0387518